السعيد صبحي العيسوي

مدارج التعلم

بين التأصيل واستكمال التكوين



قرأه وقدم له

الدكتور/ أحمد بن علي القرني

الشيخ/ ساعد بن عمر غازي

الدكتور/ وليد بن إدريس المنيسي

الشيخ/ سيد بن رجب





مدارج التعلم

بين التأصيل واستكمال التكوين



© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العيسوي، السعيد صبحي محمد
مدارج التعلم بين التأصيل واستكمال التكوين / السعيد صبحي
محمد العيسوي.- الرياض، ١٤٣٨ هـ
٣٤٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٨١-١٥-٧
١- الإسلام والعلم أ. العنوان
ديوي ٢١٩,٧ ١٤٣٨/٢٢٤٦

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٢٢٤٦
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٨١-١٥-٧

جرى تنضيد الكتاب وتجهيزه للطباعة باستخدام برنامج **أدوبي إنديزاين**، وإدراج الآيات القرآنية بالرسم العثماني وفقًا لطبعة مجمع الملك فهد الأخيرة باستخدام برنامج «**مصحف النشر للإنديزاين**» الإصدار: (**متعدد الروايات**) وهي أداة برمجية plug-ins مطورة بواسطة **شركة الدار العربية لتقنية المعلومات** *www.arabia-it.com* الرائدة في مجال البرمجيات المتقدمة لخدمة التراث الإسلامي.
الصور مرخصة قانونيًا من *www.shutterstock.com*
الخطوط وتصميم الغلاف : **دار الميمان للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى ١٤٣٨هجري - ٢٠١٧م



البريد الإلكتروني: *info@daralmaiman.com*
موقعنا على الإنترنت: *www.daralmaiman.com*
تابعنا على تويتر: *@DarAlMaiman*
هاتف: 4627336 11 966+
فاكس: 4612163 11 966+
جوال : 566405291 966+



مدارج التعلم

بين التأصيل واستكمال التكوين

تأليف

السعيد صبحي العيسوي

قرأه وقدم له

الدكتور/ أحمد بن علي القرني

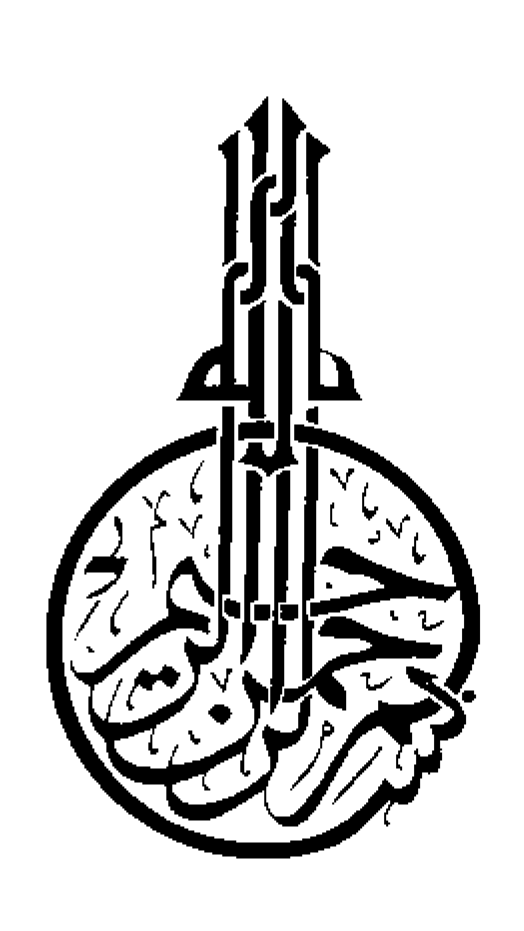
الشيخ/ ساعد بن عمر غازي

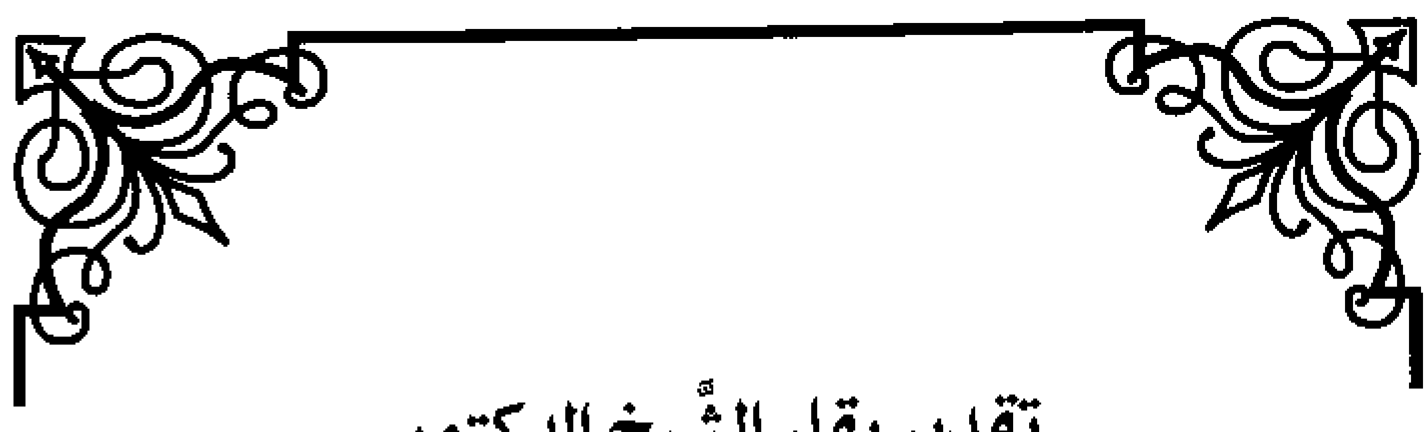
الدكتور/ وليد بن إدريس المنيسي

الشيخ سيد بن رجب



السعودية - الرياض


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم بقلمِ الشَّيخِ الدكتورِ

أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ القَرْنِيّ حفظه الله

الحمدُ للهِ الذي جعل العلمَ منارًا للسائرين، وفجّر ينابيعَ الحكمةِ لمَن شاء مِن عبادِه حتى صاروا قدوةً للسالكين. والصلاةُ والسلامُ على إمامِ المُعلِّمين، ونِبْراسِهم الساطعِ إلى يومِ الدِّينِ، وعلى آلِه وأصحابِه علائمِ الهُدى واليقينِ.

أمّا بعدُ: فإنَّ الحديثَ عن قواعدِ التأصيلِ، ومناهجِ التحصيلِ، وأدبيّاتِ الطَّلَبِ = أمرٌ في غايةِ الأهميةِ لطُلّابِ العلمِ، ولا سيَّما في هذا العصرِ الذي جرَف تيّارُه الكثيرَ منهم، فطوّح بهم يمنةً ويسرةً، وحاد بهم عن مسالكِ تلقّي العلمِ الصحيحةِ، إلى مسالكَ عوجاءَ مُضطرِبةٍ، بل إلى مسالكَ بعيدةٍ عن سبيلِ أهلِ الفهمِ والسدادِ، تسيرُ بسالكِها في مجاهلَ مُتعِبةٍ، ومفاوزَ مُجدِبةٍ!

وقد أتاح لي تقديمُ هذا الكتابِ الماتعِ أن أُذكِّرَ طالبي العلمِ وراغبي المعرفةِ بأربعةِ أمورٍ مُهِمَّةٍ:

أوّلُها: ضرورةُ التريُّثِ قبلَ الولوجِ في غَمَراتِ الطَّلَبِ، حتى يسألَ الطالبُ ويستثبتَ من أهلِ العلمِ والرَّشَدِ عن: الفنِّ المناسبِ، والكتابِ المناسبِ، والبرنامجِ المناسبِ؛ كيلا يَتَنكَّثَ جُهدُه، ويَتشعَّثَ أمرُه، فيَرتَدَّ من أولِ الطريقِ ناكصًا، وينقلبَ على عَقِبَيْه خائبًا.

فإنَّ أولَ الطريقِ كالحديدةِ المُحْماةِ، سَخِينةِ الملمَسِ، حارَّةِ المَجَسِّ، حتى إذا ما تتابَع مَسُّها، وتتايَع جَسُّها -بعدَ توطينِ اليدِ على الصبرِ والتحمُّلِ-؛ عاد الحديدُ

باردًا خَصِرًا، قد فتَر فيه ما كان يُخشَى منه!

وثانيها: التدرُّجُ في الطلبِ والتحصيلِ؛ فـإنَّ المُنبَتَّ لا أرضًا قطَع، ولا ظهرًا أبقَى. ومَن رام العلمَ جُملةً؛ ذهَب عنه جُملةً!

فينبغي لطالبِ العلمِ ألَّا يندفعَ اندفاعَ المُتهوِّرِ؛ فيحفظَ أيَّ شـيءٍ، ويَدرُسَ أيَّ شـيءٍ، ويقرأ كلَّ شيءٍ! بل لا بدَّ أن يسيرَ وَفْقَ برنامجٍ مُحدَّدٍ مدروسٍ، يُحدِّدُه له أولو الخبرةِ والمعرفةِ والدُّرْبةِ.

وثالثُها: اختيارُ المعلِّمِ المناسـبِ؛ فإنَّ المعلِّمَ هو رأسُ الأمرِ وعمودُه وذِرْوةُ سَـنامِه، في العمليةِ التعليميةِ. فلا بدَّ من اختيارِ مُعلِّمٍ حسـنِ التفهيمِ، بارعِ التعليمِ، واسـعِ الاطِّلاعِ، ثاقبِ الفهـمِ، غزيرِ المادَّةِ، مـا أمكَن. فإنْ ظَفِـر بمجموعِ ذلك، وإلَّا فما أمكَن.

ورابعُها: تخصيصُ وقتٍ كافٍ لقراءةِ سِيَرِ العلماءِ، وتجارِبِهم، ووصاياهم في الطلبِ والتحصيلِ؛ إمَّا في كتبِ التراجِمِ مباشرةً، أو بقراءةِ كتبِ أدبيَّاتِ الطلبِ؛ كهذا الكتابِ وشِبْهِه.

وإنْ غفَلـتَ -أيُّها الراغبُ- فلا تَغفُلَنَّ عن السِّـفْرِ الجليـلِ: «**صيدِ الخاطرِ**» لابـنِ الجوزيِّ؛ فقد ذكَر فيـه مُؤلِّفُه من القواعدِ النفائسَ، ومـن الدُّررِ العرائسَ، في العلمِ والعملِ. فـإنْ فاتَكَ حظُّك من هذه البابةِ؛ فلا يَفُوتَنَّكَ هذا العِلْقُ النفيسُ «صيدُ الخاطرِ»؛ وكلُّ الصيد في جوفِ الفَرَا!

فإذا ما اجتمَعتْ لطالبِ العلمِ الحريصِ هذه الأمورُ؛ شدَّ لها حَيازِيمَه، وحسَر لها عن ساقِه، وانطلَق صوبَها دونَ أن يَتلكَّأَ، وتَقدَّم نحوَها سَرِعًا لا يَتكأْكَأُ.

ويأتي هذا الكتابُ البديعُ: «**مدارجُ التعلُّمِ بينَ التأصيلِ واسـتكمالِ التكوينِ**» لمُؤلِّفِه الشـيخِ: **السـعيدِ بنِ صُبْحي العِيسـويِّ** -وفَّقه اللهُ- ليَلُمَّ شَعَثَ الأصولِ

والقواعدِ التي تُسهِمُ في تأصيلِ الطلبِ، وتكوينِ الطالبِ؛ حيثُ أتى المؤلِّفُ على مُعظَمِها بقلمٍ سيَّالٍ، وفِكرٍ صيَّالٍ. وهو في ذلك كلِّه دقيقُ النظرةِ، عميقُ الفِكرةِ، رشيقُ العبارةِ، لم يطغَ جانبُ النَّقلِ عندَه على جانبِ السَّرْدِ، بل جاءا مُتساوِقينِ مترابطينِ.

فنسألُ اللهَ أن يجزيَه خيرَ الجزاءِ على ما قدَّم وبذَل ونصَح، كما نرغبُ إليه الاستمرارَ في تأليفِ الكتبِ في هذا المَهيَعِ المهجورِ، والسبيلِ المطمورِ، الذي يَصدُقُ عليه قولُ الشاعرِ:

أمَّا الطُّلُولُ فإنَّها خُرُسُ ... تَبدُو لِعَينِكَ ثُمَّ تبتئِسُ
يا مَربَعًا عبثَ البَلاءُ بهِ ... عَهدِي برَبْعِكَ وَهْوَ مُكتنَسُ
رقَمَتْ عليه يدُ الصبا صُحُفًا ... تَبدُو لقارئِها وتَنطمِسُ
وقف الهوى والدمعُ مُنطلِقٌ ... في جوِّه والقلبُ مُحتَبِسُ

وختامًا، فإنَّني أهمسُ في أُذُنِ كلِّ مَن ألقى إليَّ السمعَ وهو رشيدٌ، وأرهَف حَماطةَ فؤادِه رغبةً في أن يستفيدَ: إنَّ جميعَ هذه الوصايا والبرامجِ لن تستفيدَ منها شيئًا، ما لم تكنْ لكَ نفْسٌ طامحةٌ، وهمَّةٌ وثَّابةٌ، ورغبةٌ جامحةٌ؛ وحينَئذٍ فأنتَ أنتَ، لو كنتَ تفقهُ مَن أنت!!

وتَحسَبُ أنَّكَ جِرْمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوَى العالَمُ الأكبرُ!

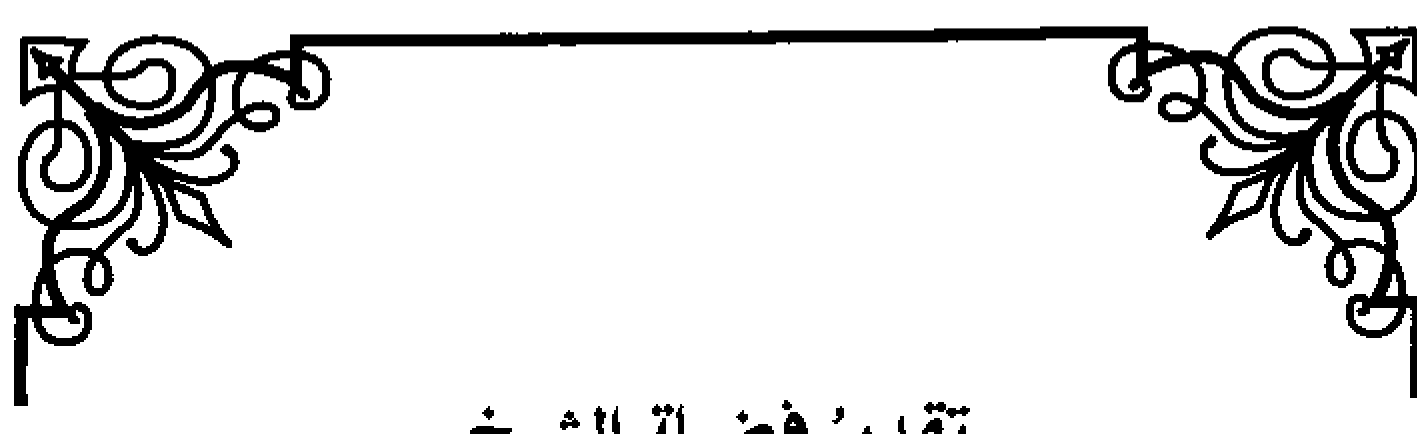
وفَّق اللهُ الجميعَ لما يحبُّ ويرضى، وآخِرُ دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وكتب/ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ القَرْنِيّ

الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المُنوَّرة

في ١٢/ ٨/ ١٤٣٧





تقديمُ فضيلةِ الشيخِ

سَاعِدُ بْنُ عُمَرَ غَازِي حفظه الله

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأشهدُ ألَّا إلهَ إلا اللهُ وحدَه، لا شريكَ له. والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ خاتمِ النبيِّين وسيِّدِ المرسلين، الذي أمره ربُّه - سبحانه- أن يسألَه مزيدَ العلمِ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وكفى بهذا شرفًا للعلمِ أن أمَرَ نبيَّه ﷺ أن يسألَه المزيدَ منه!

فالحديثُ عن فضلِ العلمِ وأهلِه لا ينقضي، وفي هذا المقامِ أكتفي بذكرِ طرفٍ من تلك الفضائلِ التي تُبيِّنُ فضلَ العلمِ:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [فاطر: ٢٢]، فهذه مُقابَلةٌ بينَ العالِمِ والجاهلِ، والمعنى: لا يستوي مَن عندَه علمٌ، ومَن لا علمَ عندَه. فالشرعُ لا يُفرِّقُ بينَ مُتماثِلين، ولا يجمعُ بينَ مُتفرِّقين، وهذا من الأمورِ التي تقرَّر في العقولِ تباينُها، وعُلِم علمًا يقينيًّا تفاوتُها.

وفي هذا السياقِ يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (فليس في كتابِ اللهِ، ولا سُنَّةِ رسولِه ﷺ مدحٌ وحمدٌ لعدمِ العقلِ والتمييزِ والعلمِ، بل قد مدَح اللهُ العلمَ والعقلَ والفقهَ ونحوَ ذلك في غيرِ موضعٍ، وذَمَّ عدمَ ذلك في مواضعَ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٩]، وقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

﴿ هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [مُحمَّد: ١٩]، وقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طـه: ١١٤]، وقال: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

وهـذا كثيرٌ في القرآنِ؛ يأمرُ ويمدحُ التفكُّرَ والتدبُّرَ والتذكُّرَ، والنظرَ والاعتبارَ، والفقهَ والعلمَ، والعقلَ والسمعَ والبصرَ والنُّطقَ، ونحوَ ذلك من أنواعِ العلمِ وأسبابِه وكمالِه، ويَذُمُّ أضدادَ ذلك)[١].

ومعلومٌ أنَّ لكلِّ شيءٍ أراد الإنسانُ معرفتَه وتحصيلَه -مِن العلومِ والفنونِ والمعارفِ- أصولًا وقواعدَ، هي بمنزلةِ الأساسِ للبنيانِ والأصولِ للأشجارِ، لا ثباتَ لها إلا بها، ولا سبيلَ إلى تحصيلِها إلا بسلوك طريقِها. قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (فإنَّ معرفةَ أصولِ الأشياءِ ومبادئِها، ومعرفةَ الدِّينِ وأصلِه وأصلِ ما تولَّد فيه = من أعظمِ العلومِ نفعًا)[٢].

وقال أيضًا: (لا بدَّ أن يكونَ معَ الإنسانِ أصولٌ كُلِّيَّةٌ يُرَدُّ إليها الجزئياتِ؛ ليَتكلَّمَ على علمٍ وعدلٍ، ثُمَّ يعرفَ الجزئياتِ كيف وقَعتْ؟ وإلا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئياتِ، وجهلٍ وظلمٍ في الكُلِّيَّاتِ؛ فيَتولَّدُ فسادٌ عظيمٌ)[٣].

وعليه، فينبغي لمَن يريدُ أن يكونَ من أهلِ العلمِ: معرفةُ سُبُلِه، وأُسُسِه، وأصولِه التي بُنِي عليها. قال ابنُ باديسَ -للهِ دَرُّه-: (فلن يكونَ عالمًا إلا مَن كان مُتعلِّمًا، كما لن يَصلُحَ مُعلِّمًا إلا مَن قد كان مُتعلِّمًا)[٤].

(١) «الاستقامة» ٢/ ١٥٧-١٥٩ مُختصَرًا.
(٢) «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٣٦٨.
(٣) «مِنهاج السُّنَّة» ٥/ ٨٣.
(٤) «في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» ص٣٤٣.

والذي أَعْنيه هنا: هو أنَّ تحصيلَ العلمِ لـه بداياتٌ اتَّفَق عليها أهلُ التحقيقِ من العلماءِ، ومِن أهمِّها: حفظُ المُختصَراتِ، وسماعُ شرحِها من الشيوخِ، ثُمَّ الانتقالُ إلى المُطوَّلاتِ عبرَ إتمامِ أهمِّ تلك المُصنَّفاتِ المقروءةِ على المشـايخِ، ثُمَّ الانطلاقُ إلى التحصيلِ عبرَ حُسنِ المطالعةِ التي أساسُها تلك الوسائلُ والبداياتُ المُوصِلةُ إلى العلمِ.

فلا يصحُّ العلمُ على حقيقتِه إلا بالتدرُّجِ عبرَ تلك الوســائلِ والبداياتِ، فمَن رام الوصولَ إلى مرتبةِ صحيحِ العلمِ غيرَ مُلتفِتٍ إلى ما قبلَها من المراتبِ = كمَن رام الصعودَ إلى أعلى المنارةِ بلا سُـلَّمٍ! فمِن المأثورِ عن بعضِ السلفِ في مِثلِ هذه الأمورِ قولُهم: (إنَّما حُرِموا الوصولَ بتضييعِ الأصولِ)[1]. أي الوصولَ إلى المقصودِ، وهو: «العِلمُ».

وفي ذلك يقولُ العلَّامةُ الفقيهُ المُفسِّـرُ الأصوليُّ محمــدُ بنُ صالحٍ العُثيمين -رحمه اللهُ-: (على طالبِ العلمِ أن يبدأَ العلمَ شيئًا فشيئًا؛ فعليكَ أن تبدأَ في الأصولِ والقواعدِ والضوابطِ، وما أشـبَه ذلك من المُختصَراتِ معَ المتونِ؛ لأنَّ المختصراتِ سُلَّمٌ إلى المُطوَّلاتِ، لكنْ لا بدَّ من معرفةِ الأصولِ والقواعدِ، ومَن لم يعرفِ الأصولَ حُرِمَ الوصولَ)[2].

وهنا إرشــادٌ في غايةِ الأهميةِ من العلَّامــةِ الفقيهِ الأصوليِّ المُفسِّـرِ المُربِّي عبدِ الرَّحمنِ السَّعْديِّ -رحمه اللهُ-، يُوسِّعُ به على طلبةِ العلمِ وسائلَ التحصيلِ؛ حيثُ قال: (والحالةُ التقريبيةُ: أنْ يجتهدَ طالبُ العلمِ في حفظِ مُختصَرٍ من مُختصَراتِ الفنِّ الذي يشــتغلُ فيه. فإنْ تعذَّر أو تعسَّر عليه حفظُه لفظًا؛ فليُكرِّرْه كثيرًا، مُتدبِّرًا لمعانيه، حتى ترسَخَ معانيه في قلبِه. ثم تكونُ باقي كتبِ هذا الفنِّ كالتفسيرِ والتوضيحِ والتفريعِ لذلك الأصلِ الذي عرَفه وأدرَكه؛ فإنَّ الإنسانَ إذا حَفِظ الأصولَ، وصار له مَلَكةٌ تامةٌ

(١) مُقتبَسٌ من «طريق الهجرتين» ٢/ ٥٥٤ بما يناسبُ المقامَ.

(٢) «كتاب العلم» لابن عثيمين ص١٢٥.

في معرفتِها = هانتْ عليه كتبُ الفنِّ كلُّها صِغارُها وكِبارُها، ومَن ضيَّع الأصولَ حُرِم الوصولَ)[1].

فبقدرِ معرفةِ تلك الأصولِ، يكونُ مَبلَغُ الإنسانِ من إدراكِ الأمورِ؛ قال ابنُ عبد البرِّ: (العالمُ لا نقيصةَ عليه من جهلِ الشيءِ اليسيرِ من العلمِ، إذا كان عالمًا بالسُّنَنِ في الأغلبِ؛ إذِ الإحاطةُ لا سبيلَ إليها)[2].

فإذا كان خللٌ في بدايةِ تحصيلِ العلمِ -كما هو حالُ نفرٍ ممَّن تصدَّر للفُتْيا أو التدريسِ أو الدعوةِ-، وظلَّ هذا الخللُ مُلازِمًا لصاحبِه = فإنَّه -بنقصِه هذا- لن يتمكَّنَ من إزالةِ الجهلِ عن غيرِه؛ لأنَّ فاقدَ الشيءِ لا يعطيه! وربما يخطئُ في مسائلَ يعرفُها أصغرُ طالبِ علمٍ؛ فمِثلُ هذا مَظِنَّةُ الإخلالِ بركنٍ أو شرطٍ أو فهمٍ أو أدبٍ، خلافًا للعالِمِ.

وعلى هذا كان حديثي دائمًا معَ نفسي، كما أُوجِّهُه إلى مَن يرغبُ من إخواني، وهو: ينبغي أن يَقِفَ كلُّ واحدٍ معَ نفسِه؛ ليعلمَ قدرَ نفسِه من العلمِ. وكان يُقالُ: مَن جَهِل قدرَ نفسِه؛ فهو بقدرِ غيرِه أجهلُ[3].

فمَن وقَف على ما يَنقُصُه؛ فعليه: إذا كان قاصرًا في علمِ النحوِ أو الصرفِ أو غيرِهما من العلومِ أن يتعلَّمَه ممَّن مهَر فيه، وعليه أيضًا أن يتجنبَ الخوضَ فيما يَنقُصُه، ولا يستمعَ إلى مَن يدفعُه إلى شرحِ كتابِ كذا، أو التصنيفِ في فرعِ كذا، ممَّا لا يُحسِنُه. وفي سياقِ ذلك كان قولُ الحافظِ ابنِ حجرٍ: (وإذا تكلَّم المرءُ في غيرِ فنِّه؛ أتى بهذه العجائبِ)[4].

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص٣٥. (٢) «التمهيد» ١٧/ ١٨٧.

(٣) «غُرَر الخصائص الواضحة» ص٨٨.

(٤) «فتح الباري» لابن حجر ٣/ ٥٨٤.

ورغمَ الحديثِ معَ بعضِ المُتصدِّرين لتعليـــمِ الطلبةِ، حولَ ما ترتَّب من عدمِ مُراعـــاةِ قواعدِ وأصولِ تلقِّي العلمِ، التي عليها كثيـــرون من أهل العلمِ المُحقِّقين في زمانِنا، والتي هي من بابِ الوسائلِ التي تُسهِّلُ وتعينُ على تحصيلِ العلمِ؛ فهم يُنبَّهون فلا ينتبهون! ولعلَّ سببَ عدمِ الاســتجابةِ أنَّ (مَن جَهِل شيئًا عاداه)، أو من بابِ: قد أُملِيَ لهم بانعكافِ حُدَثاءِ الأسنانِ من الطَّلَبةِ عليهم!

ولا شــكَّ أنَّ تجربةَ الفتاوى المباشرةِ عبرَ القنواتِ الفضائيةِ -ولا أقصدُ أحدًا بعينِه- هي في الحقيقةِ تطبيقٌ عمليٌّ لتصدُّرِ مَن أشَــرتُ إليهــم آنفًا للإفتاءِ، وقَلَّ مَن يقولُ منهــم: (لا أدري)!! وقد قال عبدُ اللهِ بنُ مســعودٍ -رضي اللــهُ عنه-: (واللهِ إنَّ الــذي يُفتِي الناسَ في كلِّ ما يســألونه = لَمَجنونٌ). قــال الأعمشُ: فذكَرتُ ذلك للحَكَمِ بنِ عُتْبَةَ، فقال: (لو كنتُ ســمعتُ بهذا الحديثِ منكَ قبلَ اليومِ؛ ما كنتُ أُفتِي في كثيرٍ ممَّا كنتُ أُفتِي)[1].

ورُبَّما بادَر بالجوابِ قبلَ فهمِ مرادِ الســائلِ؛ ولذا قال الإمامُ مالكٌ رحمه اللهُ: (لا خيرَ في جوابٍ قبلَ فهمٍ)[2].

فماذا يُنتظَرُ مِن طالبٍ يَتلقَّى العلمَ ممَّن لا يراعي قواعدَه وأصولَه؟! ســتجدُه فــي غالبِ أمرِه قليلَ العلمِ، لا يمكنُه أن يفهمَ دقيقَ العلمِ، أو لا يفهمُه إلا بعدَ عُســرٍ، وقد تَحمِلُه شهوةُ النقدِ -التي نزَع إليها في غيرِ أوانِها- إلى التطاولِ على العلماءِ! وقد قال سراجُ الدِّينِ البُلْقِينيُّ رحمه اللهُ: (ولكنَّ الانتهاضَ لمُجرَّدِ الاعتراضِ = مِن جُملةِ الأمراضِ)[3].

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في «كتاب العلم» (١٠)، والدارميُّ (١٧١)، وابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٩٠)، بإسنادٍ صحيحٍ.

(٢) أخرجه الخطيبُ في «الفقيه والمتفقه» ٢/ ٧٢.

(٣) «محاسن الاصطلاح» ص٢٤٠.

وكانت من تلك النتائجِ: ما لَمَسه الإمامُ الألبانيُّ -رحمه اللهُ- بقولِه: (والحقُّ -والحقَّ أقولُ-: إنَّ مِن فِتَنِ هذا الزمانِ حُبَّ الظُّهورِ، وحشرَ النفسِ في زمرةِ المؤلِّفين، وخاصَّةً في علمِ الحديثِ الذي عرَف الناسُ قدرَه أخيرًا بعدَ أن أهمَلوه قرونًا، ولكنَّهم لم يَقدِروه حقَّ قدرِه، وتوهَّموا أنَّ المرءَ بمجردِ أن يُحسِنَ الرجوعَ إلى بعضِ المصادرِ من مصادرِه والنقلَ منها = صار بإمكانِه أن يُعلِّقَ وأن يُؤلِّفَ! نسألُ اللهَ السلامةَ من العُجْبِ والغرورِ)[1].

فماذا لو قال مُتصدِّرٌ للتعليمِ لطالبِ ناشئٍ، في تقديمِه له على أولِ بحثٍ ينشرُه: (يأتي فيها من الفوائدِ بما لا يأتي به مَن هو أعلمُ منه...)؟!!

وبعدَ النظرِ في عملِ هذا الطالبِ، فلا شكَّ أنَّه لن نَعدِمَ فائدةً، ولكنَّ شأنَه شأنُ كثيرٍ من الناشئين الذين لم يَتمرَّسوا على التحقيقِ والتفتيشِ. فهل من تلك الفوائدِ: قوله لمَّا نقَل هذا الكلامَ: (... وقد استَحْسَنها أيضًا الدارميُّ، كما في الاستذكارِ). قال: (وقد راجعتُ «الاستذكارَ» ٤/ ٢٨٨-٣٠٣، فلم أَقِفْ عليه)؟!

«الاستذكارُ» الذي رجَع إليه هو «استذكارُ» ابنِ عبد البرِّ المالكيِّ!! كيف هذا ونحن أمامَ عالمٍ اسمُه: (الدارميُّ)، وأنَّ له كتابًا اسمُه: «الاستذكارُ»؟! فالمتبادرُ لطالبِ العلمِ أن يبحثَ: مَن هو (الدارميُّ) صاحبُ كتابِ «الاستذكارِ»؟

فوجَدْناه كما قال الحافظُ الذهبيُّ: (الإمامُ العلَّامةُ، شيخُ الشافعيةِ، أبو الفرجِ محمدُ بنُ عبد الواحدِ بنِ محمدِ بنِ عمرَ بنِ ميمونٍ الدارميُّ، البغداديُّ، الشافعيُّ، نزيلُ دمشقَ. وله كتابُ «الاستذكارِ» في المذهبِ، كبيرٌ)[2].

وقال الحافظُ أبو عمرٍو بنُ الصلاحِ: (مِن أئمَّتِنا المُحقِّقين. رأيتُ من كتبِه:

(١) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» ١١/ ٦٩٨.
(٢) «سِيَر أعلام النبلاء» ١٨/ ٥٢-٥٣.

«الاستذكارَ»، وهو كتابٌ نفيسٌ كثيرُ الفوائِدِ، نحوُ ثلاثِ مُجلَّداتٍ، استفَدتُ منه أشياءَ كثيرةً...)[1].

فهذا مثالٌ على التعجُّلِ، وعدمِ التثبُّتِ؛ لفواتِ تلقِّي الطالبِ مبادئَ ذلك في أثناءِ إعدادِه. قال عبدُ اللهِ بنُ المُعتَزِّ رحمه اللهُ: (التَّثبُّتُ يُسهِّلُ طريقَ الرأيِ إلى الإصابةِ، والعَجَلةُ تَضمَنُ العَثْرةَ)[2].

وفي المَثَلِ: (تَزبَّبَ قبلَ أن يَتحصرَمَ)؛ إذا ادَّعى حالةً أو صفةً قبلَ أن يَتهيَّأَ لها[3]. والحِصْرِمُ: أولُ العِنَبِ، ولا يزالُ العنبُ ما دام أخضرَ حِصْرِمًا[4]. قال الفيُّوميُّ: (وزبَّبتُ العِنبَ: جعَلتُه زبيبًا، فتَزبَّبَ هو)[5].

وهناك أمثلةٌ أخرى، ولكنَّها حديثيَّةٌ تركتُها، وما ذكرتُه يكفي. واللهُ أعلمُ.

ثُمَّ ننتقلُ إلى ذاك الطالبِ الآخَرِ، الذي يقولُ عنه شيخُه: (وقد أفاد وأجاد -جزاه اللهُ خيرًا- في إيرادِه لأقوالِ العلماءِ في هذا البابِ). فلنَنظُرْ كيف عرَض التلميذُ أقوالَ العلماءِ؟

قال التلميذُ: (ونقَل ابنُ مُفلِحٍ أنه مذهبُ الحنابلةِ).

وقال في موضعٍ آخَرَ: (أقوالُ الحنابلةِ:

قال ابنُ مُفلِحٍ في المُبدِعِ في شرحِ المُقنِعِ ١/ ٤٥١: (وفي المذهبِ، و«التلخيصِ»: يُرسِلُهما).

---

(١) «طبقات الفقهاء الشافعية» ١/ ٢١٨.

(٢) «الفقيه والمتفقه» ٢/ ٣٩٥.

(٣) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» ١١/ ٦٩٨.

(٤) «لسان العرب» ١٢/ ١٣٧.

(٥) «المِصْباح المنير» ١/ ٢٥٠.

قال ابنُ مُفلِحٍ في «المُبدِعِ» ١/ ٤٥١: (والمنصوصُ عنه: إنْ شاء أرسَلَهما، وإنْ شاء وضَع يمينَه على شمالِه). اهـ.

فأخذ التلميذُ من قولِ ابنِ مفلحٍ: (وفي المذهبِ)، أنَّ مذهبَ الحنابلةِ هو إرسالُ اليدينِ بعدَ الرفعِ من الركوعِ!! معَ أنَّ السِّياقَ لا يساعدُه على هذا الفهمِ كما سيأتي، ثُمَّ لو رجَع إلى «الإنصاف» للمَرْداويِّ = لوجَد مِثلَ الذي في «المُبدِعِ».

ففي «الإنصافِ» ٢/ ٦٣: (قال الإمامُ أحمدُ: إذا رفَع رأسَه من الركوعِ؛ إن شاء أرسَل يدَيْه، وإن شاء وضَع يمينَه على شمالِه.

وقال في «الرِّعايةِ»: فإذا قام أحدُهما أو المأمومُ؛ حَطَّهما، وقال: ربَّنا ولكَ الحمدُ. ووضَع كلُّ مُصَلٍّ يمينَه على شمالِه تحتَ سُرَّتِه -وقيل: بل فوقَها تحتَ صدرِه-، أو أرسَلَهما. نَصَّ عليه كما سبَق.

وعنه: إذا قام؛ رفَعَهما، ثُمَّ حَطَّهما فقطْ.

وقال في «المُذهَبِ»، و «الإفاداتِ»، و «التلخيصِ»، وغيرِهم: إذا انتصَب قائمًا؛ أرسَل يديه).

فالظاهرُ أنَّ قولَهم: (والمنصوصُ عنه)؛ أي عن الإمامِ أحمدَ: هو التخييرُ.

أمَّا قولُهم: في «المُذهَبِ»، و «التلخيصِ»، و «الإفاداتِ»؛ فهي أسماءُ مُصنَّفاتٍ لمُحقِّقي المذهبِ. ويتحققُ هذا بالاطِّلاعِ على مُقدِّمةِ «الإنصافِ» للمَرداويِّ؛ للتعرُّفِ على أسماءِ مُصنَّفاتِ علماءِ المذهبِ التي يُحِيلون إليها.

فلو طبَّقْنا هذا على كلامِ ابنِ مفلحٍ؛ لوجَدْنا تقصيرَ الشيخِ في توجيهِ التلميذِ، ممَّا تسبَّب في خطإِ الطالبِ!

فقولُ ابنِ مفلحٍ: (وفي المذهبِ)، لا يعني به مذهبَ الحنابلةِ؛ لأنَّه أَتبَعه بـ

«التلخيص»، وكذا كلامُ المرداويِّ.

فإذا سلَّمْنا بأنَّه أراد بقولِه: (وفي المذهب): أي مذهبِ الحنابلةِ؛ فما هو مرادُه بالتلخيصِ، والإفاداتِ؟! ولماذا ترَك التلميذُ «التلخيصَ»؟!!

ثُمَّ إنَّ الذي يعرفُه الحنابلةُ فـي مذهبِهم أنَّ ثَمَّ كتبًا للحنابلةِ منها: «المُذْهَبُ»، و «التلخيـصُ»، و«الإفادةُ»؛ فقد قال المرداويُّ في مقدمةِ «الإنصاف» ١/ ١٣: (فإنِّي نقَلـتُ فيه من كتبٍ كثيـرةٍ من كتبِ الأصحـابِ، من المُختصَـراتِ والمُطوَّلاتِ، من المتونِ والشـروحِ). ثُمَّ أخذ في سـردِها، ومن جملتِهـا: «المُذهَبُ»؛ فقال في «الإنصاف» ١/ ١٤: (و «المُذْهَبُ»، و «مسـبوكُ الذَّهبِ في تصحيحِ المُذهَبِ» لابنِ الجوزيِّ). وقال في «تصحيحِ الفروعِ» ٢/ ٤٤٧: (وابنُ الجوزيِّ في «المُذْهَبِ»).

فتبيَّن أنَّ «المُذْهَـبَ» كتابٌ لابنِ الجوزيِّ، وهو المعنيُّ فـي كلامِ ابنِ مفلحٍ هنا، كما هو ظاهرٌ. كما أن «التلخيصَ» كتابٌ للشـيخِ فخرِ الدِّينِ ابنِ تيميَّةَ، كما قال المرداويُّ في «الإنصافِ» ١/ ١٤.

وقال أيضًا ١/ ١٦: (وكذلك: «الإفاداتُ بأحكامِ العباداتِ» لابنِ حَمْدانَ، فإنَّه قال فيها: (أذكرُ هنا غالبًا صحيحَ المذهبِ ومشهورَه، وصريحَه ومشكورَه، والمعمولَ عندَنا عليه، والمرجوعَ غالبًا إليه).

وهذا كافٍ في إثباتِ ما نحن بصددِه.

فالذي يُقلِّلُ من أهميةِ التدرُّجِ في تحصيلِ العلمِ، سـوف يقعُ -لا محالةَ- في تحصيلِ العلمِ عن طريقِ القفزِ إلى رأسِ القمةِ بخطوةٍ واحدةٍ! وهذا لا يفيدُ؛ لأنَّ الذي يقفزُ بسرعةٍ دونَ تقديرٍ للمسافاتِ، أو قدراتِه = يَهوِي بسرعةٍ!!

كما أُؤكِّـدُ على ضرورةِ تمرينِ الطالبِ على المناظـرةِ والمباحثةِ، في مرحلةٍ مناسـبةٍ يراها شـيخُه؛ لأنها من أكبرِ الوسـائلِ لإدراكِ العلمِ وثبوتِه وتنوُّعِه، ليصيرَ

للطالبِ مَلَكةٌ تامةٌ يُحسِنُ معَها الاستدلالَ والمناظرةَ والنظرَ دونَ خوفٍ عليه من التطاولِ على العلماءِ، والإغراقِ في النقدِ والاعتراضِ. واللهُ أعلمُ.

وما دندنتُ حولَه ستجدُه مبثوثًا -وأكثرَ منه- في هذا الكتابِ الموسومِ بـ«**مدارج التعلُّم بين التأصيل واستكمال التكوين**»، معَ حُسنِ العبارةِ، وتقريبِها، وجمعِ المُتفرِّقِ، من مُؤلِّفِه الشيخِ: **السعيدِ صُبْحي** -حفظه اللهُ- الذي أودَع فيه تجربتَه المسموعةَ والمُشاهَدةَ والمقروءةَ خلالَ رحلةِ طلبِه للعلمِ.

فقد كان -كما جاء في غيرِ حديثٍ معَه- يراقبُ العوائقَ والعقباتِ التي تواجهُ طلبةَ العلمِ، ويُدوِّنُها ليجتنبَها، ويبحثُ لها عن حلولٍ؛ ليفيدَ بذلك إخوانَه وأقرانَه. ولم يكنْ غرضُه في ذلك نقدَ مشايخِه والمُتصدِّرين للتعليمِ، بل الوصولَ إلى ما قرَّره أهلُ العلمِ في بيانِ التأصيلِ العلميِّ في التلقِّي.

وفي الجملةِ، أحسَبُ ما كتبتُه يوافقُ الشيخَ السعيدَ -حفظه اللهُ- فيما كتَبه في هذا الكتابِ، كنَواةٍ وقواعدَ وأصولٍ يستفيدُ منها طالبُ العلمِ في مشوارِه العلميِّ -بفضلِ اللهِ تعالى. فمَن يقعْ على هذا الكتابِ؛ فلا يَحرِمْ مُؤلِّفَه نُصحَه، فهكذا تتمُّ الفائدةُ. واللهُ وليُّ التوفيقِ.

وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه، وصحبِه، وسلَّم.

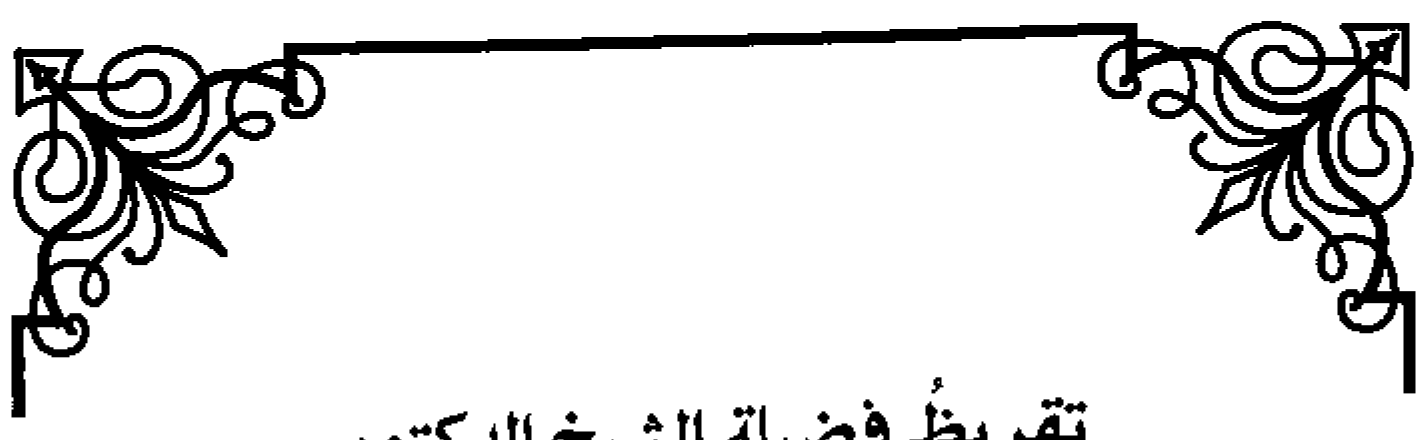
وكتَبه الراجي عفوَ ربِّه

أبو عمرَ ساعدُ بنُ عمرَ غازي

نزيلُ الرِّياضِ

في ٢٢ شعبان ١٤٣٧هـ

المُوافِقِ ١٥ مايو ٢٠١٦م



تقريظ فضيلةِ الشيخِ الدكتورِ

وَلِيدِ بْنِ إِدْرِيسَ المِنِيسِيِّ حفظه الله

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ؛ فقد اطَّلعتُ على كتابِ «مدارج التعلُّم بين التأصيل واستكمال التكوين»، مِن تأليفِ صاحبِ الفضيلةِ الشيخِ: السعيدِ صُبْحي العيسويِّ -حفظه اللهُ تعالى-، فوجَدتُ الكتابَ كتابًا قيِّمًا نافعًا، قد بذل فيه مُؤلِّفُه جهدًا مشكورًا.

ومُؤلِّفُه مِن أهلِ العلمِ والفضلِ، وله جهودٌ مشكورةٌ في الدعوةِ، والتعليمِ، وتأليفِ الكتبِ النافعةِ.

وقد وجَدتُ أنَّ الحاجةَ ماسَّةٌ للاطِّلاعِ على هذا الكتابِ القيِّمِ؛ لتصحيحِ مسارِ كثيرٍ من المشاركين في التعليمِ الشرعيِّ بغيرِ منهجيةٍ واضحةٍ، وتسلسلٍ مُتدرِّجٍ يترقَّى بالطلابِ درجةً درجةً.

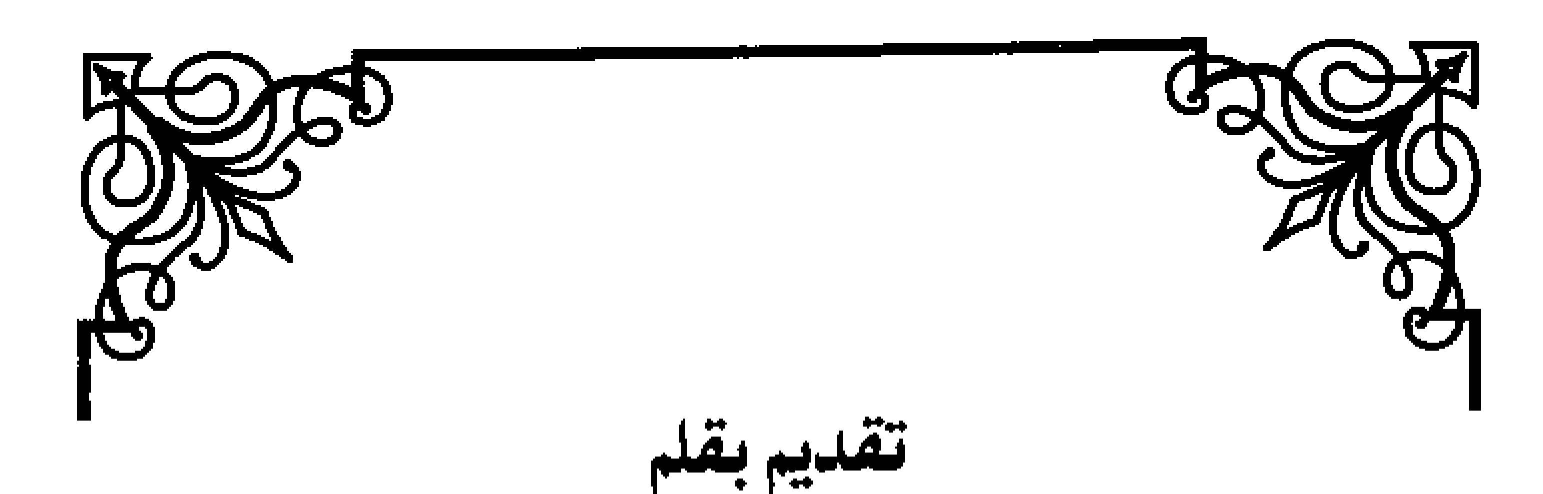
فنسألُ اللهَ تعالى أن يكتبَ لهذا الكتابِ القَبولَ، وينفعَ به المُعلِّمين والمُتعلِّمين. وباللهِ تعالى التوفيقُ.

وكتب

وَلِيدُ بْنُ إِدْرِيسَ المِنِيسِيِّ

١٦ رجب ١٤٣٧هـ

مكَّة المُكرَّمة



تقديم بقلم

الشَّـيْخ سَـيِّد بْن رَجَبْ حفظه الله

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على أشــرفِ خلق الله محمدِ بن عبد الله، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

لــمَّا كان تحصيلُ العلم أشرفَ غايةٍ يسعى لها العبدُ في دنياه، وهي سبيلُه إلى رضوان الله وجنَّاته؛ لقوله ﷺ: «**مَن سلكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طريقًا إلى الجنة**»، كان لزامًا لهذا السبيل من علاماتٍ ودلالاتٍ، تدلُّ عليه وترشدُ إليه، حتى لا ينزلقَ ولا ينحرفَ الســائرون عليه، فانبرى أهلُ العلــم والفضلِ لوضع العلاماتِ والأماراتِ الـمُبَيِّنَةِ له، والدالَّةِ عليه.

ومن هذه المنارات، ما قام به أخي الحبيب وصاحبي النجيب السَّعيد العِيسوي - حفظه الله ونفع به- في كتابه «مدارج التَّعلُّم بين التأصيل واستكمال التكوين».

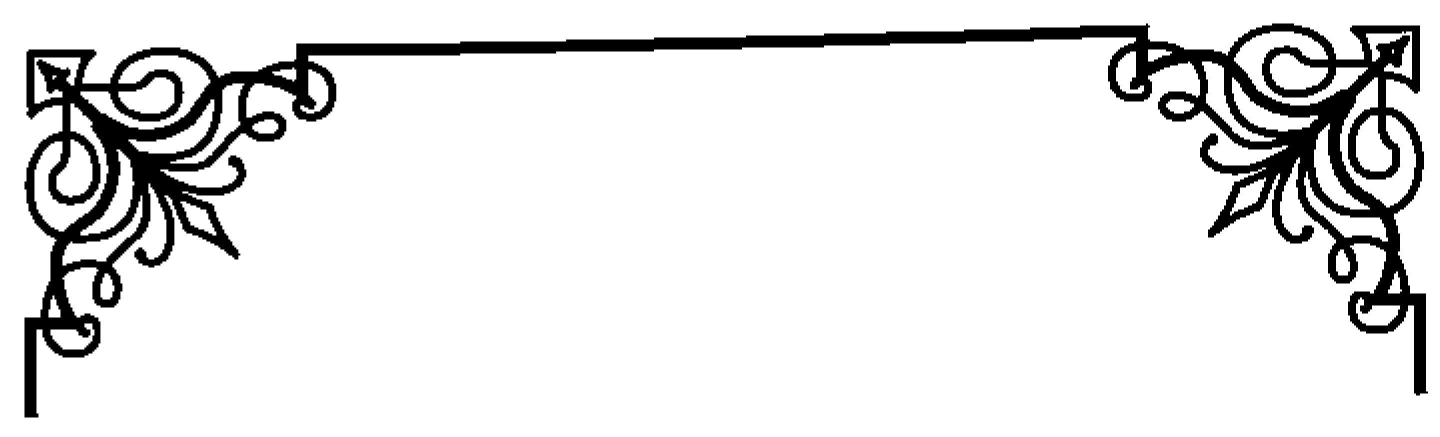
فكان -بحقٍّ- نافعًا، ومُرشِــدًا لكلِّ طالبِ علمٍ مبتدئ وغير مبتدئ؛ لســلوكِ السبيلِ الواضحةِ للحصول على المقصود.

فأسألُ الله تعالى أن يضع له القَبول بين المسلمين، وينفع به الإسلام والمسلمين.

وكتبه

سَيِّد بْن رَجَبْ

١٢-المحرم- ١٤٣٨هـ



المقدِّمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ.

أمَّا بعدُ...

فهنالك جدليَّاتٌ كثيرةٌ تشغلُ الأوساطَ العلميةَ، غيرَ أنَّ إشكاليَّةَ بداياتِ التعلُّمِ باتت تشغلُ حيِّزًا كبيرًا: على مستوى تقعيدِ الأوَّلياتِ والخُطَّةِ الترتيبيَّةِ للطالبِ.

ولا شكَّ أنَّ السببَ الرئيس في ضعفِ التحصيلِ، والتأخُّر العلميِّ هو شَتات المرحلةِ الأوَّلية التأصِيلية، أو عدم استكمالِ التكْوين العِلميِّ.

فكثيرٌ ممَّن انبرَى للطَّلبِ وشمَّر عن ساعِدِ الجِدِّ، تأتيهم وَخَزاتُ حسرةٍ عند التِفاتةِ التقييمِ؛ أسًى وحزنًا على عمرٍ مبذولٍ في حُلُمٍ كالسرابِ! فلم يجدْ علمًا يَسنُدُه عندَ قلمِ التحقيقِ، ولا ذهنًا وقَّادًا عندَ الاستحضارِ والتوثيقِ، وبَقِيت الإشكالاتُ القديمةُ وجدليَّتُها وعجزُ التصوُّرِ؛ فالذِّهنُ لا زال قاصرًا.. طال اللسانُ، وضمُرَ الجَنانُ، والأدهى خسرانُ الأعمارِ!!

وإذا تَعدَّيْنا هذه الدائرةَ [إشكاليةَ البدءِ وتأصيلِه والاستكمال]؛ نجدُ ظاهرةَ الاحترابِ العلميِّ تُلقِي بظلالِها في دنيا الطلَّابِ، فأفسَدتْ معَها أمزجةَ بعضِ طلابِ العلمِ، فتَسرَّبتْ عبرَها مفاهيمُ قاصرةٌ حولَ حقائقِ العلمِ: فترى نشرَ الخلاف مُقدَّمًا على طيِّه، ونشرَ الاستشكالات آكدَ من دفعِه! والعلمُ في الحقيقة هو ما أخرج العبد من

دائرة الإشكال، لا ما أدخَله فيها.

وكــم من مُثِيرٍ للنقعِ في معــاركِ الطلب حتى بلَغ الغَمــام، لكنَّه عند التحقيق خاوي الوِفاضِ، لم يَغنَمْ شِــبرًا في أرض العلوم، أو يكتسبْ قلمًا في تحقيق الفهوم؛ إذْ لم يَنهَلْ من مَعِينِ العلم إلا ما أشــعل فتيــلَ المناظرةَ ونفَخ كِيرَها، وأعان على دفع الخصم واغتنامِ الجولة، لا ما أفاد العبدَ وهدَى الخلق، وأقام عودَ التحقيقِ العلميِّ.

والفرق كبيرٌ جدًّا بين شحذِ آلةِ الطلبِ وسطَ دخانِ الخلافِ ومَراجِلِه، وبين مَن طلبُه في محرابِ التَّعلمِ وقد شحَن أنفاسَه بنسماتِ الهدى.

ومن إفرازاتِ الواقعِ: عبورُ لعبةِ التسطيحِ الفكريِّ وسفسطةِ التحليلِ السياسيِّ إلى مدارجِ التعلمِ؛ فجلَبَتْ عليهم السياســةُ بخَيلِها ورَجِلِها، فمَن لم يَخُضْ فيها فهو يتابعُهــا ويتلمسُ أخبارَهــا، فقُدِّمتْ أنديتُها على محاريبِ التَّعلــمِ، حتى كاد يَخفِتُ صوتُ العلمِ في ضوضائِها، فجالَتْ أحلامُهم في بيداءِ الأوهامِ ومتاهاتِ الأفكار!

قضايا كثيرةٌ، ومسائلُ تتشابكُ فروعُها، تُشكِّلُ في مُجملِها مادةَ هذه الأوراق، وتُقدِّمُ إفادةً تصحيحيــةً متواضعةً، وعلاجًا لبعضِ ما تمَّ رصدُه، مِثلُ موضوعِ: اكتفاءِ الطالبِ بالمرحلــةِ التأصيليةِ دونَ اســتكمالِ التكوينِ، أو بهما دونَ نُقْلــةِ العالِميةِ: (البحثِ العلمــيِّ). وكذلك موضوعُ التدرُّجِ التحصيليِّ، وما شــابه من فكرٍ خاطئٍ؛ كإلبــاسِ العجزِ ثوبَ الحكمة والأناة. وكذلك قضيةُ صناعةِ الذِّهْنيةِ العلميةِ للطالبِ، وبعــضِ تطبيقاتِها على الطالــبِ، ومحاولةِ معالجةِ أمرِ المهــارات الذهنية الواجبِ اكتسابُها، وسُبُلِ تنميتِها.

وكانت تســميتُه بـــ «**مَدارِجِ التَّعلُّمِ بينَ التَّأصيلِ واســتِكْمالِ التَّكوِينِ**»؛ تنبيهًا على المســالكِ التي يَترقَّى فيها الطالبُ. ولمَّا كان التركيزُ على مرحلتَي: (التَّأصيل)، و(استكمال التكوين) = كان التنصيصُ عليهما؛ ليعلمَ المُطَّلِعُ أنَّ حقيقةَ العلمِ تنسبكُ بهما، خاصة إذا ما أُعين الطالب بذهنٍ مُتَّقدٍ بحّاثٍ، فإنْ فاته إدراكُ لُبِّ الكتاب؛ فلعلَّه

أن يستفيدَ رُوحَه من العنوانِ.

ولا يدَّعـي جامعُ هذه الأوراق بلـوغَ التمامِ فيما أراد الكتابـةَ عنه؛ فقُصارَى الأمر: أنِّي دوَّنتُ ما لابَستُ من أخطاءٍ باشَرتُها أنا أو بعضُ إخواني من طلابِ العلم، قلَّبتُ هـذه الأوراقَ، ودوَّنتُ ما عَلِق في ذهني حولَها مـن خواطرَ عَقْدًا من الزمانِ، فاليومَ أُقدِّمُها أوراقًا سـهلةَ الاغتنام، تحملُ -فيما أزعم- إفادةً ونصيحةً لعلَّها تفتحُ بابَ خير، وتَسُدُّ بابَ تضييع.

وفي هذا المقامِ كان لا بدَّ من إسـداءِ الشكرِ لذويه من مشايخي وطلابِ العلمِ وإخواني ممن أفادَنـي في هذا الكتابِ أو اطلعَ عليه أو قرأ بعضه، وأخصُّ بالشـكرِ الجزيلِ شيخنا أبا عمر ساعد غازي، والشيخَ الدكتور أحمد بن علي القرني، والشيخَ الدكتور وليد المنيسـي، والشـيخ سيد رجب، والشـيخ الدكتور محمد بكر حبيب، والشـيخ عبد المنعم مطاوع، والشـيخ الدكتور عبد الله الغفيلي، والشـيخ الدكتور عبد الله السيف، والشـيخ خالد بن زيد العميقان، والدكتور سليمان الميمان، وأخي الدكتور شكري محسن، والشيخ محمود الصاوي، والشيخ محمد حامد أبو المجد، والشـيخ إبراهيم عيسى، والأخ الشـيخ مصطفى عبد الحفيظ، وغيرهم، فأشكر لهم صنيعهم.

هذا، واللهَ تعالى أسألُ التوفيقَ والسَّدادَ، وأن يضعَ له القَبولَ.

كتَبه

السَّعِيدُ صُبحي العِيسَويُّ

Esawi.said@gmail.com

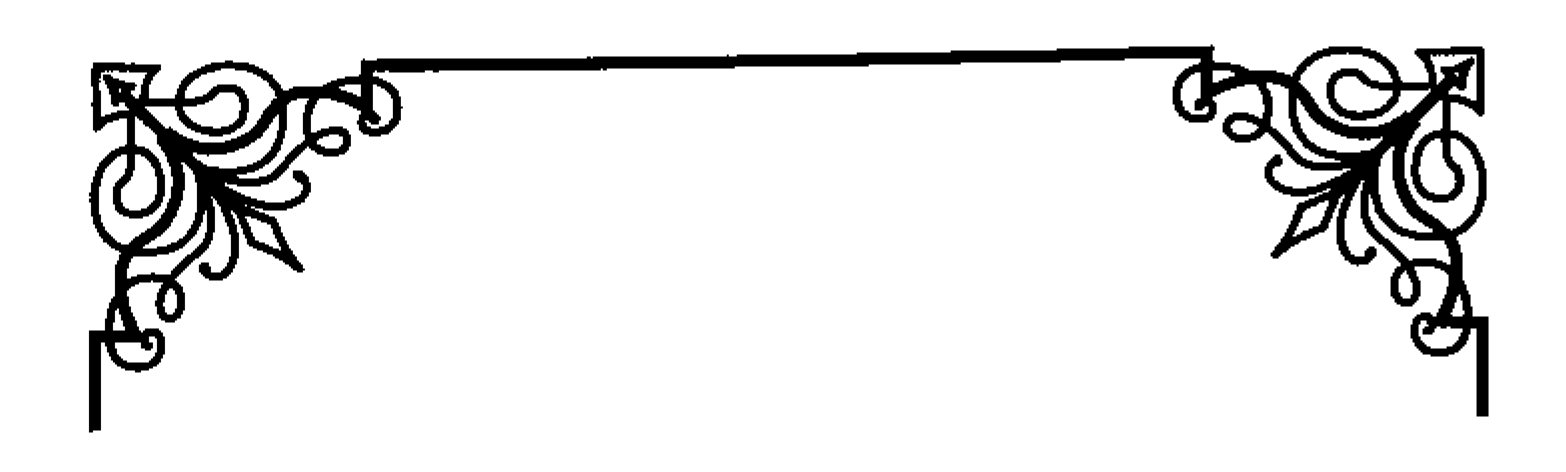
@esawi_said

مكَّة المُكرَّمة/ ١٤٣٨هـ

حقائقُ العلمِ

فكم مِن مُتعلِّمٍ طال تَعلُّمُه ولم يَقدِرْ على مُجاوَزةِ مسـموعِه بكلمة، وكم مِن مُقتصِرٍ على المُهِمّ فـي التَّعلُّم، ومُتوفِّرٍ على العملِ ومُراقَبـةِ القلب، فتَح اللهُ له مِن لطائفِ الحكمةِ ما تَحارُ فيه عقولُ ذوي الألباب!

أبو حامد الغزاليُّ رحمه اللهُ



العلمُ معنًى جميلٌ مشــرقٌ، طلبُه مأمورٌ به، والساعي لنيلِه وتحصيلِه ممدوحٌ شــرعًا، مُثابٌ على الكدِّ في تعلُّمِه. غيرَ أنه ليــس كلُّ علمٍ منعوتًا بهذا الوصفِ؛ فمِن العلومِ ما يُثابُ طالبُها، وتَعدِلُ مُذاكَرتُها تســبيحًا وذِكرًا، ومنها ما يجرُّ الآثامَ، ويُفرِّقُ الأنامَ، ويســتحقُّ طالبُها وناشــرُها العتابَ والملامَ، ومنها قِســمٌ ثالثٌ في منزلةٍ بينَ المنزلتينِ، باقٍ على أصلِ الإباحةِ، تُحرِّكُه النِّيَّةُ والمنفعةُ بينَ الطرفينِ.

فهنا تظهرُ (حقائقُ العلمِ)، وكونُ إدراكِها وكشــفِ أســتارِ التراكيبِ المتوارثةِ والظُّنونِ المتوهَّمةِ من أَوْلى المُهِمَّاتِ.

فالنافعُ منه: ما دلَّ على طاعةِ اللهِ ورسولِه ﷺ، وصدَّ عن المعصيةِ، وثبَّت العبدَ أمامَ الفتنةِ، وأعان على تجاوزِ الشُّــبهةِ. ومَن تأمَّل نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ وعباراتِ السلفِ في كلامِهم عن العلمِ = عَلِم أنَّ مدارَ كلامِهم حولَ هذه المعاني العظامِ.

فحقيقةُ العلمِ تدورُ حولَ:

١- الإعانةِ على طاعةِ اللهِ ورسولِه ﷺ، واجتنابِ المعصيةِ.

٢- تثبيتِ العبدِ أمامَ طوفانِ الفتنِ والشُّبهاتِ.

فوجهُ الأولِ منهما: ما ذكَره الإمامُ الشــاطبيُّ -رحمه اللهُ- مُبيِّنًا حقيقةَ العلمِ، فقال: (التعبُّــدُ للهِ هو المقصودُ من العلمِ، والآياتُ في هذا المعنى لا تُحصَى؛ فرُوحُ العلــمِ هو العملُ، وإلا فالعلمُ عاريةٌ وغيرُ مُنتفَعٍ به! فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى

ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآيةَ [الزُّمَر: ٩]... وكلُّ ذلك يُحقِّقُ أنَّ العلمَ وسيلةٌ من الوسائلِ، ليس مقصودًا لنفسِه من حيثُ النَّظرُ الشَّرعيُّ، وإنَّما هو وسيلةٌ إلى العملِ، وكلُّ ما ورد في فضلِ العلمِ فإنَّما هو ثابتٌ للعلمِ من جهةِ ما هو مُكلَّفٌ بالعملِ به)[1].

ووجـهُ الثاني [أي تثبيتِ العبدِ أمامَ طوفانِ الفتنِ والشُّـبهاتِ]: ما ذكَره الإمامُ ابنُ القيِّـمِ -رحمه اللهُ- مُبيِّنًا كونَ العلـمِ حافظًا للقلبِ من لَوْثةِ الشُّـبهاتِ، فقال: (هذا لضعفِ علمِه وقِلَّةِ بصيرتِه، إذا ورَدتْ على قلبِه أدنى شُـبهةٍ؛ قدَحتْ فيه الشكَّ والرَّيبَ! بخلافِ الراسـخِ في العلم، لو ورَدتْ عليه من الشُّـبَهِ بعـددِ أمواجِ البحرِ؛ ما أزالتْ يقينَه، ولا قدَحتْ فيه شـكًّا؛ لأنَّه قد رسَخ في العلمِ، فلا تستفزُّه الشبهاتُ، بل إذا ورَدتْ عليه؛ ردَّها حرسُ العلمِ وجيشُه مغلولةً مغلوبةً.

والشـبهةُ واردٌ يَرِدُ على القلبِ، يحولُ بينَه وبينَ انكشافِ الحقِّ له، فمتى باشر القلبُ حقيقةَ العلمِ؛ لم تُؤثِّرْ تلك الشـبهةُ فيه، بل يَقوَى علمُـه ويقينُه بردِّها ومعرفةِ بُطلانِها، ومتى لم يباشـرْ حقيقةَ العلمِ بالحقِّ قلبُه؛ قدَحتْ فيه الشكَّ بأوَّلِ وهْلةٍ، فإنْ تداركَها وإلَّا تتابَعتْ على قلبِه أمثالُها حتى يصيرَ شاكًّا مُرتابًا)[2].

فهذا هو العلمُ النافعُ إذَنْ، وهو الذي يلتذُّ به حاملُه، وتَقَرُّ عينُه بمُذاكَرتِه وطلبِه، بل قال شـيخُ الإسـلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (لذَّةُ العلمِ أعظمُ اللَّذَّاتِ)[3]. وعبَّر عن ذلك المُناويُّ -رحمه اللهُ- بقولِه: (طالبُ العلمِ المُتلذِّذُ بفهمِه، لا يزالُ يطلبُ ما يزيدُ التِذاذَه، فكُلَّما طلَب ازداد لذةً، فهو يطلبُ نهايةَ اللَّذَّةِ ولا نهايةَ لها)[4].

---

(١) «الموافقات» ٢/ ٧٥-٨٣ باختصارٍ وتَصرُّفٍ يسيرٍ.

(٢) «مِفتاح دار السعادة» ١/ ٣٩٤.

(٣) «مجموع الفتاوى» ١٤/ ١٦٢.

(٤) «فيض القدير» ١/ ١٦٣.

وإذا كانــت فــي العلمِ (لذّةٌ)؛ فــإنَّ فيه (راحــةً) أيضًا، ووجهُ ذلــك: ما نقَل أبو الرَّيحــانِ البِيرُونيُّ -رحمه اللهُ- عــن بعضِ حكماءِ الهندِ، قولَــه: (لأنَّ بالعلمِ استئصالَ الجهلِ، واستبدالَ اليقينِ بالشَّكِّ الذي هو مادَّةُ العذابِ؛ فلا راحةَ لشاكٍّ)[1].

لكنَّ هذه اللَّذَّةَ والراحةَ لا تُنالُ إلا بعدَ جهدٍ ومشقةٍ في أولِ الطلبِ؛ ليُنفَى عن حِمَى العلمِ كلُّ مُبطِلٍ ودَعِيٍّ. يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ: (وإنَّما رَغِب أكثرُ الخلقِ عن اكتسابِ هذه السعادةِ وتحصيلِها؛ لوعورةِ طريقِها، ومرارةِ مَبادِيها، وتعبِ تحصيلِها، وأنَّها لا تُنالُ إلا على جسرٍ من التعبِ؛ فإنَّها لا تُحصَّلُ إلا بالجِدِّ المحضِ، وأمَّا سعادةُ العلمِ فلا يُورِثُكَ إيَّاها إلا بذلُ الوُسعِ، وصدقُ الطلبِ، وصحةُ النيةِ.

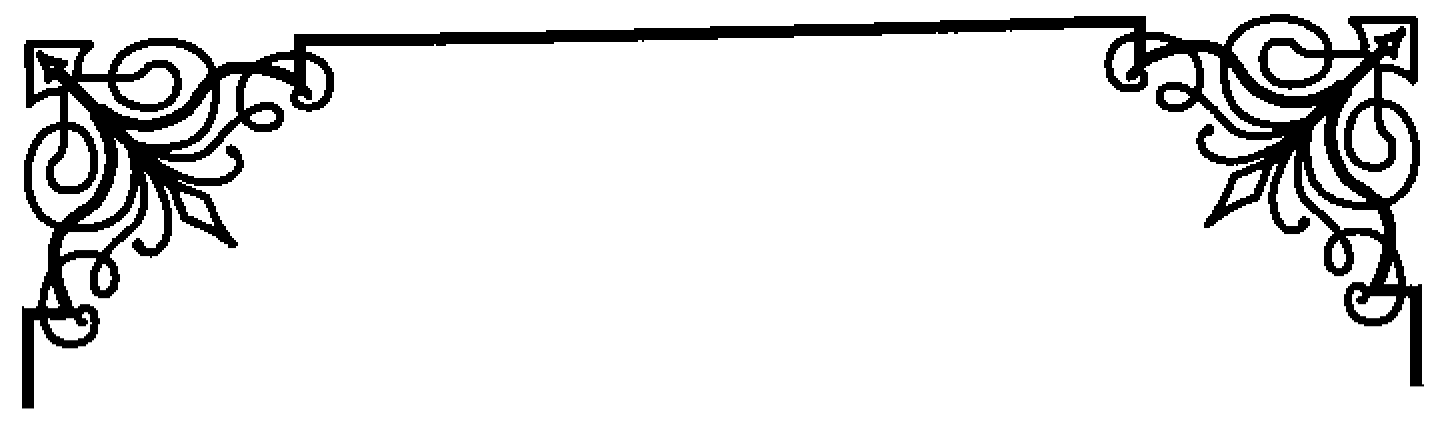
ولولا جهــلُ الأكثرينَ بحلاوةِ هــذه اللذةِ وعِظَــمِ قدرِهــا؛ لَتجالَدوا عليها بالسُّــيوفِ! ولكنْ حُفَّتْ بحجابٍ من المكارهِ، وحُجِبــوا عنها بحجابٍ من الجهلِ؛ ليَختصَّ اللهُ بها مَن يشاءُ مِن عبادِه، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ)[2].

---

(١) «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» ص٥٧.

(٢) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٢٩٤-٢٩٨ باختصارٍ.





قانونُ الرِّعايةِ

(العلمُ للرِّعايةِ، لا محضِ الرِّوايةِ) قانــونٌ يُعنَى بتصحيحِ المَقصَدِ والغرضِ، وفيــه التنبيهُ على العملِ به، والحثُّ على اســتعمالِه، فآل إلى (تنبيــهٍ)، و (احترازٍ)، و(تحذيرٍ).

فالتنبيهُ: إنَّما هو على الغايةِ من طلبِه والتِماسِــه، وهو العملُ والرعايةُ وظهورُ الأثرِ، لا جمعُ المعلوماتِ.

والاحترازُ: إنَّما هو عن تجميدِ مســائلِه وقواعدِه، بعدمِ استعمالِها، أو دعوى عدمِ الإنتاجِ.

وأمَّا التحذيرُ: فإنَّما هو من تمحيضِه في الروايةِ والنقلِ والإجازاتِ المُعاصِرةِ وبذلِ الوقتِ فيها والإغراقِ في أسانيدِ المُعاصِرينَ، دونَ الدِّرايةِ والعملِ.

ويجمعُ ما ســبَق قولُ الخوَّاصِ رحمه اللهُ: (ليس العلــمُ بكثرةِ الروايةِ، وإنَّما العالمُ مَن اتَّبَع العلمَ واستَعمَله، واقتدَى بالسُّنَنِ، وإنْ كان قليلَ العلمِ)[1].

نصيحــةٌ مُشــعِرةٌ بحقيقةِ العلــمِ، وأنَّه ليس بــكلامٍ تتناقلُه الشِّــفاهُ والآذانُ، أو استكثارٌ بلا أثرٍ، فهو علمٌ وعملٌ، ونورٌ يضعُه اللهُ في قلبِ المتعلِّمِ.

قال ابنُ وهبٍ رحمه اللهُ: وســمعتُ مالكًا -رحمــه اللهُ- يقولُ: (ليس العلمُ

(١) «طبقات الأولياء» لابن الملقن، ص١٧.

بكثرةِ الروايةِ، إنَّما العلمُ نورٌ يجعلُهُ اللهُ في القلبِ)[١].

قال سفيانُ الثوريُّ رحمه اللهُ: (ليس طلبُ العلمِ: «فلانٌ عن فلانٍ»، إنَّما طلبُ العلمِ الخشيةُ للهِ عزَّ وجلَّ).

فالاستكثارُ من الإجازاتِ، وتَتبُّعُ أسانيدِ المُتأخِّرين بعدَ عصرِ الروايةِ، وجعلُ موضعِ ذلك ذرا أوقاتِ الطلبِ، وعلى حســابِ التحصيلِ = خارجٌ عن ماهيَّةِ العلمِ، دخيلٌ على حقيقتِهِ، بل هي (الفاتورةُ) سيدفعُها الطالبُ من أركانِ بنيانِه العلميِّ، وقد وُجِــد من الطلابِ مَن يجعلُها قسـيمًا للتعلُّمِ والتفقُّهِ والقــرآنِ! ويُنزِلُها منزلةَ العلمِ الواجبِ تعلُّمُه!!

نعمْ، لها فوائدُ؛ كجردِ الكتبِ، والاطِّلاعِ على علومِ السلفِ، والإحاطةِ والإلمامِ بالكتبِ المُســنَدةِ وغيرِها، لكنَّها حَيْدةٌ عن حقيقةِ التعلم، وصرفٌ للطلابِ عن التَّفقُّه في الدِّين؛ بجعلِ الأوقاتِ في تتبُّعِ مُســنِدينَ -وقد يكونــون أطفالًا، أو طاعنين في السِّنِّ ومُختلِطِين، أو عوامًّا- لا فقهاء راســخين. وقد يكونُ المدفوعُ إليها دونَ ترقٍّ في مدارجِ العِلم التأصيليِّ المنهجيِّ مصروفًا عن كثيرٍ من الخيرِ.

يقولُ الفقيهُ أبو الوليدِ ابنُ رشــدٍ (ت٥٢٠) رحمه اللهُ: (ومَن اشــتغَل بروايةِ الأحاديثِ عن التفقُّهِ فيها، ومعرفةِ ما عليه العملُ منها؛ فما وُفِّق لما له الحظُّ فيه. وقد قال مالكٌ رحمه اللهُ: العلمُ الذي هو العلمُ: معرفةُ السُّنَنِ، والأمرُ المعروفُ الماضي المعمولُ به)[٢].

وهنا يحسنُ إيرادُ هذه الأبياتِ التي تحكي واقعَ مَن تعلَّق بقشورِ ومُلَحِ العلمِ، ففوَّت مَقصَدَ العلمِ الأعظمَ، وانشــغل بالروايةِ والسَّماعِ على حسابِ التفقُّهِ والعملِ

(١) «الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي، ١/ ١٠٠.

(٢) «البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المُستخرَجة» ١٨/ ٥٢٣.

به[1]:

ومُحدِّثٌ قـد صار غايةَ علْمه ... أَجْزاءُ يَرْوِيها عَنِ الدِّمْياطِي
وفُلانةٌ تَـــروِي حديثًا عاليًا ... وفُلانُ يَروِي ذاكَ عن أَسْبَاطِ
والفَرْقُ بينَ غَرِيبِهم وعَزِيزِهِمْ ... وافصَحْ عن الخَيَّاطِ والحَنَّاطِ
وأبو فُلَان، ما اسْمُه؟ ومَنِ الَّذِي ... بينَ الأَنـامِ مُلقَّبٌ بِسُـنَاطِ
وعُلُومُ دِينِ اللَّهِ نَادَتْ جَهْرَةً ... هـذا زمانٌ فيه طَيُّ بِسَـاطِ

يقولُ السُّيوطيُّ رحمه اللهُ: (وإنَّما كان السلفُ يسمعون، فيقرءون، فيرحلون، فيُفسِّـرون، ويحفظون فيعملون. ورأيتُ من كلامِ شـيخِنا الذهبيِّ -رحمه اللهُ- في وصيَّةٍ لبعضِ المُحدِّثينَ في هذه الطائفةِ: «ما حظُّ واحدٍ من هؤلاءِ إلَّا أن يسمعَ ليرويَ فقطْ، فَلَيُعاقَبَنَّ بنقيضِ قصدِه، وَلَيُشـهِّرَنَّه اللهُ بعدَ سـترِه مـرَّاتٍ، وليَبقَيَنَّ مُضْغةً في الألسنِ، وعِبرةً بينَ المُحدِّثينَ، ثم ليَطبَعَنَّ اللهُ على قلبِه»)[2].

* * *

وأما اسـتعمال العلم ففيه التنبيه على آفةٍ دبَّت واستَشْرتْ في الآونةِ الأخيرةِ، وهي: انفصالُ المتعلِّمِ بينَ ما درَج عليه دراسـةً وتقريرًا، وبينَ رَعْيِ ذلك في التطبيقِ العمليِّ والواقعِ بحثًا ومُناظَرةً.

ومِن أجملِ ما تقرؤُه في ذكرِ مَن هذا حالُه: ما سطَره الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ، إذْ يقولُ:

(فَوَارَحْمتَا لعبدٍ شَـقِيٍ في طلبِ العلمِ، واستَفرَغ فيه قُواه، واستَنفَد فيه أوقاتَه،

(١) «تدريب الراوي» ١/ ٥١

(٢) «تدريب الراوي» ١/ ٥٠ باختصارٍ.

وآثَره على ما الناسُ فيه، والطريقُ بينَه وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ مسدودٌ، وقلبُه عن المُرسِلِ -سبحانه وتعالى- وتوحيدِه، والإنابةِ إليه، والتوكُّلِ عليه، والتنعُّمِ بحُبِّه، والسرورِ بقُربِه = مطرودٌ ومصدودٌ! قد طاف عمرَه كلَّه على أبوابِ المذاهبِ، فلم يَفُزْ إلا بأخسِّ المطالبِ.

إنْ هي -واللهِ- إلَّا فتنةٌ أعمَتِ القلوبَ عن مواقعِ رشدِها، وحيَّرتِ العقولَ عن طرقِ قصدِها. تربَّى فيه الصغيرُ، وهَرِم عليه الكبيرُ؛ فظنَّتْ خفافيشُ الأبصارِ أنَّها الغايةُ التي تَسابَق إليها المتسابقون، والنهايةُ التي تنافَس فيها المتنافسون)[1].

أنواعُ الرِّعايةِ:

تلخَّص ممَّا سبَق أنَّ طالبَ العلمِ مُفتقِرٌ إلى رعايتينِ:

- رعايةُ العملِ.
- رعايةُ استعمالِ مادَّةِ العلمِ.

الأولى: رعايةُ العملِ بالعلمِ (الحِسُّ العِباديُّ):

لمَّا كان شأنُ العلمِ عظيمًا، ومحلُّه المحلَّ الأوفى، ولأصحابِه القِدْحُ المُعلَّى = كان الأَوْلى لمَن سعى لدَرَكِه وتحصيلِه أن يتحلى بأجملِ لَبُوسٍ؛ سعيًا لرضا اللهِ تعالى، وتصفيةً من أخلاطِ النفوسِ. وخيرُ مَن تمثَّل هذا مُرتقو المدارجِ وطلابُ العلومِ، إنه: لِباسُ العملِ. فمَن فقَده كان خليقًا بالقَدْحِ، وكانتْ معارفُه وبالًا وحُجَّةً.

يا طالبَ الرُّقيِّ و (المدارجِ):

أين أنتَ مِن حُلَى الفقهاءِ؟

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» ٢/ ٩٠- ٩٣، باختصارٍ.

وأين أنتَ ومزجُ أنفاسِكَ بحرارةِ أنفاسِ العُبَّادِ؟

أكثَـرتَ مِن ذكرِ الأئمةِ في محرابِ العلمِ والفقهِ؛ فأين التَّطْوافُ في سِـيَرِهم، والكشفُ عن مُخبَّئاتِ أحوالِهم في محاريبِ العملِ والعبادةِ؟!

وهل كانت المكارمُ والفضائلُ ممدوحـةً إلا لكونِها تُروِّضُ القلوبَ، وتَحُثُّ العبدَ على الإقبالِ على اللهِ؟!

يقول شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (فالعبادةُ تُرقِّقُ القلبَ، وإذا كان القلبُ رقيقًا ليِّنًا؛ كان قَبولُه للعلمِ سـهلًا يسيرًا، ورسَخ العلمُ فيه وثبَت وأثَّر. وإذا كان قاسيًا غليظًا؛ كان قبولُه للعلمِ صعبًا عسيرًا، ولا بدَّ معَ ذلك أن يكونَ زكيًّا صافيًا سليمًا، حتى يزكوَ فيه العلمُ، ويثمرَ فيه ثمرًا طيِّبًا)[1].

وقد أشار إلى قريبٍ من ذلك أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمه اللهُ، حيثُ يقولُ: (فكم مِن مُتعلِّمٍ طال تَعلُّمُه ولم يَقدِرْ على مُجاوَزةِ مسـموعِه بكلمةٍ، وكم مِن مُقتصِرٍ على المُهِـمِّ في التَّعلُّمِ، ومُتوفِّرٍ على العملِ ومُراقَبةِ القلبِ، فتَح اللهُ له مِن لطائفِ الحكمةِ ما تَحارُ فيه عقولُ ذوي الألبابِ!)[2].

فكم مِن عُراةٍ عن العملِ باطنًا قد التَحَفوا بثيابِ الطلبِ ظاهرًا، فصاروا أشباحًا لا رُوحَ فيها؛ لخُلُوِّها عن المعنى والحقيقةِ والانسـجامِ معَ النفسِ، ففي أعيُنِهم تَبرُقُ دعـوى التناقضِ جليَّةً، وتجرُّ إلى النَّيلِ من الشـريعةِ المُحمَّديَّةِ؛ فهو حاثٌّ بلسـانِه ومَظهرِه، صادٌّ بقلبِه وباطنِه، فحالُه ككاسـيةٍ عاريةٍ؛ إذْ لم يسـترْ عملُه تنظيرَه وعلمَه، وما معارفُه وعلومُه عندَ مِسْـبارِ التحقيقِ إلا ورمٌ لا لحمَ فيه، وأمَّا وعظُه ونصحُه فهو ظاهرةٌ صوتيةٌ!

---

(١) «مجموع الفتاوى» ٩/ ٣١٥ بتصرُّفٍ يسيرٍ.

(٢) «إحياء علوم الدين» ص٨٥.

ولعلَّ هـذه التذكرةَ تكونُ مِهمازًا لمَـن كان فقيهًا في غيرِ بـابِ العملِ، كما عبَّر الإمـامُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- عن ذلك بقولِه: (فمِـن الناسِ مَن تكونُ له القوةُ العلميةُ، الكاشـفةُ عن الطريقِ ومنازِلِها وأعلامِها وعوارِضِها ومعاثِرِها، وتكونُ هذه القوةُ أغلـبَ القُوَّتينِ عليه، ويكونُ ضعيفًا في القوةِ العمليةِ؛ يُبصِرُ الحقائقَ ولا يعملُ بمُوجَبِهـا، ويرى المَتالِفَ والمخاوفَ والمعاطبَ ولا يَتوقَّاها! فهو فقيهٌ ما لم يَحضُرِ العمل، فإذا حضَر العملُ؛ شـارَكَ الجُهَّالَ في التَّخلُّف، وفارَقهم في العلم، وهذا هو الغالبُ على أكثرِ النفوسِ المُشتغِلةِ بالعلم)[1].

ولا يزالُ قانـونُ (العِلم للرِّعايةِ) حاضرًا بمعناه ولُبِّـه لا حرفِه ونصِّه؛ فالعلمُ وسيلةٌ إلى العملِ، وقائدٌ إلى عبوديةِ ربِّ العالمين سبحانَه. ومِن هديِ الصحابةِ: أنَّهم كانوا يتعلَّمون عشرَ آياتٍ، ثمَّ يعملون بها، فيتعلمون العلمَ والعملَ معًا.

فقانونُ أهلِ الإسـلامِ وشِـعارُهم ودِثارُهـم على هذا، ولم تظهـرِ المُناقَضةُ والمُفاصَلةُ بينَ العلمِ والرِّعايةِ إلا مِن مُقصِّرٍ، أو مُبتلًى بوصفِ النِّفاقِ، مُظهِرًا الإسلامَ ومُبطِنًا الكفرَ.

ويظهـرُ هذا الانفصالُ جليًّا في مَن تأثَّر بمذاهبِ الفلاسـفةِ الذين يَرَوْنَ كمالَ العبدِ في القوةِ العلميةِ[2] دونَ القوةِ العمليةِ، أو مَن يرى أنَّ العباداتِ إنَّما جاءتْ لغايةٍ متى حصَلتْ سـقَط طلبُ العبادةِ؛ كعدمِ المطالبةِ بالصلاةِ لمَن كان تاركًا للفحشـاءِ والمنكرِ! ويُلحَقُ بهم بعضُ غلاةِ الصوفيةِ ممَّن يجعلُ العبادةَ مرحلةً للسـالكِ إلى أن يصلَ لرُتبةِ اليقينِ!

فأصلُ دينِ المسـلمين: أن يُكمِّلَ العبدُ القوةَ العلميـةَ النظريةَ، والقوةَ العمليةَ الإراديةَ، لا ينفصلانِ، ولا يرتفعانِ.

---

(١) «طريق الهجرتين» ١/ ٤٠٠.

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ٩/ ١٣٦.

يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ: (ولزَكاءِ العلمِ ونُمُوِّه طريقانِ:

أحدُهما: تعليمُه.

والثاني: العملُ به؛ فإنَّ العمَلَ به أيضًا يُنمِّيه ويُكثِّره، ويفتحُ لصاحبِه أبوابَه وخباياه؛ وهذا لأنَّ تعليمَه والعمَلَ به هو التجارةُ فيه، فكما ينمو المالُ بالتجارةِ فيه، كذلك العلمُ)[1].

الثانيةُ: رعايةُ الاستعمالِ لمادَّةِ العلمِ (الحِسُّ الاجتهاديُّ):

استعمالُ مادَّةِ العلمِ وقواعدِه بأدواتِه في المسائلِ والنوازلِ = غايةُ العلمِ، ومَقصَدُه الأعظمُ. وإلَّا فلا فائدةَ تُذكَرُ من حفظِ القواعدِ ودَرْسِها، والعناءِ في فهمِها إلا استعمالَها؛ لذا كان هذا الانفصالُ علامةً على ضعفِ المادةِ، أو ذهولًا عن غايتِها.

وانظرْ إلى ما قرَّره القاضي زينُ الدينِ السَّاويُّ (ت نحو ٤٥٠) رحمه اللهُ، مُبيِّنًا أنَّ حصولَ الفائدةِ مُرتَهنٌ بارتياضِ قواعدِ العلمِ؛ بالاستعمالِ، فيقولُ: (المنطقُ إنَّما يفيدُ الفائدةَ المطلوبةَ منه: إذا ارتاضَ الإنسانُ باستعمالِ هذه القوانينِ المُتعلَّمةِ فيه، وأمَّا معرفتُها دونَ تعوُّدِ استعمالِها والارتياضِ بها؛ فقليلةُ الغناءِ والفائدةِ)[2].

تبرزُ أهميةُ مراعاةِ استعمالِ العلمِ وقانونِه من خلالِ عدَّةِ أمثلةٍ، منها:

١- عندَ ورودِ الشُّبهةِ وطغيانِ التحوُّلِ:

ففي زمنٍ كثُرتْ فيه (التحوُّلاتُ الفِكْريةُ)، و(المُراجَعاتُ) غيرُ المُنضبِطةِ = هُوِّنتِ (الانتكاساتُ) عن الحقِّ، وكُسِيتْ بعباراتٍ لتنالَ قبولًا، بل تسلَّق هذا الهَوَسُ إلى عقولِ طلابِ العلمِ وحامليه، فبِتَّ ترى مَن يخالفُ قانونَ العلمِ، وأصولَ السَّلفِ

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٣٦٤.

(٢) «البصائر النصيرية في علم المنطق» ص٥.

التي درَج عليها وقرأها؛ لشُـبهةٍ طارئةٍ، وفكرةٍ عابرةٍ من مُلبِّسٍ في فضائيَّةٍ، أو مُتشيِّخٍ صحفيٍّ أو (تواصليٍّ)!

هنا يجبُ اسـتعمالُ العلمِ المحفوظِ والمَتلُوِّ فـي الكتبِ بفهمٍ، ولا يعني هذا أن يصيرَ آلةً جامدةً لا تنفعُ عندَ ورودِ الشـبهةِ، بل المطلوبُ: إحســانُ قراءةِ الكتبِ وفهمِها، واستخراجُ الصحيحِ منها، وتنزيلُها على الواقعِ، معَ تحرٍّ للصوابِ.

٢- عندَ (إعدادِ) و (سلوكِ) المنهجِ العلميِّ التأصيليِّ:

كثُرتْ أمواجُ الإنكارِ والنِّقمةِ على الدعوةِ إلى التأصيلِ العلميِّ، وسلوكِ الطلبةِ لمســلكِ الترقِّي في مدارجِ العلمِ. وقد تَسربَل هذا الإنكارُ بزعمِ عدمِ مُوافَقةِ مجاري العصرِ في مادتِه المطروحةِ! فكانَ مِن شأنهم أنْ دلُّوا الناشِئةَ على أفكارٍ تنأى بهم إلى وادٍ مغايرٍ لحقيقة السَّـيْرِ في العلم وتحمُّلِه؛ بل استبدالُ كتبِ الجادَّةِ التأصيليةِ بكتبِ السياســةِ والفكرِ، والتي هي بعيدةٌ عن الجادَّةِ المســلوكة للتعلم الشرعي، والتي هي أشبهُ بمادةِ صُنعِ مُفكِّرينَ وساسة، لا علماءَ فقهاءَ، يحملون الخيرَ والهُدى، ويُقصَدون لهدايةِ الناسِ ودَلالتِهم على السبيلِ.

يُنكِرونها معَ علمِهم بكونِها الجادَّةَ التي سار عليها العلماءُ جيلًا فجيلًا، واتَّفقوا عليها جملةً، وتَشبَّعوا بها، وعبر مناهجها استَحَقُّوا وسمَ العالِميةِ بجدارةٍ.

فهنا يأتي الثباتُ في قمعِ النُّزوعِ إلى الانفلاتِ من ترقِّي المدارجِ، إلى المُجاراةِ العصريةِ للسياسةِ وأهلِها.

إنَّ إبعادَ الناسِ عن الرُّقيِّ في المدارجِ، وإشغالَ أفكارِهم بمناكفة الواقع بالتنازل عن بعضِ الثوابت، وتزهيدِهم بأهواءٍ مزعومةٍ = لَهُو أشــدُّها خطرًا وإفسادًا! وهؤلاءِ نُوَّابُ إبليس في الحقيقةِ، كما سمَّاهم الإمامُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- إذْ يقولُ: (نُوَّابُ

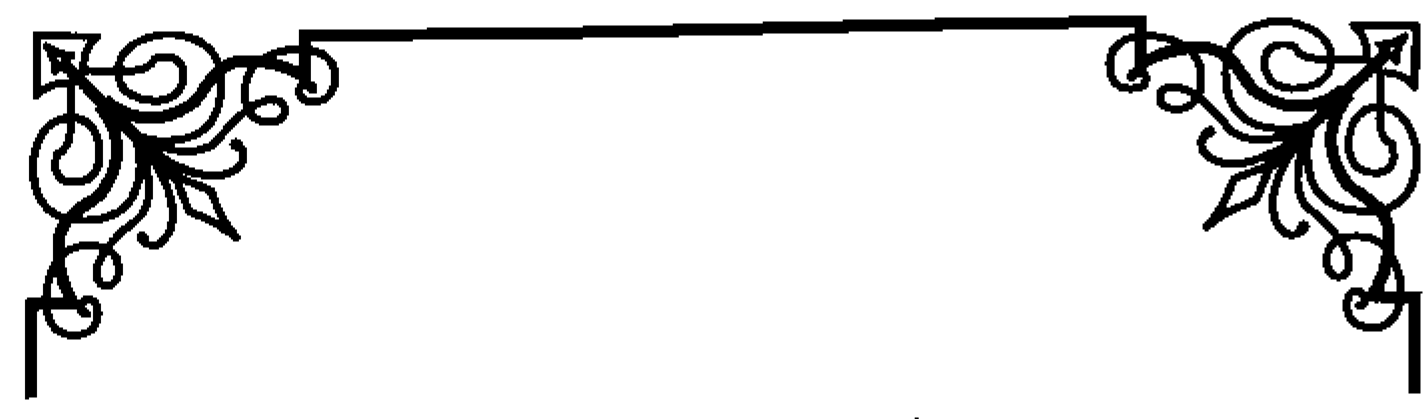
إبليسَ في الأرضِ، وهم الذين يُثبِّطون الناسَ عن طلبِ العلمِ والتَّفقُّهِ في الدِّينِ)[1].

٣- عندَ تنزيلِ الأحكامِ الشرعيةِ:

تنزيلُ الأحكامِ الشرعيةِ على الواقعِ، أو تحقيقُ المَناطِ = مِضمارُ العلمِ الأرحبُ، وبابُه الأهمُّ؛ إذْ لا فائدةَ للعلمِ إلا كونُه هاديًا لهم إلى معرفةِ دين الله وأحكامِه في حياتِهم ومعاملاتِهم؛ فيأتي تنزيلُ الأحكامِ بقانونِ العلمِ لا قانونِ الهوى، وبسلطانِ الدليلِ لا سلطانِ العاطفةِ.

فهذه المواردُ الآنِفةُ الذِّكرِ تُبرِزُ أهميةَ العلمِ في واقعِ الناسِ، وتُوضِّحُ أهميةَ الثباتِ. وما لم يُستعمَلِ العلمُ في هذه الأبوابِ؛ فهو كلامٌ وجدالٌ وترويحٌ ذِهنيٌّ، وليس منهجًا ربَّانيًّا يقودُ الناسَ بالدليلِ إلى الخيرِ، وإلى طريقِ النجاةِ في هذه الحياةِ.

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٤٥٦.



قانونُ الاجتهادِ الشخصيِّ

حقيقةُ العلمِ هبةٌ، يختارُ اللهُ لها مَن شاء مِن عبادِه، فيُوفِّقُه ويُعِينُه على إدراكِها، وهذا شأنُ الأرزاقِ جميعِها. وطلبُ العلمِ رزقٌ، تَجرِي عليه سُنَّةُ اللهِ؛ مِن مُباشَرةِ الأسبابِ، والتِماسِ النافعِ منها لتحصيلِه، فهو هبةٌ تحتاجُ إلى مُباشَرةٍ، ومَن خدَم العلمَ خدَمه العلمُ...

هذا التقريرُ قد يكونُ مُستقِرًّا لدى كثيرٍ من الناسِ، ومنهم طلابُ العلمِ، لكنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى إبرازٍ وتوضيحٍ لبعضِ قضاياه.

بدايةً، قرَّر العلماءُ أنَّ للعلمِ طريقينِ:

إحداهما: المُشافَهةُ والتَّلقِّي عن أهلِ العلمِ.

والثانيةُ: مُطالَعةُ الكتبِ المُصنَّفةِ في الفنِّ.

واختار الشاطبيُّ -رحمه اللهُ- كونَ الأولِ أنفعَ، ثُمَّ ضبَط فقال: (صارتْ كتبُ المتقدِّمين وكلامُهم وسِيَرُهم أنفعَ لمَن أراد الأخذَ بالاحتياطِ في العلمِ، على أيِّ نوعٍ كان، وخصوصًا علمَ الشريعةِ)[1].

---

(١) «المُوافَقات» ٢/ ١٥٣.

[المرادُ هنا بقولِه: (المُتقدِّمين) أي في العلمِ، والسلوكِ، والكتابةِ، بعيدًا عن الغموضِ وطُرُقِ المُتكلِّمين. وإلا فإنَّ كلامَ الخلَفِ يُستفادُ منه أيضًا، إذا نحَى مَنحَى السلفِ. وكلَّما كان المعاصرُ مُتَّبِعًا وجاريًا على أصولِهم؛ كانت الاستفادةُ منه كبيرةً؛ ككُتُبِ ابنِ حجرٍ، =

فبعـضُ الطلابِ يَرحَلُ إلى العلماءِ والشُّـرَّاحِ، فيَصحَبُهم زمانًا، ويقرأُ عليهم الكتبَ والمتونَ، لكنَّ حظَّه -في الحقيقةِ- من التحصيلِ هو حضورُ المجالسِ؛ فليس له جهدٌ في بيتِه، وبينَ كتبِه وأبحاثِه، أو معَ زملائِه في مُذاكَرةِ العلمِ، فيجعلُ آخِرَ عهدِه بالعلمِ مِحرابَ الدَّرْسِ، مكتفيًا به، ظانًّا أنَّ المجلسَ كافٍ!

والحقيقةُ ليستْ كذلك؛ فالعلمُ لا يُنالُ بالاقتصارِ على المجالسِ، بل هو مُفتقِرٌ أيَّما افتقارٍ إلى جهدٍ شخصيٍّ يبذلُه الطالبُ لإدراكِ العلمِ وفهمِه.

وأنتَ تـرى في آحادِ المتعلِّمين قصـورًا بالغًا ممَّن كانـتْ عُمْدتُه الحضورَ، وعُدَّتُه كُرَّاسَ فوائدِه، فأقوى أدلَّتِه: (سَـمِعتُ)، و (رجَّح شيخي)؛ فهو سمَّاعٌ طَرِب؛ تُطرِبُهُ عباراتُ العِلمِ ولا يُحسـنُ سلوكَها؛ وإذا أُثيرَت أمامَه مسـائلُ العِلم فلا يُقرِّرُ تقريرَ العلماءِ ببحثٍ وتأكُّدٍ من المعلومةِ التي يَتلقَّاها، ولا يُنقِّبُ أو يسـتعملُ الأدلةَ، ويردُّ المسائلَ إلى الأصولِ العلميةِ الصحيحةِ، أو يعلو في إسنادِ العلمِ إلى الأوائلِ.

وهذا الصِّنفُ من الطلابِ هو مَن يَستشـرِي في قلبِه داءُ الجمودِ والعصبيةِ في قابلِ الأيامِ، خاصَّةً إذا حِيلَ بينَه وبينَ التعمُّقِ في علومِ السـلفِ، ومُراجَعةِ تقريراتِهم وكلامِهم وأدلتِهم، واكتفَى بما أملاه شـيخُه وقـرَّره؛ فهو معزولٌ عن كثيرٍ من الخيرِ، إذْ لم يُنوِّعِ المجالسَ ويَفتِـشَ، فحينَها لنْ يُدرِكَ خطأَه وقصورَه. وهذا الداءُ هو الذي عانَى منه كثيرٌ من العلماءِ، وكثُرتْ منه شكاواهم.

فالنَّابِـهُ لا يَقَرُّ له قرارٌ حتى يَمزِجَ مسـموعَه بجميلِ مقروئِـه، ويجولَ بميزانِ خاطرِه في نتائجِ الأفكارِ وسـحابِ العقولِ؛ فهـو دؤوبُ الكدِّ، مُتَّصِلُ العزمِ لإنجاحِ مشروعِه، يرجو التأهُّلَ لِمَا كتَبه اللهُ له من العلمِ والفهمِ.

= وتفسيرِ الشيخِ محمدِ الأمينِ الشنقيطيِّ، وتفسيرِ السّعديِّ -رحمهم اللهُ].
أفاده شيخُنا الشيخُ ساعِدُ بنُ عمرَ غازي -حفظه اللهُ.

ومَن تأمَّلَ سَيْرَ السلفِ وطريقَتَهم في الطلبِ = رأى بعينِه؛ فقد ذكَر ابنُ خَلِّكانَ -رحمه اللهُ- في «وَفَيـاتِ الأعيانِ» عند ترجمةِ أبي عمرَ ابنِ عبد البَرِّ -رحمه اللهُ-: (ودأَب في طلبِ العلمِ وافتَنَّ فيه، وبرَع براعةً فاق فيها مَن تقدَّمه من رجالِ الأندلسِ، وكان مُوفَّقًا في التأليفِ مُعانًا عليه، ونفَع اللهُ به)[1].

وقال مُحِبُّ الدِّينِ ابنُ النَّجَّارِ في «تاريخِه»، عند ذكرِ شـيخِهِ الضياء المقدسي رحمه اللـه: (وحصَّل الأصولَ، وكتَب الكتـبَ الكبارَ بخطِّه... بهِمَّـةٍ عاليةٍ، وجِدٍّ واجتهـادٍ، وتحقيقٍ وإتقـانٍ. ولَعَمْرِي ما رأتْ عيناي مِثلَه في نزاهتِه وعِفَّتِه وحُسـنِ طريقتِه في طلبِ العلمِ)[2].

فطالبُ العلمِ تُفترَضُ فيه النَّباهةُ، واتِّقادُ الذِّهنِ، والحرصُ على ما ينفعُ. وتأمَّلْ صنيعَ موسى -عليه السلامُ- في حرصِه على تعلُّمِ الرُّشدِ، والتأكُّدِ من سلامةِ ما يُلقى إليـه؛ حيـثُ قـال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]، فاشترَط الرُّشدَ في العلمِ.

والواجبُ على الطالبِ أن يعطيَ لنفسِـه الفرصـةَ؛ ليتأهلَ لما قدَّره اللهُ له من العلمِ والنبوغِ فيه، فيُراجِعَ ويُدقِّقَ ويبحثَ؛ فعطاءُ اللهِ واسـعٌ لا تَحُدُّه الحدودُ، وهو خيرُ الرازقينَ، وعندَه خزائنُ السماواتِ والأرضِ، فلا يَغلِقَ على نفسِه بابَ الاستفادةِ بعدمِ الاطِّلاعِ والقراءةِ والتنويعِ، ولا يُسلِمَ عقلَه لأحدٍ.

ومَرجِعُ هذا -واللـهُ أعلمُ- أنَّ (نتائجَ الأفكارِ لا تقـفُ عندَ حدٍّ، وتصرفاتِ الأنظـارِ لا تنتهي إلى غايـةٍ، بل لكلِّ عالِمٍ ومتعلِّمٍ منها حظٌّ يحـرزُه في وقتِه المُقدَّرِ له، وليس لأحدٍ أن يزاحمَه فيه؛ لأن العالَمَ المعنويَّ واسـعٌ كالبحرِ الزاخرِ، والفيضَ

(١) «وَفَيات الأعيان» ٧/ ٦٧ باختصار.

(٢) أورده الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٢٣/ ١٢٩ باختصار.

الإلهيَّ ليس له انقطاعٌ ولا آخِرٌ، والعلومُ مِنَحٌ إلهيةٌ، ومواهبُ صَمَدانيةٌ؛ فغيرُ مُستبعَدٍ أن يُدَّخَرَ لبعضِ المتأخرينَ ما لم يُدَّخرْ لكثيرٍ من المتقدِّمين، فلا تَغترَّ بقولِ القائلِ: (ما ترَكَ الأولُ للآخِرِ)، بل القولُ الصحيحُ الظاهرُ: (كم ترَكَ الأولُ للآخِرِ!)؛ فإنما يُستجادُ الشيءُ ويُستَرذَلُ لجودتِه ورداءتِه في ذاتِه، لا لِقِدَمِه وحدوثِه)[1].

وممَّن نبَّه على أهميةِ الاجتهادِ الشخصيِّ: الشيخُ عبدُ الرزاقِ عفيفي -رحمه اللهُ- في ترجمتِه المُختصَرةِ للعلَّامةِ عبد العزيزِ ابنِ بازٍ -رحمه اللهُ-؛ حيثُ نبَّه على اجتهادِه الشخصيِّ في التحصيلِ، وأنه لم يَقنَعْ بالتلقِّي والسماعِ المُجرَّدِ على المشايخِ، بل تابَع ونقَّب وبحَث وتعمَّق، فقال: (ورأى أنَّ مِن الغَبْنِ لنفسِه: أن يكتفيَ بما حصَّله من تلك العلومِ أيامَ طلبِه وتلقِّيه عن مشايخِه؛ لِمَا في ذلك من هضمِها حقَّها، وحرمانِها من الحظِّ الوافرِ في العلمِ والدِّينِ؛ فتابَع الاطِّلاعَ والبحثَ، ودأب في التحصيلِ، وبذل جهدَه في تحقيقِ المسائلِ بالرجوعِ إلى نِطاقِها في أمهاتِ الكتبِ كلما دعتِ الحاجةُ إلى ذلك: في تدريسِه، وفيما يَعرِضُ له من القضايا المُشكِلةِ أيامَ تولِّيه القضاءَ، وفي إجابتِه عما يُوجَّهُ إليه من أسئلةٍ تحتاجُ إلى بحثٍ وتنقيبٍ، وفي ردِّه على ما يُنشَرُ من أقوالٍ باطلةٍ وآراءٍ منحرفةٍ؛ فازداد بذلك تحصيلُه ورسوخُه، ونبَغ في كثيرٍ من علومِ الشريعةِ، وخاصَّةً الحديثَ متنًا وسندًا، والتوحيدَ على طريقةِ السلفِ، والفقهَ على مذهبِ الحنابلةِ، حتى صار فيها من العلماءِ المُبرِّزينَ)[2].

لطيفةٌ عن خدمة العلم والاجتهاد في نيله:

حُكِيَ عن الإمامِ أحمدَ -رحمه اللهُ- قولُه: (مَن أراد الحديثَ خدَمه).

(١) «كشف الظُّنون» ١/ ٣٩، و«بصائر ذوي التمييز» ١/ ٧٩، و«المستقصى»، ١/ د.
(٢) هذه الترجمة منشورة، وقد كتبها الشيخ رحمه الله بخط يده، تعريفًا بالشيخ ابن باز رحمه الله تعالى.

فعلَّـق الحافظُ البيهقيُّ -رحمه اللهُ- قائلًا: (قد خدَمـه أبو عبد اللهِ أحمدُ بنُ حنبلٍ؛ فرحَل فيه، وحَفِظه، وعَمِل به، وعلَّمه، وحمَل شدائدَه).

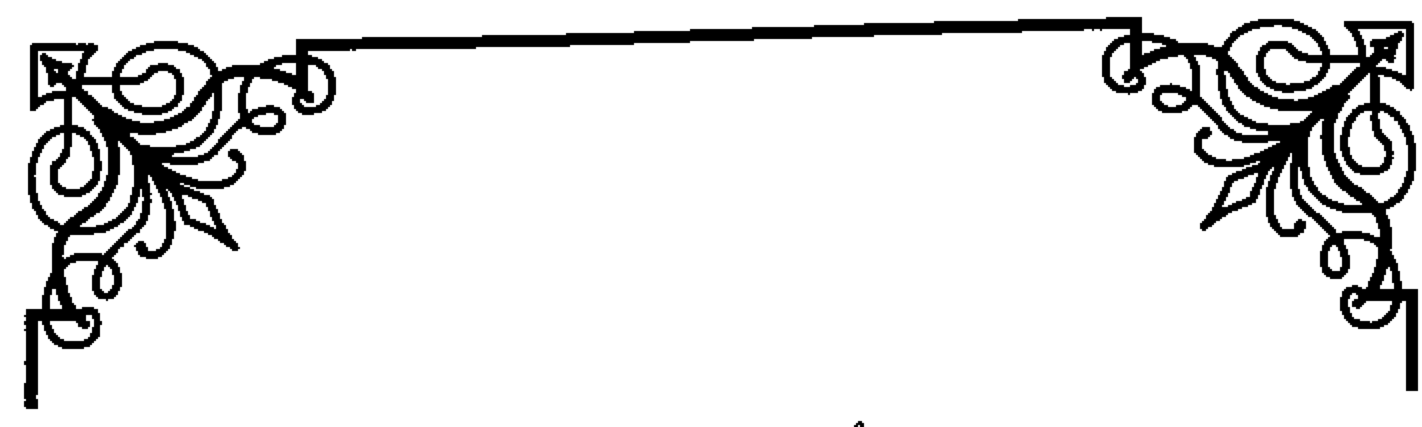
ثُمَّ قال ابنُ مُفلِحٍ الحنبليُّ -رحمه اللهُ-: (وهو كما قال البيهقيُّ رحمه اللهُ)[1].

وقـال ابنُ الجوزيِّ -رحمه اللهُ-: (ولمَّا آثَر أحمدُ بنُ حنبلٍ -رضي اللهُ عنه- طلبَ العلمِ، وكان فقيرًا؛ بَقِي أربعينَ سـنةً يَتشـاغَلُ به ولا يَتزوَّجُ. فينبغي للفقيرِ أن يُصابِرَ فقرَه كما فعـل أحمدُ، ومن يُطِيقُ ما أطاق؟! فقد ردَّ من المالِ خمسـينَ ألفًا، وكان يأكُلُ الكامَخَ[2] ويَتأدَّمُ بالملح! فما شـاع له الذِّكرُ الجميلُ جُزافًا. فيا له ثناءً ملأ الآفاقَ، وجمالًا زيَّن الوجودَ، وعِزًّا نسَـخ كلَّ ذُلٍّ؛ هذا فـي العاجلِ، وثوابُ الآجِلِ لا يُوصَفُ)[3].

(١) «الآداب الشرعية» لابن مُفلِح ١/ ٢٣١.

(٢) يُؤتَدمُ به، ويُطلَقُ على (المُخلَّلات).

(٣) «صيد الخاطر» ص ٤٥١ بتَصرُّفٍ يسيرٍ.



قانونُ الحِسِّ التَّعبُّديِّ

تَضافـرتِ الأدلَّةُ حاثَّةً على طلبِ العلمِ، والأمـرِ به، والثناءِ على طالبِه؛ فصار عبادةً.

قال النوويُّ رحمه اللهُ: (قالوا: ولا يَأخذُ العلمَ إلَّا ممَّن كمُلتْ أهليَّتُه، وظهَرتْ دِيانتُه، وتَحقَّقتْ معرفتُه، واشـتَهَرتْ صيانتُه وسـيادتُه؛ فقد قال ابنُ سِـيرينَ ومالكٌ وخلائقُ مِن السلفِ: هذا العلمُ دِينٌ؛ فانظُروا عمَّن تأخذون دِينَكم)[1].

وإذا تقرَّر كونُه عبادةً؛ ترتَّب على ذلك أمورٌ:

الأولُ: طلبُ العلمِ للتعبُّدِ، لا التثقُّفِ والجِدالِ:

فمِن مقاصدِ طلبِ العلمِ: كونُه وسـيلةً إلى العبوديةِ، وهكذا (كلُّ علمٍ شرعيٍّ، فطلبُ الشارعِ له إنَّما يكونُ من حيثُ هو وسيلةٌ إلى التعبُّدِ به للهِ تعالى)[2].

فغايةُ أمرِ العلمِ أن يكونَ دالًّا وهاديًا إلى عبادةِ ربِّ العالمينَ سـبحانَه، وليس العلمُ كلامًا ونُقُولًا تَصُخُّ المسـامعَ فـي كظيظِ المَجامعِ، ولا هـو بتلك التقريراتِ النظريـةِ الخاليةِ عن مَقصَدِ العلمِ الأعظمِ، وغايتِـه النبيلةِ؛ من الأخذِ بناصيةِ الطالبِ إلى التعبُّدِ والتَّألُّهِ.

---

(١) «المجموع» ١/ ٦٦.

(٢) «الموافقات» ٢/ ٧٣.

ومَن تأمَّلَ حالَ كثيرٍ من المُنتسِبينَ؛ عَلِم أنَّ العلمَ قد انحَطَّ في قلوبِهم من سماءِ الغايةِ إلى أرضِ الدَّعاوى، ومِن ماهيَّةٍ حقيقيَّةٍ يباشرُ صداها قلبًا نابضًا إلى رَسْمٍ وعاريةٍ! وإلا فأين الدموعُ الجاريةُ؟! وأين النوافلُ والعباداتُ الظاهرةُ والباطنةُ؟!

وعلامةُ طلبِ العلمِ للتَّعبُّدِ:

١- أن يفوقَ قَسْمُ العملِ قَسْمَ الدَّعاوى، وإلا فما أكثرَ مَن يَتحدَّثُ به ويدَّعي تحصيلَه، وأقلَّ مَن يعملُ به!

٢- التَّغاضي عن زهرةِ التنظيرِ وحلاوةِ التسميعِ، إلى الدَّلالةِ على العلمِ والعملِ، وتحصيلِ النافعِ لأُمَّتِه.

٣- أن يُرى أثرُ ذلك في أخلاقِه وسلوكِه؛ فأثرُ العلمِ لا بدَّ وأن يُرى على طالبِه.

يقول مجد الدين الفيروزأبادي رحمه الله: (اعلم أنَّ للعلم عَرْفًا يَنُمُّ عن صاحبه، ونورًا يرشدُ إليه، وضياءً يشرق عليه؛ فحاملُ المسكِ لا تخفى روائحُه... ومَن لم يظهر عليه أماراتُ علمِه فهوَ ذُو بِطانة، لا صاحب إخلاص)[1].

الثاني: تعظيمُ العلمِ، وإكرامُ أهلِه وطلبتِه:

ذلك أنَّ إدراكَ العلمِ مَنُوطٌ بتعظيمِه، وتعظيمُه لكمالِ هيبتِه ومكانتِه؛ فإنَّه مِن أشرفِ المعارفِ، وأَوْلى ما شمَّر لإدراكِه مُشمِّرٌ، أو تفرَّغ لنيلِه طالبٌ. وهذا العلمُ -الذي هو علمُ الشريعةِ- يَستمِدُّ عظمتَه وعزَّتَه من عزَّةِ القرآنِ والسُّنَّةِ، وعلى قدرِ تعظيمِه يَرسَخُ في القلبِ، ويَجِلُّ قدرُ حاملِه، ويكونُ أرجى لثباتِه وإتقانِه.

وأَقبِحْ بطالبٍ خلا فؤادُه عن تعظيمِ العلمِ وإكرامِه، فلا يرى له حرمةً أو فضلًا،

(١) «بصائر ذوي التمييز» ١/ ٥٤.

ولا فرقَ عندَه بين كتابِ علمٍ وأدواتِ دبَّاغ!

وإذا تأمَّلــتَ واقعَ كثيرٍ من طلابِ العلمِ؛ رأيــتَ العجبَ: فترى مادَّ رجلَيْه في وجهِ مُعلِّمِه! وآخَرَ شــغَله جوَّالُه! وثالثًا يَقضِمُ الأظفارَ، كأنَّما ملَّ الحديثَ، وسَــئِم الأسفارَ! فأين هؤلاءِ من تعظيمِ العلمِ ومجالسِ أهلِه؟!

ورأيتُ في بعضِ المجالسِ مَن يتصفحُ (الإنترنت) في المجلسِ! وآخَرَ دخل المجلسَ وألقى الكتابَ -وهو واقفٌ- لِيَتنفَّلَ، فأحدَث ضجَّةً عظيمةً! فأين هؤلاءِ من تعظيمِ العلمِ وتكريمِ (الكتبِ)؟!

ومن صُوَرِ عدمِ تعظيمِ العلمِ: الغفلةُ عن تدبُّرِ ألفاظِه ومعانيه، واستنشاقِ جميلِ أثرِها في القلبِ.

فائدةٌ حولَ تدبُّر الألفاظِ والمعاني:

نبَّــه القَرافيُّ -رحمه اللهُ- على فائدةٍ تتعلقُ بقــولِ المُفتِي في آخِرِ فتواه: (اللهُ أعلمُ)، فقال:

(ولا ينبغي أن يضعَ هذه اللَّفظــةَ ونحوَها [أي اللهُ أعلمُ] إلَّا ناويًا بها ذِكرَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ استعمالَ ألفاظِ الأذكارِ لا على وجهِ التعظيمِ والذِّكرِ للهِ تعالى = قِلَّةُ أدبٍ معَ اللهِ تعالى، فيُنهَى عنه، بل ينوي به معناه الذي وُضِع له لغةً وشرعًا)[1].

قال ابنُ القيِّم رحمه اللهُ:

(... فهل خطَر ببالِكَ قطُّ أنَّ هذه الآيــةَ[2] تتضمنُ هذه العلومَ والمعارفَ، معَ

(١) «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرُّفات القاضي والإمام» ص٢٤٨.

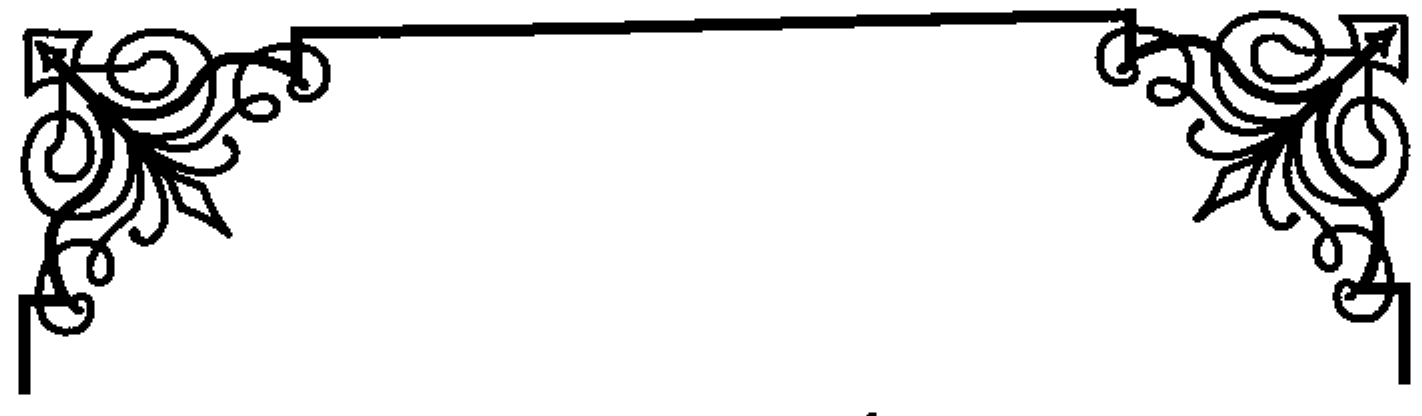
(٢) أي قولــه تعالــى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ٣].

كثرةِ قراءتِكَ لها وسماعِكَ إيَّاها؟!! وهكذا سائرُ آياتِ القرآنِ.

فما أشـدَّها من حسـرةٍ، وما أعظمَها من غَبْنةٍ على مَن أفنَـى أوقاتَه في طلبِ العلمِ، ثُمَّ يخرجُ من الدنيا وما فَهِم حقائقَ القرآنِ، ولا باشَر قلبَه أسرارُه ومعانيه؛ فاللهُ المستعانُ!)[1].

---

(١) «بدائع الفوائد» ١/ ٣٣٨.



قانونُ الحِسِّ الأخلاقيِّ

أَوْلى مَن يجبُ أن يظهرَ فيهم السَّمتُ[1] الحسنُ والخُلُقُ القويمُ: وارِثو علمِ النُّبوَّةِ، ومُلتمِسو الرُّقيِّ في المدارج؛ ومِن نفيسِ كلامِ السلفِ: (علمٌ بلا أَدَبٍ كنارٍ بلا حطبٍ)[2].

وليس أحدٌ بأَوْلى من طالبِ العلمِ في امتثالِ الأمرِ الشرعيِّ، وكلامِ اللهِ ورسولِه ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

ومن علامةِ التوفيقِ والهدايةِ: ألَّا يُرى طالب العلم مُجافِيًا لنصوصِ الأخلاقِ والرِّقاقِ، كحالِ مَن أمحَلوا جانبَ الرِّقَّةِ والبكاءِ؛ فترى الأخلاقَ في وادٍ، بينما أخلاقُهم في وادٍ سحيقٍ!

فما أحلى هذه النصوصَ التي تُرقِّقُ القلوبَ وتُهذِّبُها، وتُكرِّمُها بجميلِ النعوتِ وتُصفِّيها!

---

(١) السَّمْتُ له معنيانِ:
أحدُهما: حُسْنُ الهيئةِ والمَنظَرِ في الدِّينِ وهيئةِ أهلِ الخيرِ.
والثاني: السَّمْتُ هو الطريقُ. يُقالُ: الْزَمْ هذا السَّمْتَ.
وكلاهما له معنًى؛ إمَّا أرادوا هيئةَ الإسلامِ، أو طريقةَ أهلِ الإسلامِ.
يُنظَر: «غريب الحديث» لأبي عُبَيدٍ القاسمِ بنِ سلَّامٍ ٣/ ٣٨٤، و«لسان العرب» لابن منظورٍ ١١/ ٢٤٧. والمعنيانِ مُرادانِ هنا.

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» ١/ ٨٠.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤]. ويقولُ ﷺ: «**لا تَحقِرَنَّ مِن المعروفِ شيئًا، ولو أن تَلقَى أخاكَ بوجهٍ طَلْقٍ**»[1].

فحدِّثْني عن عالِمٍ وُضِع له القبولُ في الأمَّةِ كان سيِّئَ الخُلُقِ، هِجِّيراه الجفوةُ! وأنت ترى بعينِكَ في آحادِ المُنتسِبينَ إلى العلمِ أنَّ مَن كان خِلْوًا مِن السمتِ الحسنِ وأدبِ العلمِ = يَؤولُ حالُه إلى أن يكونَ مُضْغةً تلوكُها الأنيابُ، فتنةً يُبتلى بها العبادُ، وتكثرَ فيه قالةُ السُّوءِ، وتنبوَ عنه قلوبُ الصالحين.

إنَّ الناسَ لا ميزانَ لهم ولا معيار، فمتى رأَوْا جفوةَ العالِمِ، وغِلَظَ تأنيبِه، ووعورةَ مسلكِه معَ المستفيدِ = آثَروا وَهْدةَ الجهالةِ، وتركوا الاستفادةَ، ونظَروا إليه نظرةَ احتقارٍ بعدَ التوقيرِ والإكبارِ؛ والساقطُ من أعينِهم لا يَقَرُّ إلا في قاعِ التصنيفِ.

فتأمَّلْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالنَّابهُ من المنتسبين إلى العلمِ: مَن يَنضَحُ بِرِيقِ الخُلُقِ الحسنِ جفاءَ الأسلوبِ، ويُعبِّدُ الطريقَ أمامَ الناسِ بسِحْرِ الكلماتِ وجمالِ الألفاظِ.

وكم مِن مريضٍ قد شُفِي بعَقَّارِ حُسنِ الأدبِ والتعبيرِ، ولو عُرِض على حُذَّاقِ الأطباءِ لعَسُر؛ ذلك أنَّ أزيزَ الصُّدورِ لا يُذهِبُ حرَّه إلا بَرْدُ الكلماتِ العَذْبةِ ونسماتُها الرقيقةُ.

وعلى النقيضِ: مَن خَشُن خُلُقُه، وجمَع في قاموسِه وحشيَّ الأخلاقِ وقَتَادَ الكلماتِ؛ فلَإِنْ جذَب الخَلْقَ إليه بطرَفٍ من الحاجةِ إلى العلمِ والفقهِ؛ فلقد أبعَدَهم

(١) رواه مسلمٌ رقم (٢٦٢٦).

عنه بفسادِ الخُلُقِ! فمِسكينٌ مَن هذه حالُه؛ إذْ علمُه مَوْءُودٌ منقوصٌ، وتحقيقُه مرفوضٌ؛ فالناسُ يلتمسون السهلَ اللَّيِّنَ، هادئَ البالِ، رقيقَ الطِّباعِ.

يا طالبَ (الرُّقيِّ) و (المدارج)..!

إنَّ مَكمَنَ الخطرِ على مَن ســاء هَدْيُه وخُلُقُه مِن المنتســبين إلى الطلبِ: كونُه يُقدِّمُ أُنموذجًا[1] سيِّئًا عن العلمِ وطلابِه، وكفى بهذا جُرْمًا وألمًا!

ولئنْ كان المتســبِّبُ في جرِّ السِّــبابِ إلى والدَيْه ســابًّا لهما في الحقيقةِ؛ فإنَّ المتسبِّبَ في جرِّ السُّبَّةِ وسوءِ الظنِّ بالعلمِ وأهلِه آثمٌ بقدرِ جنايتِه.

لعلَّكَ فَهِمتَ ما رُمتُه: أنَّ التَّسبُّبَ هنا بسُوءِ السِّيرةِ وجفوةِ العَلاقةِ.

تنبيه على حقيقة الأخلاق:

إذا كان الحديثُ عن أخلاقِ طالبِ العلمِ معَ الخَلْقِ؛ فإنَّه حَرِيٌّ به أن يبذلَ ذلك لربِّه ومعبودِه؛ وهــذه هي حقيقةُ الأخلاقِ وأصلُها؛ فقِلَّةُ التعبُّدِ وضعفُ اســتحضارِ القلبِ، والتفريطُ في الأعمالِ الإيمانيةِ قد شاع، وأثَّر بالسلْبِ على التحصيلِ.

ولا ريبَ أن غفلةَ جامعِ العلمِ عن تزكيةِ نفسِه، وتفقُّدِ قلبِه يئولُ معَ طولِ الأمدِ

(١) (النَّمُوذَجُ) بفتحِ النُّونِ: مِثالُ الشــيءِ؛ أي صورةٌ تُتَّخذُ على مثالِ صورةِ الشــيءِ ليُعرَفَ منه حالُه.
وأمَّا (الأُنْمُوذَجُ) بضمِّ الهمزةِ؛ فقد لحَّنه الصَّاغانيُّ، وتابَعه الفيروزأباديُّ. لكنْ ردَّه النَّواجيُّ -رحمه اللــهُ- وقال: هذه دعوَى لا تقومُ عليهــا حُجَّةٌ. فما زالتِ العلمــاءُ قديمًا وحديثًا يســتعملون هذا اللَّفظَ من غيرِ نكيرٍ، حتى إنَّ الزَّمخشريَّ -وهو من أئمةِ اللُّغةِ- سمَّى كتابَه في النحوِ: «الأُنْمُوذَجَ»، وكذلك الحسنُ بنُ رَشِيقٍ القَيْروانيُّ -وهو إمامُ المغربِ في اللُّغةِ- سمَّى به كتابَه في صناعةِ الأدبِ. وأيضًا أنكَر الخَفاجيُّ في «شفاءِ الغليلِ» على مَن ادَّعى فيه اللَّحنَ. يُنظَر: «تاج العروس» للزَّبيديِّ ٦/ ٢٤٩- ٢٥٠.

إلى كونِ صاحبِه صورةً ممسوخةً عن طلابِ العلمِ؛ لأنَّه فقَدَ لُبَّه ورُوحَه.

وليس أدلَّ على فقدِ هذا الحِسِّ من كثرةِ ذكرِ النفسِ إشادةً ومدحًا، بصريحِ العبارةِ أو مفهومِها، ممَّا يُظهِرُ حجمَ الغَرَرِ الذي يملأُ قلبَ صاحبِه.

والواجبُ على مَن ابتُلِي بذلك: أن يتواضعَ، ويبذلَ الجهدَ في التدارُكِ بالتعبُّدِ، والحطِّ على النفْسِ، وكثرةِ ذكرِ اللهِ وتسبيحِه، وأن يعلمَ حقيقةَ ما هو عليه من الانخداعِ بصورةِ ما يطلبُ؛ وأنها ما هي إلا بهارجُ زائفةٌ، ينكشفُ سَرابُها بنظرٍ سديدٍ.

ويقولُ اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وعليه أن يعلم أنه (ما عالِمٌ ليستْ له خلواتٌ بجوفِ الليلِ الآخِرِ يتبتلُ فيها إلى اللهِ ويدعوه رَغَبًا ورَهَبًا، وما عالِمٌ ليستْ له أوقاتٌ معَ ربِّه يَذكُرُه فيها ويستغفرُه ويُسبِّحُه، وما عالِمٌ ليستْ له أشواقٌ ولا أذواقٌ، ولا حياةَ لوجدانِه بمسالكِ المحبَّةِ الإيمانيةِ، ولا معرفةَ لقلبِه بمدارجِ الخوفِ والرجاءِ - ماذا يُرجَى من ورائِه لهذه الأُمَّةِ؟ وماذا يمكنُ أن يفيدَ في تربيةِ الخَلْقِ، وفاقدُ الشيءِ لا يُعطِيه؟!.. فأنَّى لمَن تَخشَّب قلبُه أن يجدَ ذلك؟ بَلْهَ أن يعطيَه للناسِ! ألَا وإنَّ ذلك إنَّما يتأتَّى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧])[1].

---

(١) «مفهوم العالِمية» ص١٢٢. للدكتور فريد الأنصاري رحمه الله.

مَدَارِجُ التَّعلُّمِ

(يكونُ الرَّجلُ عالمًا إذا هو حقَّق في تعلُّمِه، وتعرَّض لسائرِ العلومِ فنظَر فيها)

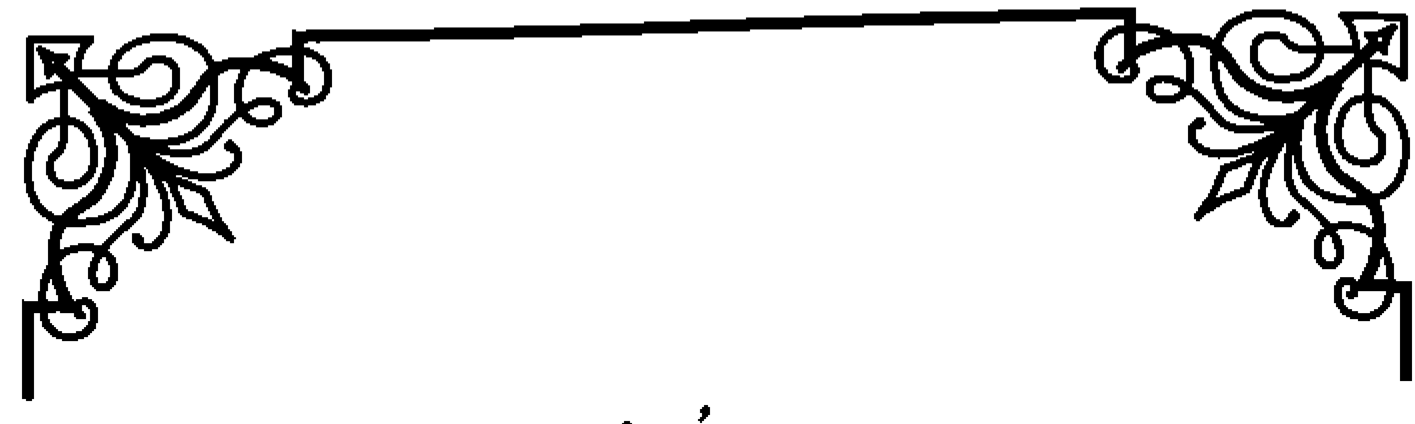
[الإمامُ محمدُ بنُ إدريسَ الشافعيُّ رحمه اللهُ]

مدارجُ التعلُّمِ هي مراحلُه الثلاثُ، وهي:

المرحلةُ الأولى: التأصيلُ العلميُّ.

المرحلةُ الثانيةُ: استكمالُ التكوينِ العلميِّ.

المرحلةُ الثالثةُ: البحثُ العلميُّ والتصنيفُ.



المرحلةُ الأولى
التأصيلُ العلميُّ

تقرَّر لدى العقلاءِ أنَّ ارتفاعَ البناءِ يستلزمُ وجودَ قاعدةٍ قويَّةٍ يصحُّ الاعتمادُ عليها للعُلُوِّ المنشودِ. والعلمُ بناءٌ معرفيٌّ، فهو -لا محالة- مُفتقِرٌ إلى قاعدةٍ مركزيةٍ تأسيسيةٍ، تجمعُ أصولَ العلمِ وأوَّليَّاتِه ومُقدِّماتِه.

يقول أمير بادشاه الحنفي رحمه الله: (العلم حياة النفس وكمالها، وصفوته أن تعرف ما عليها وما لها، وهي مَلَكة لا تحصل إلَّا بأصولها، فوجب معرفة الأصول قبل وصولها)(١).

وضبطُ هذه «الأصول» و«الأوَّليَّات» و«المُقدِّمات» = مِن أهمِّ الأشياءِ التي يجبُ أن تُجعَلَ في أولوياتِ الطالبِ؛ ليترقَّى في مدارجِ التعلمِ، وتتضحَ له حقائقُ العلمِ وغايتُه، وكيفيةُ استعمالِه وتطبيقِه.

ذلك أنه (ليس كلُّ طالبٍ يُحسِنُ الطلبَ، ويهتدي إلى طريقِ المَطلَبِ، ولا كلُّ سالكٍ يهتدي إلى الاستكمالِ، ويأمنُ الاغترارَ بالوقوفِ دونَ ذِرْوةِ الكمالِ، ولا كلُّ ظانٍّ الوصولَ إلى شاكلةِ الصوابِ آمِنٌ من الانخداعِ بلامعِ السَّرابِ)(٢).

وطريقُ ذلك هو التدرُّجُ في المعرفةِ؛ من بداياتٍ تصوُّريةٍ للحقائقِ، ثمَّ تعمُّقٍ

(١) «تيسير التحرير» (١/ ٢).

(٢) «مِعْيار العلم» لأبي حامد الغزالي، ص٢٥.

في تفاصيلِها، ومحالٌ أن يستحكمَ البناءُ العلميُّ بلا تأصيلِ تصوُّريٍّ لجُمَلِ العلمِ.

ومن العجبِ أن يَنشُدَ مَلَكةَ العلومِ وحِذْقَها مَن غابت عنه أوَّلِيَّاتُ العلمِ ومبادئُهُ، وصُرِف عنها، وشُغِل عن تحصيلِها، بخلافاتٍ هامشيةٍ على مسائلَ فرعيةٍ أَرهَقتْ ذِهنَه، وأَوْدتْ بزَهْرةِ أيامِه. ولو أنَّه وُفِّق في تعلُّمِه؛ لحقَّق الأصولَ، ثم فرَّع عليها، وبنى عليها تكوينَه العلميَّ في سائرِ الفروعِ.

يقولُ الرَّبيعُ بنُ سليمانَ رحمه اللهُ: قلتُ للشَّافعيِّ رحمه اللهُ: متى يكونُ الرجلُ عالمًا؟ فقال لي: (يكونُ الرجلُ عالمًا إذا هو حقَّق في تعلُّمِه، وتعرَّض لسائرِ العلومِ فنظَر فيها؛ فإنَّه حُكِي لي عن جالينوسَ أنَّه قيل له: إنكَ تأمرُ للدَّاءِ الواحدِ بالأدويةِ الكثيرةِ المُجتمِعةِ؛ أفكُلُّ الأدويةِ دواءٌ لذلك الداءِ؟ قال: لا، إنَّما المقصودُ منه واحدٌ، وإنَّما يُجعَلُ معَه غيرُه لتَسكُنَ حِدَّتُه؛ لأنَّ الإفرادَ قاتلٌ)[1].

أهميةُ مرحلةِ التَّأصيلِ العلميِّ

تظهرُ الحاجةُ إلى مرحلةِ التَّأصيلِ العلميِّ من خلالِ عدَّةِ أمورٍ، منها:

١- تشابُكُ دُروبِ العلمِ:

فدروبُ العلمِ مُتشابِكةٌ، وسالكُها بلا تأصيلٍ كهائمٍ في ليلٍ طويلٍ دونَ دليلٍ؛ وتعترضُه عوائقُ الفهمِ، وقد يسيرُ في غيرِ السبيلِ! بخلافِ مَن كان مُرتكَزُه تَصوُّرًا سديدًا؛ فإنَّه يسيرُ في خُطَّتِه التي رُوعِي فيها التدرجُ، والتي تتفرعُ على ما أُجمِل في أوَّلِيَّاتِ العلمِ، فمَن كان كذلك سهُل عليه منالُ الرتبِ العَليَّة في التَّعلُّم.

يقولُ أبو المعالي الجوينيُّ رحمه اللهُ: (حقٌّ على مَن يحاولُ الخوضَ في فنٍّ من فنونِ العلومِ: أن يحيطَ بالمقصودِ منه، وبالموادِّ التي منها يُستمَدُّ ذلك الفنُّ،

(١) «الفوائد والأخبار والحكايات» لابن حمكان الهمذاني، رقم (٢١)، ص١٣٧.

وبحقيقتِه، وفنِّه، وحدِّه -إنْ أمكَنتْ عبارةٌ سديدةٌ على صناعةِ الحدِّ- فإنْ عَسُر؛ فعليه أن يحاولَ الدَّرَكَ بمسـلَكِ التقاسيمِ. والغرضُ من ذلك: أن يكونَ الإقدامُ على تعلُّمِه معَ حظٍّ من العلمِ الجُمْليِّ بالعلمِ الذي يحاولُ أن يخوضَ فيه)[1].

وتأمَّـلْ عبارةَ أبي المعالـي: (الإقدامُ على تعلُّمِه معَ حظٍّ مـن العلمِ الجُمْليِّ بالعلمِ الذي يحاولُ أن يخوضَ فيه)؛ فإنها مفيدةٌ غزيرةُ المعاني!

ويقولُ الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحمه اللهُ:

وبعدُ؛ فالعلـمُ بُحُورٌ زاخِرهْ   لنْ يَبلُغَ الـكادحُ فيه آخِرَهْ
لكـنَّ فـي أصولِـه تسـهيلا   لِنَيلِه فاحرِصْ تَجِدْ سَـبِيلا
اغتَـنِـمِ الـقـواعـدَ الأُصُـولا   فمَن تَفُتْهُ يُحرَمِ الوُصُولا[2]

٢- التَّدرُّجُ المُتوازِنُ:

ذلك أنَّ التأصيلَ العلميَّ يساعدُ على اتِّزانِ النَّشأةِ العلميةِ للطالبِ واستقرارِها، وقد قيل: (إنَّ الانسيابَ الموزونَ وليدُ المركزِ الثابتِ).

فالارتِسـامةُ الأولى للبداياتِ تبقى انطباعاتُها وبصماتُها في ذهنِه وعقلِه، وفي مسالكِه.

٣- أنَّ «مثارَ التخبُّطِ في الفروعِ نِتاجُ التخبُّطِ في الأصولِ»[3]:

ذلـك أنَّه على قدرِ إحكامِ الأصلِ يأتي صفاءُ الفـروعِ، وعلى قدرِ التخبُّطِ هنا يكونُ التخبُّطُ هناكَ!

(١) «البرهان» ١/ ٧٧.
(٢) «منظومة أصول الفقه وقواعده» ص٤٠-٤٣.
(٣) «المنخول» للغزالي، ص٣ بتصرُّف.

فالداخلُ في العلمِ كمُستفتِحٍ في بناءِ بيتٍ، والخطأُ في التصميمِ أو التأصيلِ يئُولُ -لا محالةَ- إلى اختلالِه؛ إذْ سلامةُ النهايةِ وكمالُها من سلامةِ البدايةِ وإحكامِها. والمُتخبِّطُ في تأصيلِه سائرٌ في خطةٍ وأدِ النفسِ؛ فإن (الداخل على بصيرةٍ في شيءٍ = أعقلُ من الداخلِ فيه على غيرِ بصيرةٍ)[1].

وأثرُ هذا التخبُّطِ يظهرُ بعدَ تسويدِ هذا الطالبَ إنْ ساد، أو حينَ التصدِّي لنشرِ جَعْبتِه بينَ الصيارفةِ ونُبهاءِ الطُّلابِ.

٤- حصولُ مَلَكةِ العلمِ:

إذْ مُحالٌ أنْ يأتيَ الإبداعُ العلمِي على وجْهِه، وصاحبُه خِلْوٌ من التركيزِ على أوَّليّاتِ العلمِ؛ فإن الإبداع بلا أصل متفق عليه طيش وتخبط لا ملكة وبراعة، إذ من المقرر أنه (إذا كانتْ أوائلُ العلمِ وأواخرُه حاضرةً عندَ الفكرةِ، مُجانِبةً للنسيانِ؛ كانتِ الملكةُ أيسرَ حصولًا، وأحكمَ ارتباطًا، وأقربَ صِبغةً)[2].

لذا فإنَّ (الحَذاقةَ والتَّفنُّنَ في العلمِ والاستيلاءَ عليه، إنَّما هو بحصولِ الملكةِ في الإحاطةِ بمبادِيه وقواعِدِه، والوقوفِ على مسائلِه، واستنباطِ فروعِه من أصولِه)[3].

وإلَّا كان ما يُحصِّلُه دونَ فائدةٍ ظاهرةٍ.

يقولُ سيفُ الدِّينِ الآمِديُّ رحمه اللهُ: (حقٌّ على كلِّ مَن حاوَل تحصيلَ علمٍ من العلومِ: أن يَتصوَّرَ معناه أوَّلًا بالحدِّ أو الرسمِ؛ ليكونَ على بصيرةٍ فيما يَطلُبُه، وأن يعرفَ موضوعَه؛ وهو الشيءُ الذي يبحثُ في ذلك العلمِ عن أحوالِه العارضةِ له؛ تمييزًا له عن غيرِه، وما هي الغايةُ المقصودةُ من تحصيلِه؛ حتى لا يكونَ سعيُه عبثًا،

(١) «المدخل» لابن بدران، ص١٠٣.
(٢) «مقدمة ابن خلدون»، ص٥٣٤.
(٣) «كشف الظُّنون» ١/ ٤٣.

وما عنه البحثُ فيه من الأحوالِ التي هي مسـائلُه؛ لتَصوُّرِ طلبِها، وما منه اسـتمدادُه؛ لصحَّةِ إسنادِه عندَ رَومِ تحقيقِه إليه، وأن يَتصوَّرَ مبادئَه التي لا بدَّ من سبقِ معرفتِها فيه؛ لإمكانِ البناءِ عليها)[1].

٥- أنَّ فتحَ بابِ التأصيلِ قطعٌ للطريقِ على المُتعالِمين:

فالتعالُم يكثُرُ في فئةٍ لم تختمِر العلومُ في قلوبهم، ولم تمس شـغافَها بتمكُّنها وتأصيلِهـا وتثبيتِ قواعدها وتكرارها، وبفرطِ عجلتِهـم وغرورِهم جرّوا على أمَّتهم ويـلات، وعلى تاريخِهم مخازٍ ينبو عنها الأريبُ، وشـتَّانَ بينَ عالِـمٍ مُتأصِّلٍ، هضَم البداياتِ واسـتَحكَمها، وفرَّع عليها علمَه؛ وبينَ خِنفشاريٍّ وَلْهانَ، يُرجِّحُ بلا مُرجِّحٍ، ويتكلمُ بغيرِ خِطامٍ ولا زمامٍ؛ فلا قاعدةَ تُثبِّتُ ارتكازَه، ولا أصولَ تشـدُّ من أزرِ فهمِه! فهو قابضٌ على قطعةِ ثلجٍ في رمضاءَ، ذابتْ من فروجِ أصابعِه؛ إذْ أغرَتْه أشباهُ المعارفِ، وزجَّ به أشباحُ الطُّلابِ!!

٦- أنَّ فاقدَ التأصيلِ الكُلِّيِّ يَحصُلُ له التلفيقُ والتناقضُ:

وينعكسُ ذلك على مسـالكِه العمليةِ والمنهجيةِ فيما بعـدُ، فتراه مُتخبِّطًا في الفتوى، مُحتطِبًا في أرضِ السِّـباعِ. وللأسـفِ معَ اختلاطِ المفاهيمِ والمصطلحاتِ وتداخلِها، عدَّ بعضُ الطُّلابِ شذوذَهم تحقيقًا، وتخليطَهم ترجيحًا! والحقيقةُ أنَّه لا يخرجُ عن كونِه جهلًا أو ظلمًا.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ:

(لا بدَّ أن يكونَ معَ الإنسـانِ أصـولٌ كُلِّيَّةٌ يَرُدُّ إليها الجزئيـاتِ؛ ليتكلمَ بعلمٍ وعدلٍ، ثم يعرفَ الجزئياتِ كيفَ وقَعتْ، وإلَّا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئياتِ،

(١) «الإحكام في أصول الأحكام» ١/ ١٨.

وجهلٍ وظلمٍ في الكُلّيّاتِ؛ فيتولَّدُ فسادٌ عظيمٌ)[1].

حقيقةُ التَّأصيلِ العلميِّ

التَّأصيــلُ مأخوذٌ مِن الأصلِ اللُّغويِّ لكلمةِ (أَصْــل)، وهي القاعدةُ التي يُبنَى عليها، وفي تعبيرِ الفقهاءِ نجدُهم يقولون: (أصلُ المســألةِ كذا)، فهو هنا ردٌّ لأصولِها وقواعِدِها الحاكمةِ لها.

وفي عُرفِ أهلِ العصرِ، نجدُ بعضَ العلماءِ يُطلِقونه قاصِدينَ به معنَى (إحكامِ العلمِ، وتمتينِ العمليةِ التعليميةِ)، لا ما أراده المُتقدِّمون، وهو الرَّدُّ إلى قواعدِ العلومِ وأصولِها.

والتعريفُ المَرْضيُّ لمصطلحِ «التأصيلِ العلميِّ»، أنَّه:

(إحكامُ مُقدِّماتِ وأوَّليّاتِ وقواعدِ علمٍ ما في منهجٍ مدروسٍ).

إحكامُ التَّأصيلِ العلميِّ

يأتي الإحكامُ عبرَ التمكُّنِ في عدَّةِ محاورَ[2]:

المحورُ الأولُ: مصادرُ العلمِ:

والمقصودُ بها: (مصادرُه التي يُســتمَدُّ منها، ويُرجَــعُ إليها في تحقيقِ مباحثِه، ودَرْكِ المواردِ التي تُنظِّمُ مادةَ العلمِ ومسائلَه).

(١) «مِنهاج السُّنَّة النبوية» ٥/ ٨٣.

(٢) راجِعْ: «أبجد العلوم» لِصِدِّيق حســن خان القِنَّوجيِّ، ص٧٢، وما بعدَها، «كشف الظنون» ١/ ٤٣، «المحصول» لابــنِ العربيِّ المالكيِّ، ص٢٨، «مفهوم التأصيل العلمي وتطبيقاته» أبحاث حلقة النقاش العلمية الأولى لمركز التبيان، نشر: مركز التبيان للاستشارات.

ويتحقَّقُ التأصيلُ العلميُّ فيها من خلالِ:

- الأصولِ الشرعيةِ العامَّةِ.
- أصـولِ العلومِ الشـرعيةِ؛ [كلُّ علمٍ علـى حِدَةٍ؛ فالأصـولُ تختلفُ باختلافِ العلمِ].

المحورُ الثاني: مبادئُ العلمِ

والمقصودُ بهـا: (المبادئُ التي تُنظِّمُ علمًا من العلومِ الشـرعيةِ؛ من مفاهيمَ، وتعريفاتٍ، وأصولٍ كُلِّيَّةٍ يقومُ عليها العلمُ).

ويُعبِّرُ المناطقةُ عن المفاهيمِ والتعريفاتِ بـ «المبادئ التَّصوُّريَّة».

وعن المسائلِ والأصولِ الكُلِّيَّةِ التي يقومُ عليها العلمُ بـ «المبادئ التَّصديقيَّة»، وهذا المحورُ يختصُّ بالتأصيلِ في فنٍّ مُعيَّنٍ.

فالمفاهيمُ والتعريفاتُ ينبغي تقديمُها قبلَ الشـروعِ في العلمِ، أو في مسـائلِه وأحكامِه؛ كالتعريفاتِ السابقةِ لبابٍ من أبوابِ الفقهِ، أو التعريفاتِ الضابطةِ لمصطلحِ الحديثِ، فلا بدَّ من إدراكِها قبلَ النظرِ في العلمِ، أو المسـألةِ؛ باعتبارِ أنَّ الحُكمَ على الشيءِ فرعٌ عن تصوُّرِه.

وقد نظَمها البعضُ بقولِه:

إنَّ مَبـادِي كُلِّ علمٍ عشَـرهْ: الحدُّ، والموضوعُ، ثُمَّ الثَّمَرهْ
وفضلُـهُ، ونِسـبةٌ، والواضعْ والاسمُ، الاسـتمدادُ، حُكمُ الشَّارعْ
مسـائلٌ، والبعضُ بالبعضِ اكتفَى ومَن درَى الجميعَ حازَ الشَّرَفا

وهذه المبادئُ العامةُ إنما تُذكَرُ ضمنَ محاورِ التأصيلِ؛ لشـدَّةِ اتصالِها بمسائلِ العلمِ التي هي حقيقةُ التعلمِ، وهي المقصودةُ منه، بل وتُعِينُ على فهمِه وجودةِ تصوُّرِه.

المحورُ الثالثُ: مسائلُ العلمِ

ويُعنَى بها: (مباحثُه، وقواعدُه، وجُزئيَّاتُه).

يقولُ ابــنُ العربيِّ رحمه اللهُ: (حقٌّ على كلِّ مَن يحــاولُ الخوضَ في فنٍّ من العلومِ، إذا عَلِم مقصودَه منه: أن يحاولَ -بدءًا- الإحاطةَ بســوابقِه التي لا بدَّ له منها في معرفتِه، وشروطِه التي هي معونةٌ عليه)[1].

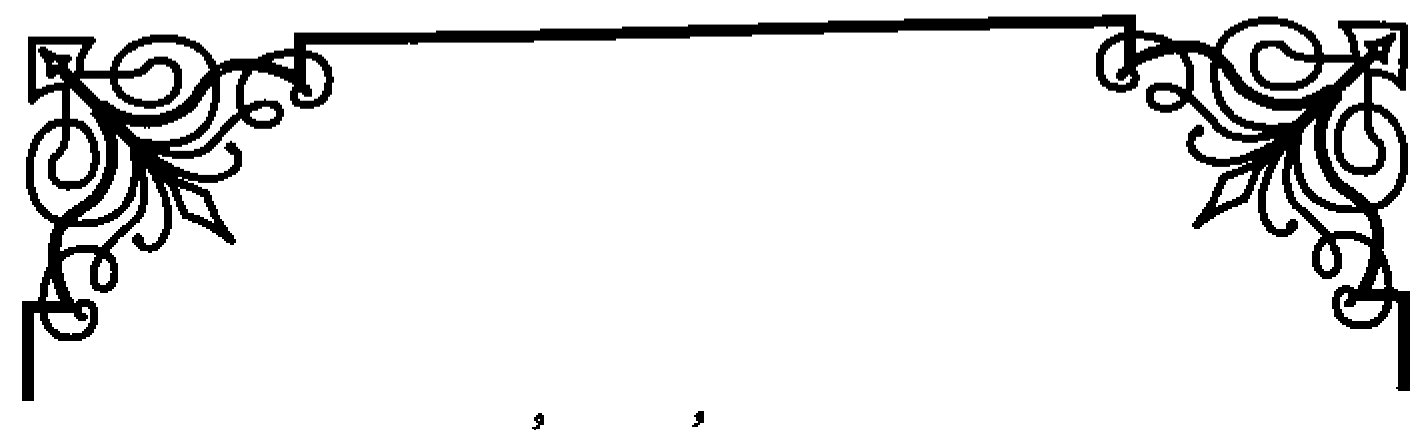
وقد تكلَّم الغزاليُّ -رحمه اللهُ- عن علومِ الشرعِ وقسَّمها، ثم قال:

(ولكلِّ واحدٍ منها مادةٌ منها استمدادُه، وإليها استنادُه، ومقصودٌ به يَتعلَّقُ قصدُ الطالــبِ وارتيادُه؛ فلا بدَّ من التنبيهِ على مادَّتِه ليقتبسَ الخائضُ فيه منها مبلغَ حاجتِه، فيتوسَّلَ إلى بُغْيتِه، ولا غنًى عن التنبيهِ على مَقصَدِه؛ لئلَّا يكونَ الطالبُ على عَمايةٍ من مطلبِه)[2].

فكانت معرفةُ «المقصَد»، و «الاستمداد»، و «الاســتناد»؛ لئلَّا يكونَ المُتعلِّمُ على عَمايةٍ من مطلبِه، وإذا كان في عمايةٍ؛ فأنَّى تُنالُ فائدةُ العلمِ، وأيُّ ثمرةٍ تُرتجَى؟!

(١) «المحصول» لابن العربي، ص٢٨.

(٢) «المنخول» ص٣.



المرحلةُ الثانيةُ
استكمالُ التكوينِ العلميِّ

تأتي مرحلةُ اســتكمالِ التكوينِ العلميِّ كخطوةٍ بنائيةٍ على أصلٍ وقاعدةٍ، فهي أشبهُ بتشــييدِ البناءِ بعدَ إرســاءِ قواعدِه، فبعدَ أن مرَّ الطالبُ بمتونٍ مُختصَرةٍ في علمِ التوحيدِ، والفقهِ، والأصولِ، والمصطلحِ، وأصولِ التفســيرِ، وأدبِ الطلبِ = يكونُ قد تأهَّل ليَتنسَّمَ العلمَ وعبيرَ أخبارِه، ويعرف عن ماذا كانوا يتحدثون؟ وكيف أتى لهم تقعيدُ تلك القواعدِ؟ وما هي أدلَّتُهم؟ وكيف يتمُّ دفعُ الخطإِ عنها؟

أهميةُ مرحلةِ استكمالِ التكوينِ:

تَبرُزُ من خلالِ أمورٍ، منها:

١- أنَّ الخائضَ في منهجٍ تأصيليٍّ دونَ استكمالِ التكوينِ العلميِّ = جامعٌ مِن كلِّ فنٍّ بطرَفٍ؛ فهو مُثقَّفٌ لا يخدمُه علمُه -في الأغلَبِ- عندَ ورودِ شُبهةٍ، أو ظهورِ إشكالٍ، أو تحقيقِ مناطٍ على الواقعِ العلميِّ.

والحقيقةُ أنَّ سكينةَ القلبِ، والطمأنينةَ في العلمِ والفتوى تتحققُ فيمَن أتمَّ مرحلتَي التأصيلِ واســتكمالِ التكوينِ؛ كما قال الزَّركَشــيُّ رحمه اللهُ: (والحكيــمُ إذا أراد التعليمَ، لا بدَّ له أن يجمعَ بينَ بيانينِ: إجماليٍّ

تَتشوَّفُ إليه[1] النفسُ، وتفصيليٌّ تَسكُنُ إليه)[2].

٢- أنَّ التَّعالُمَ، والغــرورَ العلميَّ، والجُرْأةَ على طرحِ الرأيِ، مَنشــؤُه في طبقةٍ مرَّتْ على العلومِ، ولم تُتقِنْ آحادَهــا، فوهْمُ الإتقانِ والتحصيلِ يجدُ طريقَه عبرَ مساربِ المرحلةِ الأَوَّليَّةِ في الطلبِ قبلَ اكتمالِ التأهيلِ العلميِّ.

٣- أنَّ كثيرًا ممَّن انــدرجَ في الطلبِ، وتفرَّغ لنَيلِــه، ممَّن خاض المرحلةَ الأولى واكتفَى بها = آلَ أمرُه إلى ضياعٍ علميٍّ، وتفريطٍ، وحســرةٍ على حالِه. وأنتَ تجدُ هذا في أبناءِ جيلِكَ، وفي نفسِــكَ؛ فترى مَن انســبَكَ في منهجِ التأصيلِ العلميِّ، ثُمَّ انقطَع ولم يُكمِلْ تأهيلَه، يجدُ مِن نفسِــه العجزَ والتشتُّتَ بينَ ثنايا الطلبِ، ويحتاجُ إلى مُعِينٍ، فهو عارفٌ إجمالًا تائهٌ تفصيلًا!

حقيقةُ استكمالِ التكوينِ:

تظهرُ حقيقةُ هذا المصطلحِ إذا نظَرْنا إليه باعتبارِ مُفرَدَيْه، وباعتبارِ إطلاقِه على مرحلةٍ علميةٍ مُعيَّنةٍ.

فبالأوَّلِ: باعتبارِ مُفرَدَيْه:

١- الاستكمالُ: أصلُه (كمُل)، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمامِ الشيءِ[3].

---

(١) أفاد مُحقِّقُه أنَّ في نسخةٍ أخرى: (معه). وهذه تفيدُ معنًى رائقًا؛ كأنَّ النفسَ تتشوَّفُ أكثرَ معَ الخوضِ في التفصيلِ بعدَ مرحلةِ التأصيلِ الإجماليِّ.

(٢) «المنثور في القواعد» ١/ ٦٥-٦٦.

(٣) «مقاييس اللغة» ٥/ ١٣٩.

واستكمَلَ الشـــيءَ: اســتَتَمَّه[1]، ويُقالُ: تكامَلَ الشـــيءُ، وأكمَلتُه أنا، وأكمَلتُ الشيءَ؛ أي أجمَلتُه وأتمَمتُه. وأكمَلَه هو، واستكمَله، وكمَّله: أتمَّه وجمله[2].

٢- التَّكوينُ:

أصلُ مادَّةِ (التكوين): إيجادُ شيءٍ مسبوقٍ بمادَّةٍ[3].

وقال ابنُ الأثيرِ: الكونُ: مصدرُ (كان) التَّامَّةِ. يُقالُ: كان يكونُ كونًا؛ أي وُجِد واستَقَرَّ[4]. ويُقالُ: كوَّنه فتكوَّن؛ أي أحدَثَه فحدَث[5].

وفي الحديثِ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ -رضي اللهُ عنه-، سَمِع النبيَّ ﷺ يقول: «**مَن رآني فقد رأى الحقَّ؛ فإنَّ الشَّيطانَ لا يَتكوَّنُني**»[6]؛ أي يَتشبَّهُ بي، ويَتصوَّرُ بصورتي. وحقيقتُه: يصيرُ كائنًا في صورتي[7].

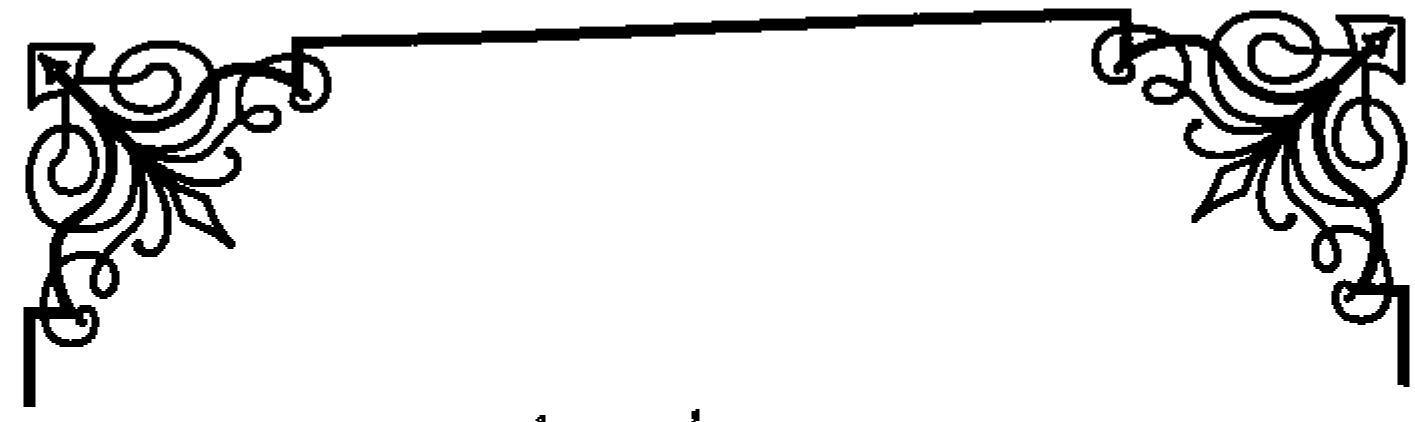
فمَدارُها على إحداثِ شيءٍ لم يكنْ، واستقرارِه.

وبالثاني: باعتبارِ إطلاقِه على المرحلةِ المُعيَّنةِ -استكمال التكوين العلمي-: (إتمامُ المُتعلِّمِ طريقَ التَّعلُّمِ، وثبوتُه عليه؛ للحصولِ على صورةٍ كاملةٍ للعلمِ).

فاســتكمالُ التكوينِ -إذَنْ- إكمالٌ للتأهيلِ، وتصوُّرٌ دقيقٌ، واطِّلاعٌ واســعٌ، وتمحيصٌ؛ للحصولِ على صورةٍ كاملةٍ للعلمِ.

---

(١) «المعجم الوسيط» ٢/ ٧٩٨.
(٢) «لسان العرب» (كمل) ١١/ ٥٩٨.
(٣) «تاج العروس» ٣٦/ ٧١.
(٤) «النهاية في غريب الحديث والأثر» ٤/ ٢١١.
(٥) «مختار الصحاح» (كون) ٢٤٣.
(٦) رواه البخاريُّ رقم (٦٩٩٧).
(٧) «النهاية في غريب الحديث» ٤/ ٢١١.



المرحلةُ الثالثةُ
البحثُ العلميُّ والتصنيفُ

مرحلــةُ البحثِ العلميِّ تأتي كمَطلَــبٍ مُهِمٍّ لطالبِ العلمِ، بعــدَ إنهاءِ مرحلةِ التأصيلِ، وشــروعِ الطالبِ في اســتكمالِ التكوينِ، والاطِّلاعِ علــى مصادرِ العلمِ، والتعاملِ مع الكتبِ المبسوطةِ في الفنونِ المُختلِفةِ.

أهميةُ البحثِ لطالبِ العلمِ:

للبحثِ أهميةٌ كبرى لطالبِ العلمِ، منها:

١- وَثاقةُ العلمِ، واستحكامُه:

فالبحثُ يُوثِّقُ أدلَّةَ الطالبِ، ويُحكِمُ نسجَ ذهنِه، وبه يَصلُبُ عُودُه، ويَثبُتُ قلبُه ويَمتُن، خلافًا لمَن كانت عمدتُه السماعَ، وأدلَّتُه «أظنُّ» و «أتوقَّعُ»!

يقول الخضر حسين رحمه الله: (الملكاتُ تقوى بالبحثِ في لُباب العلمِ أكثر مما تقوى بالمناقشةِ في ألفاظِ المؤلِّفين)[1].

٢- فتقُ عقلِ الطالبِ وأُفُقِه للعلومِ:

فالبحثُ يثيرُ لديه حبَّ الاطِّلاعِ والاستزادةِ، ومع إلفِ ذلك يعتادُ عقلُه البحثَ

(١) «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين» ٥/ ١/ ١٦٤.

عن حقائقِ العلومِ وجذورِ القضايا.

٣- سلامةُ الطالبِ من الجمودِ والعصبيةِ:

فالجمودُ والعصبيةُ من أخطرِ ما تتوارثُه العقول، وللأسف تشاعُ بين الطلابِ وتروجُ تحت مسمَّى الاتباعِ والثبات، وغير ذلك، فالبحثُ يحصن الطالبَ من الإشاعاتِ والخُرافاتِ والتي قد تروجُ بأسماءَ علمية ومصطلحاتٍ شرعية.

٤- الاطّلاعُ على دقائقِ العلمِ وحقائقِه.

الفرقُ بينَ البحثِ العلميّ والتصنيفِ:

البحثُ العلميُّ لا ينفكُّ عنه طالبُ علمٍ، فإذا أمضى الطالبُ شطرًا حسنًا في البحثِ، معَ اكتمالِ نظرتِه للعلمِ ودروبِه؛ تأهَّل للتصنيفِ.

فمرحلةُ التصنيفِ -في الواقعِ- تاليةٌ لمراحلِ: التأصيلِ، واستكمالِ التكوينِ، والبحثِ العلميِّ، وحقيقتُها هي حقيقةُ البحثِ العلميِّ، إلَّا أنَّه يَعرِضُ علمَه على غيرِه مِن إخوانِه ومشايخِه؛ للإفادةِ، والتقويمِ، والنظرِ فيما آلَ إليه نظرُه وفحصُه. وقد ينشرُ الطالبُ بحثَه لإفادةِ العامَّةِ.

فائدةٌ:

حكَى ابنُ الجوزيِّ -رحمه اللهُ- عن الوزيرِ يحيى بنِ محمدِ بنِ هُبَيرةَ -رحمه اللهُ- أنَّه قال: (يحصُلُ العلمُ بثلاثةِ أشياءَ:

أحدُها: العملُ به؛ فإنَّ مَن كلَّف نفسَه التكلُّمَ بالعربيةِ؛ دعاه ذلك إلى حفظِ النحوِ، ومَن سأل عن المُشكِلاتِ ليعملَ فيها بمُقتضَى الشرعِ؛ تعلَّم.

والثاني: التعليمُ؛ فإنَّه إذا علَّم الناسَ؛ كان أدعَى إلى تعليمِه.

الثالثُ: التصنيفُ؛ فإنَّه يُخرِجُه إلى البحـثِ، ولا يتمكنُ مِن التصنيفِ مَن لم يدركْ غورَ ذلك العلمِ الذي صنَّف فيه)[1].

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي ١/١٥٦-١٥٧.



إشاراتٌ للباحثِ والمصنِّفِ

البحثُ حياةُ الطالبِ والمعلِّمِ، وهذه إشاراتٌ يُرجَى منها النفعُ -إن شاء اللهُ- لِمَن تأمَّلَها:

البحثُ بحرٌ لا ساحلَ له

فما من مسـألةٍ إلَّا وترتبطُ بها أخرى، ومَن خاض غمارَ التنقيبِ عن المسائلِ؛ أدرَكَ ذلك عِيانًا، فكلما أوغَلَ الباحثُ في بحث مسـألة؛ أدرَكَ أنَّ بينَها وبين مسـألة أخـرى صلة، ووجد قاعدةً تُحكِمُ أصلَها، أو فرعًا اسـتُمِدَّ منها، أو اختلافًا في ضبطِ الصورةِ، وتخليص محل الوفاق من مواضع النزاع.

والحالُ كما قيل لحمَّادٍ الرَّاويةِ: أمَا تشـبعُ من هذه العلومِ؟! فقال: اسـتَفرَغْنا فيها المجهودَ، فلم نبلغْ منها المحدودَ، فنحنُ كما قال الشاعرُ:

إذا قطَعْنـا عَلَمًـا بدا عَلَمُ[1] ....

فلتكنْ -إذَنْ- باحثًا، لا هاويًا للتأليفِ، متى تَمَّ له الرصفُ، وظهر هيكلُ البناءِ؛ توقَّفتْ آلةُ النظرِ والإضافةِ، وظنَّ ذلك كافيًا!

نظرُ الباحثِ الحقيقيِّ على المسألةِ والفائدةِ

---

(١) «أدب الدين والدنيا» ص٣٧- ٣٨. والعَلَمُ: الجبلُ. والبيتُ لجريرٍ والأولى أن يذكر شطره الثاني بعد معرفة قائله.

فلا يُشغِلُ فِكرَه بـ (متى الوصولُ إلى نهايتِها؟)، فمسألةٌ تُسلِمُه إلى أخرى، ونظرٌ يدعوه إلى نظرٍ آخرَ، وتأمُّلٌ يُؤدِّيه إلى تعقُّبٍ، وهكذا إلى أن يصطبغَ فؤادُه بخُلُقِ التَّروِّي والتأنِّي والتحقيقِ العلميِّ.

وكم رأَيْنا في الواقعِ مَن إذا طلَب منه مُعلِّمُه بحثًا في مسألةٍ؛ اغترَّ لذلك كثيرًا، بل يبدأُ في التفكيرِ في دارِ نشرٍ، فتسبحُ به أحلامُ اليقظةِ ليغوصَ في بحرِ أوهامٍ!!

البحثُ مهارةٌ وحُبٌّ

فمتى أعمَل الطالبُ فكرَه في البحثِ والتنقيبِ، وأُعِينَ بحبِّ العلمِ والنَّهَلِ منه؛ مُكِّن منه، وظَفِر بمطلوبِه؛ إذْ لا يُنالُ بتكلُّفٍ ولا مُحاكاةٍ دونَ مهارةٍ وحُبٍّ يدفعانِه إلى الاستزادةِ والوصولِ إلى حقيقةِ العلمِ في المسألةِ التي يَنشُدُها، ويرغبُ في افتضاضِها وبلوغِ جَذرِها.

البحثُ حياةُ العالِمِ ووسيلةُ المتعلِّمِ

البحثُ حياةُ العالِمِ؛ إذْ هو وَقودُه، وماءُ حياتِه، وهو سبيلُ الوصولِ إلى رتبةِ العالِميَّةِ والحفاظِ عليها، فإذا ما توقَّفتْ آلةُ البحثِ؛ ضمَر العلمُ، وأُسدِل حجابُ الجهلِ، وتطايَر المحفوظُ.

فلا مناصَ -إذَنْ- من البحثِ؛ إذْ لا تقدُّمَ في مدارجِ العلمِ، ولا رفعةَ للأُمَّةِ إلَّا بالبحثِ العلميِّ الجادِّ والنافعِ.

وليس أضرَّ على الأُمَّةِ من قالةٍ تهدُّ جبلَ العزيمةِ، وتطفئُ نورَ الذهنِ، وُلِدتْ مِن رَحِمِ الظلامِ والبطالةِ، منها: (ليس في الإمكانِ غيرُ ما كان)، أو قولُهم: (العلمُ موجودٌ في الكتبِ والبحوثِ، والمهمُّ مَن الذي يقرأُ)، أو (الناسُ شُغِلتْ عن العلمِ، والآنَ جاء دَورُ الصورةِ والإعلامِ)؛ فهي عباراتٌ تحطُّ من قدرِ قائلِها، وتنقضُ عزمَ

مستمعِها.

فَحْواها: تركُ النظرِ والبحثِ عن حكمِ اللهِ ورسولِه ﷺ، والاستسلامُ لفسادِ أهلِ هذا الزمنِ، وانصرافُهم إلى خداعِ الصورةِ وبريقِ الفضائياتِ.

وإنْ لم يكنْ في الانشغالِ بالعلمِ الشرعيِّ، والبحثِ في الشريعةِ وما يتعلقُ بها، إلا إبرازُ الدَّورِ الشرعيِّ، وتنزيلُ الأحكامِ، وفرضُ رؤيةٍ شرعيةٍ لحوادثِ العصرِ وتِقْنيَّاتِه ومُلابَساتِه = لَكفَى. وأين هؤلاء من النوازلِ العَقَديَّةِ، والسياسيةِ، والطِّبِّيةِ، والاقتصاديةِ، وغيرِها؟!

كأنَّ المُردِّدَ لهذه العباراتِ تَسلَّلتْ إليه مادَّةُ هزيمةٍ من الواقعِ!!

ومِن جميلِ المنقولِ ما ذكَره المُزَنيُّ، حيثُ قال: سمعتُ البُوَيطيَّ يقولُ: قلتُ للشافعيِّ: إنَّكَ تَتعَنَّى[1] في تأليفِ الكتبِ وتصنيفِها، والناسُ لا يلتفتون [إليكَ] ولا إلى تصنيفِكَ؟! فقال لي: (إنَّ هذا هو الحقُّ، والحقُّ لا يضيعُ)[2].

البحثُ اختِمارٌ

وهذا كما قال الإمامُ الزُّهْريُّ -رحمه اللهُ- فيما حكاه عنه يونسُ بنُ يزيدَ، حيثُ قال: قال لي ابنُ شهابٍ: يا يونسُ، لا تُكابِرْ هذا العلمَ؛ فإنَّما هو أوديةٌ، فأيُّها أخذتَ فيه قبلَ أن تبلغَه؛ قُطِعَ بكَ، ولكنْ خُذْه معَ الليالي والأيامِ[3].

البحثُ أمانةٌ

الباحثُ، والكاتبُ، والمؤلِّفُ، والمعلِّمُ = مِن خيرِ الوظائفِ وأشرفِ المهنِ،

(١) أفاد مُحقِّقُه أنَّ هذه اللفظةَ في «المُختصَرِ»: (تتعبنا).

(٢) «تاريخ دمشق» ٥١/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٤٣١، رقم ٦٥٢.

أَلَا وهي التوقيعُ عن ربِّ العالمينَ سبحانه، وتبليغُ الشرعِ، والنُّصحُ للأُمَّةِ الإسلاميةِ، وهذا يدعونا لاستشــعارِ الأمانةِ في البحثِ والنقلِ؛ فما لم يكنِ الباحثُ أمينًا مُتجرِّدًا عن الهوى والأغراضِ؛ كان ما يَسطُرُه إفسادًا، وسعيًا في إضلالِ الخلقِ، وخيانةً للأُمَّةِ!

نستشــعرُ هذه الأمانةَ في صنيعِ الإمامِ المزنيِّ؛ لنرى حرصَه على فهمِ الناسِ، وأن يباركَ اللهُ لهم في العلمِ، ويُعِينَهم عليه.

يقولُ الإمامُ المزنيُّ رحمه اللهُ: (بقيتُ في تصنيفِ هذا «المُختصَرِ» سِتَّ عشْرةَ سنةً، وما صلَّيتُ للهِ فريضةً ولا نافلةً إلَّا سألتُ اللهَ البركةَ لِمَن تَعلَّمه ونظَرَ فيه)[1].

ابحَث فيما تحتاجه أُمَّتُك، لا أن تُجارِيَ موضةَ العصرِ

ذلك أنَّ الواقعَ يحملُ زخمًا كثيرًا، وســفاهاتٍ، وانصرافًا عن الجادَّةِ النافعةِ، هــذا على الواقعِ الحياتي للناسِ. أمَّا في الواقعِ العلميِّ؛ فإنَّ هوسَ الموضةِ، والكتابةَ للكتابــةِ، وحديثَ المُجاراةِ هو الغالبُ؛ فـ (أبناءُ هذا الزمــانِ لا تتوجَّهُ طبائعُهم إلى إدراكِ العلومِ ومبانيها، واقتباسِ فوائــدِ الفنونِ ولو بفهمِ بعضِ معانيها، فضلًا عن أن يحيطوا بجميعِ المقاصدِ والغاياتِ، ويبلغوا مــن معرفتِها وضبطِها إلى النهاياتِ، إلَّا واحدًا من الألــوفِ المُؤلَّفةِ، وفردًا من الأحزابِ المُتحزِّبةِ؛ ممَّن لهم همَّةٌ شــامخةٌ، ورويةٌ داريةٌ في كســبِ المعــارفِ والعلومِ، أو دولةٌ باذخةٌ، وقدرةٌ ســاريةٌ في جمعِ المقســومِ؛ فإنَّه قد يرفعُ الرأسَ إلى معرفةِ العلمِ بدءًا وغايةً، وينحو إلى اســتعلامِ أمرِ الأولِ والنهايةِ.

وكلُّ الخلــقِ وجلُّهم مغمورون في اللَّذَّاتِ العاجلــةِ الخاطئةِ الكاذبةِ الفانيةِ، ويُؤثِرونهــا -ولو كان بهم خَصاصةٌ- على النِّعَمِ الآجلةِ الدائمةِ الباقيةِ، إلَّا مَن عصَمه اللهُ تعالى.

(١) «خُطبة الكِتاب المُؤمَّل» لأبي شامة، ص١٣٧.

فـكأنَّ الناسَ كلَّهم قد صاروا أجناسًـا بلا فصولٍ، أو إناثًـا بلا فحولٍ! معَ أنَّ الإنسانَ إنَّما تميَّز عن الحيوانِ بالنطقِ والعلمِ والعرفانِ، ولو لم يكنِ العلمُ في البشرِ؛ لكانَ هو وجميعُ الحيواناتِ سواسـيةً في كلِّ شأنٍ! فإنَّا للهِ على ذَهابِ العلمِ وأهليه، وفشوِّ الجهلِ وعُلوِّ ذويه)[1].

والواجبُ على طالبِ العلمِ: أن يبتعدَ عن الخوضِ فيما يخوضُ فيه الناسُ، إلَّا أن يسـعى لإصلاحِ الواقعِ وتقويمِه، ويختطَّ لنفسِه طريقًا إلى نفعِ الخلقِ وردِّهم إلى الجادَّةِ، فيبدأَ بغاباتِ الأوهامِ ليحصدَها بمِعْوَلِ العلمِ الشـرعيِّ، ويستفرغَ الوُسعَ في إرشـادِهم ودَلالتِهم على ما ينفعُهم في دينِهم ودنياهم. ولا شـكَّ أنَّ ذلك يشقُّ على السالكِ أولَ أمرِه، لكنَّ اللهَ سيُعِينُه ويُوفِّقُه.

البحثُ دُرْبةٌ على استقلالِ الشخصيةِ العلميةِ

وهذه من مهماتِ الطالبِ النابهِ، الحريصِ على إكمالِ تكوينِ نفسِـه، وكذلك هي مـن مهماتِ المعلِّـمِ الناصحِ؛ إذْ يتحتمُ عليـه أن يعينَ الطالبَ على اسـتقلالِ الشخصيةِ العلميةِ، ويأخذَ بيدِه ليقفَ على قدميه منفردًا معَ الكتبِ والبحثِ والتحليلِ والموازنةِ.

وقد قال الخطيبُ البغداديُّ رحمه اللهُ: (وكان بعضُ شـيوخِنا يقولُ: مَن أراد الفائدةَ؛ فليكسرْ قلمَ النَّسخِ، وليأخذْ قلمَ التخريجِ)[2].

وصدَقـوا، فبالجمعِ والبحثِ والتصنيـفِ تُصقَلُ الشـخصيةُ العلميةُ، وتُنالُ الفوائدُ بلا حدٍّ، ويأتيه العلمُ صافيًا غضًّا طريًّا مُبارَكًا، لم يُشَـبْ بنقصٍ أو سـوءِ فهمٍ أو تأويلٍ خاطئٍ.

---

(١) «أبجد العلوم» ص١٨.

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ٢/ ٢٨٢.

وهنا مُفارَقةٌ عجيبةٌ بينَ حالِ المُقتصِرِ على النسخِ والقراءةِ دونَ الفحصِ والتحليلِ والبحثِ، وحالِ مَن خاض بحارَ البحثِ؛ فكأنَّ ذهنَ الأولِ جامدٌ، والآخرِ مُنتِجٌ.

ترى سِرَّ هذا المعنى كامنًا في عبارةِ الحافظِ ابنِ حجرٍ -رحمه الله-؛ إذْ يقولُ في ترجمةِ سراجِ الدينِ ابنِ المُلقِّنِ -رحمه الله-: (ومهَر في الفنونِ، وكان في أولِ أمرِه ذكيًّا فَطِنًا، رأيتُ خطوطَ فضلاءِ ذلك العصرِ في طباقِ السماعِ بوصفِه بالحفظِ ونحوِه من الصفاتِ العَلِيَّةِ. ولكنْ لمَّا رأيْناه؛ لم يكنْ في الاستحضارِ ولا في التصرُّفِ بذلك؛ فكأنَّه لمَّا طال عمرُه استروَح وغلَبتْ عليه الكتابةُ، فوقَف ذِهنُه)[1].

البحثُ يُحرِّرُ الطالبَ من الجهلِ، ويُكمِّلُ أهليَّته

فالبحثُ يؤدِّي إلى اكتمالِ الأهليةِ بالتفتيشِ والتنقيبِ والمراجعةِ، كما أشار إلى ذلك ابنُ جَماعةَ؛ حيثُ قال: (فإنَّه يَطَّلِعُ على حقائقِ الفنونِ ودقائقِ العلومِ؛ للاحتياجِ إلى كثرةِ التفتيشِ والمطالعةِ والتنقيبِ والمراجعةِ، وهو كما قال الخطيبُ البغداديُّ: (يُثبِّتُ الحفظَ، ويُذكِي القلبَ، ويَشحَذُ الطبعَ، ويجيدُ البيانَ، ويُكسِبُ جميلَ الذِّكرِ وجزيلَ الأجرِ، ويُخلِّدُه إلى آخرِ الدهرِ)[2].

ونصُّ الخطيبِ كما في «الجامع»: (قلَّ ما يَتمهَّرُ في علمِ الحديثِ، ويقفُ على غوامضِه، ويستثيرُ الخفيَّ من فوائدِه، إلَّا مَن جمَع مُتفرِّقَه، وألَّف مُتشتِّتَه، وضمَّ بعضَه إلى بعضٍ، واشتغَل بتصنيفِ أبوابِه وترتيبِ أصنافِه؛ فإنَّ ذلك الفعلَ ممَّا يُقوِّي النفسَ، ويُثبِّتُ الحفظَ، ويُذكِي القلبَ، ويشحذُ الطبعَ، ويَبسُطُ اللسانَ، ويجيدُ البيانَ، ويكشفُ

(١) «ذيل الدُّرَر الكامنة» ص١٢٢.

(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» ص٥٩-٦٠.

المُشتبِهَ، ويُوضِّحُ المُلتبِسَ، ويُكسِبُ أيضًا جميلَ الذِّكرِ وتخليدَه إلى آخرِ الدهرِ)[1].

والبحثُ أيضًا تحريرٌ للطالبِ من الجمودِ، وإبعادٌ له عن التعصُّبِ للأقوالِ والمشايخِ والعلومِ والأفكارِ؛ لأنَّه في زيادةٍ، وحراكٍ فكريٍّ دؤوبٍ.

بالبحثِ والكتابةِ تَخلُدُ العلومُ

فبالبحثِ تبقى العلومُ، وتنتشرُ أحكامُ اللهِ ورسولِه ﷺ، وتُشاعُ بينَ الناسِ، فلا تصرِفنَّكَ عن البحثِ والكتابةِ والتنقيبِ سماسرةُ السياسةِ والإعلامِ.

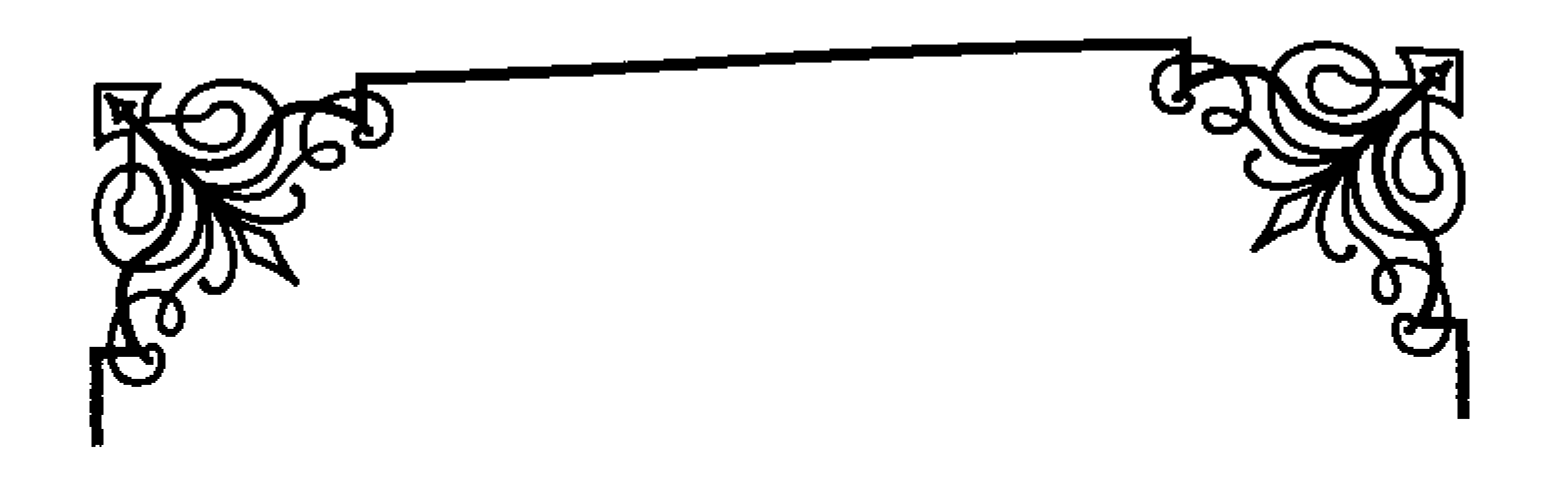


(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ٢/ ٢٨٠.

التَّدرُّجُ التَّحصِيليُّ

لا يخـوضُ في فنٍّ حتَّى يسـتوفيَ الفنَّ الَّـذي قبلَه؛ فإنَّ العلـومَ مُرتَّبةٌ ترتيبًا ضروريًّا، وبعضُها طريـقٌ إلى بعضٍ، والمُوفَّقُ مَن راعَى ذلـك التَّرتيبَ والتَّدريجَ.. وليكنْ قصدُه في كلِّ علمٍ يَتحرَّاه التَّرقِّيَ إلى ما هو فوقَه..

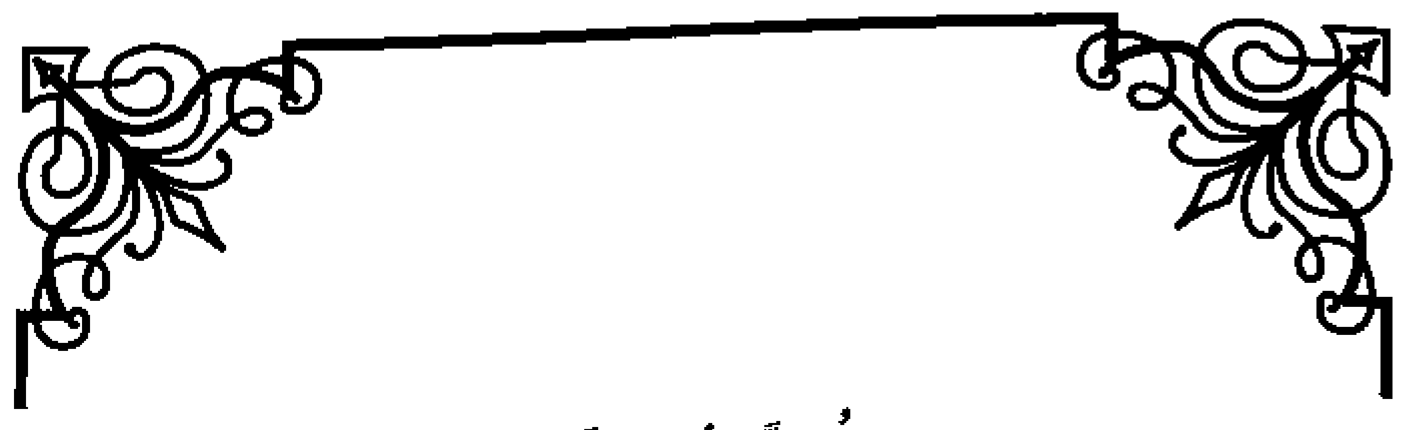
أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمه اللهُ



التَّدرُّجُ في نيلِ العلمِ من أبرزِ معالمِه وشروطِه، وهو سُنَّةٌ شرعيةٌ وكونيةٌ، ومُراعاةٌ للنفسِ البشريةِ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]. يقول العلَّامةُ عبدُ الرَّحمنِ السَّعْديُّ رحمه اللهُ: على مهلٍ؛ ليَتدبَّروه ويَتفكَّروا في معانيه، ويستخرجوا علومَه.

ويقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩]، وفي «صحيحِ البخاريِّ»: قال ابنُ عبَّاسٍ -رضي اللهُ عنهما-: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾: (حُلَماءَ فُقَهاءَ). ويُقالُ: (الرَّبَّانيُّ: الَّذي يُربِّي الناسَ بصِغارِ العلمِ قبلَ كِبارِه).

فالتَّدرُّجُ في مراقي التعلمِ: مُراعاةٌ لطبيعةِ النفسِ البشريةِ في الترتيبِ الطبيعيِّ للمعاني والمعلوماتِ؛ إذِ البدءُ بفكرةٍ عامَّةٍ مُثِيرٌ للذِّهنِ لولوجِ التفاريعِ شيئًا فشيئًا؛ ليَحصُلَ حينَئذٍ ترتيبُ المعاني الواردةِ عليه؛ فيكونَ أدعَى لرسوخِه وثباتِه. أمَّا لو كان العكسُ حاصلًا؛ لأدَّى ذلك إلى خلطِ مسائلِ العلمِ، وتَحرُّرِها عن رباطٍ مُنسبِكٍ وعِقْدٍ مُتماسِكٍ. فكان التدرجُ ضرورةً علميةً، رُوعِيتْ فيها طبيعةُ النفسِ، وحاجتُها إلى حصولِ المعاني شيئًا بعدَ شيءٍ.



حقيقةُ التَّدرُّجِ التَّحصيليِّ

يقولُ ابنُ فارسٍ: الدالُ والراءُ والجيمُ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على: مُضِيِّ الشـيءِ، والمُضِيِّ في الشيءِ.

مِن ذلك قولُهم: درَج الشـيءُ؛ إذا مضَى لسبيلِه. ورجَع فلانٌ أدراجَه؛ إذا رجَع في الطريقِ الذي جاء منه. ودرَج الصبيُّ؛ إذا مشَى مشيتَه. قال الأصمعيُّ: درَج الرجلُ؛ إذا مضَى ولم يُخلِّفْ نسلًا. ومدارجُ الأَكَمةِ: الطُّرُقُ المُعترِضةُ فيها.

قال الفيروزأباديُّ: كسَـمِعَ: صَعِد في المراتبِ. وعلَّـل الزَّبيديُّ: لأنَّ الدرجةَ بمعنى المنزلةِ والمرتبةِ[1].

وقال اللَّيثُ: الدرجةُ: الرِّفعةُ في المنزلةِ. ودرجاتُ الجِنانِ: منازلُ أرفعُ[2].

فالمُختارُ من معاني (درَج): الصُّعودُ في المراتبِ العليَّةِ.

وأمَّا في الاصطلاحِ:

فبعدَ النظرِ في مادَّتِها اللُّغويَّةِ، يظهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّها تصلحُ لمعنيينِ مفيدينِ هنا:

---

(١) «تاج العروس» ٥/ ٥٥٥.

(٢) «تهذيب اللغة» ١٠/ ٣٣٨.

الأوَّلُ: التّرقِّي من الأسهلِ إلى المُركَّبِ:

كالتَّرقِّي من إدراكِ أصولِ الشـيءِ وقواعدِه العامَّةِ، إلـى الجزئياتِ التي بُنِيتْ عليها، أو الترقِّي من تصوُّرٍ عامٍّ إلى التصديقِ، أو صغارِ العلمِ قبلَ كبارِه.

ويمكـنُ أن يُعبَّرَ عنه -أيضًا- بالترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، أو من الأهمِّ إلى المهمِّ في علومٍ، والترقِّي يقعُ في كتبِ ومسائلِ كلِّ فنٍّ؛ على حدِّ قولِ القائلِ:

إنَّ الأهمَّ علـى المُهِمِّ مُقدَّمٌ راعِ التَّدرُّجَ عندَ أهلِ الشَّانِ

يقولُ أبو حامدٍ الغزالـيُّ رحمه اللهُ: (وليكنْ قصدُه في كلِّ علمٍ يتحرَّاه التَّرقِّيَ إلى ما هو فوقَه)[1].

الثاني: التعاقبُ: (وهو الانتقالُ إلى مرحلةٍ بعدَ إمضاءِ ما يُقدَّم عليها)، فيشملُ:

١- تعاقـبَ العلومِ؛ كعلومِ الغايةِ ثُـمَّ علومِ الآلةِ، والأهمَّ من العلـومِ ثُمَّ المهمَّ؛ كالتَّوحيدِ ثُمَّ الفقهِ.

٢- تعاقبَ المراحلِ: من مبتدئٍ فمُتوسِّطٍ فمُنتَهٍ.

٣- تعاقبَ الكتبِ: وذلك في المرحلةِ بعينِها من كتبِ تخرُّجٍ إلى استكمالِ التكوينِ إلى إثراءٍ معرفيٍّ.

فالطالبُ مُترقٍّ في مدارجِ العلومِ؛ يختارُ منها أنسبَ الكتبِ وأوفاها بالمقصودِ، ويتعلَّمُ أهمَّ ما فيها ويتقنُه، ويَعقُبُ ذلك تدرُّجٌ في المسائلِ، ثُمَّ العلومِ الأخرى، مُتنقِّلًا بيـنَ الكتبِ الأصليةِ فيها، وتركيـزُه على الانتقالِ من الأسـهلِ إلى الأصعبِ، ومن صغيرِها إلى كبيرِها.

---

(١) «إحياء علوم الدين» ص٦٤.

فالتدرجُ منهجٌ أصيلٌ ونَفَسٌ طويلٌ يُفضِي إلى مُكنةِ التحصيلِ، وهو سُنَّةٌ مباركةٌ، خلافًا لقفزِ المسافاتِ أو التردُّدِ بينَ سبلِ العلمِ، وتعجُّلِ النهاياتِ بلا منهجٍ مُتأنٍّ مُرتَّبٍ لن يصلَ صاحبُه لشيءٍ ذي بالٍ، ومِثلُه أيضًا عاجزُ الهمَّةِ المُتعلِّلُ بالتدرُّجِ في الطلبِ ليجعلَه مُتَّكأً تسويغيًّا يُحلِّلُ به تأخُّرَه في التحصيلِ وتخلُّفَه في العلمِ، فهذا في الحقيقةِ تدرُّكٌ وليس بتدرُّجٍ!

فالمدارجُ والرُّتَبُ ضرورةٌ في الطلبِ؛ لأنَّ عوائقَ الفهمِ، ولغةَ العلمِ، والمصطلحاتِ العلميةَ، والنقاشاتِ تَصُدُّه من قريبٍ، والسائرُ في منهجٍ مُتدرِّجٍ يُوقَ هذه العثرةَ، ويَسهُلُ عليه فهمُ وتصوُّرُ العلمِ وعباراتِه، ودَرْكُ النِّسَبِ بينَ فروعِ العلمِ؛ لأنَّه ابتدأ الفنَّ عاميًّا، ثُمَّ ترقَّى فيه، فترتَّبتْ لديه المسائلُ والأفكارُ، فتهيَّأَ لحملِ الأمانةِ العلميةِ، ومِثلُه خليقٌ بأن يُستأمَنَ على تراثِ الأُمَّةِ العِلميِّ.

يقولُ الشَّوكانيُّ رحمه اللهُ: (فإنَّكَ إذا ترقَّيتَ من البدايةِ التَّصوُّريَّةِ إلى العِلَّةِ الغائيَّةِ -التي هي أولُ الفِكرِ، وآخرُ العملِ-؛ كنتَ فردَ العالَمِ، وواحدَ الدهرِ، وقريعَ الناسِ، وفخرَ العصرِ، ورئيسَ القرنِ.

وأيُّ شرفٍ يُسامِي شرفَكَ، وأيُّ فخرٍ يُدانِي فخرَكَ، وأنتَ تأخذُ دِينَكَ عن اللهِ وعن رسولِه ﷺ، لا تُقلِّدُ في ذلك أحدًا، ولا تقتدي بقولِ رجلٍ، ولا تقفُ عندَ رأيٍ، ولا تخضعُ لغيرِ الدليلِ، ولا تُعوِّلُ على غيرِ النَّقدِ)[1].

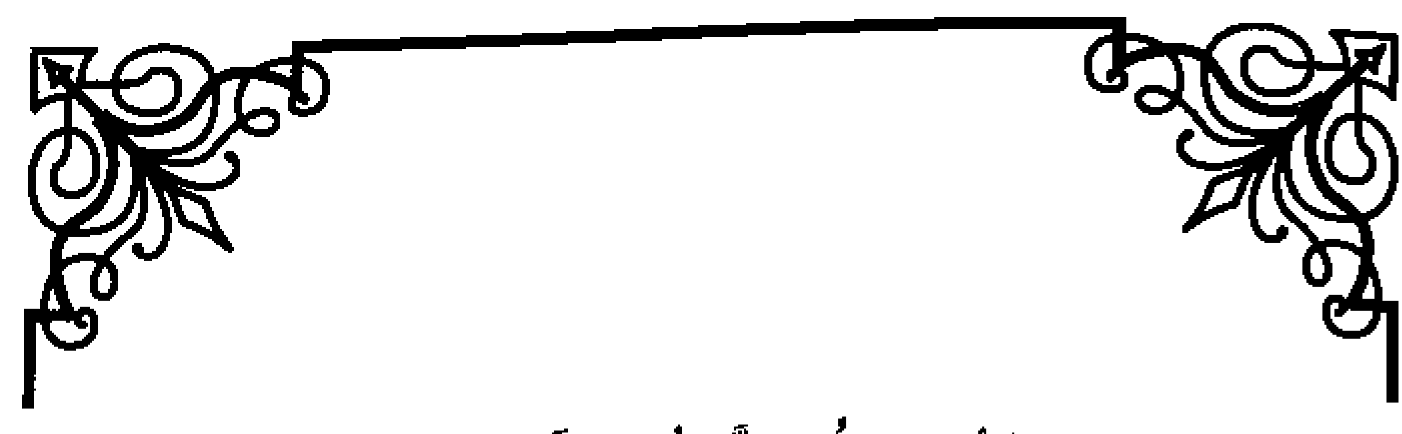
قال ابنُ حجرٍ رحمه اللهُ: (تعليمُ العلمِ، ينبغي أن يكونَ بالتدريجِ؛ لأنَّ الشيءَ إذا كان في ابتدائِه سهلًا؛ حُبِّبَ إلى مَن يدخلُ فيه، وتلقاه بانبساطٍ، وكانت عاقبتُه غالبًا الازديادَ، بخلافِ ضدِّه)[2].

(١) «أدب الطلب ومنتهى الأَرَب» للشوكاني، ص١٣٠.

(٢) «فتح الباري» لابن حجر ١/ ١٦٣.

فمَن راعَى هذه الرُّتَبَ والدرجاتِ؛ تأهَّل وحصَّل المرجوَّ من هذا العلمِ النافعِ، وقد ذكَر المُحِبِّـــيُّ -رحمه اللهُ- في ترجمةِ أحدِ أعيانِ القرنِ الحادي عشَرَ: (ولازَم والـــدَه في الفنونِ العلميَّةِ، وأخَذ عمَّن عاصَره من أكابـــرِ العلماءِ، حتَّى رَقِيَ المراتبَ العليَّةَ، وجدَّ في التحصيلِ، واشتغَل بالعلومِ على الأنماطِ الحسنةِ، وسلَك في الطلبِ الطريقَ الأقومَ؛ وبدأ بما هو الأقدمُ؛ فشرَع في العلومِ الشرعيةِ، ثُمَّ صرَف الهمَّةَ للقيامِ بخدمتَيِ التدريسِ والإفتاءِ، والانتصابِ لجوابِ مَن سأل واستفتَى)[1].

(١) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمُحِبِّيِّ ٣/ ١٦١.



ما يُعارِضُ التَّدرُّجَ التَّحصيليَّ

يُعارِضُه أمورٌ، منها:

١- الإغراقُ في الجزئيّاتِ في مقامِ ضبطِ البداياتِ:

والأَوْلى ضبطُ الأصولِ قبلَ الشروعِ في الفروعِ، والتركيزُ في متنٍ مُختصَرٍ قبلَ الغوصِ في تفاريعِ التصانيفِ.

٢- حرصُ المبتدئِ على المجالسِ التي تُعنَى بالتفصيلِ والإسهابِ:

فيقطعُ الفيافيَ والأوقاتِ؛ حرصًا على التَّلمُذِ على العالمِ المُسهِبِ في الشُّروحِ، قبلَ إدراكِ الأصولِ وأوائلِ العلومِ؛ وهذا يُضيِّعُ وقتَه، ويَغُرُّ نفسه!

كما يجبُ على العالِمِ ألَّا يستوعبَ جميعَ ما بحثه في مجالسِه، أو يذكرَ كلَّ ما أدَّاه إليه بحثُه؛ فالعالمُ إنَّما يُعطِي ما يحتاجُ إليه السامعُ، ولا يعطي ما هو فوقَ مقدارِه.

والأَوْلى بالعالمِ أن يكتفيَ بالتسهيلِ والتفهيمِ وذكرِ القواعدِ، ويحرصَ على منحِ الآلةِ العلميةِ وملكتِها للطالبِ، شيئًا بعدَ شيءٍ، مُستعمِلًا التدرجَ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾، والرَّبَّانيُّ هو الذي يُربِّي الناسَ بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه.

وقد كان كثيرٌ من العلماءِ لا يُعلِّقُ على المتنِ إلَّا بكلماتٍ يسيرةٍ، أو ذكرِ استشكالٍ يثيرُ ذِهنَ الطالبِ، ولا يُخرِجُه عن رُوحِ الكتابِ ولُبِّه، وإنَّما يثيرُ مسائلَ تأتي على غرضِ الكتابِ؛ لأنَّ مَقصدَ العالمِ إنَّما هو تفهيمُ الطالبِ، لا حشوُ ذهنِه بجميعِ

مسائلِ العلمِ في هذه المجالسِ؛ ذلك أنَّ استعراضَ محفوظاتِ الصُّدورِ ومضنوناتِ السطورِ تختلفُ أسلوبًا وصورةً عن مجالسِ التعليمِ والإفادةِ.

ومن عجيبِ الأمورِ، وآسَفِها: أن تُحمَّلَ المتونُ اليسيرةُ -المُفترَضُ فيها أن تدلَّ على حقيقةِ العلمِ بكلماتٍ قليلةٍ- آصارَ الخلافِ؛ فتدخلُ ورقاتُ المتنِ اليسيرِ مُعترَكَ الصراعِ لغةً واشتقاقًا، وترهقُ الأذهانَ نحوًا وإعرابًا، فيأتي مَن أراد تعلُّمَ متنِ «الورقاتِ» في أصولِ الفقهِ للجُوَينيِّ ليدرسَها في جلساتٍ، فإذا هي سنواتٌ؛ قد ملأها سوءُ التقديرِ للمتنِ وحاجةِ الطلابِ، وعدمُ البصيرةِ بحالِ التعليمِ! وكأنَّ الشارحَ والمعلِّمَ أخطأَ، فظنَّ أنَّه يشرحُ «البرهانَ» لا «الورقاتِ»، ويريدُ أن يرى تطبيقاتِه الأصوليةَ على الفروعِ الفقهيةِ فيُدخِلَ الطالبَ في «نهايةِ المطلبِ»، وإذا تعلَّقتِ المسألةُ الأصوليةُ بامتدادٍ كلاميٍّ أو عَلاقةٍ بأصولِ الدِّينِ ذهَب إلى «الإرشادِ» للجوينيِّ؛ ليَتحرَّرَ له، أو يقرأَها ويراجَعها سريعًا في «المسائلِ المُشترَكةِ» للشَّيخِ العروسيِّ!

يقولُ أبو حيَّانَ التَّوحيديُّ: (وإدخالُ العويصِ في المكانِ الذي يُحتاجُ فيه إلى رفعِ اللَّبسِ وزوالِ الإشكالِ = مُداجاةٌ في العلمِ، وخيانةٌ للحكمةِ، وجنايةٌ على المُستنصِحِ)[1].

والحقيقةُ أنَّه لمَّا كثُرتِ الاستفاضةُ، وبُولِغ في الحواشي والشُّروحِ؛ عزُب عن الطالبِ دَرْكُ مرامِ المصنِّفِ، وفهمُ عباراتِ المصنَّفِ.

وبمقارنةٍ يسيرةٍ بينَ مَن تصدَّى لشرحِ الكتبِ بإسهابٍ وإطالةٍ على حسابِ التأصيلِ والإتقانِ -اللَّذينِ هما هدفُ الطالبِ الأوَّلُ-، وبينَ مَن شرَحه في عدَّةِ مجالسَ = تجدُ أنَّ مجالسَ الشيخِ الأولِ [المُستفيضِ] قد خرَج عن لُبِّ الكتابِ،

---

(١) «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيَّانَ التوحيديِّ، ص٤٥١-٤٥٢.

وأنفاسِ المصنِّفِ ونكهةِ مؤلِّفِه. وأمَّا مَن حصَره فكان مسلكُه حسنًا؛ حيثُ نبَّه على غوامضِ المعاني ودقيقِ المباني، ووضَّح ما يَعسُرُ فهمُه، ويَعِزُّ ضبطُه، ولم يُسهِبْ إلَّا تفهيمًا أو اعتراضًا أو استدلالًا.

يقول الفيروزأباديُّ رحمه الله: (ومن شأنِ الأستاذِ الكاملِ أن يرتبَ الطالبَ الترتيبَ الخاص بذلك العلم، ويؤدِّبه بآدابِه، وأن يقصدَ إفهامَ المبتدئِ تصورَ المسائل، وأحكامَها فقط، وأن يثبتَها بالأدلةِ إن كانَ العلمُ مما يُحتاج إليه عند مَنْ يَستحضرُ المقدمات، وأما إيرادُ الشُّبهِ -إن كانت- وحلُّها فإلى المتوسطين المحققين)[1].

والخلاصةُ أنَّ (المقصودَ في كلِّ علمٍ مُدوَّنٍ: بيانُ أحوالِ موضوعِه؛ أعني أحوالَه التي توجدُ فيه، ولا توجدُ في غيرِه، ولا يكونُ وجودُها فيه بتوسُّطِ نوعٍ مُندرِجٍ تحتَه؛ فإنَّ ما يوجدُ في غيرِه لا يكونُ من أحوالِه حقيقةً، بل هو من أحوالِ ما هو أعمُّ منه)[2].

والمتعلِّمُ بهذه الطريقةِ الجادَّةِ التأصيليةِ، تقوَى نفسُه على المواصلةِ، وتتطلعُ همَّتُه إلى الزيادةِ، ولا يهابُ العلومَ هيبةً مانعةً من الاقترابِ منها، وما فاته من التفصيلِ والاستطرادِ (وسياسةِ العلمِ) في هذه المجالسِ = فسوف يُحصِّلُها في الكتابِ الآخَرِ.

وعلى مُعلِّمِه أن يُكلِّفَه بالاستزادةِ من القراءةِ في الشُّروحِ ومُراجَعتِها، على أن يكونَ جهدًا ذاتيًّا بحثيًّا، ولو بعقدِ اختبارٍ له بعد إتمامِ جزءٍ منَ الكتابِ مثلًا؛ ليتمكن من إتقان ما علم، وتحصيل ما فاته بسبب الاختصار، والأهم هو: أن يزول عنه رُهابَ الكتبِ التأصيليةِ.

وهنا يَبرُزُ فارقٌ كبيرٌ بينَ عالِمينِ ومنهجيَّتينِ:

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» ١/ ٥٠.

(٢) «أبجد العلوم» ص٥٤.

الأول: عالِمٌ مُرَبٍّ ينقلُ الملكةَ، ويُسلِّمُ مفاتيحَ العلومِ.

والثاني: عالِمٌ مركــزيٌّ، لا مصدرَ للطالبِ غيرُه، ولا مُرجِّحَ لديه إلَّا ما رجَّحه هو. فأَوْلُ أمرِه إلى التقليدِ لا محالةَ، وغربتُه بين كتبٍ ومصادرِ الإسلامِ مُتحقِّقةٌ!

وإذا ابتُلِي الطالبُ ببعضِ ذلك؛ فلا يحزنْ، وليثقْ بأنَّ اللهَ ســيَتداركُه برحمتِه، فيجبُ عليه البحثُ عن مُعلِّمِينَ آخرينَ، ويشــامُّ حُذَّاقًا ربَّانيِّينَ؛ يَترقَّوْنَ بالطُّلابِ في مدارجِ العلمِ بتأصيلٍ (أوَّليٍّ)، ثُمَّ استكمالِ تكوينٍ (تكميليٍّ)، ثُمَّ مِراسٍ وبحثٍ (نُقْلةٍ للعالِميَّةِ، وتدريبٍ على استقلالِ الشخصيةِ)؛ إذِ العلمُ هبةٌ وفضلٌ من اللهِ، ولا يحتكرُه أحدٌ من الأنامِ، وهو - سبحانه- يختصُّ به مَن شاء من عبادِه فضلًا وكرمًا.

***

وإليكَ يا شــاديَ العلمِ هذه النَّفثةَ التي تستشــعرُ فيها حرَّ أنفــاسِ ابنِ بدرانَ -رحمه اللهُ-، وحرارةَ نبضاتِ قلبِه، وهو يشتكي ما نُدَنْدِنُ حولَه:

(اعلَمْ أنَّ كثيرًا من الناسِ يقضون السِّــنينَ الطِّوالَ في تعلُّمِ العلمِ، بل في علمٍ واحدٍ، ولا يَحصُلونَ منه على طائلٍ، ورُبَّما قضَوا أعمارَهم فيه، ولم يرتَقوا عن درجةِ المبتدئين! وإنَّما يكونُ ذلك لأحدِ أمرينِ:

أحدُهما: عدمُ الذَّكاءِ الفِطْريِّ، وانتفاءُ الإدراكِ التَّصوُّريِّ. وهذا لا كلامَ لنا فيه، ولا في علاجِه.

والثاني: الجهلُ بطرقِ التعليمِ. وهذا قد وقَع فيه غالبُ المعلِّمينَ؛ فتراهم يأتي إليهم الطالبُ المبتدئُ ليتعلَّمَ النحوَ مثلًا، فيُشــغِلونه بالكلامِ على البســملةِ، ثُمَّ على الحمدلةِ أيَّامًا بل شهورًا؛ ليُوهِموه سعةَ مداركِهم، وغزارةَ علمِهم!

ثُــمَّ إذا قُدِّرَ لــه الخلاصُ من ذلك؛ أخذوا يُلقِّنونه متنًا أو شــرحًا بحواشــيه،

وحواشي حواشيه، ويَحشُرون له خلافَ العلماءِ، ويُشغِلونه بكلامِ مَن ردَّ على القائلِ، وما أُجِيبَ به عن الرَّدِّ، ولا يزالــون يضربون له على ذلك الوترِ، حتَّى يرتكزَ في ذهنِه أنَّ نــوالَ هذا الفنِّ مِن قبيلِ الصعبِ الذي لا يصلُ إليــه إلَّا مَن أُوتِي الولايةَ، وحضَر مجلسَ القُربِ والاختصاصِ! هذا إذا كان المُلقِّنُ يفهمُ ظاهرًا من عباراتِ المُصنِّفينَ.

وأمَّا إذا كان من أهلِ الشــغفِ بالرُّسومِ، أُشِيرَ إليه بأنَّه عالمٌ، فموَّه على الناسِ، وأنزَل نفسَــه منزلةَ العلماءِ المُحقِّقينَ، وجلس للتعليم، فيأتيه الطالبُ بكتابٍ مُطوَّلٍ أو مُختصَرٍ، فيَتلقَّاه منه سردًا؛ لا يفتحُ له منه مُغلَقًا، ولا يَحُلُّ له طِلَّسْمًا، فإذا سأله ذلك الطالبُ المسكينُ عن حلِّ مُشكِلٍ؛ انتفَخ أنفُه ووَرِم، وقابَله بالسَّبِّ والشتمِ، ونسَبه إلى البهائمِ، ورماه بالزندقةِ، وأشاع عنه أنَّه يطلبُ الاجتهادَ!

ومِن أولئكَ مَن لا يرومُ الحماقةَ، لكنَّه يقولُ: إنَّنا نقرأُ الكتبَ للتَّبرُّكِ بمُصنِّفيها! وأكثرُ هؤلاءِ هم الذيــن يتصدَّرون لإقراءِ كتبِ المُتصوِّفةِ؛ فإنَّهم يُصرِّحون بأنَّ كتبَهم لا يفهمُها إلَّا أهلُها، وأنَّهم إنَّما يُشــغِلون أوقاتَهم بها تبرُّكًا! ولَعَمْرِي لو تبرَّك هؤلاءِ بكتابِ اللهِ المُنزَّلِ؛ لكان خيرًا لهم من ذلك الفضولِ، وهؤلاءِ كالمُنبَتِّ لا أرضًا قطَع ولا ظهرًا أبقَى.

ومنهم مَن يكونُ داريًا بالمسائلِ وحلِّ العباراتِ، ولكنَّه مُتعاظِمٌ في نفسِه، فإذا جاءه طالبُ علمِ الفقهِ؛ أحاله على «شــرحِ مُنتهَــى الإراداتِ» إنْ كان حنبليًّا، وعلى «الهدايةِ» إن كان حنفيًّا، وعلى «التُّحفةِ» إنْ كان شافعيًّا، وعلى «شرحِ مختصرِ خليلٍ» للحطَّابِ إنْ كان مالكيًّا. ثُمَّ إن كان مبتدئًا؛ صاح قائلًا: إلى المُلتقَى يومَ الدِّينِ. وإن كان ممَّن زاوَل العربيَّةَ، وأخذ طرَفًا من فنِّ أصولِ الفقهِ؛ انتفَع انتفاعًا نسبيًّا لا حقيقيًّا)[1].

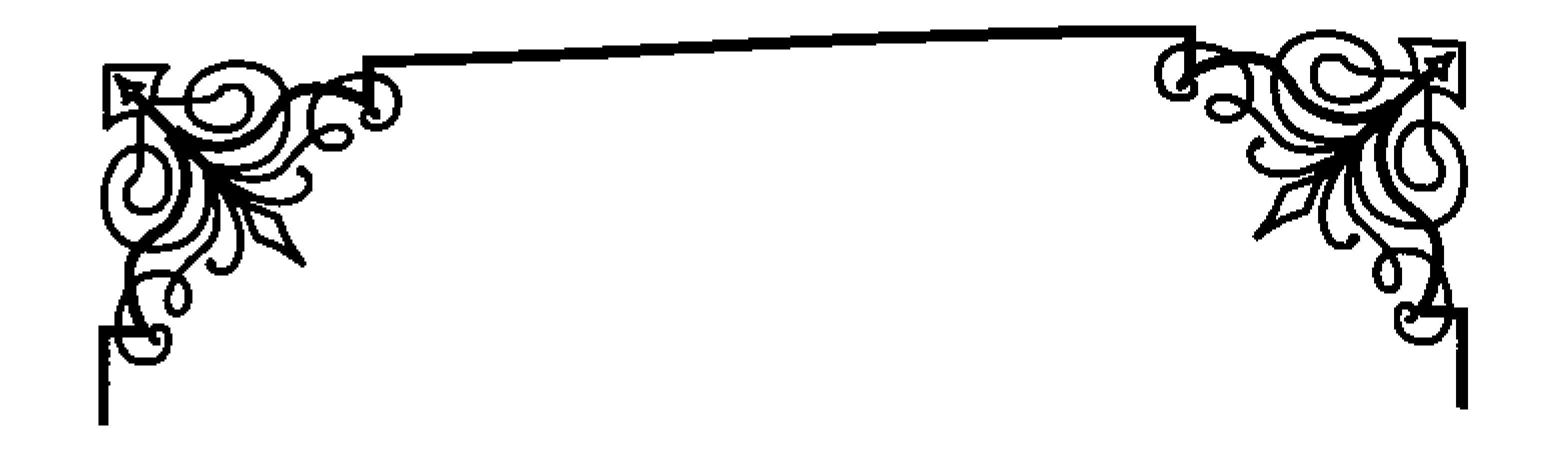
---

(١) «المدخل» ٤٨٥ – ٤٨٧.

أصالةُ مادةِ العلمِ وجادته

ولا بدَّ أن يكونَ سـلوكُ هذا الطريقِ خلفَ أئمَّةِ أهلِـه المُجمَعِ على هدايتِهم ودرايتِهم..

الحافظُ ابنُ رجبٍ رحمه اللهُ



مادَّةُ العلمِ: ميراثٌ نبويٌّ.

وجادَّتُه: ســـبيلٌ مســـلوكةٌ، تضافَرتْ عليها أذهانُ العلمـــاءِ والفقهاءِ، وحَظِي باهتمامِ عبرَ القرونِ، وتلاقَحتْ فيه العقولُ تهذيبًا وتنقيحًا فصارتْ مطروقةً، تواطَأتْ عليه الخُطَا؛ فلا يتأتَّى لمُتأخِّرٍ عنهم بمثلِ ما أُتُوا -تأصيلًا أو تفريعًا- إلَّا أن يكونَ مِن طريقِهم، ومِن فهمِه لسُنَّتِهم في التعلُّمِ.

فالتعلُّمُ -إذَنْ- سلفيٌّ المصدرِ والمادَّةِ، سلفيٌّ الوسيلةِ والجادَّةِ.

وإذا تقرَّر هذا؛ فلا انفكاكَ لمَن أراد فهمَ الشريعةِ وبلوغَ الاجتهادِ عن الاطِّلاعِ والنظرِ فيما سطَره السلفُ مِن آثارٍ، وترسُّم مواقعَ أقدامِهم.

يقولُ أبو شـــامةَ رحمه اللهُ: (فلا عذرَ لهم -ولا ســـيَّما الشـــافعيةُ منهم- في تجنُّبِ الاشـــتغالِ بهذه الكتبِ أو ببعضِها، وكثرةِ النظرِ فيها، وسماعِها، والبحثِ عن فقهِها ومعانيها، ومُطالَعةِ الكتبِ النفيســـةِ المصنَّفةِ في شـــروحِها وغريبِها، بل أفنَوْا زمانَهـــم وعمرَهم في النظرِ في أقوالِ مَن ســـبَقهم من المتأخِّريـــن، وتركوا النظرَ في نصوصِ نبيِّهم المعصومِ من الخطأِ ﷺ، وآثارِ الصحابةِ الذين شَهِدوا الوحيَ وعايَنوا المصطفى ﷺ، وفَهِموا أنفاسَ الشـــريعةِ. فلا جَرَمَ حُرِمَ هؤلاءِ رتبةَ الاجتهادِ، وبقوا مُقلِّدينَ على الآبادِ)(١).

(١) «خطبة الكتاب المُؤمَّل» ص١٢٤.

فكما أنَّ للسـلفِ طُرُقًا لتقريرِ العقائدِ وتبيينِ الأحكامِ الشرعيةِ، فإنَّ لهم طرقًا ومناهجَ كذلـك لتحصيلِ العلومِ وتأصيلِ الطُّلابِ. وهذا يتَّضـحُ جليًّا عندَ الاطِّلاعِ على تراجمِهم، وكتبِهم التي ألَّفوها لتنشئةِ طلابِ العلمِ وتيسيرِ سبلِه.

لذا فإنَّ الفكرةَ هنا -في التأصيلِ العلميِّ كقاعدةٍ تأسيسيةٍ، واستكمالِ التكوينِ كبناءٍ عليها- قائمةٌ على جادَّةِ السـلفِ المُتوارَدِ عليها في التلقِّي، وليس اختراعَ طرقٍ مُحدَثةٍ، ومناهجَ مُصطنَعةٍ، تأثَّرتْ بمذاهبِ الحداثةِ لتجدَ سبيلًا للتموضُعِ بينَ مَدارجِ التعلمِ.

والمناهجُ العصريةُ لا تخرجُ عن حالتَينِ:

الأولى: أن تكونَ مُستمَدَّةً ومُستقاةً من كتبِ السلفِ.

الثانية: أن تكونَ تجربةً جديدةً تضمُّ أخلاطًا ومادَّةً غريبةً عن قانونِ العلمِ.

فأمَّا ما استُمِدَّ من كتبِهم؛ فلا حاجةَ إليه، إلَّا أن يكونَ تسهيلًا وتفهيمًا، أو إفادةً في حوادثَ نازلةٍ؛ لأنَّ كتبَ الأوائلِ توارَدتْ عليها الشُّروحُ والتعقُّباتُ والاختصاراتُ، ولغتُها أقربُ إلى حقيقةِ العلمِ، وتكسبُ ملكتَه، ففيها غُنْيةٌ عن المتأخِّرِ.

يقولُ شـيخُ الإسـلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللـهُ: (فكُلُّ خيرٍ مـن المتأخِّرين ففي المتقدِّمين ما هو خيرٌ منه، وكلُّ شرٍّ في المتقدِّمين ففي المتأخِّرين ما هو شرٌّ منه)[1].

وأمَّا مـا كان مُختَرَعًا جديدًا؛ فـإنْ كان نائيًا عن التعليمِ والتنشـئةِ على منهجِ السلفِ؛ فلا وألفُ لا؛ إذِ العلمُ قديمٌ، وقواعدُه قديمةٌ، راسخةٌ في كلامِهم وشروحِهم وفتاواهم، وتكشفُ حقائقَ العلمِ بعيدًا عن لُكْنةِ الإعلاميِّين، وهَوسِ كثيرٍ من الكُتَّابِ و(المُفكِّرينَ).

(١) «منهاج السنة النبوية» ٦/ ١٥٠.

وأنت تجدُ الفرقَ ظاهرًا بينَ ما كتَبَ السـابقون وما كتَبَـه المتأخِّرون؛ فتجدُ الضَّعفَ الظاهرَ، وطولَ العبارةِ، وعدمَ السَّبكِ، إلا القليلَ ممَّن كان من أهلِ التمسُّكِ والاطِّلاعِ الواسعِ على كتبِ أهلِ العلمِ السابقينَ.

ومِن مناطاتِ تفضيلِ السـابقِين: قُوَّةُ الأسـلوبِ، وإحكامُه؛ فـ (كلَّما قَوِي الأسـلوبُ، وصعُب على الطالبِ؛ فهذا الذي يُربِّي فيه مَلَكةَ الأخذِ والرَّدِّ والنِّقاشِ، وهو الذي يَفتُقُ ذِهنَه.

أمَّا المعاصرون؛ فإنَّهم يكتبون بلُغةِ العصرِ، وهذه ليس فيها إشكالٌ في الجملةِ؛ إذْ هي واضحةٌ سـهلةٌ، ولا تحتاجُ إلى شـرحٍ، ويفهمُها الطالبُ وحدَه، فعليه أن يتمرَّنَ على كتبِ المتقدِّمين؛ لأنَّه إذا سار على الدربِ والجادَّةِ المسلوكةِ، وحصَّل من العلمِ ما يُؤهِّلُه لتعليمِ الناسِ، أو القضاءِ وفصلِ الخصوماتِ، أو إفتائِهم؛ فلا يأمنُ أن يُعيَّنَ في بلدٍ ليس فيه غيرُه ممَّن ينتسـبُ إلى العلمِ، فقد يحتاجُ إلى مراجعةِ هذه الكتبِ -ولم يتعودْ على أساليبِ المتقدِّمين فيها-، فيصعبُ عليه الإفادةُ منها، بخلافِ كتبِ المتأخِّرين.

وهذا واضحٌ وظاهرٌ في الدِّراسـةِ النِّظاميَّةِ؛ إذْ نجدُ كثيـرًا من الطلابِ الذين اعتمَدوا على المُذكِّراتِ التي يكتبُها الأسـاتذةُ، يصعبُ عليهم كلُّ شـيءٍ من العلمِ، ولا يسـتطيعون التعاملَ معَ كتبِ أهلِ العلمِ، بينَما الذين تربَّوا على الكتبِ التي ألَّفها المتقدِّمون بأساليبَ قويَّةٍ متينةٍ، هم الذين -في الغالبِ- حصَّلوا واستفادوا؛ لأنَّه من اليسيرِ جدًّا أن تنزلَ من الصعبِ إلى السهلِ، لكنَّ العكسَ صعبٌ)[1].

ومن الإشكالاتِ التي تكشفُ عن تخوُّفٍ حقيقيٍّ على الناشئةِ: تعلُّقُهم بكتبِ مُعلِّمِيهم ومَن يعرفونهم أو يُتابِعونهم، ويتمركزون حولَ ما يُدَندِنون حولَه، لفَرْطِ الثقةِ

(١) «شـرح الورقات» للشـيخ عبد الكريم الخضير -بتصرُّفٍ- من الشرح المكتوب، ونحوُه: «أليس الصُّبحُ بقريبٍ؟» للطاهر ابن عاشور، ص١٥٧.

فيهم (وهذا خطيرٌ من ناحيةِ المآلِ؛ يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (وكم من الناسِ مَن يَرُدُّ ما يُعلَمُ بالدلائلِ السمعيةِ والعقليةِ، ويقبلُه إذا رأى منامًا يدلُّ على ثبوتِه، أو قاله مَن يُحسِنُ به الظَّنَّ؛ لثقةِ نفسِه بهذا أكثرَ من هذا! وكم ممَّن يَرُدُّ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ حتى يقولَ ما يُوافِقُها شيخُه أو إمامُه، فيقبلُها حينئذٍ؛ لكونِ نفسِه اعتادتْ قبولَ ما يقولُه ذلك المُعظَّمُ عندَه، ولم يَعتَدْ تلقِّيَ العلمِ من الكتابِ والسُّنَّةِ)[1].

ومن صورِ ذلك التعلُّقِ: التَّعلُّقُ بالكُتَّابِ الشَّبابِ، الذين يُحسِنون مُخاطَبَتَهم، وجذبَ أبصارِهم، ممَّا يُفضِي -في الأغلبِ- إلى قطعِ الصِّلةِ عن أُمَّهاتِ الكتبِ ومصادرِ العلمِ الأصيلِ، إلَّا مَن اتَّقى اللهَ منهم في هؤلاءِ الشبابِ، واعتنَى بهم، وملأ قلوبَهم بتعظيمِ السلفِ، وحفظِ الحرمةِ، والدَّلالةِ على أصلِ العلمِ.

يقولُ الحافظُ ابنُ رجبٍ رحمه اللهُ: (ومَن سلَكَ طريقةَ طلبِ العلمِ على ما ذكَرْناه؛ تمكَّنَ مِن فهمِ جوابِ الحوادثِ الواقعةِ غالبًا؛ لأنَّ أصولَها تُوجَدُ في تلك الأصولِ المُشارِ إليها، ولا بدَّ أن يكونَ سلوكُ هذا الطريقِ خلفَ أئمَّةِ أهلِه المُجمَعِ على هدايتِهم ودرايتِهم؛ كالشافعيِّ، وأحمدَ، وإسحاقَ، وأبي عُبَيدٍ، ومَن سلَكَ مسلكَهم؛ فإنَّ مَن ادَّعى سلوكَ هذا الطريقِ على غيرِ طريقِهم؛ وقَع في مفاوزَ ومهالكَ، وأخذ بما لا يجوزُ الأخذُ به، وترَكَ ما يجبُ العملُ به)[2].

قد يُشكِلُ على البعضِ هذا الثناءُ الواسعُ على سَعةِ علمِ العلماءِ السابقين وإحاطتِهم، مُقارَنةً بمَن أتى بعدَهم، لكنَّ هذا الإشكالَ يزولُ إذا عَلِم واطَّلع على إحاطتِهم بالعلمِ، وتفاصيلِه، ودقائقِه، معقولِه ومنقولِه، وضمِّهم علومًا كثيرةً، مع توافرِ هِمَمِهم على تحقيقِ أكثرَ مِن فنٍّ والتصنيفِ فيه.

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» ٤/ ١٤٣.

(٢) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٤٩-٢٥٠.

وقد تناوَل هذه المسألةَ الشيخُ حسنٌ العطَّارُ الشافعيُّ (ت١٢٥٠) رحمه اللهُ، حاكيًا حال العلماءِ السابقينَ وعلومَهم وإحاطتَهم بمقاصدِ العلمِ، ثُمَّ ذكرَ عصرَه وما آلَ إليه مِن تأخُّرٍ، فقال:

(كانوا -معَ رسوخِ قدمِهم في العلومِ الشرعيةِ والأحكامِ الدِّينيةِ- لهم اطِّلاعٌ عظيمٌ على غيرِها من العلومِ، وإحاطةٌ تامَّةٌ بكُلِّيَّاتِها وجزئياتِها، حتَّى في كتبِ المُخالِفينَ في العقائدِ والفروعِ، يدلُّ على ذلك: النقلُ عنهم في كتبِهم، والتصدِّي لدفعِ شُبَهِهم، وأعجبُ من ذلك: تجاوزُهم إلى النظرِ في كتبِ غيرِ أهلِ الإسلامِ؛ فإنِّي وقفتُ على مُؤلَّفٍ للقرافيِّ ردَّ فيه على اليهودِ شُبَهًا أورَدُوها على الملَّةِ الإسلاميةِ، لم يأتِ في الردِّ عليهم إلا بنصوصِ التوراةِ وبقيَّةِ الكتبِ السماويةِ، حتَّى يَظُنَّ الناظرُ في كتابِه أنَّه كان يحفظُها عن ظهرِ قلبٍ!

ثُمَّ هم معَ ذلك ما أَخلُّوا في تثقيفِ ألسنتِهم، وترقيقِ طباعِهم من رقائقِ الأشعارِ ولطائفِ المُحاضَراتِ...

فإنَّ قُصارَى أمرِنا: النقلُ عنهم بدونِ أن نخترعَ شيئًا مِن عندِ أنفسِنا، وليتَنا وصَلْنا إلى هذه المرتبةِ! بل اقتصَرْنا على النظرِ في كتبٍ محصورةٍ، أَلَّفها المتأخِّرون المُستمِدُّون مِن كلامِهم، نُكرِّرُها طولَ العمرِ، ولا تطمحُ نفوسُنا إلى النظرِ في غيرِها، حتَّى كأنَّ العلمَ انحصَر في هذه الكتبِ!

فلَزِم مِن ذلك أنَّه إذا ورَد علينا سؤالٌ من غوامضِ علمِ الكلامِ؛ تخلَّصْنا عنه بأنَّ «هذا كلامُ الفلاسفةِ، ولا ننظرُ فيه»، أو مسألةٌ أصوليةٌ قُلْنا: لم نَرَها في «جمعِ الجوامعِ»، فلا أصلَ لها، أو نُكتةٌ أدبيةٌ قُلْنا: هذا مِن علومِ أهلِ البطالةِ، وهكذا، فصار العذرُ أقبحَ من الذَّنبِ!

وإذا اجتمَع جماعةٌ مِنَّا في مجلسٍ؛ فالمُخاطَباتُ مُخاطَباتُ العامَّةِ، والحديثُ

حديثُهم، فإذا جرى في المجلسِ نكتةٌ أدبيةٌ رُبَّما لا نتفطَّنُ لها، وإن تَفطَّنَّا لها بالَغْنا في إنكارِها، والإغماضِ عن قائلِها إن كان مُساوِيًا، وإيذائِه بشناعةِ القولِ إن كان أدنى، ونسَبْناه إلى عدمِ الحشمةِ وقلَّةِ الأدبِ!

وأمَّا إذا وقَعتْ مسألةٌ غامضةٌ مِن أيِّ علمٍ كان، عندَ ذلك تقومُ القيامةُ، وتكثرُ القالةُ، ويتكدَّرُ المجلسُ، وتمتلئُ القلوبُ بالشحناءِ، وتغمضُ العيونُ على القَذى! فالمرموقُ بنظرِ العامَّةِ، الموسومُ بما يُسمَّى العلمَ: إمَّا أن يتسترَ بالسكوتِ حتَّى يُقالَ: إنَّ الشَّيخَ مُستغرِقٌ. أو يهذوَ بما تَمُجُّه الأسماعُ، وتنفرُ عنه الطِّباعُ.

وقالـوا: سَـكِرْنا بحُبِّ الإلهِ ... وما أسكَرَ القومَ إلَّا القِصَعْ[1]

فحالُنا الآنَ كما قال ابنُ الجوزيِّ في مجلسِ وعظِه ببغدادَ:

ما في الدِّيارِ أخو وَجْدٍ نُطارِحُه ... حديثَ نجدٍ ولا خِلٌّ نُجارِيهِ[2]

ومِن أهمِّ الأمورِ التي يجبُ أن يُعنَى بها طالبُ المدارجِ، ممَّا يتعلقُ بسُنَّةِ السلفِ في التلقِّي: التفقُّهُ عبرَ المذاهبِ المتبوعةِ.

التَّفقُّهُ عبرَ المذاهبِ المتبوعةِ

المرادُ بالتَّفقُّهِ عبرَ المذاهبِ المتبوعةِ: سلوكُ المُتفقِّهِ أحدَ المذاهبِ المتبوعةِ في تعلُّمِ الفقهِ؛ ليَتخرَّجَ عليها.

وغايتُه: اكتمالُ نظرةِ الطالبِ لمسائلِ الفقهِ، وضبطُ المسائلِ والدَّلائلِ.

(١) القَصْعةُ: الصَّحْفةُ الضَّخمةُ التي تُشبعُ عشَرةً. وجمعُها: قِصَعٌ، وقِصَاعٌ، وقَصَعاتٌ. انظر: «المصباح المنير» ٢/ ٥٠٦، «تاج العروس» ٢٢/ ١٧.

(٢) «حاشية العطار على شرح المحلي على جمع الجوامع» للشيخ حسن العطار الشافعي ٢/ ٢٤٧-٢٤٨ باختصارٍ يسيرٍ.

فيكونُ التمذهبُ للدِّراسةِ، لا للتعصُّبِ والتقليدِ؛ فإنَّ طالبَ الملكةِ الفقهيةِ والاجتهادِ لا بدَّ أن يكونَ نظرُه مُسلَّطًا على الأدلةِ دائمًا، وللتعصُّبِ والتقليدِ مُجانِبًا. ومَن تأمَّلَ كلامَ الراسخين وعباراتِهم؛ وجَد هذا حالَهم، فلم يكنِ التمذهبُ داعيًا لنبذِ الدليلِ الثابتِ أبدًا.

ويتلخصُ هذا الأمرُ في جوابِ أحدِ فقهاءِ الحنابلةِ في هذا العصرِ -وهو الشيخُ ابنُ جَبْرينَ رحمه اللهُ-؛ إذْ سألتُه يومًا: هل أنت حنبليٌّ؟ فأجاب -رحمه اللهُ- بقولِه: (درَسْنا مذهبَ الحنابلةِ، وإنْ بدا الحقُّ في غيرِه اتَّبَعْناه).

فعلى طالبِ العلمِ أن ينطلقَ في أوَّلِ أمرِه مِن أحدِ المذاهبِ المُتَّبَعةِ، والجادَّةِ المطروقةِ، فيُتقِنَ مسائلَه وفروعَه وأدلَّتَه، ثُمَّ يجمعَ إليه المذاهبَ الأخرى، ويُناقِشَ الأدلَّةَ والمسائلَ، معَ الإلمامِ والإتقانِ لأصولِ الفقهِ، والاطِّلاعِ على السُّنَنِ والآثارِ المرويَّةِ؛ فتكثُرُ استفادتُه، ويُحسِنُ الاستدلالَ، ويُتقِنُ المسائلَ؛ كما أنَّ المُتفقِّهَ على كتبِ المذاهبِ المُصنَّفةِ للترقِّي في مدارجِ العلمِ يُرزَقُ سريعًا لغةَ الفقهاءِ واصطلاحَهم، ويُحاكِيهم في الاستدلالِ والترجيحِ في المسائلِ الفقهيةِ والنوازلِ وغيرِها.

وإذا تأمَّلْنا واقعَ العلماءِ والمجتهدين الذين كانت لهم الرِّيادةُ والذِّكرُ في علمِ الشريعةِ بعدَ اشتهارِ المذاهبِ الأربعةِ؛ نجدُ أنَّهم لم يَخْلُ أحدٌ منهم عن التخرُّجِ على أحدِ المذاهبِ الأربعةِ: الحنفيِّ، والمالكيِّ، والشافعيِّ، والحنبليِّ؛ فابنُ حزمٍ مثلًا تخرَّج أوَّلَ أمرِه على مذهبِ الشافعيةِ، وابنُ تيميَّةَ تخرَّج على مذهبِ الحنابلةِ، والشاطبيُّ تخرَّج على مذهبِ المالكيةِ، وهي طريقةٌ عامَّةٌ للمُتفقِّهينَ الذين كانت لهم إمامةٌ في الدِّينِ.

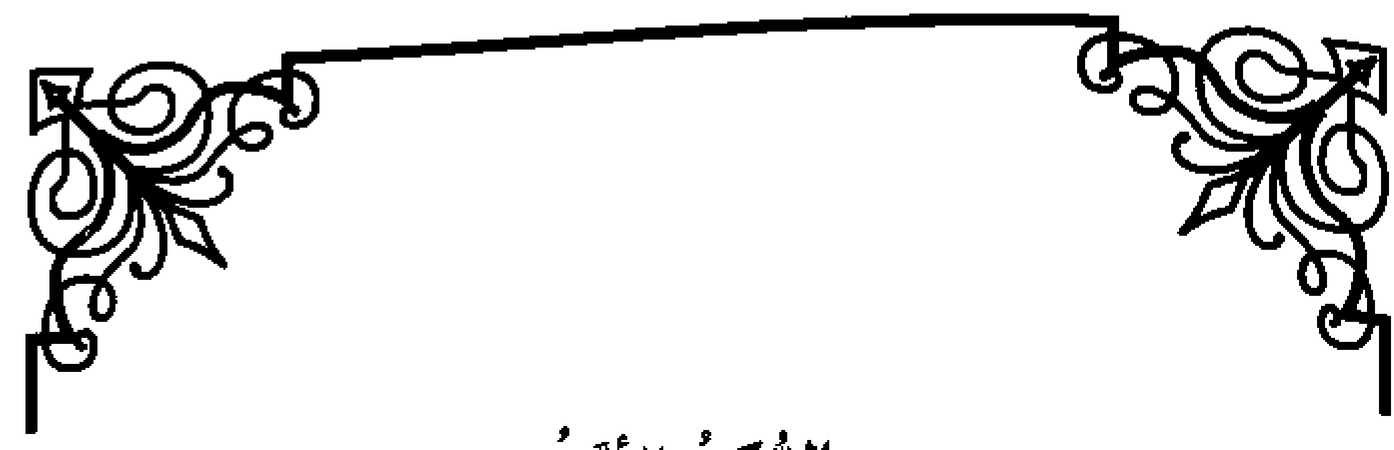


أركانُ التَّعلُّمِ

فالآلاتُ مُتهيِّئةٌ لِذِي طلبٍ صادقٍ، وهِمَّةٍ، وذكاءٍ، وفِطْنةٍ..

أبو شامةَ رحمه اللهُ

للتَّعلُّمِ أركانٌ أربعةٌ.



الرُّكنُ الأوَّلُ
نيَّةٌ خالِصةٌ

طلبُ العلمِ مِن أجلِّ العباداتِ التي تحتاجُ إلى نيَّةٍ، فالنِّيَّةُ أوَّلُ العلمِ، ووسطُه، وآخِرُه، وهي ركنٌ مُصاحِبٌ، وثمرةٌ حُلْوةٌ يجنيها المُخلِصُ إذا لقي اللهَ تعالى.

والنيةُ الخالصةُ وقودٌ ومُحرِّكٌ نحوَ الاستمرارِ والثباتِ في الطلبِ، ولا انفكاكَ لطالبِ العلمِ عنها، وما من مُوفَّقٍ إلا وله معَ النيةِ والإخلاصِ مواقفُ ومُجاهَداتٌ: في بيتِه وصلاتِه، ومعَ مشايخِه وأقرانِه وطُلَّابِه، وفي كتابتِه وبحثِه، لكنَّها تحتاجُ إلى مجاهدةٍ شديدةٍ في أوَّلِ الأمرِ، ثُمَّ رعايةٍ وسقيٍ. وحَرِيٌّ بمَن جاهَد قلبَه وراقَب عملَه أن يصلَ، وأن يُهدَى؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وتشتدُّ الحاجةُ إلى النيةِ في مواطنَ:

١- خروجُه من بيتِه مُتوجِّهًا لطلبِ العلمِ.

٢- العملُ بالعلمِ.

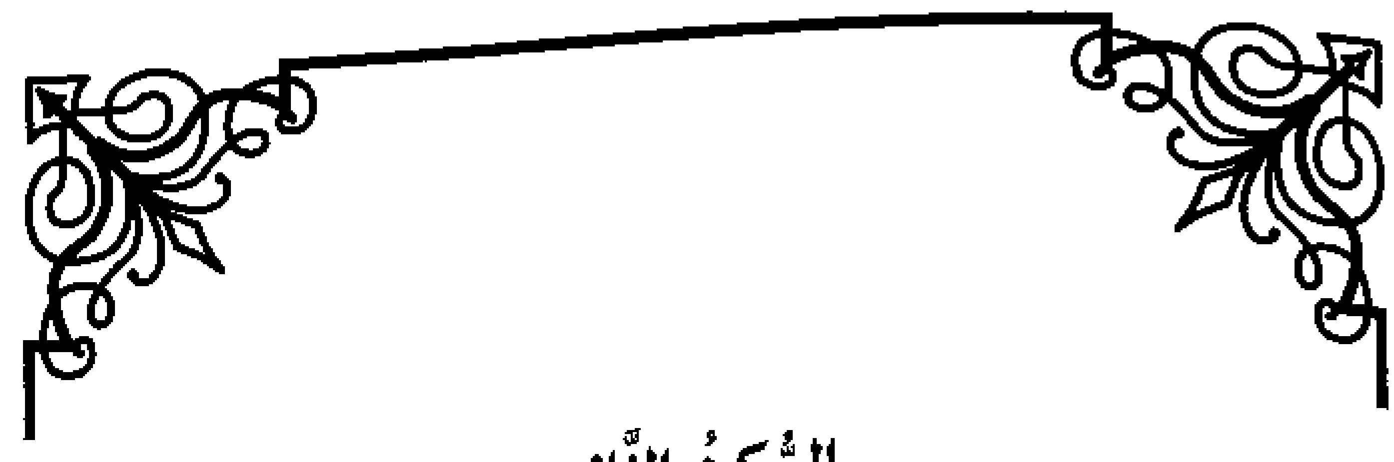
٣- حلقةُ شيخِه ومُعلِّمِه.

٤- المكتبةُ: يقرأُ ويبحثُ ويُراجِعُ.

٥- المُناقَشةُ، والمُحاوَرةُ.

٦- التعليمُ، والدعوةُ إلى اللهِ.

٧- التصنيفُ.



الرُّكنُ الثَّاني
هِمَّةٌ عاليةٌ

تواتَرتْ نصوصُ الوحيينِ بالحضِّ على طلبِ العلمِ الشرعيِّ ونيلِه، وعلى فضلِ أهلِه والرِّضا عن طالبِه. ولمَّا كانت لأهلِه المنزلةُ العاليةُ، والرِّفعةُ في الدَّارينِ؛ صارتْ هِمَمُ أشرافِ الناسِ مُتعلِّقةً بتحصيلِه، وأضحتْ عزائمُ الرجالِ عليه مُتضافِرةً.

فرفَع المُجِدُّونَ والنابهونَ منهم شعارَ الجِدِّ، وتقلَّدوا وسامَ العزيمةِ، ورأَوُا العلمَ ثقيلًا متينًا، غاليًا نفيسًا، تحوطُه المكارهُ، ولمثلِه تُبذَلُ المُهَجُ والأنفاسُ، ولنيلِه تُبذَلُ النفائسُ وتُهدَى أبكارُ العرائسِ! حينَئذٍ أصبح التعبُ ديدنَهم، والسهرُ رفيقَهم، والتماسُ حلقاتِ العلمِ مَقصَدَهم؛ فجابوا البلادَ، وتتبَّعوا العلماءَ.

قال ابنُ عَزُّوزٍ المالكيُّ رحمه اللهُ: (فإنَّ المُحقِّقينَ ما نالوا حقائقَ العلومِ إلا بالشَّوقِ إليها، والنَّهْمةِ فيها بحُرقةٍ تجمعُ أطرافَ الفكرِ إلى ما هو بصددِه، وهي حرقةُ نورٍ لا حرقةُ نارٍ)[1].

وحَرِيٌّ بمَن صدَق وشمَّر بعزمٍ أن يُقِرَّ اللهُ عينَه بمرادِه من العلمِ النافعِ، فكما قال الخطَّابيُّ رحمه اللهُ: (مَن صدَقتْ حاجتُه إلى شيءٍ؛ كثُرتْ مسألتُه عنه، ودام طلبُه له، حتَّى يُدرِكَه ويُحكِمَه)[2].

---

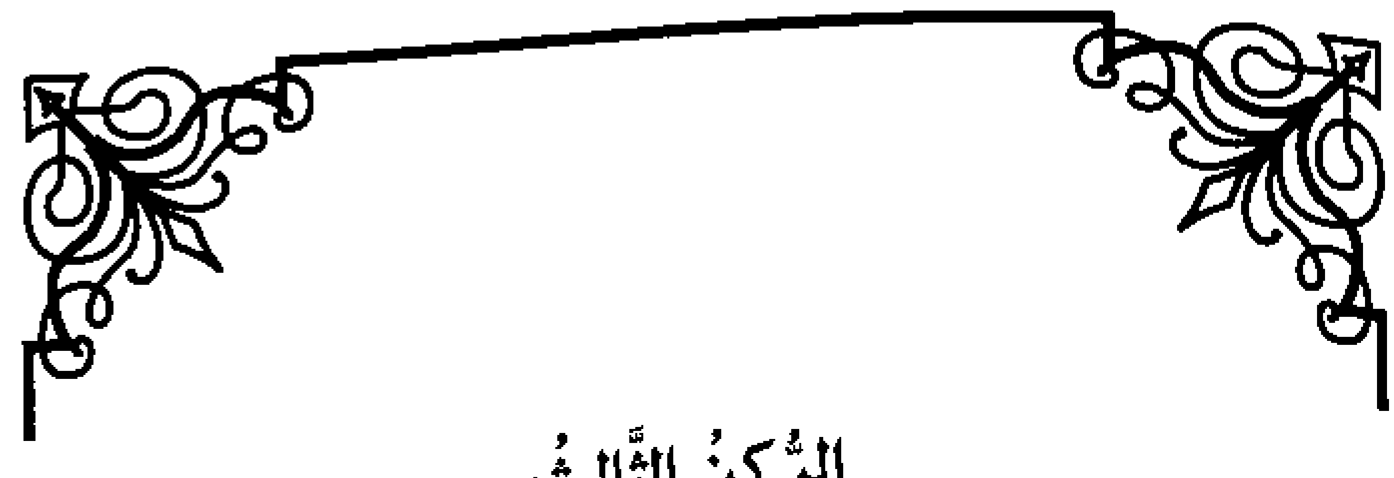
(١) «هيئة الناسك» ص٥٣.

(٢) «معالم السُّنَن» ٤/ ٢٨٨- ٢٨٩.

وكما قال الجُنَيدُ رحمه اللهُ: (ما طلَب أحدٌ شيئًا بصدقٍ وجِدٍّ، إلَّا ناله، فإن لم يَنَلْه كُلَّه نال بعضَه).

ولو أنَّ ما أسعَى لأدنى معيشةٍ   كفاني ولم أطلُبْ، قليلٌ مِن المالِ
ولكنَّما أسعَى لِمَجْدٍ مُؤثَّلٍ   وقد يُدرِكُ المجدَ المُؤثَّلَ أمثالي

ويقولُ العِمادُ الأصفهانيُّ رحمه اللـهُ: (العلومُ النافعةُ، والأعمالُ الصالحةُ = نسلُ الهِمَمِ الشريفةِ، وذُرِّيَّةُ الفِطَنِ اللَّطيفةِ).



الرُّكنُ الثَّالثُ
المُعلِّمُ النَّاصحُ

دعَتِ الضَّرورةُ إلى وجوبِ التَّروِّي والنظرِ في حالِ مَن يُؤخَذُ عنه العلمُ، ولئنْ كان البحثُ عن الأُمِّ الصالحةِ للابنِ أمرًا مطلوبًا؛ فإنَّ أُبوَّةَ العلم آكَدُ من الأبوَّةِ الطِّينيةِ، والاختيارَ لمادَّةِ العلمِ أَوْلى من الاختيارِ لنُطَفِ الأولادِ؛ لأنَّ مواريثَ الأخلاقِ مِن أشدِّ الأشياءِ لصوقًا وتسلُّلًا إلى الطِّباعِ.

قال سَحْنونُ رحمه اللهُ: (يُؤخَذُ هذا العلمُ من الموثوقِ بهم في دينِهم، المحسوس بخيرِهم؛ فإنْ أخَذوا بالتشديدِ فعن علمٍ، وإن أخَذوا بالرُّخَصِ فعن علمٍ)[1].

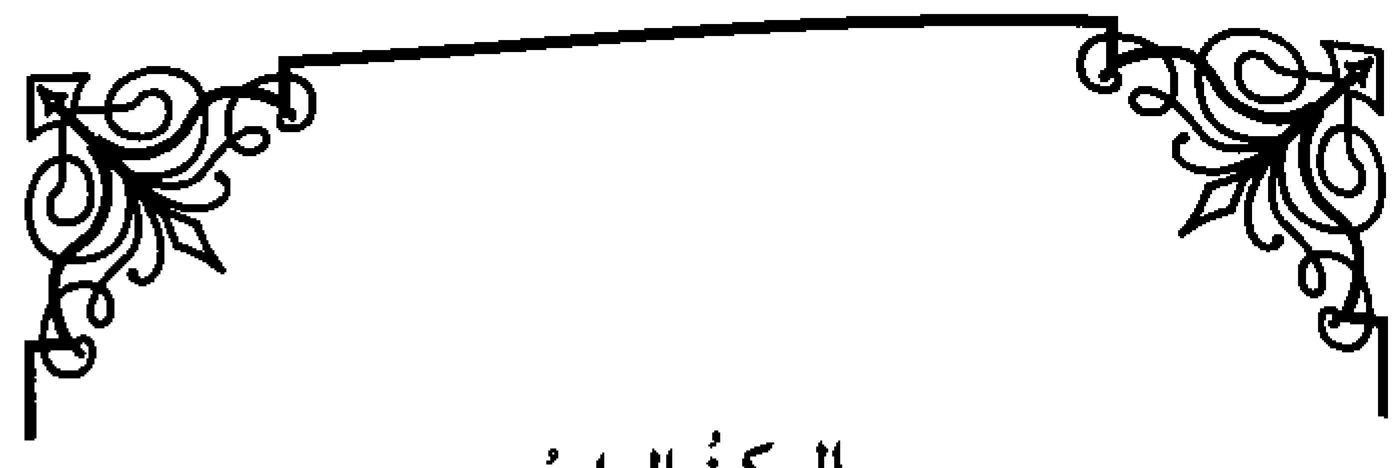
ومَن تأمَّلَ حالَ الباحثِ عن الدِّينِ الحقِّ -سلمانَ الفارسيِّ، رضي اللهُ عنه- في التماسِ الراهبِ الذي يصحبُه ويتعلمُ منه، وكلما حضَرتِ الوفاةُ راهبًا ذهب إلى آخرَ = وجَد الحالَ تتشابهُ كثيرًا معَ ما نُدَنْدِنُ حولَه؛ وهو البحثُ عن المعلِّمِ الناصحِ.

وفي عبيرِ السلفِ نجدُ مَن نقَّر عن العلماءِ، وبحث عن مواطنِهم، ولزمهم، حتى صارت سُنَّةً لهم، وكانوا يُطيلون التردُّدَ عليهم. يقولُ أبو عُبَيدةَ رحمه اللهُ:

(١) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» للقاضي عياض ٤/ ٣٩٣.

(اختلَفتُ إلى يونسَ أربعينَ سنةً، كُلَّ يومٍ أملأُ ألواحي من حفظِه)[1]. رحمهم اللهُ، وجعَلَنا خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ.

(١) «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» لأبي هلال العسكري، ص٧٠.



الركنُ الرابعُ
المنهجُ العلميُّ المُتقَنُ

ما زال أهـلُ العلمِ يُركِّزون على أهميةِ المنهجيةِ، وأن يكونَ السَّـيرُ في أوديةِ العلمِ ببصيـرةٍ وترتيبٍ لمراحلِ الطلـبِ، بعيدًا عـن الأذواقِ والانتقائيةِ في اختيارِ المنهـجِ، حتى كان التخلِّي عن هذه الخُطَّةِ إزهاقًا لحياةِ الطالبِ العلميةِ، والأدهى أنَّ السالكَ قد يظنُّ نفسَـه أنَّه يُحصِّلُ وينمو علميًّا، وفي الحقيقةِ هو مُشتَّتٌ تائهٌ، يحضرُ هذا المجلسَ تـارةً ويتركُه أخرى، ويتعلمُ عندَ هذا المعلِّمِ تـارةً ويتركُه أخرى، يبدأُ فـي هذا الكتابِ ليقرأَ مُقدِّمتَه ويتركُ باقيَه، يختارُ هـذا العلمَ لأهميتِه، فتُثارُ قضيةٌ هنا أو هناك فيقرأُ فيها ويُمضِي سـنواتٍ فيها ليزعمَ معرفـةَ فقهِ الواقعِ، ثُمَّ تنتهي القضيةُ، ويفوتُه التأصيلُ، ويخطئُ السَّيرَ في السبيلِ المُمنهَجةِ المُرتَّبةِ!

فمرجعُ الخللِ هنا قد يكونُ واحدًا من هذه الأسبابِ:

١- عدمُ المنهجيَّةِ.

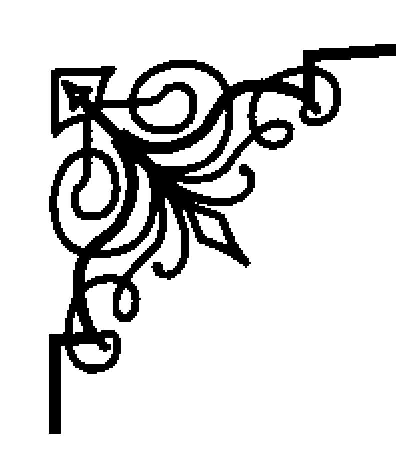
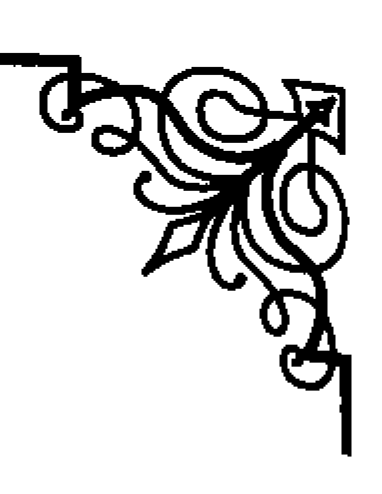
٢- ضعفُ المنهجيةِ، أو عدمُ الاقتناعِ بها وبأهميتِها؛ ممَّا يُؤثِّرُ على العزيمةِ وعلى الجِدِّ فيها.

٣- كثرةُ البداياتِ؛ فكثرةُ البداياتِ والانقطـاعِ مُثبِّطةٌ ومُرهِقةٌ، وتئولُ إلى فتورٍ وملَلٍ وانتكاسـاتٍ، وقد سـارتْ في ذلك عبارةٌ شـهيرةٌ، وهي قولُهم: (كثرةُ البداياتِ مِن المُثبِّطاتِ)، وهي مفيدةٌ لمَن تدبَّرها.

٤- كثـرةُ التَّنقُّلِ بينَ المناهجِ العلميةِ ومشـاربِها: وهو ضربٌ من ضروبِ التَّشتُّتِ والعشوائيةِ.

وهـذه الأركانُ السـابقةُ [النيَّةُ، والعزيمـةُ، والمعلِّمُ، والمنهـجُ] تُؤهِّلُ مَن استجمَعها، والأمرُ كما قال أبو شامةَ رحمه اللهُ: (فالآلاتُ مُتهيِّئةٌ لذي طلبٍ صادقٍ، وهِمَّةٍ، وذكاءٍ، وفطنةٍ)[1].

(١) «خطبة الكتاب المُؤَمل» ص١٢٥.

شروطُ المنهجِ العلميِّ

للمنهجِ المسلوكِ شروطٌ يجبُ على الطالبِ استيفاؤُها، وهي:

الأولُ: التِماسُ المعلِّمِ ذي المنهجيةِ الواضحةِ الصحيحةِ:

فالمُتعيِّنُ على الطالبِ: بذلُ الوسعِ في التماسِ وصحبةِ مَن عُرِف باهتمامِه بتنشئةِ طُلَّابِ العلمِ بطريقةٍ منهجيةٍ، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإنْ لم يجدْ؛ فليَختَرْ طالبَ علمٍ مُتقدِّمًا سبقَه في التلقِّي المنهجيِّ، شَهِد له أساتذتُه بذلك، وكانت سِيماه وأحوالُه في الجملةِ تُشبِهُ سمتَ أهلِ العلمِ.

يقولُ النَّوويُّ رحمه اللهُ: (ولا يكفي في أهليَّةِ التعليمِ أن يكونَ كثيرَ العلمِ، بل ينبغي -معَ كثرةِ علمِه بذلك الفنِّ- كونُه له معرفةٌ في الجملةِ بغيرِه من الفنونِ الشرعيةِ؛ فإنَّها مرتبطةٌ، ويكونُ له دُرْبةٌ، ودِينٌ، وخُلُقٌ جميلٌ، وذِهنٌ صحيحٌ، واطِّلاعٌ تامٌّ)(١).

الثاني: أن يكونَ المنهجُ وَفْقَ الإمكاناتِ، لا الآمالِ الطامحةِ:

فيبدأُ بأوَّليَّاتِ العلمِ، والمدخلِ العامِّ، والمُقدِّماتِ المُيسَّرةِ له، لينتقلَ من التصوُّرِ الإجماليِّ إلى الإدراكِ التفصيليِّ.

---

(١) «المجموع شرح المهذب» ١/ ٦٦.

الثالثُ: أن يكونَ موضوعًا لمراتبِ المتعلِّمينَ ومدارجِ التلقِّي:

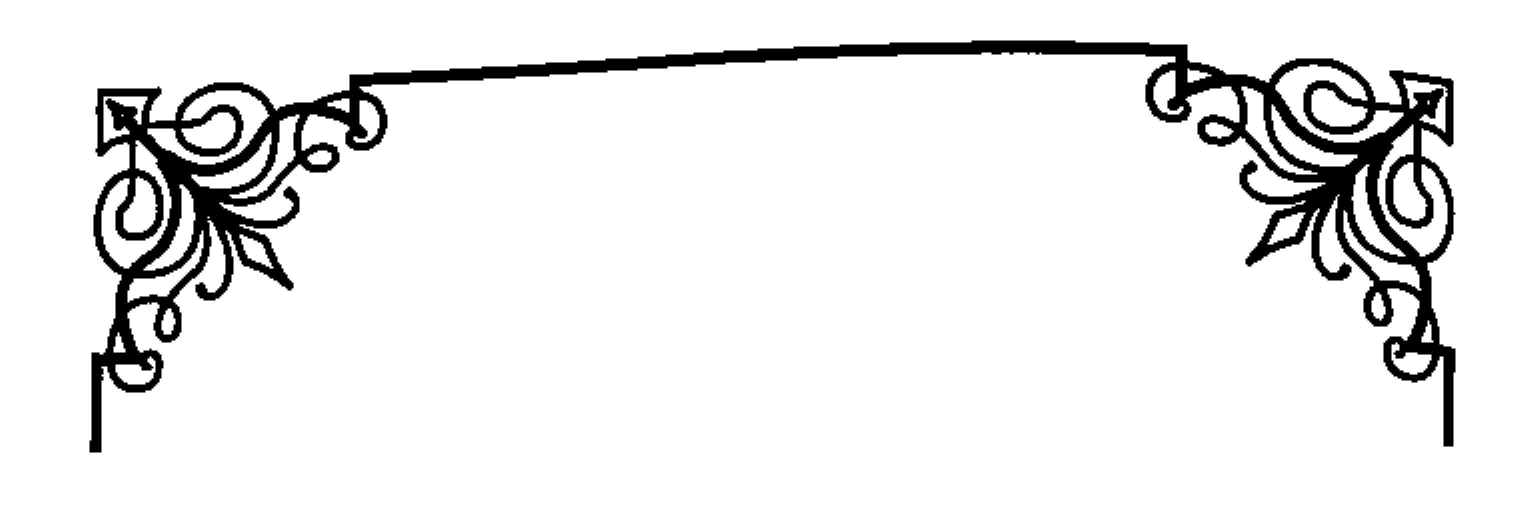
وهذا من أهمِّ الأشياءِ التي يجبُ التنبُّهُ لها، بأن يكونَ المنهجُ قائمًا على الكتبِ التي ألَّفها أصحابُها بما يوافقُ مراتبَ المتعلِّمين، لا أن تكونَ مادَّةُ الدرسِ أبحاثًا ودراساتٍ لا تُعنَى بتنشئةِ طالبِ العلمِ على الجادَّةِ المطروقةِ في التلقِّي؛ من الإحاطةِ بالفنِّ وتقسيمِه وشرحِه، ويكونَ فيها من تواردِ العلماءِ عليه بالحواشي والتعقُّباتِ والاختصارِ والشُّروحِ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ ممَّا يُسهِمُ إيجابًا في نقلِ فكرةِ الفنِّ، وأبوابِه ومسائلِه، وأصولِه وفروعِه.



بَصْماتُ المعلِّمين ونَقْشُ العقولِ

(وقَلَّ مَـــن قرأ عليه ولم يَنْبُهْ! ولـــم أرَ مِثلَه في مبادئِ التعليـــمِ؛ كان يُفتِّقُ أُذُنَ المُشتغِلِ، ويوضِّحُ له طرقَ الاشتغالِ، ولم أرَ مثلَه في تنزيلِ قواعدِ النحوِ على قواعدِ المنطقِ...)

[الصلاحُ الصَّفَديُّ، عن شيخِه: حسنِ بنِ محمدٍ الصَّفَديِّ الخطيبِ]



للمُعلِّم في عقولِ طلابه بصماتٌ، وله في ســلوكِهم آثارٌ؛ فالأمر إذَنْ: نقشٌ في العقولِ، ونحتٌ على جُدُرِ الأذهانِ.

وليس كلُّ مُتصدٍّ للنقشِ على العقولِ بخليقٍ أن تُثنَى أمامَه الرُّكَبُ؛ فشتَّانَ شتَّانَ بينَ رُبَّانٍ فنَّانٍ يجيدُ التعليمَ ويُحسِــنُ صقلَ الأذهانِ، ومَن جعَل عقلَ الطُّلابِ موضعَ تجارِبَ، ينقل إليهم تَشتُّتَه، ويعبُر بهم إلى أخلاطِ علومٍ وأخلاقٍ!!

وفي سِيَرِ السلفِ تجدُ عبارةً دوَّارةً بنصِّها وإشارتِها، تحكي أسرارًا أودَعها اللهُ بعضَ عبادِه، فتُثمِرُ أجيالًا تنتفعُ وتَتخرَّجُ عليه؛ إنَّها (البركةُ في التعليمِ).

فها هو أبو الحسينِ ابنُ أبي يَعلَى الفرَّاءُ (ت٥٢٦) رحمه اللهُ، يقولُ في ترجمةِ أحدِ الفقهاءِ: (وكان مُبارَكَ التعليمِ؛ لم يَدرُسْ عليه أحدٌ إلا أفلَح وصار فقيهًا)[1].

وذكَر أبو العباسِ الغِبْرِينيُّ (ت٧١٤) –رحمه اللهُ– ابنَ مخلوفٍ المالكيَّ رحمه اللهُ، فقال: (له عُكُوفٌ على التَّدريسِ، دؤُوبٌ عليه؛ كان له درسٌ بالغداةِ، ودرسٌ بينَ الصلاتينِ، ودرسٌ بينَ العِشــاءينِ، وكلُّها دروسٌ مشــهورةٌ، وأوقاتٌ باستفادةِ العلمِ مقصــودةٌ. دأَب على هذا مُدَّةً طويلةً من عمرِه، واقتصَر بعدَه على تدريسِ درســينِ: أحدُهما في مسجدِه بالغداةِ... والآخَرُ بالجامعِ الأعظمِ بينَ الصلاتينِ.

---

(١) «طبقــات الحنابلة» ٢/ ٢٤٦، وانظــر أيضًا: «التاج المُكلَّل من جواهــر مآثر الطِّراز الآخِر والأول» للقِنَّوجيِّ ص ١٧٨.

وكان مُبارَكَ التعليم، ميمونَ النَّقِيبةِ في التفهيم، درَس عليه العلمَ خلقٌ كثيرٌ، وانتفَعوا به. وكان أكثرَ الناسِ أصحابًا، وأليَنهم جَنابًا، وكان سليمَ الصدرِ، لا يعرفُ شيئًا من الشَّرِّ)[1].

وذكَر ابنُ عبد الملكِ المَرَّاكُشيُّ (ت٧٠٣) -رحمه اللهُ- ابنَ الفخَّارِ -رحمه اللهُ-، فقال: (وكان مُبارَكَ التعليم، حسنَ الإلقاءِ، صادقَ القصدِ في الإفادةِ؛ فنفَع اللهُ به خلقًا كثيرًا ممَّن تَردَّد للاستفادةِ منه رجالًا ونساءً، ولم يَزَلْ دأبُه ذلك إلى أن تُوُفِّي)[2].

ويقولُ شمسُ الدِّينِ السَّخاويُّ (ت٩٠٢) -رحمه اللهُ- في ترجمةِ أحدِ العلماءِ: (وكان مُبارَكَ التعليمِ؛ ما قرأ عليه أحدٌ إلا وانتفَع)[3].

وقال أيضًا في ترجمةِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ رُوزْبَةَ الكازَرُونيِّ رحمه اللهُ: (انتفَع به جماعةٌ؛ لمزيدِ شفقتِه، وصبرِه، وحسنِ تعبيرِه، واحتمالِه لمَن يُجافِيه، وإحسانِه لمَن يُسِيءُ إليه، كلُّ ذلك معَ مُداوَمتِه على العبادةِ بحيثُ لم يَتفرَّغْ للتَّصنيفِ معَها)[4].

فتأمَّلْ في عباراتِ العلماءِ: كيف ذكَروا البركةَ في التعليمِ، وحسنَ التفهيمِ، وانتفاعَ الطُّلابِ بهم. غيرَ أنَّ البركةَ وحسنَ التَّعليمِ لا تتأتَّى إلا بطلبٍ وجِدٍّ واستعانةٍ باللهِ تعالى.

مِن هنا، ينبغي قصدُ المعلِّمِ المُبارَكِ التَّعليمِ، الَّذي تخرَّج عليه طلابٌ أكْفاءٌ؛ فالتَّحرِّيَ التَّحرِّيَ يا طالِبَ الرُّقيِّ والمدارِج.

(١) «عنوان الدِّراية فيمَن عُرِف من العلماءِ في المائةِ السَّابعةِ ببِجايةَ» للغِبْرينيِّ ص٦٣.
(٢) «الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصِّلة» ٤/ ١٢٠.
(٣) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» ١٠/ ٨٩.
(٤) «التُّحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» للسَّخاويِّ ١/ ١٣٦.

إذا نظَرْنا إلى بصمةِ المعلِّمِ في المتعلِّمِ؛ وجَدْناها دائرةً بينَ أمرينِ، كلاهما من الأهميةِ بمكانٍ:

الأمرُ الأولُ: خُلُقٌ أو سلوكٌ يَتسلَّلُ إليه كأُنمُوذجٍ مُرْضٍ، أو علمٍ ومَلَكةٍ يكتسبُها منه.

وبيانُه كالآتي:

أولًا: الأثرُ الخُلُقيُّ والسلوكيُّ:

(الصُّحبةُ)، و (المُلازَمةُ)، و (المُجاوَرةُ) = جسورٌ تعبرُ منها الأخلاقُ والطِّباعُ إلى الصاحبِ والمُجاوِرِ، وعبْرَها يَتضمَّخُ القرينُ بخُلُقِ المُقارَنِ وهَدْيِه، فإنْ لم تَتغيَّرِ الطِّباعُ تَسلَّلَتْ إليه منه عدوى المُجاوَرةِ وريحُها؛ فهو الدورانُ -شئتَ أم أبيتَ- بينَ قصدِ المُحاكاةِ أو اصطباغٍ قَهْريٍّ؛ فبهما تَتلوَّنُ أحلامُ الطالبِ، ويَتَّشِحُ أُفُقُه وسماؤُه برُؤَى الشيخِ وميولِه؛ ليميلَ بميلِه، ويرى العالَمَ بعينِه.

ومن ذلك مثلًا: (التعصبُ)؛ فكم رأَيْنا من عالمٍ أورَد طلابَه مَعاطِنَ التعصبِ والجمودِ لآرائِه والتحزُّبِ لها، بل عقدِ الولاءِ والبراءِ عليها! معَ أنَّه مِن أبعدِ الناسِ -على أقلِّ تقديرٍ: في نظرِ نفسِه- عن الحزبيةِ، فلم يُرَبِّهم على الانقيادِ للدليلِ، والدورانِ في فلكِ التجرُّدِ والحيادِ لضمانِ الوصولِ إلى الحقِّ في الجملةِ.

وكم من عالمٍ ربَّى الطلابَ بسَمْتِه وحُسنِ دَلِّه؛ فسَمَتْ أخلاقُهم، وعَلَتْ حتى إنَّها تُحاكِي مَن تقدَّم من العلماءِ، وذلك فضلُ اللهِ يُؤتِيه مَن يشاءُ.

ثانيًا: الأثرُ العِلْميُّ:

حصولُ العلمِ هو المُؤمَّلُ عندَ الطلبِ، ومحطُّ أنظارِ الطلابِ حينَ البحثِ عن المعلِّمين، لكنَّ الأثرَ المَعْنيَّ هنا هو: مهارةُ العلمِ وسياستُه، فهي هي إنْ كانت وتمَّت؛

فالمعلوماتُ وفكُّ ألغازِ المتونِ قد يُحصِّلُهـا الطالبُ، بخلافِ (التمهُّرِ) و (الحِذْقِ) و(المَلَكةِ)، وهذه هي الثمرةُ على الحقيقةِ.

وفي دنيا الصُّنَّاعِ -مثـلًا- تجدُ انخراطَ المبتدئِ في صناعةٍ مـعَ مُعلِّمِه مُدَدًا طويلةً، يُنقَـلُ إليه من المعلِّمِ أثرٌ فـي ماهيَّةِ الصنعةِ وأنماطِها، بل وتَثِبُ إلى نفسِـه أخلاقيَّاتُه في الصنعةِ وأنماطُ تفكيرِه.

كذلك الطالبُ، لا بدَّ أن تتأثَّرَ ذِهْنيَّتُه بصبغةٍ علميةٍ لسياسـةِ العلمِ يكتسبُها في مجلسِ أستاذِه، وإلا فهو لم يَسـتفِدْ منه على الحقيقةِ، ولو حصَّل المعلوماتِ حينَها عن كتابٍ لكان أَوْلى وأضبطَ.

ومن الأنماطِ المرجوِّ تَسرُّبُها إلى نفسِ الطالبِ -مثلًا-: استثمارُ المعلومةِ في البحثِ، واستيلادُ الفائدةِ من الكلامِ، وطريقةُ الاستفادةِ منها، وطريقةُ نقدِها، ومهارةُ التقعيدِ، ومهارةُ التفريعِ، وفنُّ الاستنباطِ، وغيرُ ذلك.

فقلَّما ترى عالمًا يكتبُ -أو يشرحُ في مجلسٍ- إلا وفي أسلوبِه امتزاجٌ بأنماطِ مُعلِّمِه ومِدادِه، وتجدُ أنفاسَ أسـتاذِه حاضرةً في تعبيرِه، خاصةً مَن كان يَعرِضُ على أستاذِه، وطالتْ مُدَّةُ تلقِّيه عنه.

لذا كان التحرِّي والتنقيبُ عن الشـيخِ النَّفَّاعِ المُعتني بـأدبِ العلمِ وأخلاقِه، الحريصِ على نقلِ المَلَكةِ والمهارةِ، الفاتقِ لأذهانِ الطلابِ.

وأَختِمُ هذا المبحثَ بهذينِ النَّصَّينِ الجيِّدينِ، اللَّذينِ سـطَرَهما صلاحُ الدِّينِ الصَّفَديُّ (ت٧٦٤) رحمه اللهُ:

١- قال -رحمه اللهُ- عندَ ذكرِه مآثرَ شيخِه نجمِ الدِّينِ أبي محمدٍ حسنِ بنِ محمدٍ الصَّفَديِّ الخطيبِ رحمه اللهُ: (وتَخرَّج به جماعةٌ فُضَلاءُ، وقلَّ مَـن قرأ عليه ولم يَنْبُـهْ! ولم أرَ مِثلَه في مبادئِ التعليـمِ؛ كان يُفتِّقُ أُذُنَ

المُشـتغِلِ، ويوضِّحُ له طرقَ الاشـتغالِ، ولم أرَ مثلَه في تنزيلِ قواعدِ النحوِ على قواعدِ المنطقِ، وكان يحبُّ إفسـادَ الحدودِ والمُؤاخَذةَ فيها والرَّدَّ عليها والجوابَ عنها)[1].

٢- وقال في ترجمةِ الكمالِ ابنِ الزَّمْلكانيِّ رحمه اللهُ: (وكان الشـيخُ من بقايـا المجتهدين، ومن أذكياءِ أهلِ زمانِه، تخرَّج به الأصحابُ، وانتفَع به الأئمَّةُ. لم يُرَ مِثلُ كرمِ نفسِه، وعلوِّ همَّتِه، وتجمُّلِه في ملبسِه ومأكلِه، لم تَزَلْ تلاميذُه الخواصُّ على مائدتِـه. يحبُّ الطالبَ الذَّكيَّ ويجذبُ بضَبْعِـه[2] من ورطةِ الخمـولِ ويُكبِرُه، ويُعظِّمُه ويُزهِزهُ[3] له، ويسـيرُ إليه في البحـوثِ، ويُصوِّبُ ما يقولُ، ويُحسِّـنُه، ويُعجِبُ الحاضرين منـه، فعَل ذلك بجماعـةٍ... وكان لا يَتعَبُ على التلميـذِ، بل إذا رأى الطالبَ في دروسِـه وذهنُه جيِّدٌ وقد تَعِب على نفسِه؛ اجتَذَبه إليه، ونوَّه به، وعرَّف بقدرِه؛ فيُعرَفُ به ويُنسَبُ إليه. وإذا جاءه مبتدئٌ ليقرأَ عليه؛ يقولُ له: رُحِ الآنَ إلى الشيخِ كمالِ الدِّينِ ابنِ قاضي شُهْبَةَ، وإلى الشيخِ شـمسِ الدِّينِ ابنِ النقيبِ، وإلى مجدِ الدِّينِ التُّونُسيِّ، وإلى نجمِ الدِّينِ القَحْفازيِّ، فإذا تَنبَّهتَ فَعُدْ إليَّ)[4].

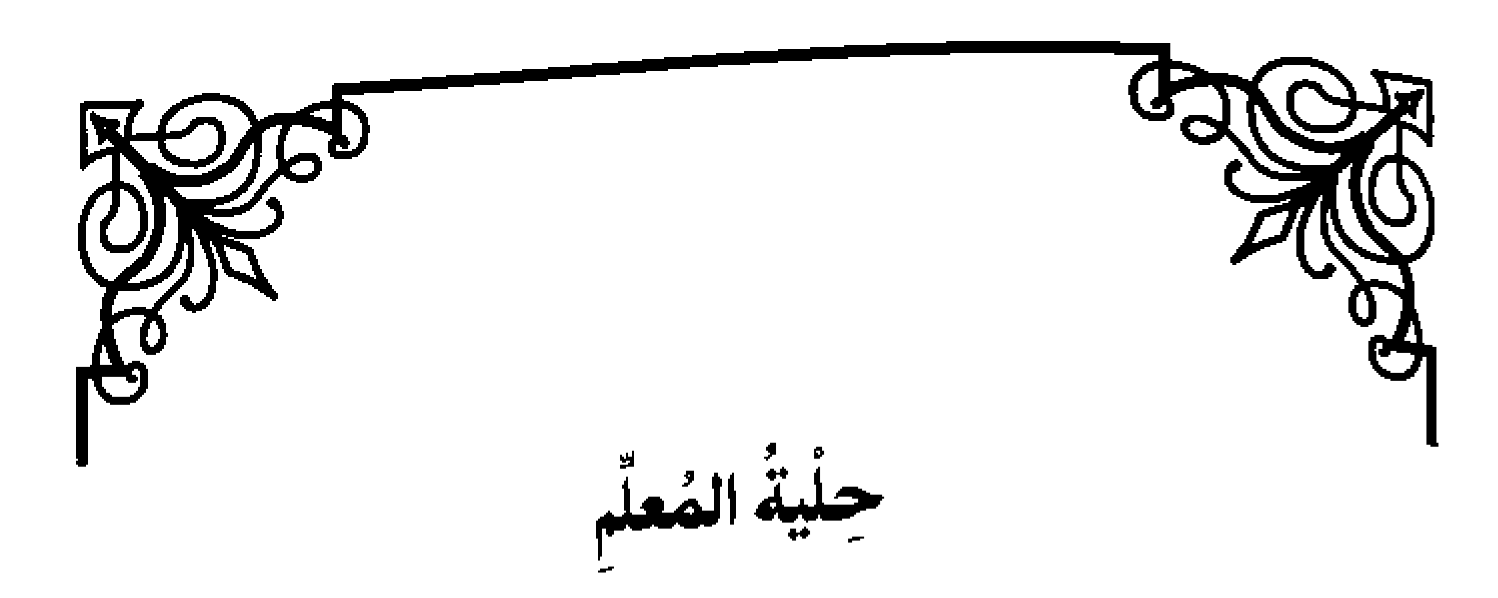
---

(١) «أعيان العصر وأعوان النصر» ٢/ ٢٣٥.

(٢) أي: بعَضُدِه.

(٣) في نسخة: (ويزهرُ له).

(٤) «أعيان العصر» ٤/ ٦٣٠ باختصار.



حِلْيةُ المُعلِّمِ

للمُعلِّـمِ حِليةٌ تُميِّزُه؛ وصفاتٌ وهيئاتٌ تدلُّ عليـه، وما لم تتحققْ إحداها عاد عليه وعلى طلابِه بالنقصِ، فمنها:

١- أن يكونَ عالِمًا بالكتابِ والسُّنَّةِ:

يقولُ ابنُ الماجشونِ رحمه اللهُ: (كانوا يقولون: لا يكونُ إمامًا في الفقهِ مَن لم يكنْ إمامًا في القرآنِ والآثارِ، ولا يكونُ إمامًا في الآثارِ مَن لم يكنْ إمامًا في الفقهِ)(١).

٢- أن يكونَ ممَّن حصَّل الملَكةَ العِلميَّةَ:

فالملكةُ غايةُ مراحلِ الطلبِ، وزُبْدةُ مسـيرةِ العالِمِ، وهي الصفةُ الكسبيةُ التي بها يكونُ العالمُ فقيهًا في أحكامِ الشـريعةِ أصولِها وفروعِها، ولا يكونُ له ذلك إلا إذا تحقَّـق بالعلمِ، وصار له كالوصفِ المجبولِ عليه، وفَهِم عـن اللهِ مُرادَه؛ ومعناه: أنَّه تفرَّغ لاكتسـابِ العلمِ وطلبِه، وقطَع كلَّ أشواطِ الطلبِ حتى تحقَّق بالصفةِ تحقُّقًا لم يَعُدْ له فيها من كُلْفةٍ؛ أي أنَّه صـار مُتمكِّنًا من المنهجيةِ العلميةِ في البحثِ والتفكيرِ، حتى صار يمارسُ ذلك بنـوعٍ من التِّلْقائيَّةِ. وهي المُعبَّر عنها عنـدَ الفقهاءِ بالملكةِ، وإنَّما هي: خِبْرةٌ منهجيةٌ في مُعالَجةِ النصوصِ الشـرعيةِ فهمًا واسـتنباطًا، وتحقيقَ مناطاتِها تنزيلًا، وهو معنى (الفقه في الدِّين) بمعناه الكُلِّيِّ فهمًا وتطبيقًا، كما ورد في

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٨١٨ رقم (١٥٣٠).

حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا؛ يُفقِّهْهُ في الدِّينِ»[1].

ويقولُ الإمامُ الشـاطبيُّ في وصفِ العالِمِ: (ويَتحقَّقُ بالمعاني الشرعيةِ مُنزَّلةً على الخصوصيَّاتِ الفرعيةِ، بحيثُ لا يَصُدُّه التبحُّرُ في الاستبصارِ بطرَفٍ عن التبحُّرِ في الاستبصارِ بالطرَفِ الآخرِ؛ فلا هو يجري على عمومٍ واحدٍ منهما دونَ أن يَعرِضَه على الآخرِ، ثُمَّ يلتفتُ -معَ ذلك- إلى تنزُّلِ ما تلخَّص له على ما يليقُ في أفعالِ المُكلَّفينَ... وهذه الرُّتبةُ لا خلافَ في صحَّةِ الاجتهادِ مِن صاحبِها، وحاصلُه أنَّه مُتمكِّنٌ فيها، حاكمٌ لها، غيرُ مقهورٍ فيها... وكُلُّ رتبةٍ حكَمتْ على صاحبِها دلَّتْ على عدمِ رسوخِه فيها، وإنْ كانتْ محكومًا عليها تحتَ نظرِه وقهرِه؛ فهو صاحبُ التمكينِ والرسوخِ، فهو الذي يستحقُّ الانتصابَ للاجتهادِ، والتعرُّضَ للاستنباطِ... ويُسمَّى صاحبُ هذه المرتبةِ: الرَّبَّانيُّ، والحكيمُ، والراسخُ في العلمِ، والعالِمُ، والفقيهُ، والعاقلُ؛ لأنَّه يُربِّي بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه، ويُوفِّي كلَّ أحدٍ حقَّه حسَبَما يليقُ به، وقد تحقَّق بالعلمِ، وصار له كالوصفِ المجبولِ عليه، وفَهِم عن اللهِ مُرادَه من شريعتِه.

ومِن خاصِّيَّته أمرانِ:

أحدُهما: أنَّه يجيبُ السائلَ على ما يليقُ به في حالتِه على الخصوصِ، إن كان له في المسألةِ حكمٌ خاصٌّ... والثاني: أنَّه ناظرٌ في المآلاتِ قبلَ الجوابِ عن السُّؤالاتِ)[2].

٣- أن يكونَ سائرًا بالمنهجيةِ العلميةِ:

بأن يكونَ المعلِّمُ مهتمًّا بتنشئةِ الطُّلابِ بالمنهجيةِ العلميةِ، سالكًا جادَّةَ العلماءِ في التدريسِ.

(١) مستفاد من «مفهوم العالِميَّة» للأستاذ فريد الأنصاري، ص٦٣.

(٢) «الموافقات» ٥/ ٢٣٢-٢٣٣.

فكم من عالـــمٍ مُتمكِّنٍ في العلمِ، طـارت بمُؤلَّفاتِه الرُّكبـانُ، وذاع صِيتُه في المعمورةِ، لا يســتطيعُ أن يُربِّيَ طلابَ العلمِ، أو يُؤهِّلَ طالبًا لدرجةِ الراسـخينَ في العلمِ! لذا فإنَّ تربيةَ الطُّلابِ، وتهيئتَهم للرسـوخِ في العلمِ = ملكةٌ وقدرةٌ أودَعها اللهُ بعضَ الخلقِ، وحرَم منها الكثيرَ.

وقد أشـار ابنُ بدرانَ[1] إلى أنَّ اختيارَ شيخٍ جاهلٍ بطرقِ التعليمِ = من أسبابِ ضياعِ عمرِ طالبِ العلمِ بلا ثمرةٍ.

فإذا تقرَّر أنَّه يجبُ على طالبِ العلمِ الناصحِ لنفسِه، المُعتني بمشروعِه العلميِّ أن يلتمسَ الشـيخَ الناصحَ المُربِّيَ، السـائرَ على المنهجيةِ العلميةِ؛ فَلْيَفِرَّ إلى الذين تحقَّقوا بعلمِ الكِتابِ والسُّـنَّةِ بفهمِ السـلفِ، وبذَلوا نفيسَ الأعمـارِ تفقُّهًا وتفقيهًا، وليهرُبْ من المُختلِطينَ.

والواجـبُ على الطالـبِ دومًا: التماسُ مَـن يفيدُه، والبحـثُ عنهم في كلِّ حاضرةٍ، والتحقُّقُ من عالِميَّتِهم ورسوخِهم، والحذرُ من التلقِّي عن الأصاغرِ من أهلِ البدعِ، أو الذين ملكوا آلةَ البيانِ والخطابةِ بلا علمٍ تأصيليٍّ مُنضبِطٍ؛ فإنَّ أُسَّ الفسـادِ ومنشأَه من تسـاهلِ الطالبِ في اختيارِ مُعلِّمِه ومُربِّيه، فينشأُ على منهجِه، ويُربَّى على مثلِ أخلاقِه، فيُورَّثُ صورةً عن العلمِ مُختلِفةً عمَّا كان عليه الأوائلُ، ويُعقَدُ قلبُه على سفاسفَ يَحسَـبُها كنوزًا من العلمِ، وإذا بها كريحٍ لا وزنَ له، أو أشباحٍ لا حقيقةَ لها، وللأسفِ هؤلاءِ كثيرونَ!

وهذا أوضحُ ما يكونُ عندَ رؤيةِ أثرِ غرسِ هؤلاءِ في الناشـئةِ والشبابِ؛ لأنَّهم تربَّوا على (مَن أحسـنَ دغدغةَ عواطِفِهم...)[2]، لا مَن أرشَدهم بالدليلِ والحُجَّةِ من القرآنِ والسُّنَّةِ.

---

(١) «المدخل» ص٤٨٥.

(٢) «مفهوم العالِمية» ص٢١.

فيطيرون إلى أصحـابِ الأصواتِ العاليـةِ والخِطاباتِ الحماسـيةِ، لا أهلِ الرسـوخِ والتروِّي؛ فتراهم لمجالسِ الحماسِ مُندفِعيـنَ، ولحلقاتِ التفقُّهِ والتعليمِ مُجافِينَ، وولعُهم بالقُرَّاءِ والخطباءِ والنجومِ يفوقُ رغبتَهم في لقاءِ العلماءِ الراسخينَ!

ومكمنُ الخطرِ في التلقِّي عن غيرِ ذوي الرسوخِ: تهميشُ دَورِ العلماءِ، وإقصاءُ مجالسِـهم، كما أنَّ فيها إشهارًا لغيرِ الناضجينَ علمًا وفكرًا؛ لأنَّهم تربَّوا تربيةً ناقصةً، وأخَذوا حكمةَ الشبابِ لا حكمةَ الشُّـيوخِ، تُحرِّكُهم العواصفُ لا الأدلةُ، وتُوجِّهُهم العامَّةُ والدَّهماءُ لا فتاوى العلماءِ.

تنبيه:

دعت الضرورةُ إلى طلبِ العلمِ عندَ مَن وُصِف بسـوءِ الخُلُقِ والسـريرةِ مِن المُعلِّمينَ ممن عُرف بالتمكُّنِ، وليكنْ على حذرٍ وحيطةٍ في ذلك، فإنَّ العِرقَ دسَّاسٌ.

وقد يُتعلَّلُ لتجويزِ ذلك بأنَّ فسـادَ الخُلُقِ والسـريرةِ يقدحُ في المعلِّمِ وذَوْقِه وأدبِه، لا في أدبيَّاتِ ومسائلِ العلمِ ومِراسِه، ومعَ هذا التعليلِ أيضًا يبقى التخوُّفُ مِن تسلُّلِ سوءِ أدبِه إلى أجيالٍ من الطُّلابِ.

٤- أن يكونَ حسنَ التعليمِ.

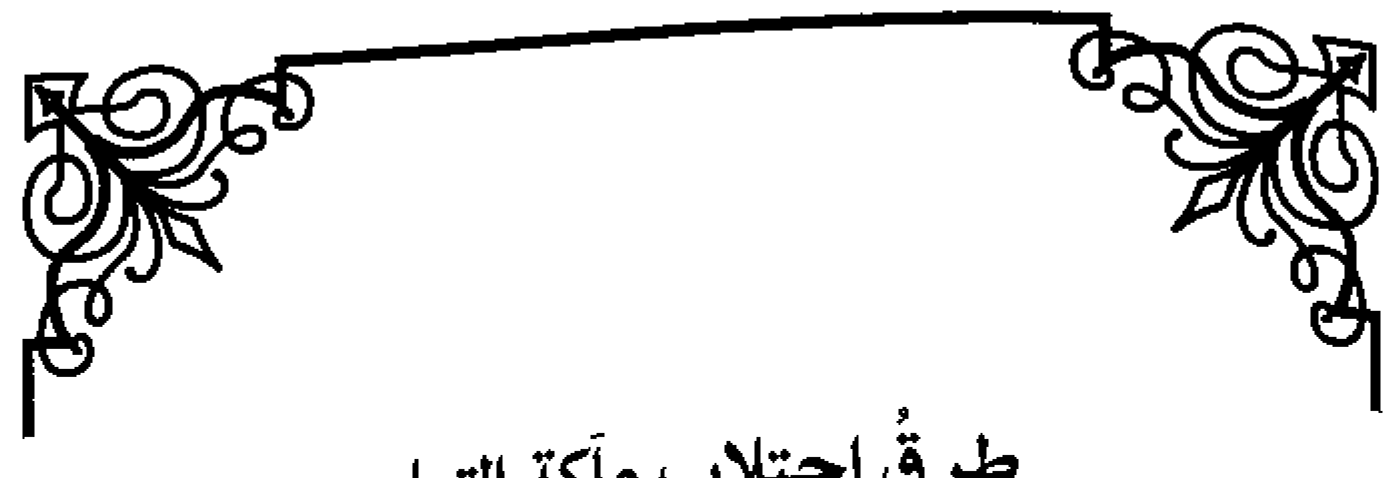
ملكةُ التعليمِ رزقٌ للعالمِ والمتعلِّمِ، وهِبةٌ لأبناءِ جيلِه لا تُقدَّرُ بثمنٍ؛ فأولُ صلاحِ الأُمَّةِ عالمٌ حسنُ التعليمِ، ينقلُ الدِّيانةَ، وينشرُ الخيرَ والعلمَ في ربوعِ الأُمَّةِ، وبه يصلُ الحقُّ، ويحسـنُ تصوُّرُه؛ لذا تعيَّنَ التماسُ المعلِّمِ الذي يجيدُ التعليمَ، ويحرصُ على إيصالِ المعلومةِ بأسلوبٍ سهلٍ مُرتَّبٍ.

وفي تراجمِ أعيانِ السـلفِ نجدُ المدحَ بـ (حُسْـنِ التعليمِ) شـائعًا ذائعًا في التعريفِ بفضائلِهم، ولو خُيِّرَ الطالبُ بينَ مُعلِّمينِ؛ كان عليه أن يلتمسَ حسنَ التعليمِ،

يلازمُه ويتابعُه في شروحِه ودروسِه.

فقد ذكر الإمامُ السخاويُّ -رحمه اللهُ- أحدَ أعيانِ القرنِ التاسعِ، فقال: (أخذ عنه خلقٌ من المبتدئين وغيرِهم، حتى بمكةَ في مُجاوَرتِه، في الفقهِ وأصولِه، والعربيةِ وغيرِها؛ لكونِه كان حســـنَ التعليمِ، لا لطولِ باعِه في العلمِ، وصار فيمَن تَلْمَذَ له غيرُ واحدٍ من الأعيانِ)[1].

(١) «الضوء اللامع» ١٠/ ١٣٩.



طرقُ اجتلابِ ملَكةِ التعليمِ

تُجتلَبُ بأمورٍ، منها:

١- **تقريبُ الأشـياءِ المعقولةِ بالأشـياءِ المحسوسةِ**؛ كقولِه ﷺ: «كالرَّاعِي يَرعَى حولَ الحِمَى، يُوشِكُ أن يقعَ فيه».

٢- تنويعُ الأسلوبِ بينَ الإجمالِ والتفصيلِ:

وهذا ما أشـار إليه الزَّركشـيُّ -رحمه اللهُ- بقولِه: (والحكيمُ إذا أراد التعليمَ لا بدَّ له أن يجمعَ بينَ بيانينِ: إجماليٌّ تتشوفُ إليه النفسُ، وتفصيليٌّ تسكنُ إليه)[١].

٣- ضربُ المثالِ لتقريبِ المعاني إلى الأذهانِ:

فعن عبد اللهِ بنِ مسـعودٍ -رضي اللهُ عنه- قال: خَطَّ النبـيُّ ﷺ خطًّا مُربَّعًا، وخَطَّ خطًّا في الوسَـطِ خارجًا منه، وخطَّ خُطُطًا صِغارًا إلى هذا الَّذي في الوسَطِ مِن جانبِه الَّذي في الوسَطِ، وقال: «هذا الإنسانُ، وهذا أَجَلُه مُحِيطٌ به -أو: قد أحاط به-، وهـذا الَّذي هو خارجٌ أَمَلُه، وهذه الخُطُطُ الصِّغارُ الأعراضُ، فإنْ أخطَأَه هذا نَهَشـه هذا، وإنْ أخطَأَه هذا نَهَشه هذا»[٢].

قال ابـنُ هُبَيرةَ -رحمه اللهُ-: (فـي هذا الحديثِ من الفقهِ: حسـنُ التعليمِ،

(١) «المنثور في القواعد» ١/ ٦٥-٦٦.
(٢) رواه البخاريُّ رقم (٦٤١٧).

والتوصُّلُ فـي تفهيمِ الحكمةِ لمَـن لا يفهمُها إلا بضربِ المثالِ والتشـكيلِ، وهذا أصلٌ لغيرِه من الصُّوَرِ ممَّا يتوصلُ الإنسـانُ في تفهيمِ النـاسِ له بضربِ من الأمثالِ والأشكالِ)[1].

٤- إعطاءُ الحديثِ حقَّه:

يقولُ سفيانُ بنُ عُيَينَةَ رحمه اللهُ: (العالِمُ: الذي يُعطِي كلَّ حديثٍ حقَّه)[2].

٥- حُسنُ التَّشجيعِ:

فمِن جميلِ ما حُكِي عن سياسـةِ شـيخِ الإسـلامِ ابنِ تيميَّةَ -رحمه اللهُ- في التعليمِ: حُسنُ التَّشجيعِ؛ فقد كان يتفرَّسُ في تلميذِه ابنِ مُفلِحِ النَّجابةَ، ويُباسِطُه قائلًا: (ما أنتَ ابنَ مُفلِحٍ، أنتَ مُفلِحٌ).

٦- التدرُّجُ في التعليمِ:

فيبـدأُ المعلِّمُ الحاذقُ بتعليمِ صغـارِ العلمِ قبلَ كبـارِه، ومبادِئِه وأصولِه قبلَ تفاريعِه.

وذهَب ابنُ خَلْدونَ -وتابَعه عليه ابنُ بدرانَ- إلى أنَّ الأَوْلى في تعليمِ المبتدِئِ: أن يُجنِّبَه أسـتاذُه إقراءَ الكتبِ الشديدةِ الاختصارِ، العَسِـرةِ على الفهمِ؛ كـ«مُختصَرِ الأصولِ» لابنِ الحاجبِ، و«الكافيةِ» له في النحوِ؛ لأنَّ الاشتغالَ بمثلِ هذينِ الكتابينِ المُختصَريـنِ إخلالٌ بالتحصيلِ؛ لِمَا فيهما وفـي أمثالِهما من التخليطِ على المبتدِئِ بإلقاءِ الغاياتِ من العلمِ عليه وهو لم يَسـتعِدَّ لقبولِها بعدُ، وهو مِن سـوءِ التعليمِ، ثُمَّ فيه -معَ ذلك- شغلٌ كبيرٌ على المتعلِّمِ بتتبُّعِ ألفاظِ الاختصارِ العويصةِ للفهمِ بتزاحمِ

---

(١) «الإفصاح عن معاني الصحاح» ٢/ ٩٣.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٨١٦ رقم (١٥٢٧).

المعاني عليها، وصعوبةِ استخراجِ المسائلِ من بينِها؛ لأنَّ ألفاظَ المُختصَراتِ تجدُها لأجلِ ذلك صعبةً عويصةً، فينقطعُ في فهمِها حظٌّ صالحٌ من الوقتِ[1].

١- أن يلزمَ المعلِّمَ الذي يلتزمُ الكتابَ، ولا يخرجَ عنه إنْ وُجِد.

٢- أن يلزمَ المعلِّمَ الذي يلتزمُ بإنهاءِ الكتابِ.

وفي نقلٍ جيِّدٍ للإمامِ الشـاطبيِّ -رحمه اللهُ- يجمعُ فيه أبرزَ صفاتِ المعلِّمِ، فيقولُ: (كثيرًا ما كنتُ أسـمعُ الأسـتاذَ أبا عليٍّ الزَّواويَّ يقولُ: قـال بعضُ العقلاءِ: لا يُسمَّى العالِمُ بعلمٍ ما عالِمًا بذلك العلمِ على الإطلاقِ، حتى تتوفرَ فيه أربعةُ شروطٍ:

أحدُها: أن يكونَ قد أحاط علمًا بأصولِ ذلك العلمِ على الكمالِ.

والثاني: أن تكونَ له قدرةٌ على العبارةِ عن ذلك العلمِ.

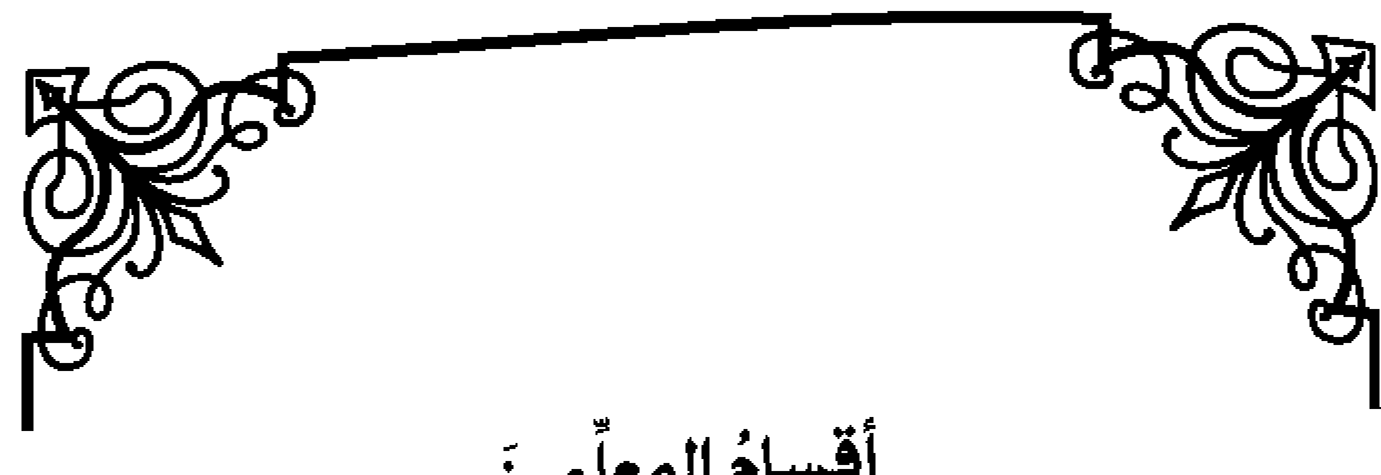
والثالثُ: أن يكونَ عارفًا بما يلزمُ عنه.

الرابعُ: أن تكونَ له قدرةٌ على دفعِ الإشكالاتِ الواردةِ على ذلك العلمِ)[2].

---

(١) يُنظَر: «المقدمة» لابن خلدون، ٢/ ٣٤٦، «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد» ص٤٩٠.

(٢) «الإفادات والإنشادات» ص١٠٧.



أقسامُ المعلِّمينَ

يحتاجُ الطالبُ إلى معرفةِ أقسامِ المعلِّمينَ؛ ليُقرِّرَ أكثرَهم نفعًا له، وأَوْلاهم بالتقديمِ والمُتابَعةِ، لا أن يكونَ مَدْعاةً للحطِّ عليهم وازدراءِ جهودِهم؛ فإنَّ طرقَ التعليمِ تتفاوتُ، وحسنُ التعليمِ رزقٌ. وإذا كانت مشاربُ الخلقِ وميولُهم تتنوعُ؛ فإنَّها تختلفُ كذلك عندَ المعلِّمينَ. وحَسْبُنا هنا أن نستكشفَ طرائقَ الناسِ وأساليبَهم بشكلٍ إجماليٍّ؛ ليُقرِّرَ الطالبُ أكثرَهم نفعًا ليلحقَ به، ويلزمَه في طريقِ التعلمِ.

والتقسيمُ هنا اعتباريٌّ، ومُعتبَرٌ فيه نفعُ الطالبِ.

أولًا: باعتبارِ الالتزامِ بإنهاءِ الكتابِ:

القسمُ الأولُ: المُشتِّتُ:

المُشتِّتُ: يُفكِّرُ في أشياءَ كثيرةٍ في آنٍ واحدٍ؛ فكُلَّما جاءته فكرةٌ، أو أُثِيرَ موضوعٌ؛ هرع إلى كتابٍ، ثُمَّ يعودُ لكتابٍ آخرَ، ثُمَّ يفتتحُ كتابًا ثالثًا ولم يُنْهِ الأوَّلَين؛ فهو كالمُتذوِّقِ للمناهجِ العلميةِ المختلِفةِ!

القسمُ الثاني: المُلتزِمُ بإنهاءِ الكتابِ:

فهو إذا شرعَ في كتابٍ أتمَّه، وهو يُكسِبُ تلميذَه الالتزامَ، وطولَ النَّفَسِ، والتركيزَ على الهدفِ، بخلافِ المُشتِّتِ بينَ الكتبِ، ويكتسبُ منه طُلَّابُه قوةَ النفسِ والصبرَ.

وهذا القسمُ يجبُ التماسُه في برنامجِ التأصيلِ العلميِّ.

(٢) باعتبارِ الالتزامِ بمادّةِ الدرسِ:

القسمُ الأولُ: مَن يغلبُ عليه الطابَعُ الرِّوائيُّ والإخباريُّ:

وهذا القسمُ وَلِعٌ بالأخبارِ والحكاياتِ، ويكثرُ خروجُ صاحبِه عن مادَّةِ الكتابِ والـدرسِ، ليحكيَ قصَّـةً ولطيفةً، ولقاءً شـخصيًّا وموقفًا، وبعضُهـم يجعلُ ورودَ الأسماءِ مُوجِبًا للوقوفِ على سِـيَرِ أصحابِها، فيتوقفُ عندَ كُلِّ موضعٍ ورَد اسمُ إمامٍ فيه، ليتوسعَ، ويحكيَ مجيئَه وذهابَه ونحوَ ذلك!

وإذا نظَرْنـا إلى ما يحتاجُه النـاسُ الآنَ؛ وجَدْنا حاجتَهم الماسَّـةَ إلى معرفةِ الشريعةِ، وما يتعلقُ بها من مسائلِ التوحيدِ والإيمانِ، وشرائعِ الإسلامِ، وأركانِه، وما يتعلقُ بمُعامَلاتِه، وأنتَ تجدُ هذا في نصوصِ الأئمَّةِ كثيرًا.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (وإنَّما بُدِّلتْ بعضُ ألفاظِ الخَبَرِيَّاتِ [أي مـن الأناجيلِ]، وبعضُ معانـي الأَمْرِيَّاتِ، كما نُؤْمَرُ نحـنُ أن نعملَ بأحاديثِ الأحـكامِ المعروفةِ عن النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ العلماءَ اعتنَوْا بضبطِها أكثرَ مِن اعتنائِهم بضبطِ الخبرياتِ كأحاديثِ الزُّهـدِ والقصصِ والفضائلِ ونحوِ ذلـك؛ إذْ حاجةُ الأُمَمِ إلى معرفةِ الأمـرِ والنَّهيِ أكثرُ من حاجتِهم إلى معرفةِ التفاصيـلِ بالخبرياتِ التي يُكتفَى بالإيمانِ المُجمَلِ بها. وأمَّا الأمـرُ والنهيُ؛ فلا بدَّ من معرفتِه على وجهِ التفصيلِ)[1]. فما ظنُّكَ بأخبارِ الناسِ وسِيَرِهم؟!

ولا يُفهَمُ من هذا التقريرِ التحقيرُ، بل الكلامُ في التفاضلِ؛ فعندَ التَّزاحُمِ يجبُ تقديـمُ الأَوْلى، ولا مانعَ من الاكتفاءِ باليسـيرِ من ذلك عندَ سـدِّ الحاجةِ في الأهمِّ والضروريِّ لإقامةِ دينِ العبادِ.

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ٣/ ٣٤.

القسمُ الثاني: مُولَعٌ بالواقعِ والأحداثِ الجاريةِ:

فهذا القسمُ تكثرُ إسقاطاتُه على الأحداثِ الجاريةِ، وإن لم يكنْ مُتعلِّقًا بالدرسِ وموضوعِه، يلجأُ إلى المُلَحِ والنِّكاتِ فرارًا من ضعفِ المُذاكَرةِ والتحضيرِ!

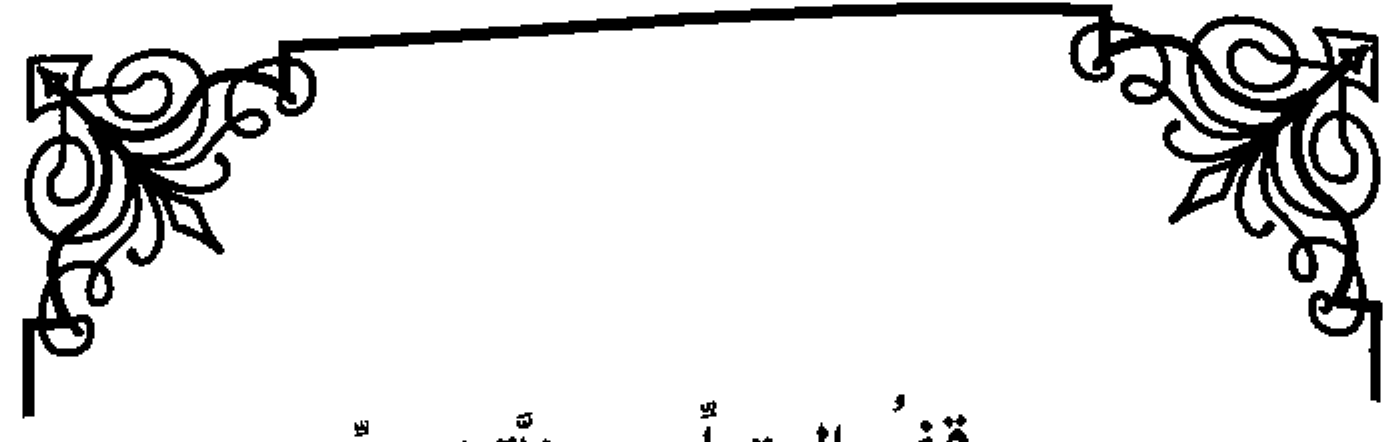
القسمُ الثالثُ: مَن يلتزمُ الكتابَ والمادّةَ، ولا يخرجُ عن ذلك:

فيُوضِّحُ عبارةً، ويُنبِّهُ على خطإٍ، ويَحُلُّ مُشكِلًا، ويضربُ مثالًا.

فالحاصلُ إذَنْ:

أنَّ مَن رَغِب في إنهاءِ برنامجِه ليتأهلَ لِمَا بعدَه؛ فعليه بالقسمِ الثالثِ، وهو مَن يلتزمُ الكتابَ ومادَّةَ الدرسِ ولا يخرجُ عنها، ولا يَحرِمْ نفسَه بابَ الاستفادةِ من الأولِ والثاني إفاداتٍ عامَّةً؛ استرواحًا أحيانًا، أو استفادةً ممَّا عندَهم من خبرةٍ وسياسةٍ للعلمِ ونحوِها، ولكنْ لا يكونا عمادَ تحصيلِه، وإلا فلن يَبرَحَ مكانَه!

فقد أثبَت الواقعُ والتجاربُ أنَّ مَن كان لزومُه لهذينِ القسمينِ الأوَّلَينِ من المعلِّمينَ، ولا يخرجُ عنهما؛ لن يكونَ مُوَصَّلًا إلا إذا صحَّح المسارَ، والتزَم منهجًا بينَه وبينَ نفسِه يلتزمُ فيه التأصيلَ؛ لأنَّ المُعتمِدَ على هذينِ القسمينِ غالبًا ما تفوتُهم حقيقةُ العلمِ، ولا يستندُ إلى تحقيقِهم؛ لأنَّ تَخرُّجَهم كان على غيرِ منهجٍ تأصيليٍّ مُركَّزٍ، يستتبعُ منهجًا لاستكمالِ التكوينِ العلميِّ، والبحثِ العلمي الجاد.



موقفُ المتعلِّمِ من زلَّةِ المعلِّمِ

إذا كان الخطأُ واردًا على سائرِ البشرِ؛ فإنَّه -بلا شكٍّ- واقعٌ على المعلِّمِ أيضًا؛ فيخطئُ كغيرِه، ويتعثرُ كما هي عادةُ البشرِ. وقد تكلَّم بعضُ الأعلامِ على مسألةِ ورودِ الخطأِ على العالِمِ، ومن ذلك ما ذُكِر عن بعضِهم: أنَّ اللهَ يجريه على لسانِه؛ لئلَّا يغلوَ الطُّلابُ فيه، وليعلمَ الناسُ أنَّه بشرٌ، يخطئُ كما يخطئون، وينسى كما ينسَوْن.

فهذا التقريرُ مهمٌّ، ويُبنَى عليه مسألةٌ أهمُّ -وهي المقصودةُ هنا- وهي منهجُ التعاملِ معَ هذا الخطأِ.

وهنا يفترقُ الطُّلابُ أقسامًا:

١- قسمٌ يلتزمُ الشناعةَ لوقوعِ الخطأِ منه.

٢- قسمٌ يكابرُ في الحقِّ بعدَما تبيَّن، ويدَّعي عصمةً له وإن لم يُصرِّحْ بها.

٣- قسمٌ يعرفُ قدرَ معلِّمِه، وينصرُ الحقَّ، فلا يجعلون وقوعَ الخطأِ تُكَأَةً للحطِّ منه.

والواجبُ على الطالبِ عندَ ورودِ الخطأِ أن تكونَ له هذه الأمورُ الثلاثةُ، وهي:

١- حفظُ حُرمتِه، ومُراعاةُ فضلِه.

٢- ردُّ الخطأِ، وعدمُ قبولِه.

٣- الاستفادةُ منه.

والأَوْلى بالمعلِّمِ أن يشكرَ الطالبَ الذي أبرَز له الخطأَ، ويُثنِيَ عليه؛ فهذا دليلُ ديانةٍ وعقلٍ. وقد حكى أصحابُ التراجمِ عن عبد الغنيِّ بنِ سعيدٍ الأزديِّ -رحمه اللهُ- أنَّـه قال: (لمَّا ردَدتُ على أبي عبد اللهِ الحاكمِ الأوهامَ التي في «المَدْخَل»؛ بعَث إليَّ يشكرُني، ويدعو لي؛ فعلمتُ أنَّه رجلٌ عاقلٌ)[1].

ومِـن جميلِ ما وقَـع في ذلك: قصَّـةٌ حكاها الإمـامُ ابنُ العربـيِّ المالكيُّ -رحمه اللهُ- تُبـرِزُ فنَّ التعاملِ، والأدبَ معَ المعلمِ، معَ حفظِ حُرمتِه، والاسـتفادةِ منه، معَ ردِّ الخطإِ، يقولُ رحمه اللهُ:

أخبَرنـي محمدُ بنُ قاسـمٍ العثمانيُّ غيرَ مرَّةٍ: وصَلتُ الفسـطاطَ مرَّةً، فجئتُ مجلسَ الشيخِ أبي الفضلِ الجوهريِّ، وحضَرتُ كلامَه على الناسِ، فكان ممَّا قال في أوَّلِ مجلسٍ جلَستُ إليه: إنَّ النَّبيَّ ﷺ طلَّق، وظاهَر، وآلَى.

فلمَّا خرَج تَبِعتُه حتى بلَغتُ معَه إلى منزلِه في جماعةٍ، فجلَس معَنا في الدِّهْليزِ، وعرَّفهم أمري، فإنَّه رأى إشـارةَ الغُربةِ، ولم يعرفِ الشـخصَ قبلَ ذلك في الوارِدينَ عليه، فلمَّا انفَضَّ عنه أكثرُهم قال لي: أراكَ غريبًا؛ هل لكَ من كلامٍ؟

قلتُ: نعم.

قال لجلسائِه: أَفرِجُوا له عن كلامِه.

فقاموا، وبقيـتُ وحدي معَه، فقلتُ له: حضَرتُ المجلسَ اليومَ مُتبرِّكًا بكَ[2]، وسـمعتُكَ تقولُ: آلَى رسـولُ اللهِ ﷺ، وصدَقتَ، وطلَّق رسولُ اللهِ ﷺ، وصدَقتَ، وقلتَ: وظاهَرَ رسـولُ اللهِ ﷺ، وهذا لم يكنْ، ولا يصحُّ أن يكونَ؛ لأنَّ الظِّهارَ مُنكَرٌ من القولِ وزورٌ؛ وذلك لا يجوزُ أن يقعَ من النبيِّ ﷺ!

(١) «سير أعلام النبلاء» ١٧/ ٢٧٠.

(٢) لعلَّه يقصدُ بهذه العبارةِ: التبرُّكَ بعلمِه والخيرِ الذي ينشرُه.

فضمَّني إلى نفسِه، وقبَّل رأسي، وقال لي: أنا تائبٌ من ذلك، جزاكَ اللهُ عنِّي مِن مُعلِّمٍ خيرًا.

ثُمَّ انقلَبتُ عنه، وبكَّرتُ إلى مجلسِه في اليومِ الثاني، فألفيتُه قد سبقَني إلى الجامعِ، وجلَس على المنبرِ، فلمَّا دخَلتُ من بابِ الجامعِ ورآني؛ نادَى بأعلى صوتِه: مرحبًا بمُعلِّمي، أفسِحوا لمُعلِّمي.

فتطاوَلتِ الأعناقُ إليَّ، وحدَّقتِ الأبصارُ نحوي، وتعرفُني يا أبا بكرٍ [يشيرُ إلى عظيمِ حيائِه؛ فإنَّه كان إذا سلَّم عليه أحدٌ أو فاجأه خَجِل لعظيمِ حيائِه، واحمرَّ حتَّى كأنَّ وجهَه طُلِي بجُلَّنارَ]، قال: وتبادَر الناسُ إليَّ يرفعونني على الأيدي ويتدافعوني حتى بلغتُ المنبرَ، وأنا لِعِظَمِ الحياءِ لا أعرفُ في أيِّ بقعةٍ أنا من الأرضِ، والجامعُ غاصٌّ بأهلِه، وأسالَ الحياءُ بدني عرقًا، وأقبَل الشيخُ على الخلقِ فقال لهم: أنا مُعلِّمُكم، وهذا مُعلِّمي؛ لمَّا كان بالأمسِ قلتُ لكم: آلَى رسولُ اللهِ ﷺ وطلَّق، وظاهَر. فما كان أحدٌ منكم فقُه عنِّي، ولا رَدَّ عليَّ، فاتَّبَعَني إلى منزلي، وقال لي كذا وكذا -وأعاد ما جرى بيني وبينَه-، وأنا تائبٌ عن قولي بالأمسِ، وراجعٌ عنه إلى الحقِّ؛ فمَن سَمِعه ممَّن حضَر فلا يُعوِّلْ عليه، ومَن غاب فليُبلِّغْه مَن حضَر؛ فجزاه اللهُ خيرًا. وجعَل يَحفِلُ في الدُّعاءِ، والخلقُ يُؤمِّنون.

ثُمَّ قال ابنُ العربيِّ رحمه اللهُ: فانظُروا -رَحِمكم اللهُ- إلى هذا الدِّينِ المتينِ، والاعترافِ بالعلمِ لأهلِه على رؤوسِ الملأِ، مِن رجلٍ ظهَرتْ رياستُه، واشتَهَرتْ نفاستُه، لغريبٍ مجهولِ العينِ، لا يُعرَفُ مَن، ولا مِن أينَ، فاقتَدُوا به تَرشُدوا[1].

(١) «أحكام القرآن» ١/ ٢٤٨-٢٤٩. يقولُ الشيخُ محمدٌ الخضرُ حُسَين -رحمه اللهُ- عن خُلُقِ «الإنصاف الأدبي»: (والراسخون في فضيلةِ الإنصافِ لا يُبالُونَ أن يكونَ رجوعُهم عن الخطإِ أمامَ مَن خالَفهم وحدَه، أو بمَحضِرِ جمعٍ كبيرٍ لم يشعروا بالخلافِ ولا بخطإِ المخطئِ أو إصابةِ المُصيبِ. وها هو ذا التاريخُ يُحدِّثُنا عن رجالٍ مِن علماءِ الإسلامِ =

وممَّن نبَّه على هذه المعاني أيضًا أبو شـــامةَ -رحمه اللهُ- حيثُ يقولُ: (ينبغي لمَن يطلبُ العلمَ أن يكونَ أبدًا في طلبِ ازديادِ علمٍ ما لم يعلمُه مِن أيِّ شــخصٍ كان؛ فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ، أينَما وجَدها أخَذها، وعليه الإنصافُ، وتركُ التقليدِ، واتِّباعُ الدليلِ؛ فكُلُّ أحدٍ يخطئُ ويصيبُ، إلا مَن شَهِدتْ له الشريعةُ بالعصمةِ، وهو النبيُّ ﷺ وإجماعُ الأُمَّةِ)[1].

ويقولُ شيخُ الإسلامِ رحمه اللهُ: (نعوذُ باللهِ -سبحانه- ممَّا يُفضِي إلى الوقيعةِ فـــي أعراضِ الأئمةِ، أو انتقاصِ أحـــدٍ منهم، أو عدمِ المعرفـــةِ بمقاديرِهم وفضلِهم، أو مُحادَّتِهم وتـــركِ محبَّتِهم ومُوالاتِهم، ونرجو من اللهِ -ســبحانه- أن نكونَ ممَّن يُحِبُّهم ويُوالِيهم، ويعرفُ مِن حقوقِهـــم وفضلِهم ما لا يعرفُه أكثرُ الأتباعِ، وأن يكونَ نصيبُنا من ذلك أوفرَ نصيبٍ وأعظمَ حظٍّ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

لكنَّ دينَ الإسلامِ إنَّما يتمُّ بأمرينِ:

أحدُهما: معرفةُ فضـــلِ الأئمةِ وحقوقِهم ومقاديرِهم، وتـــركُ كلِّ ما يجرُّ إلى ثَلْبِهم.

والثاني: النصيحةُ للهِ -سبحانه- ولكتابِه ولرسولِه ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم،

= بلَغوا هـــذه الغايةَ من الإنصافِ؛ قال عبـــدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ: ذاكَرتُ القاضـــيَ عُبيدَ اللهِ بنَ الحســـينِ في حديثٍ -وهـــو يومَئذٍ قـــاضٍ-، فخالَفني فيه، فدخلتُ عليـــه بعدُ وعندَه الناسُ سِـــماطَينِ [أي صفَّينِ]، فقال لي: ذلك الحديـــثُ كما قلتَ أنتَ، وأرجعُ أنا صاغرًا. فعُبَيدُ اللهِ بنُ الحسينِ قد أحسَن إلى نفسِه؛ إذْ أخَذها بفضيلةِ الإنصافِ، وأحسَن إلى الناسِ؛ إذْ علَّمهم كيف يعترفون بالخطأِ إذا أخطَؤوا، ولا يتلبَّثون في الرُّجوعِ إلى الحقِّ ولو عَظُمتْ مناصبُهم، وعلَتْ أقدارُهم). مقال: «الإنصاف الأدبي» ضمنَ «مقالات لكبار كُتَّاب العربيَّة في العصر الحديث» للحمَد ١/ ٦٣- ٦٤.

(١) «خطبة الكتاب المؤمل» ص١٤١.

وإبانةُ ما أنزَل اللهُ -سبحانه- من البيِّناتِ والهدى.

ولا مُنافاةَ -إن شاء اللهُ سبحانه- بينَ القسمينِ لمَن شرَح اللهُ صدرَه، وإنَّما يضيقُ عن ذلك أحدُ رجلينِ: رجلٌ جاهلٌ بمقاديرِهم ومعاذيرِهم، أو رجلٌ جاهلٌ بالشريعةِ وأصولِ الأحكامِ.

وهذا المقصودُ يتلخصُ بوجوهٍ:

أحدُها: أنَّ الرجلَ الجليلَ الذي له في الإسلامِ قَدَمٌ صالحٌ وآثارٌ حسنةٌ، وهو من الإسلامِ وأهلِه بمكانةٍ عليا، قد يكونُ منه الهفوةُ والزَّلَّةُ، هو فيها معذورٌ، بل مأجورٌ، لا يجوزُ أن يُتَّبَعَ فيها، معَ بقاءِ مكانتِه ومنزلتِه في قلوبِ المؤمنين.

واعتَبِرْ ذلك بمناظرةِ الإمامِ عبد اللهِ بنِ المباركِ، قال: كُنَّا بالكوفةِ، فناظَروني في ذلك -يعني النَّبيذَ المُختلَفَ فيه- فقلتُ لهم: تعالوا فَلْيَحتجَّ المُحتجُّ منكم عمَّن شاء من أصحابِ النبيِّ ﷺ بالرُّخصةِ، فإنْ لم نُبيِّنِ الرَّدَّ عليه عن ذلك الرجلِ بشدَّةٍ صحَّتْ عنه، فاحتَجُّوا، فما جاؤوا عن أحدٍ برُخصةٍ إلَّا جئناهم بشدَّةٍ، فلمَّا لم يَبْقَ في يدِ أحدٍ منهم إلا عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ، وليس احتجاجُهم عنه في شدَّةِ النَّبيذِ بشيءٍ يصحُّ عنه، إنَّما يصحُّ عنه أنَّه لم يُنبَذْ له في الجرِّ الأخضرِ.

قال ابنُ المباركِ: فقلتُ للمُحتَجِّ عنه في الرُّخصةِ: يا أحمقُ! عُدَّ أنَّ ابنَ مسعودٍ لو كان ههنا جالسًا، فقال هو لكَ: حلالٌ. وما وصَفْنا عن النبيِّ ﷺ وأصحابِه في الشِّدَّةِ = كان ينبغي لكَ أن تحذَرَ، أو تَجبُنَ، أو تخشى!

فقال قائلُهم: يا أبا عبد الرحمنِ، فالنَّخَعيُّ، والشَّعبيُّ -وسمَّى عِدَّةً معَهما- كانوا يشربون الحرامَ؟

فقلتُ لهم: دَعُوا عندَ الاحتجاجِ تسميةَ الرِّجالِ؛ فرُبَّ رجلٍ في الإسلامِ مناقبُه كذا وكذا، وعسى أن يكونَ منه زَلَّةٌ؛ أَفَلِأحدٍ أن يحتجَّ بها؟! فإنْ أبَيْتم؛ فما قولُكم في

عطاءٍ، وطاووسٍ، وجابرِ بنِ زيدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وعكرمةَ؟

قالوا: كانوا خِيارًا.

قلتُ: فما قولُكم في الدِّرهمِ بالدِّرهمينِ يدًا بيدٍ؟

فقالوا: حرامٌ.

فقال ابنُ المباركِ: إنَّ هؤلاءِ رأَوْه حلالًا، فماتوا وهم يأكلون الحرامَ؟

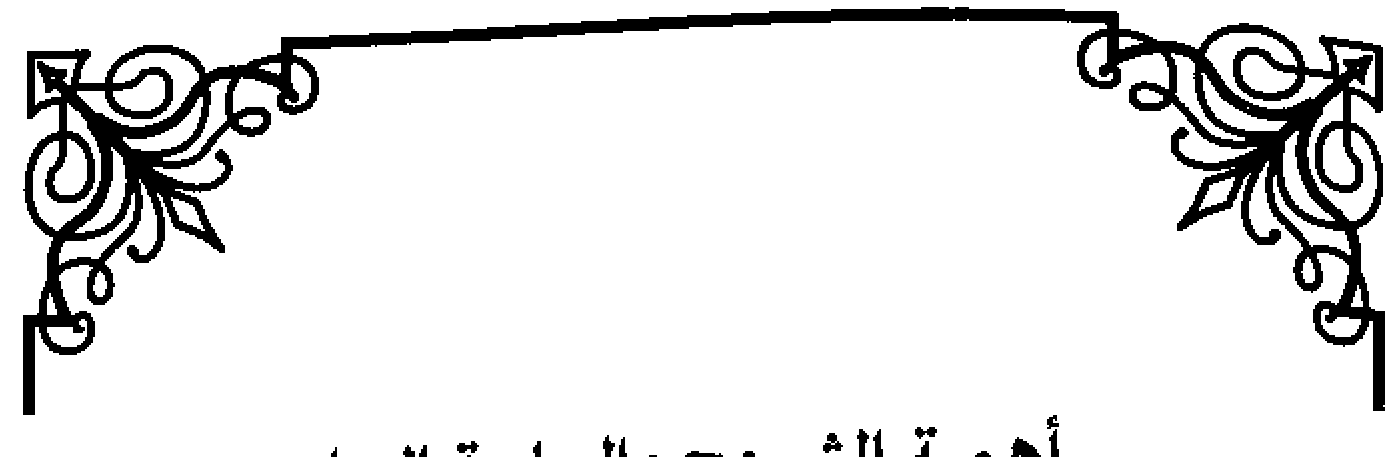
فبُهِتوا، وانقطَعتْ حُجَّتُهم[1]!

(١) «بيان الدليل على بطلان التحليل» ص ١٣٩-١٤١، و«الفتاوى الكبرى» ٦/ ٩٢-٩٣.

فَنُّ الشَّرحِ وإيصالِ العلومِ

(حريصًا على التَّعليــمِ، مُجتهِدًا على التَّفهيمِ، يُعِيدُ الــدَّرسَ للطَّالبِ مرَّاتٍ، ويُطالِبُه بإعادتِه كرَّاتٍ، ويسمّعُ على المُشتغِلينَ الماضيَ الَّذي تقدَّم، ويُقِيمُ بالمُذاكَرةِ مِن رُبُوعِ العلمِ مــا تهدَّم، لو أمكَنه صوَّر الدَّرسَ للطَّالبِ في الخارجِ، ورقَّاه في فهمِه على المعارجِ، وانتفَع عليه بذلك جماعةٌ...)

[صلاحُ الدِّينِ الصَّفَديُّ -رحمه اللهُ- واصفًا ابنَ قاضي شهْبةَ رحمه اللهُ]



أهمية الشروح والحاجة إليها

كتَب العلماءُ في أهميةِ الشُّروحِ، ومسيسِ الحاجةِ إليها والاعتناءِ بها، وتناثَر الحديثُ عنها في جموعِ مُؤلَّفاتِهم، غيرَ أنَّ جماعَ مقاصدِ الشُّروحِ تتفرَّعُ على حاجاتٍ حقيقيةٍ تعترضُ الطالبَ، لا أمورًا مُستحسَنةً. فتعاطي المتونِ خاصَّةً، والولوجُ في الفنونِ دونَ تلقِّي شرحٍ فيه على شيخٍ أو كتابٍ شارحٍ = قد يقفُ عائقًا دونَ أصلِ الفهمِ أو كمالِه، وقد يكونُ سببًا في تسرُّبِ سوءِ تصوُّرٍ عن العلمِ، فيتعاظمُ الخطأُ دونَ وعيٍ أو إدراكٍ له؛ فالحاجةُ إليها -إذَنْ- مُلحِئةٌ، وذلك لأمورٍ:

الأمرُ الأولُ: كمالُ مهارةِ المصنِّفِ:

فإنَّ المؤلِّفَ -لجودةِ ذهنِه، وحُسنِ عبارتِه- يتكلمُ على معانٍ دقيقةٍ بكلامٍ وجيزٍ كافٍ في الدَّلالةِ على المطلوبِ، وغيرُه ليس في مرتبتِه؛ فرُبَّما عَسُر عليه فهمُ بعضِها أو تعذَّر، فيحتاجُ إلى زيادةِ بسطٍ في العبارةِ؛ لتظهرَ تلك المعاني الخفيَّةُ، ومِن ههنا شرَح بعضُ العلماءِ مصنفاتهم.

الأمرُ الثاني: حذفُ بعضِ مُقدِّماتِ الأقيسةِ:

وذلك اعتمادًا على وضوحِها، أو لأنَّها من علمٍ آخرَ، أو أهمَل ترتيبَ بعضِ الأقيسةِ فأغفَل عِلَلَ بعضِ القضايا، فيحتاجُ الشارحُ إلى أن يذكرَ المُقدِّماتِ المُهمَلةَ، ويُبيِّنَ ما يمكنُ بيانُه في ذلك العلمِ، ويُرشِدَ إلى أماكنَ فيما لا يليقُ بذلك الموضعِ من المُقدِّماتِ، ويُرتِّبَ القياساتِ، ويعطيَ عللَ ما لم يُعْطِ المصنِّفُ.

الأمرُ الثالثُ: احتمالُ اللفظِ لمعانٍ تأويليةٍ أو لدقةِ المعنى، أو استعمالِ الألفاظِ المجازيةِ والدّلالةِ الالتزاميةِ:

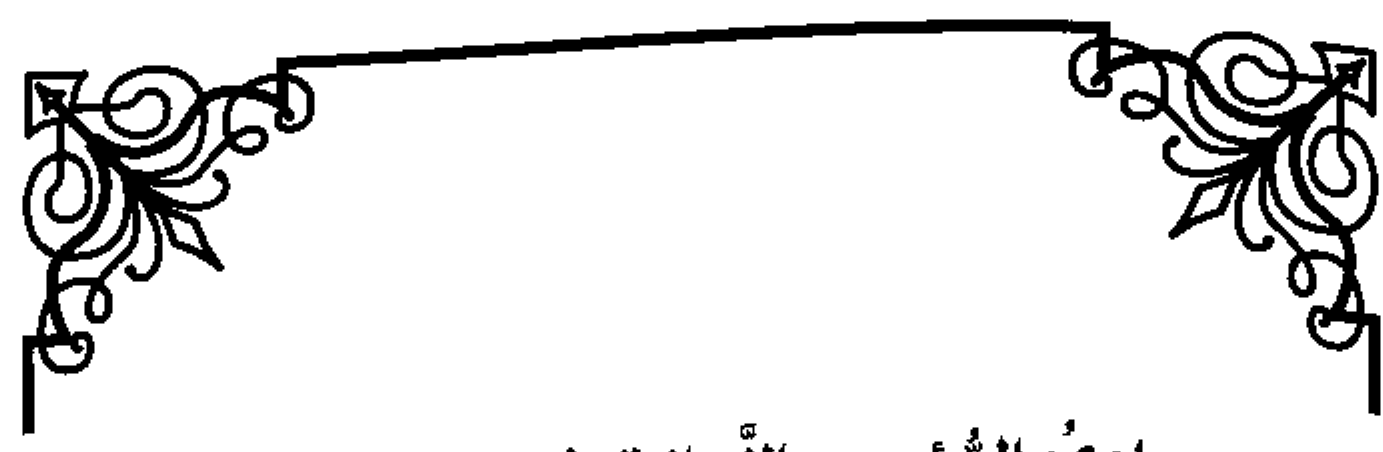
فحينَئذٍ يَعمِدُ الشارحُ إلى بيانِ غرضِ المصنِّفِ وترجيحِه.

الأمرُ الرابعُ: وقوعُ الغلطِ في بعضِ التصانيفِ:

فذلك ما لا يخلو البشرُ عنه مِن السهوِ، والغلطِ، والحذفِ لبعضِ المُهِمَّاتِ، وتكرارِ الشيءِ بعينِه بغيرِ ضرورةٍ، إلى غيرِ ذلك، فيحتاجُ أن يُنبَّهَ عليه[1].

---

(١) راجع: «كشف الظُّنون» ١/ ٣٦- ٣٧.



مبادئُ الرُّؤوسِ الثّمانيةِ في شرحِ الكتابِ

(الـرُّؤوسُ الثَّمانيـةُ)[1]: مُصطلَحٌ أطلَقه بعضُ العلمـاءِ على: (مجموعةٍ من المبادئِ الهامَّةِ التي تُعتبَرُ خطوةً في سبيلِ التَّأصيلِ العلميِّ).

ومـن الممكنِ أن تُعرَّفَ بأنها: (مبادئُ أساسـيَّةٌ يجبُ أن يتعرضَ لها شـارحُ الكتابِ قبلَ الشروعِ في المقصودِ منه)، وهي:

(١) الغرضُ من تدوينِ العلمِ أو تحصيلِه:

أي الفائدةُ المُترتِّبةُ عليه؛ لئـلَّا يكونَ تحصيلُه عبثًا في نظرِه، والمرادُ بالغرضِ هنـا: بيانُ وجهِ الحاجةِ إليه؛ كحاجةِ الناسِ إلى الفقـهِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وفي كلِّ ما يُلابِسُهم.

(٢) المنفعةُ:

المراد بها الفائدةُ المُعتَدُّ بها ليتحمَّلَ المشقَّةَ في تحصيلِ هذا الفنِّ أو الكتابِ، ولا يَعرِضَ له فتورٌ في طلبِه فيكونَ عبثًا.

وقيل: إنَّ المرادَ بالغرضِ هو العِلَّةُ الغائيَّةُ؛ فإنَّ ما يترتبُ على فعلٍ يُسمَّى فائدةً ومنفعةً وغايةً، فإن كان باعثًا للفاعلِ على صدورِ ذلك الفعلِ منه؛ يُسمَّى غرضًا وعِلَّةً

(١) ما سـيأتي في هذا المبحثِ منقـولٌ باختصارٍ وتَصرُّفٍ من: «أبجـد العلوم» ص٥٨-٦١، و«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقريزيِّ ١/ ٩.

غائيَّةً، وذكرُ المنفعةِ إنَّما يجبُ إن وُجِدتْ لهذا العلمِ منفعةٌ ومصلحةٌ سوى الغرضِ الباعثِ، وإلَّا فلا. وبالجملةِ، فالمنفعةُ قد تكونُ بعينِها الغرضَ الباعثَ.

(٣) السِّمةُ:

السِّمةُ هي عنوانُ العلمِ، والمرادُ منه تعريفُ العلمِ برسمِه، أو بيانُ خاصَّةٍ[1] من خواصِّه ليحصلَ للطالبِ علمٌ إجماليٌّ بمسائلِه، ويكونَ له بصيرةٌ في طلبِه.

(٤) المُؤلِّفُ:

وهو مُصنِّفُ الكتابِ؛ ليركنَ قلبُ المتعلِّمِ إليه في قبولِ كلامِه، والاعتمادِ عليه؛ لاختلافِ ذلك باختلافِ المُصنِّفينَ. وأمَّا المُحقِّقون؛ فيعرفون الرِّجالَ بالحقِّ لا الحقَّ بالرِّجالِ، ولَنِعمَ ما قيل: (لا تنظرْ إلى مَن قال، وانظرْ إلى ما قال).

ومِن شرطِ المصنِّفين: أن يحترزوا عن الزيادةِ على ما يجبُ، والنقصانِ عمَّا يجبُ، وعن استعمالِ الألفاظِ الغريبةِ المُشتَرَكةِ، وعن رداءةِ الوضعِ؛ وهي تقديمُ ما يجبُ تأخيرُه، وتأخيرُ ما يجبُ تقديمُه.

(٥) مِن أيِّ علمٍ هو؟

أي مِن اليقينيَّاتِ أو الظَّنِّيَّاتِ، مِن النَّظريَّاتِ أو العمليَّاتِ، مِن الشَّرعيَّاتِ أو غيرِها؛ ليطلبَ المتعلِّمُ ما تليقُ به المسائلُ المطلوبةُ.

(٦) مِن أيِّ مرتبةٍ هو؟

أي بيانُ مرتبتِه بينَ العلومِ: إمَّا باعتبارِ عمومِ موضوعِه أو خصوصِه، أو باعتبارِ

(١) المرادُ هنا تمييزُ العلمِ ببيانِ خواصِّه وأعراضِه التي تُميِّزُه، والتي لا يُشارِكُه فيها غيرُه من العلومِ الأخرى.

توقُّفِه على علمٍ آخرَ أو عدمِ توقُّفِه عليه، أو باعتبارِ الأهميةِ أو الشرفِ؛ ليُقدَّمَ تحصيلَه على ما يجبُ أو يُستحسَنُ تقديمُه عليه، ويُؤخَّرَ تحصيلَه عمَّا يجبُ أو يُستحسَنُ تأخيرُه عنه.

(٧) القِسْمةُ:

وهي بيانُ أجزاءِ العلمِ وأبوابِه؛ ليطلبَ المتعلِّمُ في كلِّ بابٍ منها ما يتعلقُ به، ولا يُضيِّعَ وقتَه في تحصيلِ مطالبَ لا تتعلقُ به، كما يُقالُ: «أبوابُ الفقهِ تسعةٌ: كذا وكذا...». وهذا قسمةُ العلمِ. وقسمةُ الكتابِ كما يُقالُ: «كتابُنا هذا مُرتَّبٌ على: مُقدِّمةٍ، وبابينِ، وخاتمةٍ». وهذا الثاني كثيرٌ شائعٌ لا يخلو عنه كتابٌ.

(٨) الأنحاءُ التَّعليميَّةُ:

وهي أنحاءٌ مُستحسَنةٌ في طرقِ التعليمِ.

أحدُها: التقسيمُ، وهو: التكثيرُ مِن فوقُ إلى أسفلُ؛ أي مِن أعمَّ إلى ما هو أخصُّ؛ كتقسيمِ الجنسِ إلى الأنواعِ، والنوعِ إلى الأصنافِ، والصِّنفِ إلى الأشخاصِ.

وثانيها: التحليلُ، وهو عكسُه؛ أي التكثيرُ مِن أسفلُ إلى فوقُ؛ أي مِن أخصَّ إلى ما هو أعمُّ؛ كتحليلِ (زيدٍ) إلى: الإنسانِ، والحيوانِ، وتحليلِ (الإنسانِ) إلى: الحيوانِ، والجسمِ.

وثالثُها: التحديدُ:

أي فعلُ الحدِّ: أي إيرادُ حدِّ الشيءِ؛ وهو ما يدلُّ على الشيءِ دَلالةً مُفصَّلةً بما به قِوامُه، بخلافِ الرَّسمِ فإنَّه يدلُّ عليه دلالةً مُجمَلةً.

ورابعُها: البرهانُ:

أي الطريقُ إلى الوقوفِ على الحقِّ أي اليقيــنِ إن كان المطلوبُ نظريًّا، وإلى الوقوفِ عليه والعملِ به إن كان عمليًّا.

وهذه أمورٌ استحسانيَّةٌ، لا يلزمُ مِن تركِها فسادٌ، ويُستفادُ منها في الشَّرحِ.

المَلَكَةُ العِلميَّة

الحصولُ على الملَكةِ الرَّاسـخةِ = همُّ الطالبِ الأوَّلُ، وما مِن سائرٍ في مدارجِ التعلمِ إلَّا وهو ينشـدُها، والحقيقة أنه ليس كلُّ سالكٍ ودارسٍ بمنعوتٍ بها مُستجمِعِ مهاراتِها؛ إذْ دونَ تحقيقِها سُـلَّمٌ طويلٌ ومُمارَساتٌ؛ لِتَنفِيَ عنها المُقصِّرَ في شروطِها ورسـومِها، وتَصقِلَ ذِهـنَ الدَّائبِ في طلبِها؛ حتى لا يكادَ يظفـرُ بها إلا الواحدُ بعدَ الواحِدِ، فهُمْ في الحقيقةِ أفرادٌ قلائلُ من المُنتسِبينَ إلى العلمِ.

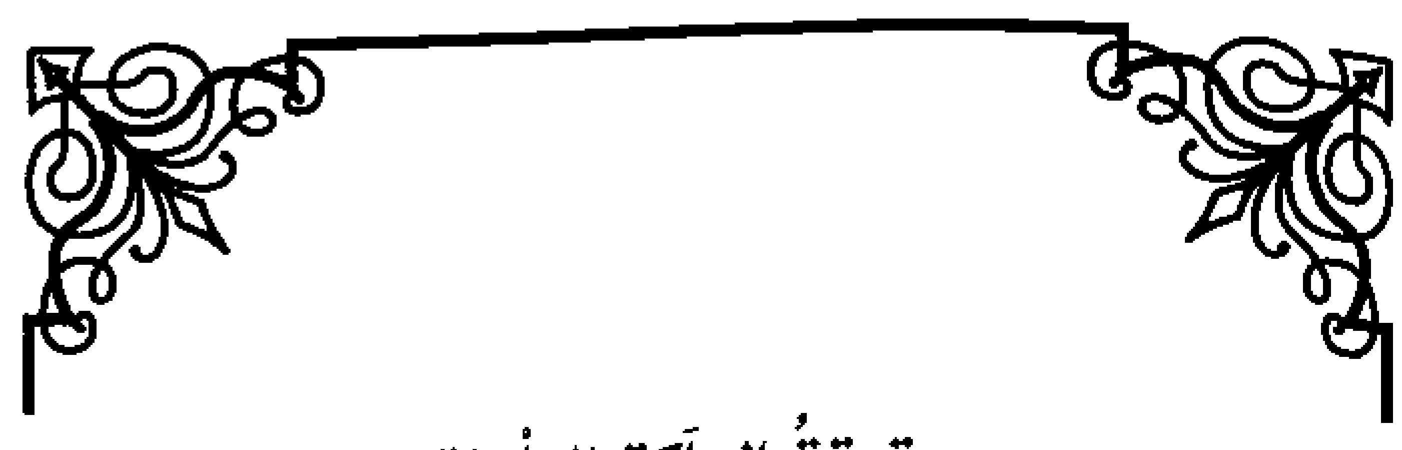
ثُمَّ إنَّ المُتحقِّقينَ بها على درجاتٍ: ماهرٌ فيها، ومُتوسِّطٌ.

وتجدُ أيضًا أدعياءَ يدَّعونها يَحسـبُهم البعضُ من ذوي الملكةِ لفرطِ جرأتِهم وإحكامِ الدعاوى، لكن تناقضهم سيُكذِّبُ دعواهم.

يدفعُ الطالبَ لتحصيـلِ الملكةِ كونُها (مناعةً علميَّـةً)، و (حَصانةً)؛ فأهمُّ ما يمكنُ أن يُجتنَى مِن تعلُّمٍ مُنظَّمٍ مُرتَّبٍ ممزوجٍ بمراسٍ مناعةٌ وحصانةٌ.

والسِّـرُّ في تلك المناعةِ: رسـوخُ أبجديَّاتِ العلمِ، وقوانينِه، وقواعدِه؛ وهذه ثمرةٌ ما بعدَها ثمرةٌ، وفائدةٌ تَقصُرُ دونَها كلُّ فائدةٍ.

ومنشأُ ذلك الرسوخِ: التَّكرارُ، والمراسُ الدَّؤوبُ.



حقيقةُ الملَكةِ العِلْميّةِ

قال ابنُ فارسٍ: الميمُ واللامُ والكافُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُوَّةٍ في الشـيءِ وصحَّةٍ.

يُقالُ: أَملَكَ عَجِينَه: قوَّى عجنَه وشدَّه. وملَّكتُ الشيءَ: قوَّيتُه.

ثُمَّ قيل: ملَكَ الإنسانُ الشيءَ، يَملِكُه، مَلْكًا. والاسمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يدَه فيه قويَّةٌ صحيحةٌ.

فالمِلكُ: ما مُلِك من مالٍ. والمملوكُ: العبدُ. وفلانٌ حسنُ الملكةِ؛ أي حسَنُ الصنيعِ إلى مُمالِكِيه[1].

فمَدارُها مادَّتها: (قوَّةٍ في الشيءِ وصحَّةٍ).

وأمَّا في الاصطلاحِ:

فصفةٌ راسخةٌ في النَّفسِ، أو استعدادٌ عقليٌّ خاصٌّ لتناولِ أعمالٍ مُعيَّنةٍ بحِذْقٍ ومهارةٍ؛ مثلَ الملَكةِ العدديَّةِ، والملكةِ اللُّغويَّةِ[2].

قال الجُرْجانيُّ: وتحقيقُه أنَّه تحصلُ للنَّفسِ هيئةٌ بسببِ فعلٍ من الأفعالِ، ويُقالُ لتلك الهيئةِ: «كيفيَّةٌ نفسانيَّةٌ»، وتُسمَّى «حالةً» ما دامتْ سريعةَ الزَّوالِ، فإذا

---

(١) «مقاييس اللُّغة» ٥/ ٣٥٢- ٣٥٣.

(٢) «المعجم الوسيط» ٢/ ٨٨٦.

تكرَّرتْ ومارَستْها النَّفسُ حتى رسَخَتْ تلك الكيفيةُ فيها وصارتْ بطيئةَ الزَّوالِ = فتصيرُ «ملَكةً»، وبالقياسِ إلى ذلك الفعل عادةً وخلقًا[1].

فمُصطلَحُ «الملكةِ» إذَنْ يدلُّ على صفةٍ راسخةٍ غُرِستْ في النَّفسِ، ورسَخَتْ باطِّلاعٍ ومِراسٍ، حتى اصطَبَغتْ بها النفسُ، ولا تنفكُّ عنها.

ومن معاني الملكةِ:

السَّجِيَّةُ:

قال الزَّبيديُّ: هي الملكةُ الرَّاسخةُ في النَّفسِ التي لا تقبلُ الزوالَ بسهولةٍ[2].

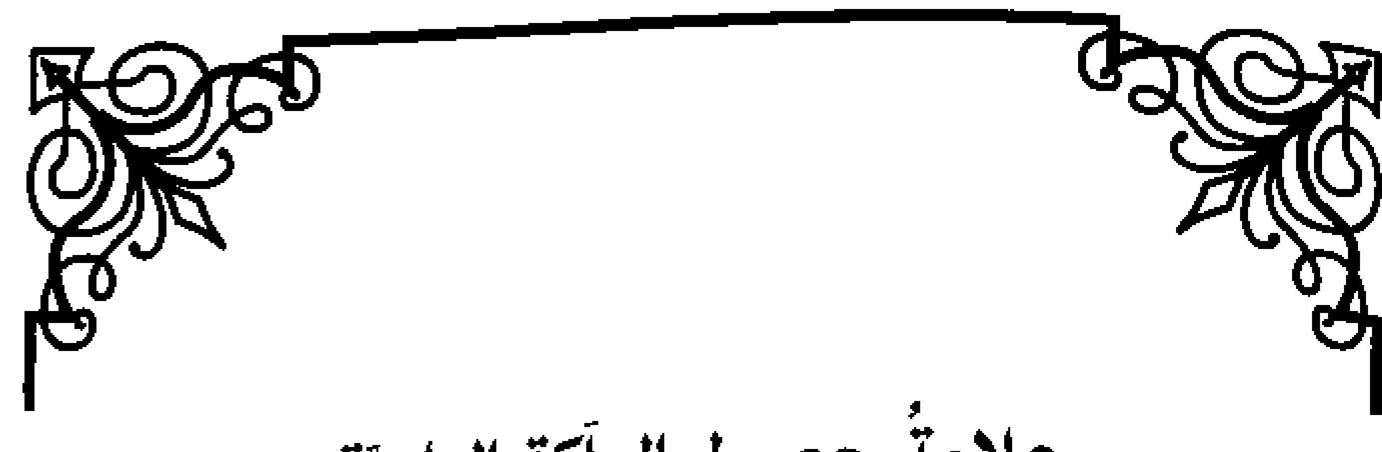
وقال مُحمَّدٌ الطَّاهرُ ابنُ عاشورٍ رحمه اللهُ: ونعني بالملكةِ: أن يصيرَ العملُ بتعليماتِ العلمِ كسجيَّةٍ للمُتعلِّمِ، لا يحتاجُ معَها إلى مُشايَعةِ القواعدِ إيَّاه[3].

---

(١) «معجم التَّعريفات» ص١٩٣. وانظر أيضًا: «دستور العلماء» [أو «جامع العلوم في اصطلاحات الفنون»] ٣/ ٢٢٨.

(٢) «تاج العروس» ٣٨/ ٢٤٨.

(٣) «أليس الصُّبحُ بقريبٍ؟» ص١٥٣.



علامةُ حصولِ الملَكةِ العلميّةِ

علامتُها اجتماعُ أربعِ خصالٍ:

الأولى: المعرفةُ بأصولِ العلمِ، وما يُبنَى عليه ذلك العلمُ، وما يَلزَمُ عنه.

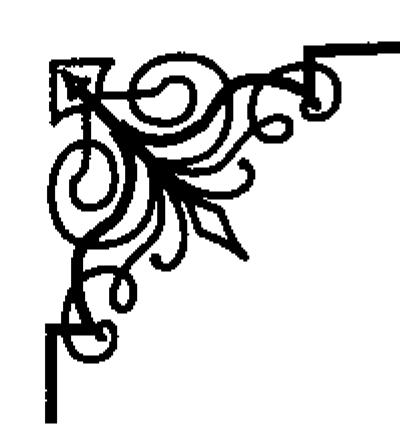
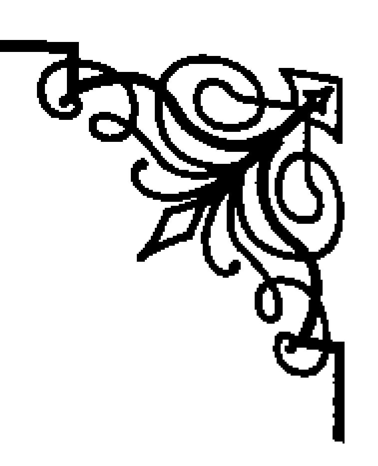
الثانيةُ: القدرةُ على التعبيرِ عن مقصَدِ هذا العلمِ.

الثالثةُ: دفعُ الشُّبَهِ الواردةِ على هذا العلمِ[1].

الرابعةُ: طردُ قواعدِه في فروعٍ ومسائلَ جديدةٍ.

---

(١) «بدائع السلك في طبائع الملك» لابن الأزرق ٢/ ٧٤٥.

مدارجُ الملَكةِ

للحصولِ على الملكــةِ لا بدَّ للطالبِ من الترقِّي فــي مراحلَ ثلاث؛ وعبرَها تتكوّنُ في نفسِ صاحبِها، وتتَّسعُ، وتطَّرد.

الأولى: تلقينُ أستاذٍ حاذقٍ.

الثانية: اطِّلاعٌ على الكتبِ المُتقَنةِ في قوانينِ الفنِّ وقواعدِه.

الثالثُة: جهدٌ ومِراسٌ.

فالأســتاذُ الحاذقُ: مِفتاحُ الملَكةِ، وقادحُ شَرَرِها في قلبِ الطالبِ، خاصَّةً مَن كان أهلًا لذلك، ومُتحلّيًا بحسنِ الملكةِ في التعليم؛ فيبتدئُ المتعلِّمُ معَه دربَ الملكةِ العلميةِ، ثم يُنيرُها فكرُ الطالبِ وذكاؤه، ويُشــعِلُ فتيلَها اطِّلاعٌ جادٌّ على كتبِ أصولِ العلمِ وقوانينِه وقواعدِه الكُلِّيَّةِ، ثم ممارســةٌ دؤوبــةٌ وجهدٌ مبذولٌ؛ فإنَّ (الملكة التي تَحصُلُ إمَّا عن قوانينَ تُتعلَّمُ، أو عن أفعالٍ تُعتادُ)[1].

فالجهدُ والمِــراسُ يُجلِّي للطالبِ مَقصَدَ العلمِ، ويكشــفُ له سِــرَّ الصِّناعةِ العلميةِ، ليُحسِــنَ اســتعمالَ مادَّةِ العلمِ. وهذه هي الغايةُ من تقعيدِ القواعدِ وتأصيلِ الأصولِ.

يقولُ الحَجْويُّ رحمه اللهُ: (وصيَّروا هــذه الأصولَ علومًا وصناعاتٍ تحتاجُ

---

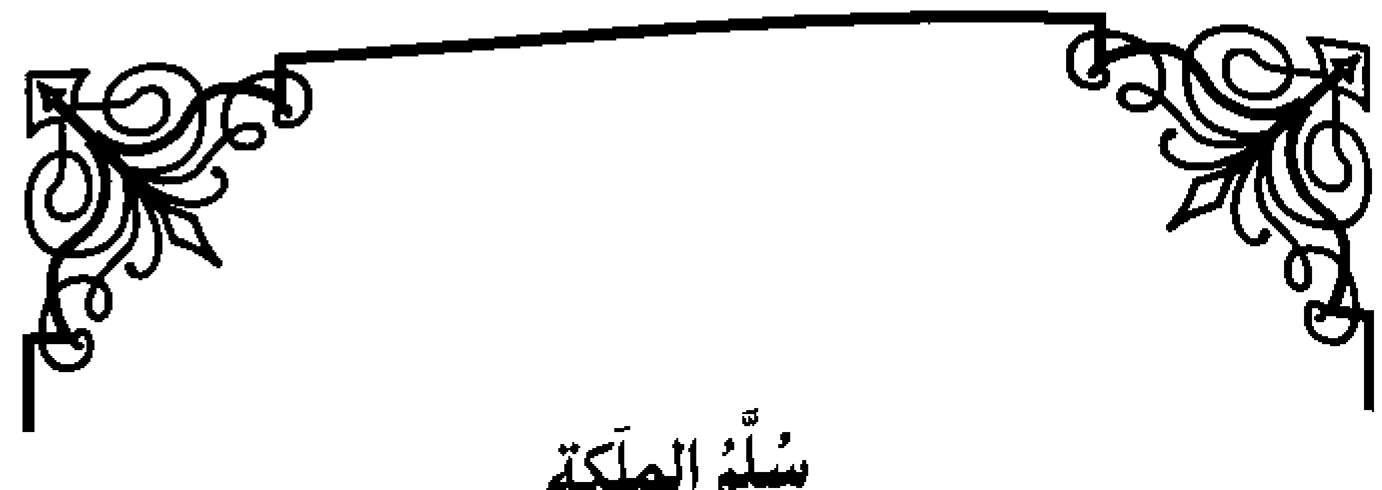
(١) «المنطق» لابن سينا [نسخة إلكترونية] ٢/ ١٥٨.

لمزيدِ المُمارَساتِ؛ لينضبطَ بذلك الفقهُ، وينتظمَ أمرُ الاجتهادِ الذي يَتوقَّفُ عليه تقدُّمُ الأُمَّةِ وصَونُ حقوقِها)[1].

ويقولُ ابنُ عاشــورٍ رحمه اللهُ: (انقطاعُ العملِ -أي التَّمرينِ- عن التعليمِ قد محَــا رُوحَ العلمِ من الأذهانِ، فصيَّر العلمَ قواعــدَ واصطلاحاتٍ لا يُهتَمُّ فيها بعملٍ، ولا يُمــرَّنُ صاحبُها، حتى إذا بحَث أو انتقَد؛ فإنَّما ذلك في مُعارَضةِ قاعدةٍ أخرى)[2].

وما لم تجتمعِ الثلاثُ: (التَّلقيــنُ)، و (الاطِّلاعُ)، و (الجهدُ والمِراسُ) = عاد النقصُ على الطالبِ، وتسلَّل الخللُ إلى ملكتِه.

(١) «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» ٢/ ٣.
(٢) «أليس الصبح بقريب؟» ص١٥٧.



سُلَّمُ الملَكةِ

سُلَّمُها خمسُ درجاتٍ[1]، وفيها تفصيل لمراحل الملكة (التلقين- والاطلاع- والمراس):

الدّرجةُ الأولى: تلقينُ أستاذٍ حاذقٍ في الفنّ:

فأوَّلُ درجاتِ الملَكةِ درجةٌ يتلقَّاها الطالبُ في محرابِ التعلُّمِ والدَّرسِ، ففيه تتَّسعُ مداركُه. وإذا أجرَيْنا نظرًا استقرائيًّا على مصادرِ العلمِ والمعرفةِ عندَ الناسِ؛ فإنَّنا سـنجدُ أنَّ حصولَ الملكاتِ على المباشرةِ والتلقينِ أشدُّ استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدرِ كثرةِ الشُّيوخِ يكونُ حصولُ الملكةِ ورسوخُها، خاصَّةً في المراحلِ الأولى من الطلبِ، ليَتبَعَ ذلك جهدٌ شخصيٌّ مبنيٌّ على القراءةِ والممارسةِ.

الدَّرجةُ الثَّانيةُ: الاطِّلاعُ والمُمارَسةُ:

وفيها تنقدحُ في ذاتِ المتلقِّي صفةٌ وأثرٌ، لكنَّ ذلك غيرُ راسخٍ.

الدّرجةُ الثَّالثةُ: اطِّلاعٌ ثانٍ ومُمارَسةٌ ثانيةٌ:

وفيها يَقِرُّ في النفسِ منه أثرٌ وحالٌ -وهي صفةٌ غيرُ راسخةٍ- تحتاجُ إلى تعاهدِ

---

(١) مُسـتفادٌ من مباحثَ مُتنوِّعةٍ لابنِ خَلْدونَ في «المُقدِّمة» ٢/ ٣٤٧- ٣٤٨، و «أبجد العلوم» ص١٤٧-١٥٨. وانظر: «التعريفات» للجرجاني، ص١٩٣ -بتصرُّفٍ- و «كشف الظنون» ١/ ٤٢-٤٣.

آخَرَ وسقيٍ.

الدَّرجةُ الرَّابعةُ: مُمارَساتٌ مُتكرِّرةٌ:

وفيها يتحولُ المُطَّلِعُ من حالٍ إلى ملكةٍ راسخةٍ، تَقِرُّ في النفسِ، وتُؤتِي ثمارَها، وبها يستطيعُ التعاملَ معَ مادَّةِ العلمِ ويُحسنُ استعمالَه بحسِّ الاجتهاد، فيُحسِنُ التصوُّرَ، ويَمهَرُ في التصديقِ والحُكمِ على المسائلِ، ويجيدُ الاستعمالَ في جزئياتٍ جديدةٍ.

وهذه الدرجاتُ قد تنقسمُ إلى: مبتدِئٍ، ومُتوسِّطٍ، ومُنتَهٍ، ويرقى بها في درجاتِ الملكةِ رُقِيَّه في درجاتِ التعلُّمِ.

ومن الحديثِ عن الملكةِ يظهرُ أثرُ «التَّكرارِ»؛ إذِ الملكاتُ لا تحصلُ إلا بتكرارِ الأفعالِ؛ لأنَّ الفعلَ يقعُ أوَّلًا وتعودُ منه لِلذَّاتِ صفةٌ، ثم تتكررُ فتكونُ حالًا، ومعنى الحالِ: أنها صفةٌ غيرُ راسخةٍ. ثم يزيدُ التَّكرارُ، فتكونُ ملكةً؛ أي صفةً راسخةً.

فالمتكلِّمُ من العربِ -حين كانت ملكةُ اللُّغةِ العربيَّةِ موجودةً فيهم- يسمعُ كلامَ أهلِ جيلِه، وأساليبَهم في مُخاطَباتِهم، وكيفيةَ تعبيرِهم عن مقاصِدِهم، كما يسمعُ الصَّبيُّ استعمالَ المفرداتِ في معانيها فيُلقَّنَها أوَّلًا، ثم يسمعُ التراكيبَ بعدَها فيُلقَّنَها كذلك، ثم لا يزالُ سماعُهم لذلك يتجددُ في كلِّ لحظةٍ، ومن كلِّ مُتكلِّمٍ، واستعمالُه يتكررُ إلى أن يصيرَ ذلك ملكةً وصفةً راسخةً، ويكونَ كأحدِهم.

وممَّن عُنِي بالتَّكرارِ للطالبِ ليتمهَّرَ في مِراسِ العلمِ: الإمامُ كمالُ الدِّينِ ابنُ قاضي شُهْبَةَ الشَّافعيُّ رحمه اللهُ؛ فقد حُكِي عنه أنَّه كان: (حريصًا على التعليمِ، مجتهدًا على التفهيمِ، يُعِيدُ الدَّرسَ للطالبِ مرَّاتٍ، ويطالبُه بإعادتِه كرَّاتٍ، ويُسمِّعُ على المُشتغِلينَ الماضيَ الذي تقدَّم، ويقيمُ بالمُذاكَرةِ من ربوعِ العلمِ ما تهدَّم.

لو أمكَنه صـوَّر الدَّرسَ للطالبِ في الخارجِ، ورقَّاه فـي فهمِه على المعارجِ، وانتفَع عليه بذلك جماعةٌ)[1].

وذكر التَّاجُ السُّـبكيُّ (ت٧٧١) رحمه اللهُ، عن أبي الحسـنِ إِلْكِيَا الهَرَّاسـيُّ رحمه اللهُ، أنَّه: (كان يُكرِّرُ الدَّرسَ على كُلِّ مِرْقاةٍ من مراقي دَرَجِ المدرسـةِ النِّظاميَّةِ بنيسابورَ سبعَ مرَّاتٍ، وأنَّ المراقيَ كانت سبعينَ مِرقاةً)[2].

الدَّرجةُ الخامسةُ: المُحاوَرةُ في العلمِ:

فتقُ اللسـانِ بالمحاورةِ والمناظرةِ في المسـائلِ العلميةِ = درجةٌ عاليةٌ تُقرِّبُ الملكةَ، وبها يُحصِّلُ الطالبُ مرامَه. ونجدُ بعضَ طلابِ العلمِ -وللأسفِ- بعدَ مُضِيِّ الكثيرِ من أعمارِهم في ملازمةِ المجالسِ العلميةِ، سـكوتًا لا ينطقون ولا يُفاوِضون، وعنايتُهـم بالحفظِ أكثرُ من الحاجةِ؛ فلا يحصلـون على طائلٍ من ملكةِ التصرُّفِ في العلـمِ والتعليمِ. ثم بعدَ تحصيلِ مَن يرى منهم أنَّـه قد حصَّل، تجدُ ملكتَه قاصرةً في علمِه إنْ فاوَض أو ناظَر أو علَّم!

وما أتاهم القصورُ إلَّا مِن قِبَلِ التعليمِ وانقطاعِ سـندِه، وإلا فحفظُهم أبلغُ من حفظِ سـواهم؛ لشـدَّةِ عنايتِهم به، وظنِّهم أنَّه المقصودُ من الملكـةِ العلميةِ، وليس كذلك.



(١) «أعيان العصر وأعوان النصر» ٢/ ٢٠٥.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ٧/ ٢٣٢.

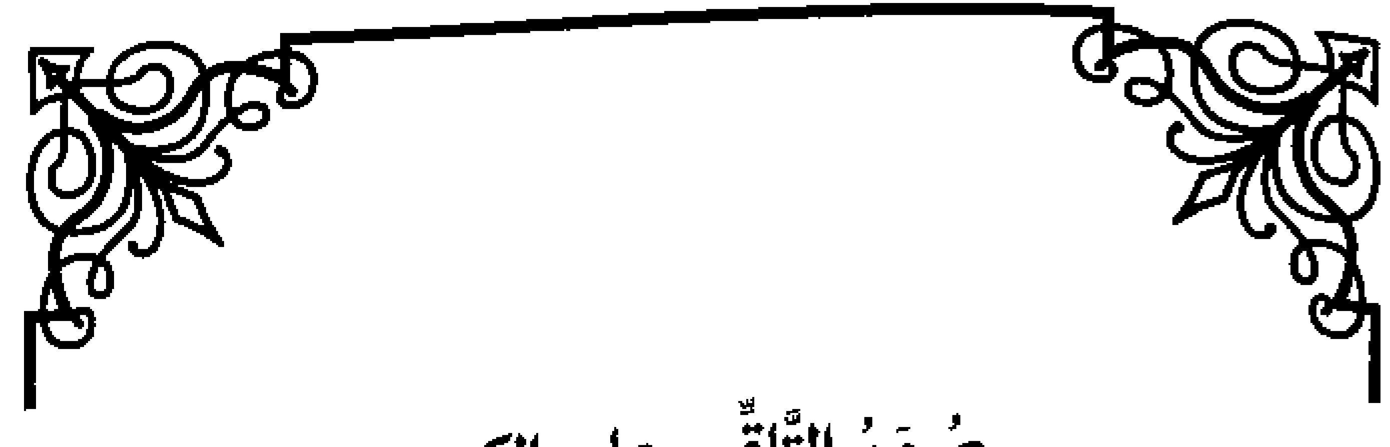
أُستاذيةُ الكتبِ ما لها، وما عليها

الكتابُ أُســتاذٌ صامتٌ، ومُعلِّمٌ مُتقِــنٌ صبورٌ، غيرَ أنَّه لا ينقــلُ أنفاسَ العلمِ وأحاسيسَه. فجِماعُ الأثرِ الحسنِ في أستاذيَّةِ الكتبِ: كونُها تنقلُ العلمَ بأمانةٍ وإتقانٍ، على حسَــبِ قوَّةِ الكاتبِ وضعفِه، وجودةِ فهمِ الطالبِ وعدمِه، والخلافُ في تقديمِ الأستاذِ على الكِتابِ، والعكس، قد وقَع قديمًا، في علومِ الشريعةِ وغيرِها.

حكى الصَّفديُّ -رحمه اللهُ- في ترجمةِ ابــنِ رِضْوانَ رئيسِ الأطبَّاءِ للحاكمِ صاحبِ مصرَ، أنَّه: (لم يكنْ له مُعلِّمٌ في صناعةِ الطِّبِّ يُنسَــبُ إليه، وله مُصنَّفٌ في أنَّ التَّعلُّمَ من الكتبِ أوفقُ من المُعلِّمينَ. ورَدَّ عليه ابنُ بطْلانَ هذا الرَّأيَ وغيرَه في كتابٍ مُفــرَدٍ، وذكَر فصلًا في العِلَلِ التي مِن أجلِها صار المتعلِّمُ من أفواهِ الرجالِ أفضلَ من المتعلِّمِ من الصُّحُفِ إذا كان قولُهما واحدًا، وأورَد عدَّةَ عللٍ)[1].

---

(١) «الوافــي بالوَفَيات» ٢١/ ٧٤. وانظــر أيضًا: «عيون الأنباء في طبقــات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، تحقيق: أوجست ملر ٢/ ١٠١-١٠٢.



صُوَرُ التَّلقِّي على الكتبِ

فبسَبْرِ طرائقِ المتعلِّمين ومناهجِهم، والنظرِ في أحوالِ المُنتسِبين إلى العلمِ = يجدُ المُتتبِّعُ أنَّ التقسيمَ لا يخرجُ عن إحدى هذه الثَّلاثِ:

الصُّورةُ الأولى: الاعتمادُ على الكتبِ، والاستغناءُ عن إفادةِ المشايخِ:

فهذه الصورةُ كثُر الذَّمُّ لها، وورَد نهيُ العلماءِ عنها، فقَلَّما يسلمُ من معاثرِها وأخطائِها مَن سلكها مُكتفِيًا بها نائيًا عن حِلَقِ العلمِ والتعلُّمِ.

الصُّورةُ الثَّانيةُ: أخذُ مرحلةِ «التأصيلِ العلميِّ» على المشايخِ، ثم الاعتمادُ على الكتبِ:

وهذه الصُّورةُ هي المُعتمَدُ، وعليها سَيْرُ العلماءِ.

وهنا تتنزلُ أقوالُهم: (إنَّ فلانًا تخرَّج على فلانٍ)، أو (إنَّه أخَذ علمَ فلانٍ)، أو (إنَّه ضبَط أصولَ مشايخِه)، وهنا يصحُّ أن يُقالَ: ما زال أهلُ العلمِ يَتلقَّوْنَ من الكتبِ.

ويتنزلُ عليه أيضًا قولُ الشَّاطبيِّ رحمه اللهُ: (صارت كتبُ المُتقدِّمينَ وكلامُهم وسِيرُهم أنفعَ لمَن أراد الأخذَ بالاحتياطِ في العلمِ، على أيِّ نوعٍ كان، وخصوصًا علمَ الشريعةِ)[1].

---

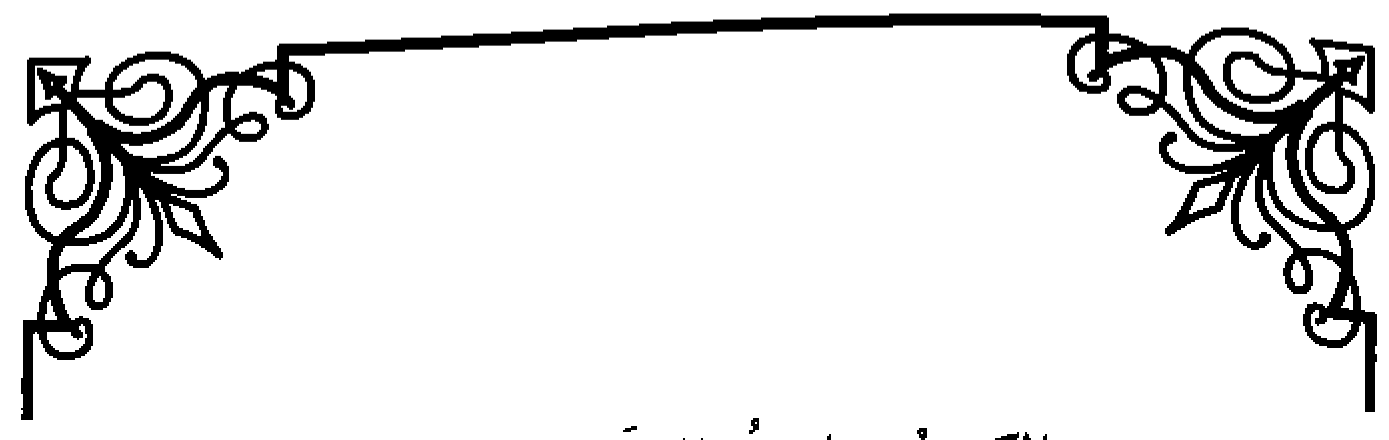
(١) «المُوافقات» ٢/ ١٥٣.

الصُّورةُ الثَّالثةُ: الاستغناءُ عن الكتبِ، والاكتفاءُ بالسَّماعِ على المشايخ:

فهذا قد يستفيدُ معَ طولِ المُدَّةِ والزمنِ من كثرةِ السَّماعِ والإعادةِ والتَّكرارِ.

لكنَّها لا تصنعُ طالبَ علمٍ بالمعنى المُتعارَفِ عليه. وليس الأمرُ كحالِ القرونِ المُفضَّلـةِ في الصحابةِ والتابعيـن؛ إذِ احتاج الناسُ إلى تعلُّمِ علومٍ كانت للسـابقين سـليقةً، واحتاجوا إلـى حفظٍ كان لهم طبعًا كسـائرِ العربِ، فكانـوا يحتاجون إلى النصـوص والأدلة لما لهم مِن كمالِ الآلةِ في الفهمِ والتطبيقِ، أما الآن فقدْ انشـغلوا بالكسبِ والدُّنيا بخلافِ ما كان عليه السَّلفُ، واحتاجوا إلى معرفةِ العلومِ وقواعدِها وقوانينِها، واحتاجوا إلى مَن يُحسِنُ إيصالَ حقيقةِ العلمِ.

فمعَ انحصارِ الذِّهنِ والحفظِ، والاحتياجِ إلى علومٍ وأدواتٍ، ومشايخَ مِن ذوي التَّميُّزِ = كان لا بدَّ من المذاكرةِ على الكتبِ، ومراجعةِ ما يُورَدُ في الدَّرسِ، وتخليصِ المعلومةِ الرَّائقةِ عن الزَّائفةِ مما قد يقعُ في مجالسِ العلماءِ والمعلمين.



الكتبُ وإرثُ الملَكاتِ العلميّةِ

مَن رأى مِن المُشــتغِلينَ بالعلمِ تعيُّنَ الأخذِ عن العلماءِ مشــافهةً سبيلًا أوحدَ للحصولِ علــى ملكةِ العلمِ التي هي مهارةٌ وصِفةٌ راســخةٌ = قد يكــونُ مُبتعِدًا عن الصَّوابِ؛ لأمورٍ كثيرةٍ، لعلَّ أبرزَها صعوبةُ لزومِ الشَّــيخِ مُدَّةً كافيةً تحصلُ معَها ملكةُ العلمِ، خاصَّةً في هذا الزَّمانِ. نعم، قد يبتدئُ السَــبيلَ على يدِه، ويُكمِلُها على غيرِه، أو عبرَ الكتبِ المُصنَّفةِ في ذلك.

لكنْ يبقى أنَّ الإرثَ الحقيقيَّ للملكةِ إنَّما هو بناءٌ يبنيه الطالبُ بفكرِه ومهارتِه ودُرْبتِه المُتكرِّرةِ، وليس له مِن مُســمَّى الإرثِ إلا بقدرِ ما يكتسبُه الطالبُ من الشيخِ بخبرتِــه ومفاتيحِه، ومهاراتِه في زمنٍ مديدٍ من الطلبِ، ثم يستشــرفَ الطالبُ بعدَها جهدًا شخصيًّا يبذلُ فيه الطالبُ ماءَ عينيْه مِدادًا للعلمِ المنشودِ.

فالكتــبُ تُجتنَى منها ثمــرةُ الاجتهادِ، ومِن محاســنِها أنَّ تحبيرَ العلمِ وضبطَ العباراتِ هو بابُها، وهــي المَرَدُّ عندَ الاختلافِ في النَّــصِّ والضبطِ، وليس في هذه الأزمانِ وما قبلَها ذلك الحافظُ الذي يســتحضرُ الكتبَ ويضبطُها ويفهمُها وكأنَّه يقرأُ من كتــابٍ مفتوحٍ، فالحقيقةُ أنَّه ليس لكثيرٍ من المُتأهِّليــنَ للتعليمِ قِبِلٌ بهذا، وما قد يوجــدُ منه في أفرادٍ قد لا يتحققُ للجميــعِ، وإن كان المظنونُ بمَن هذا حالُه أن يعودَ عليه هذا الاسترسالُ في الحفظِ بالقصورِ في أبوابٍ من الفهومِ.

الخلاصةُ:

إنَّه إذا كان المُعلِّمُ مانحًا للمهاراتِ والملكاتِ؛ فإنَّ الكتبَ أيضًا بحسنِ التعاملِ معَها، وإنعامِ النظرِ فيها، خاصَّةً التي أُلِّفتْ لمدارجِ التعلمِ = تمنحُ ذلك وزيادةً.

بل قد يقال إنَّ من الكتبِ ما يُورِثُ ملكةً شقَّ على بعضِ المُعلِّمينَ إيصالُها إلى الطالبِ، وأنت ترى هذا في كثيرٍ من الكتبِ، فمنها على سبيلِ المثالِ -معَ قصوري في هذا- كتابُ: «إحكام الأحكام شرح عُمْدة الأحكام» لابنِ دقيقِ العيدِ[1]، وكتابُ: «بداية المُجتهِدِ وغايةُ المُقتصِدِ» لابنِ رشدٍ القرطبيِّ.

عِمادُ الملَكةِ في الكتبِ المبسوطةِ والأصليَّةِ

حصولُ الملكةِ منوطٌ بالتعلُّمِ والاستفادةِ من الكتبِ المبسوطةِ، لا الاقتصارِ على المُختصَراتِ العويصةِ.

يقول الآبلي رحمه الله: (ثم كَلَّ أهلِ هذه المائةِ عن حالِ من قبلَهم من حفظِ المختصرات، وشقِّ الشروحِ والأصولِ الكبار، فاقتصروا على حفظِ ما قَلَّ لفظُه، ونزرَ حظُّه، وأفنوا أعمارَهم في فهمِ رُموزِه، وحلِّ لغوزِه، ولم يصلوا إلى ردِّ ما فيه إلى أصولِه بالتصحيح، فضلًا عن معرفةِ الضعيفِ من ذلك والصحيحِ، بل هو حلُّ مقفلٍ، وفهمُ أمرٍ مجملٍ، ومطالعةُ تقييداتٍ زعموا أنها تستنهضُ النفوس، فبينا نحنُ نستكبرُ العدولَ عن كتبِ الأئمةِ إلى كتبِ الشيوخِ، أُتيحت لنا تقييداتُ للجهلةِ، بل مُسوداتُ المسوخِ، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون، فهذه جملةٌ تهديكَ إلى أصلِ العِلمِ، وتريك ما غفلَ الناسُ عنه)[2].

(١) وهو إملاءٌ على تلميذِه: عمادِ الدِّينِ ابنِ الأثيرِ الحلبيِّ، المُتوفَّى سنةَ ٦٩٩، وقد طُبع بتحقيقِ الشَّيخِ أحمد شاكر رحمه اللهُ تعالى.

(٢) نفح الطيب للمقري، ٥/ ٢٧٦- ٢٧٧.

وقد تبنَّى تلميذُه ابنُ خلدون هذه الفكرةَ، وذهبَ إلى أنَّ الملكةَ الحاصلةُ من التعليمِ في تلك المُختصَراتِ، إذا تمَّ على سَــدادِه ولم تَعقُبْه آفةٌ؛ فهي ملكةٌ قاصرةٌ عــن الملكاتِ التي تحصلُ من الموضوعاتِ البسـيطةِ المُطوَّلــةِ؛ لكثرةِ ما يقعُ في تلــك من التَّكرارِ والإحالةِ المُفيدَينِ لحصولِ الملكةِ التَّامَّةِ. وإذا اقتُصِر عن التَّكرارِ قَصُرتِ الملكةُ بِقِلَّتِه، كشــأنِ هذه الموضوعاتِ المُختصَرةِ؛ فقصَدوا[1] إلى تسهيلِ الحفظِ على المُتعلِّميــن، فأركَبوهم صعبًا بقطعِهم عن تحصيــلِ الملكاتِ النافعةِ وتمكُّنِها)[2].

علَّل ذلك ابنُ الأزرقِ، فقال: (وممَّا يُعابُ به سرعةُ تقلُّبِ الفهمِ لها؛ لتعذُّرِ اســتحضارِ ما يفيدُه، ويعســرُ عليه دائمًا. وقد ذُكِر لنا عن ابنِ الحاجبِ: أنَّه رُبَّما راجَع بعضَ المواضعِ مــن «مُختصَرِه الفقهيِّ»، فلم يفهمْــه!! وإذ ذاك فما الظَّنُّ بسواه؟!)[3].

قــال ابنُ بدرانَ: (واعلَمْ أنَّــكَ إذا قابلتَ بينَ مَن قرأ «الكافيــةَ»، وبينَ مَن قرأ «ابنَ عَقِيلٍ شــرحَ ألفيَّةِ ابنِ مالكٍ»؛ وجدتَ الأوَّلَ جامدًا غيرَ مُتَّسِــعِ الصَّدرِ في ذلك الفنِّ، ووجدتَ الثَّانيَ أغزرَ مادَّةً، مُنفسِحًا له المجالُ)[4].

فهم يَرَوْنَ أنَّ التعلُّمَ على الكتبِ المبسوطةِ في الفنِّ، مِن شأنِه أنَّه يُورِثُ الملكةَ التَّامَّةَ، بخلافِ المُختصَراتِ.

وقد أوردَ الخضرُ حُســين -رحمه الله- تعليلًا جميــلًا لذلك، وهو أنَّ (هذه

---

(١) إشارةٌ إلى بعضِ المُعلِّمينَ.

(٢) «مقدمة ابن خلدون» ٢/ ٤٤٦-٤٤٧، وانظر: «بدائع السلك» ٢/ ٧٥٨-٧٥٩، و«كشف الظنون» ١/ ٤٥-٤٦. «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد» ص٤٩٠-٤٩١.

(٣) «بدائع السلك» ٢/ ٧٦٠.

(٤) «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد» ص٤٩١.

المختصراتِ التي يَقضِي الطالبُ في فتحِ مغلقِها، وحلِّ عُقَدِها قِطعةً من حياتِه، جديرةٌ بأن تُصرفَ في اكتسابِ مسائلَ هي من صميم العلم، والملكاتُ تقوى بالبحثِ في لُبابِ العلمِ أكثر مما تقوى بالمناقشةِ في ألفاظِ المؤلِّفين)[1].

لكنَّ الفيروزاباديُّ يرى أنَّ هذه المختصراتِ ربما تُفيدُ قسمًا مِنَ الطلابِ، وأنها موضوعةٌ لتكونَ (تذكرةً لرؤوسِ المسائلِ ينتفعُ بها المنتهي للاستحضار؛ وربما أفادتْ بعضَ المبتدئينَ مِنَ الأذكياءِ الشهماءِ؛ لسرعةِ هُجومهم على المعاني من العباراتِ الدقيقة)[2].

وأمَّا الكتبُ الأصليَّةُ في الفنِّ؛ فقد قال شهابُ الدِّينِ المَقَّرِيُّ رحمه اللهُ: (فلا بدَّ للمُفتي من مباشرةِ الكتبِ المَرْويَّةِ[3]، والأُمَّهاتِ الأصليَّةِ، ولا ينبغي له الاقتصارُ على الواسطةِ؛ إذْ لا يُؤمَنُ مِن خللٍ أو تصحيفٍ؛ لفقدِ ملكةِ التأليفِ)[4].

فقد نبَّه المَقَّريُّ على الخطإِ والتصحيفِ، وضعفِ ملكةِ التأليفِ.

وممَّا يلحقُ بما ذكَر: كثرةُ التَّكرارِ، وأكثرُ ما ترى ذلك في المتونِ الفقهيةِ وشروحِها وحواشيها؛ فتجدُ مِن تواردِ الكلامِ، وتشابهِ العباراتِ، والاقتصارِ على فحواه ونصِّه = ما يحدو بالطالبِ الاعتمادَ على كتبِ أصولِ الفنِّ -التي عليها المُعتمَدُ-، وإذا نزَل فيكونُ إلى كتبٍ عُنيتْ بالإضافةِ والتعليلِ والتحليلِ، لا ما كانت نسخةً أخرى مُضافًا إليها كلماتٌ يسيرةٌ للمُتأخِّرِ.

فالمفيدُ من التَّكرارِ في الحصولِ على الملكةِ، ما إذا كان مقرونًا بتنويعِ العبارةِ،

(١) «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين» ٥/ ١/ ١٦٣ - ١٦٤.
(٢) «بصائر ذوي التمييز ١/ ٤٩.
(٣) في نسخةٍ أخرى: (المُدوَّنة)، كما أفاد مُحقِّقوه. وهي تُعطي معنًى أجودَ.
(٤) «أزهار الرِّياض في أخبار عياض» ٣/ ٢٩.

معَ إفادةٍ وتعقيبٍ وتحريكٍ للذِّهنِ، فهو أشبهُ بإكسابِ مهارةٍ للمُتعلِّمِ.

الكتبُ عندَ عدمِ المعلِّمِ المُتمكِّنِ

إذا عُدِمِ المعلِّمُ المُتمكِّنُ، وشــقَّ التماسُــه وطلبُه؛ فلا مناصَ من الدَّلالةِ على «الأســتاذِ الثَّاني»، إنَّه الكتابُ. فكما يقولُ بدرُ الدِّينِ الحلبيُّ رحمه اللهُ: الكتابُ أحدُ الأســتاذَينِ، وهو المعلِّمُ عندَ غَيبةِ المعلِّمِ، فمهما حسُن؛ حسُن عنه الأخذُ، وكثُرتْ منه الاستفادةُ، وكما أنَّ الطالبَ أوَّلُ ما يُسأَلُ عن أستاذِه الذي أخَذ عنه، فكذلك يُسأَلُ عن الكتابِ الذي تلقَّن منه، فإنْ كان مِن الكتبِ العاليةِ علَتْ مرتبةُ الآخِذِ منه، وتنحطُّ مرتبتُه بقدرِ انحطاطِ مرتبةِ الكتابِ في نوعِه.

وهذا قد غفَل عنه طلابُ العلومِ كافَّةً، غيرَ نفرٍ يسيرٍ هم أقلُّ من القليلِ! وفطِن له مُحِبُّو العلمِ ممَّن قلَّتْ مُلامَستُهم له، فرُبَّما وجدتَ في هذا القسمِ قومًا هم -على قلَّةِ نظرِهم في كتبِ العلمِ، ونُدرةِ اشتغالِهم به- أتمُّ إدراكًا، وأكملُ فهمًا، وأحسنُ إحاطةً بما علموا من مســائلِ العلومِ، من أولئك الذين أفنَوْا ســاعاتِ عمرِهم في الاشتغالِ بالعلومِ، وكان هذا التفاوتُ المُتباينُ الأطرافِ نتيجةَ حســنِ الاختيارِ فيما يُؤخَذُ عنه العلمُ من الكتبِ[1].

ويلحقُ بعدمِ المعلِّمِ: مَن وجَد مُعلِّمًا لم يكنْ في مجالسِه زيادةٌ حقيقيةٌ ظاهرةٌ، فإنَّ هذا لا فائدةَ في حضورِ مجالسِه، كما قال ابنُ عرفةَ، وتابَع العلماءُ -رحمهم اللهُ- عليه؛ كالأُبِّيِّ، والوَنْشَرِيسيِّ، والمَقَّرِيِّ، وابنِ بدرانَ[2].

يقولُ أبو عبدِ اللهِ الأُبِّيُّ: وكان شــيخُنا أبو عبد اللهِ -يقصدُ ابنَ عرفةَ- يقولُ: «إنَّما تدخــلُ التَّآليفُ في ذلك إذا اشــتمَلتْ على فائدةٍ زائدةٍ، وإلَّا فذلك تخســيرٌ

(١) انظر: «التعليم والإرشاد» ص٦.

(٢) «المدخل» ص٤١٩.

للكاغِـــدِ». ويعني بـ«الفائدةِ الزّائــدةَ» على ما في الكتبِ السَّــابقةِ عليه، وأمّا إذا لم يشــتملِ التأليفُ إلّا على نقلِ ما في الكتبِ المُتقدِّمةِ؛ فهو الذي قال فيه: «إنَّه تخسيرٌ للكاغدِ».

وهكذا كان يقولُ في مجالسِ التدريسِ: «وأنَّه إذا لم يكنْ في مجلسِ التدريسِ التقاطُ زيادةٍ من الشــيخِ؛ فلا فائدةَ في حضورِ مجلسِــه، بــل الأَوْلى لمَن حصَلتْ له معرفةُ الاصطلاحِ، والقدرةُ على فهمِ ما في الكتبِ: أن ينقطعَ لنفسِــه، ويلازمَ النَّظرَ». وضمَّن ذلك في أبياتٍ نظَمها، وهي قولُه:

إذا لم يكنْ في مجلسِ الدَّرسِ نُكتةٌ ... بتقريرِ إيضاحٍ لِمُشكِلِ صُورةِ

وعزوُ غريبِ النَّقلِ، أو حَلُّ مُقفَلٍ ... أَوِ اشكالِ أَبدَتْهُ نتيجةُ فكرةِ

فدَعْ سعيَهُ وانظُرْ لنفسِكَ واجتَهِدْ ... ولا تَترُكَنْ فالتَّركُ أقبحُ خَلَّةِ

وكنتُ [أي الأبيُّ] قلتُ في جوابِ أبياتِه هذه:

قَسَمًا بمَن أَوْلاكَ أرفعَ رُتبةٍ ... وزانَ بكَ الدُّنيا بأكملِ زينةِ

لَمَجلِسُكَ الأعلى الكفيلُ بكُلِّها ... على حُسنِ ما عنها المجالسُ خَلَّتِ

فأَبقاكَ مَن رقَّاكَ للنَّاسِ رحمةً ... ولِلدِّينِ سيفًا قاطعًا كُلَّ بدعةِ(١)

وإنِّي في قَسَــمي هذا لَبارٌّ؛ فلقد كنتُ أُقيِّدُ من زوائدِ إلقائِه، وفوائدِ إبدائِه، على الدُّوَلِ الخمسِ التي كانت تُقرَأُ بمجلسِــه من التفسيرِ والحديثِ، والدُّوَلِ الثّلاثِ التي بـ«التَّهذيــبِ» نحوَ الورقتينِ كُلَّ يومٍ، ممَّا ليس في كتابٍ؛ فاللهُ المســؤولُ أن يُقدِّسَ رُوحَه، فلقد كان الغايةَ.

(١) أورَد تقيُّ الدِّينِ المقريزيُّ هــذه الأبياتَ معَ بعضِ التَّعديلِ معنًى ووزنًا. انظر: «دُرَر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة» ٣/ ٢٢٥.

وشــاهِدُ ذلك ما اشتَمَلتْ عليه تآليفُه من ذلك، وناهِيكَ بـ«مُختصَرِه في الفقهِ» الذي ما وُضِع في الإســـلامِ مِثلُه؛ لضبطِه فيه المذهبَ مســائلَ وأقــوالًا، معَ الزِّيادةِ المُكمِّلةِ، والتَّنبيهِ على المواضعِ المُشكِلةِ، وتعريفِ الحقائقِ الشَّرعيَّةِ[1].

يقولُ المَقَّريُّ تعقيبًا على كلامِ ابنِ عرفةَ والأُبِّيِّ:

وألفيتُ بخطِّ شيخِ شــيخِنا، الإمامِ القاضي ســيِّدي عبد الواحِدِ الوَنْشَرِيشيِّ رحمه اللهُ، ما نصُّه:

ألفيتُ بخــطِّ والدي رحمه اللهُ، على طُرَّةٍ مِن هذا المحلِّ -وأعني كلامَ الأُبِّيِّ السَّابقَ- ما نصُّه:

قلتُ: (مِن هنا يُعلَمُ أنَّ إطلاقَ اســمِ المُدرِّسِ علــى المُقتصِرِ على نقلِ تقاييدِ «الرِّسالةِ» و «المُدوَّنةِ»، من غيرِ فَتْشٍ ولا تنزيلٍ، ولا كشفٍ واستظهارٍ بغيرِها = مجازٌ لا حقيقةٌ! وهذا الوصفُ كاد أن يَعُمَّ أهلَ الوقتِ، أو عمَّهم؛ فنسألُ اللهَ العظيمَ المغفرةَ من التَّطفُّلِ، وتعاطي ما ليس في المقدورِ).

وقال أيضًا: تأمَّلْ ههنا الثَّناءَ على شــيخِ الإسلامِ، الإمامِ أبي عبد اللهِ ابنِ عرفةَ -أســكَنه اللهُ دارَ الســـلامِ- وعلى تآليفِه، لا ســيَّما «مُختصَرِه الفقهيِّ» الذي أعجَزَ معقولُــه ومنقولُه الفحــولَ، خلافًا لبعضِ القاصرين من طلبةِ فــاسَ؛ فإنَّهم يقولون: ما يقولُ شيئًا. يُطفِئون نورَ اللهِ، ويحتقرون ما عظَّم اللهُ[2].

تنبيهٌ للمكتفي بالأخذِ عن الكُتبِ

إذا كان لا منــاصَ من التعلُّمِ على الكتبِ عندَ فقــدِ المعلِّمِ أو المُتمكِّنِ؛ فعليه

(1) «إكمال إكمال المُعْلِم» للأبِّيِّ ٤/ ٣٤٥-٣٤٧ بتصرُّفٍ يسيرٍ.
(2) «أزهار الرِّياض» ٣/ ٣٥.

حينئذٍ أن يُكمِّلَ نفسَه بأدبِ العلمِ، ويُلزِمَها بهديِ النُّبوَّةِ، وإلَّا فإنَّ المُقتصِرَ على القراءةِ والاطِّلاعِ دونَ أخذِ ألحاظِ العلماءِ بالقراءةِ عليهم، والاستفادةِ من هَدْيِهم وسلوكِهم وأدبِهم، وبذلِهم أنفسَهم للمُتعلِّمينَ = عاد ذلك عليه بآفةٍ تظهرُ عندَ الحاجةِ إليه؛ مِن جُرْأةٍ في النقدِ، وتسرُّعٍ في التقريرِ، وعدمِ إنضاجِ كثيرٍ من المسائلِ.

وقد يتداركُ الطالبُ ضعفَ المعلِّمِ بمُعلِّمٍ آخَرَ، أو بتصحيحٍ من كتابٍ، بخلافِ مَن يعتمدُ على الكتبِ، وتتراكمُ عليه صفحاتٌ من الخطأِ، فمن هنا كانت دلالةُ بعضِ العلماءِ على المعلِّمِ وإن ضعُفَ؛ فنجدُ هذا في نصٍّ نقَله ابنُ أبي أُصَيبِعةَ، عن مُوفَّقِ الدِّينِ عبد اللَّطيفِ البغداديِّ، قولُه: (أُوصيكَ أن لا تأخذَ العلومَ مِن الكتبِ، وإنْ وَثِقتَ مِن نفسِكَ بقُوَّةِ الفهمِ، وعليكَ بالأُستاذِينَ في كُلِّ علمٍ تطلبُ اكتسابَه، ولو كان الأستاذُ ناقصًا؛ فخُذْ عنه ما عندَه حتى تجدَ أكملَ منه، وعليكَ بتعظيمِه وتوجيهِه، وإن قدرتَ أن تفيدَه من دُنْياكَ فافعَلْ، وإلَّا فبلسانِكَ وثنائِكَ)[1].

وجوهُ المُفاضَلةِ بينَ المُعلِّمين والكتبِ

ذُكِر من وجوهِ المُفاضَلةِ بينَ التلقِّي على المُعلِّمينَ أو الاقتصارِ على الكتبِ ما يلي:

الوجهُ الأوَّلُ: وصولُ المعاني من النَّسيبِ إلى النَّسيبِ خلافُ وصولِها مِن غيرِ النَّسيبِ إلى النَّسيبِ، والنَّسيبُ النَّاطقُ أفهمُ للتَّعليمِ بالنُّطقِ وهو المُعلِّمُ، وغيرُ النَّسيبِ له جمادٌ وهو الكتابُ، وبُعدُ الجمادِ من النَّاطقِ مُطِيلٌ لطريقِ الفهمِ، وقُربُ النَّاطقِ من النَّاطقِ مُقرِّبٌ للفهمِ؛ فالفهمُ من النَّسيبِ وهو المعلِّمُ أقربُ وأسهلُ من غيرِ النَّسيبِ وهو الكتابُ.

الوجهُ الثَّاني: النَّفسُ العلَّامةُ، علَّامةٌ بالفعلِ، وصدورُ الفعلِ عنها يُقالُ له:

(١) «عيون الأنباء في طبقات الأطبَّاء» (ط. أوجست مُلر)، ٢/ ٢٠٨-٢٠٩.

التَّعليـمُ. والتَّعليـمُ والتعلُّمُ مِن المُضافِ. وكُلَّما هو للشَّـيءِ بالطَّبـعِ أخصُّ به ممَّا ليس هو بالطَّبـعِ. والنَّفسُ المُتعلِّمةُ علَّامةٌ بالقُوَّةِ، وقبولُ العلـمِ فيها يُقالُ له: تَعلُّمٌ. والمُضافانِ معًا بالطَّبعِ. فالتَّعليمُ مِن المُعلِّمِ أخصُّ بالمُتعلِّمِ من الكتابِ.

الوجهُ الثَّالثُ: المُتعلِّمُ إذا اسـتَعجَم عليه ما يُفهِمُه المُعلِّمُ من لفظِه؛ نقَله إلى لفظٍ آخرَ، والكتابُ لا يَنقُـلُ من لفظٍ إلى لفظٍ؛ فالفهمُ من المعلِّمِ أصلحُ للمُتعلِّمِ من الكتابِ، وكلما هو بهذه الصِّفةِ فهو في إيصالِ العلمِ أصلحُ للمُتعلِّمِ.

الوجهُ الرَّابعُ: العلمُ موضوعُه اللَّفظُ، واللفظُ على ثلاثةِ أَضرُبٍ:

- قريبٌ من العقلِ، وهو الذي صاغَه العقلُ مثالًا لِمَا عندَه من المعاني.
- ومُتوسِّطٌ، وهو المُتلفَّظُ به بالصوتِ، وهو مثالُ العقلِ.
- وبعيدٌ، وهو المُثبَتُ في الكتابِ، وهو مثالُ ما خرَج باللفظِ.

فالكتابُ مثالُ مثـالِ مثالِ المعاني التي في العقلِ، والمثالُ الأولُ لا يقومُ مقامَ المُمثِّلِ لِعوَزِ المثلِ؛ فما ظنُّكَ بمثالِ مثالِ مثالِ المُمثِّلِ؟! فالمثالُ الأولُ لِمَا عندَ العقلِ أقربُ في الفهمِ من مثـالِ المثالِ. والمثالُ الأولُ هو اللفظُ، والثاني هو الكتابُ. وإذا كان الأمرُ على هذا؛ فالفهمُ من لفظِ المعلِّمِ أسهلُ وأقربُ من لفظِ الكتابِ.

الوجهُ الخامسُ: وصولُ اللفظِ الـدَّالِّ على المعنى إلى العقلِ، يكونُ من جهةِ حاسَّـةٍ غريبةٍ من اللفظِ، وهو البصرُ؛ لأنَّ الحاسَّـةَ النَّسِـيبةَ للَّفظِ هي السـمعُ؛ لأنَّه تصويتٌ، والشـيءُ الواصلُ من النَّسيبِ -وهو اللفظُ- أقربُ من وصولِه من الغريبِ وهو الكتابةُ؛ فالفهمُ من المعلِّمِ باللفظِ أسهلُ من الفهمِ من الكتابةِ بالخطِّ.

الوجهُ السـادسُ: يوجدُ في الكتابِ أشـياءُ تَصُدُّ عن العلمِ، وهي معدومةٌ عندَ المعلِّمِ؛ وهي التصحيفُ العارضُ من اشتباهِ الحروفِ معَ عدمِ اللَّفظِ، والغلطُ بزَوَغانِ

البصـرِ، وقِلَّةُ الخبرةِ بالإعرابِ، أو عدمُ وجودِه معَ الخبرةِ به أو فســادِ الموجودِ منه، وإصلاحُ الكتابِ ما لا يُقرَأُ وقراءةُ ما لا يُكتَبُ، ونحوُ التعليمِ ونمطِ الكلامِ، ومذهبِ صاحبِ الكتابِ، وسُــقْمِ النَّسْـخِ، ورداءةِ النَّقلِ، وإدماجِ القــارئِ مواضعَ المقاطعِ، وخلطِ مبادئِ التعليم... وهذه كلُّها مُعوِّقةٌ عن العلمِ، وقد استراح المتعلِّمُ من تكلُّفِها عندَ قراءتِه على المعلِّمِ.

وإذا كان الأمرُ علــى هذه الصورةِ؛ فالقراءةُ على العلمــاءِ أفضلُ وأَجدَى من قراءةِ الإنسانِ لنفسِه، وهو ما أَرَدْنا بيانَه.

حكى الصَّفديُّ هذه الوجوهَ السَّابقة، عن ابنِ بطْلانَ[1].

الوجهُ السَّابعُ: سَـرَيانُ أدبِ العلمِ إلى الطَّالبِ؛ فإنَّ الخُلُقَ يُورَثُ بالمُجالَسةِ، ولَحْظُ العالمِ والمعلِّمِ يُغني عن كثيرٍ من الوعظِ والاطِّلاعِ على الآدابِ.

الوجهُ الثَّامنُ: الطُّولُ؛ فإنَّ الإنســانَ يحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ، ومُعاناةٍ شديدةٍ، وجهدٍ جهيدٍ حتى يصلَ إلى ما يَرُومُه من العلمِ. وهذه عَقَبةٌ قد لا يقوى عليها كثيرٌ من الناسِ، ولا ســيَّما وهو يرى مَن حولَه قد أضاعُوا أوقاتَهم بلا فائدةٍ، فيأخذُه الكسلُ، ويَكَلُّ ويَمَلُّ ثُمَّ لا يُدرِكُ ما يريدُ.

الوجهُ التَّاســعُ: أنَّ الذي يأخــذُ العلمَ من بطونِ الكتبِ علمُــه ضعيفٌ غالبًا، لا ينبنــي على قواعدَ أو أصولٍ. ولذلك تجدُ الخطــأَ الكثيرَ مِن الذي يأخذُ العلمَ من بطونِ الكتبِ؛ لأنَّه ليس له قواعدُ وأصــولٌ، يُقعِّدُ عليها، ويبني عليها الجزئياتِ التي في الكتابِ والسُّنَّةِ.

نجدُ بعضَ الناسِ يمــرُّ بحديثٍ غيرِ مذكورٍ في كتبِ الحديــثِ المُعتمَدةِ مِن الصِّحاحِ والمســانيدِ، وهذا الطريقُ يخالفُ ما في هذه الأصــولِ المُعتمَدةِ عندَ أهلِ

(١) «الوافي بالوَفَيات» ٢١/ ٧٤-٧٥ بتصرُّفٍ يسيرٍ.

العلم، بل عندَ الأُمَّةِ، ثُمَّ يأخذُ بهذا الحديثِ، ويبني عقيدتَه عليه! وهذا -بلا شكٍّ- خطأٌ واضحٌ؛ لأنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ لهما أصولٌ تدورُ عليها الجزئياتُ، فلا بدَّ أن تُرَدَّ هذه الجزئياتُ إلى أصولٍ، بحيثُ إذا وجَدْنا في هذه الجزئياتِ شيئًا مُخالِفًا لهذه الأصولِ لا يمكنُ الجمعُ فيها؛ فإنَّنا نَدَعُ هذه الجزئياتِ[1].

ويُؤيِّدُ الوجهَ الأخيرَ ما قاله أبو العبَّاسِ ابنُ العَرِيفِ:

مَن لم يُشافِهْ عالِمًا بأُصولِهِ ... فيَقِينُهُ في المُشكِلاتِ ظُنُونُ
مَن أنكَرَ الأشياءَ دونَ تَيقُّنٍ ... وتَثبُّتٍ؛ فمُعانِدٌ مفتونُ
الكُتْبُ تَذكِرةٌ لِمَن هو عالِمٌ ... وصوابُها بمُحالِها معجونُ
والفِكرُ غوَّاصٌ عليها مُخرِجٌ ... والحقُّ فيها لؤلؤٌ مكنونُ[2]

قال الصَّفديُّ رحمه اللهُ، بعدَ نقلِه بعضَ وجوهِ التَّفضيلِ السَّابقةِ: (ولهذا قال العلماءُ: «لا تأخذوا العلمَ مِن صَحَفيٍّ، ولا مُصحَفيٍّ». يعني: لا يُقرَأُ القرآنُ على مَن قرأ مِن المُصحَفِ، ولا الحديثُ وغيرُه على مَن أخَذ ذلك مِن الصُّحُفِ. وحَسْبُكَ بما جرى لحمَّادٍ لمَّا قرأ في المصحفِ، وما صحَّفه، وذلك مذكورٌ في ترجمةِ حمَّادٍ الرَّاويةِ. وقد وقَع لابنِ حزمٍ وابنِ الجوزيِّ أوهامٌ وتصحيفٌ معروفةٌ عندَ أهلِها، وناهِيكَ بهذينِ الاثنينِ)[3].

تنبيهٌ على حدِّ (الصَّحَفي)، وضبطِه:

الصَّحَفيُّ: مَن يخطئُ في قراءةِ الصَّحيفةِ. وقولُ بعضِهم: (الصُّحُفِيُّ) بضمَّتينِ

(١) وهذانِ الأخيرانِ أورَدَهما العلاَّمةُ ابنُ عُثَيمينَ رحمه اللهُ في كتابِ «العلم». انظر: «مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين» ٢٦/ ١٣٦-١٣٧.

(٢) «نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب» ٤/ ٣١٩.

(٣) «الوافي بالوفيات» ٢١/ ٧٥.

= لحنٌ. والنِّسبةُ إلى الجمعِ نسبةٌ إلى الواحدِ؛ لأنَّ الغرضَ الدَّلالةُ على الجنسِ، والواحدُ يكفي في ذلك.

وأمَّا ما كان عَلَمًا؛ كأنماريٍّ، وكِلابيٍّ، ومَعافِريٍّ، ومَدائِنيٍّ؛ فإنَّه لا يُرَدُّ. وكذا ما كان جاريًا مجرى العَلَمِ؛ كأنصاريٍّ، وأعرابيٍّ[1].

قال أبو أحمدَ العسكريُّ: (فأمَّا معنى التَّصحيفِ، وقولِهم: «الصَّحَفيّ»؛ فقد قال الخليلُ بنُ أحمدَ: إنَّ الصَّحَفيَّ الذي يروي الخطأَ على قراءةِ الصُّحُفِ بأشباهِ الحروفِ. وقال غيرُه: أصلُ هذا أنَّ قومًا كانوا أخذوا العلمَ عن الصُّحُفِ مِن غيرِ أن يَلْقَوا فيه العلماءَ، فكان يقعُ فيما يَرْوُونه التغييرُ، فيُقالُ عندَه: قد صحَّفوا. أي ردَّدُوه عن الصُّحُفِ، وهم مُصحِّفون، والمصدرُ التَّصحيفُ)[2].

المُختارُ في المُفاضَلةِ بينَ المُعلِّمِ والكتبِ:

أن يَبتدِئَ أمرَه بالتَّلقِّي على المُعلِّمينَ، ثُمَّ إذا تمرَّن على مُصطلَحاتِ العلومِ وأَلِفتْها نفسُه، وثبَتتْ قدمُه في المرحلةِ التأصيليَّةِ = تأهَّل وقتَها للاطِّلاعِ على الكتبِ، واختَطَّ منهجًا قِرائيًّا ليستكمِلَ التَّكوينَ.

وينبغي ألَّا ينسى المُتعلِّمُ: أنَّه لا ينفكُّ في هذه المراحلِ الأَوَّليَّةِ وما بعدَها عن عُسرٍ وإشكالاتٍ في بعضِ المسائلِ، تُحوِجُه إلى مَن سبَقه من أهلِ العلمِ والطُّلابِ المُتمكِّنينَ. وهذا يستشعِرُه كلُّ مَن اشتغَل بالعلمِ، حتى بعضُ العلماءِ يُصيبُهم هذا.

(١) «تاج العروس» للزَّبيديِّ ٢٤/ ٦.
(٢) «شرح ما يقعُ فيه التَّصحيفُ والتَّحريفُ» لأبي أحمدَ العسكريِّ ١/ ١٣. وانظر مثلَه في: «تصحيفات المُحدِّثين» للعسكري أيضًا ١/ ٢٤، عن: «التَّصحيف وأثره في الحديث والفقه» لأسطيري جمال ص٢٣.

ويُنبِّهُ إلى أنَّ التلقِّيَ على المعلِّمِ منوطٌ به حصولُ الأثرِ الخُلُقيِّ السُّلوكيِّ والأثرِ العلمـــيِّ، فإذا تقرَّر ذلـــك؛ كان على الطالبِ أن يَعمِدَ إلى المعلِّمِ رأسًـــا. لا أن يتخذ ســـماعَ آلةِ التَّســـجيلِ الصَّوتيِّ مُعلِّمًا؛ ذلك أنَّ المعنى الأخلاقـــيَّ والأدبيَّ لا يُتصوَّرُ حصولُه بصورةٍ تامَّةٍ منها. وأمَّا عندَ ضيـــقِ الزَّمنِ، وصعوبةِ التَّمكُّنِ من الوصولِ إلى المعلِّمِ؛ فإنَّه يلتمسُ المتاحَ.

التوجيهُ الصحيحُ لعبارةِ: (مَن كان شيخُه كتابَه؛ غلَب خطؤُه صوابَه)

لِمَا في هذه المقولةِ مِن تعدٍّ وتجاوزٍ، فإنَّ الأسلمَ فيها أن تُنزَّلَ على:

١- المبتدئِ في الطَّلَبِ، وإلَّا فإنَّ اعتمادَ الكتبِ الأصليَّةِ والشُّروحِ المُعتبَرةِ بعدَ التَّصوُّرِ الإجماليِّ لأبوابِ الفنِّ ومُصطلَحاتِه = جادَّةٌ مسلوكةٌ لنيلِ العلـــمِ والتَّمكُّنِ منه. فإذا وفَّـــر الطَّالبُ زمانَه على الانشـــغالِ بها بعدَ حصولِ التَّأســـيسِ؛ فهو مأمونُ الخطأِ في الجملةِ. وإذا طالَعتَ شروحَ العلماءِ، وقارَنتَها بالشُّـــروحِ الأصليَّةِ والحواشي التي سطَرَها الشُّرَّاحُ؛ عَلِمـــتَ اعتمادَ المُتأخِّرِ عليها، ودورانَه في فلكِها، ويندرُ الخروجُ عنها والإضافةُ عليها، وهذا مُشاهَدٌ وظاهرٌ.

٢- العلومِ المُفتقِرةِ إلى ضبطٍ، ومُجالَسةٍ، وســـماعٍ؛ كالقراءاتِ ونحوِها. وأمَّا ما احتاج إلى حفظٍ وعنايةٍ وفهمٍ؛ فلا يُقالُ فيه ذلك؛ إذِ المُعتمَدُ فيه ذِهنُ الطالبِ، وتكرارُ العلمِ وإعادةُ تَذْكارِه ليرسخَ في الفهمِ.

وإذا كان مِفتاحُ العلمِ بأيدي علماءِ الفنِّ؛ فإنَّ المُؤمَّلَ حينئذٍ من المتعلِّمِ أن يلِجَ ليشـــاركَ بجهدِه وفهمِه وحفظِه، لا أن يظـــلَّ زمانَه في تحصيلِ المفاتيحِ لا ليَعبُرَ أبوابَ العلمِ، أو يســـتفتحَ بها فضلَ اللهِ الواســـعَ من الفهمِ والاستفادةِ والزِّيادةِ!

٣- مـا كان قبلَ عصـرِ الطِّباعةِ؛ حيـثُ كانت الكتابةُ بخـطِّ اليدِ لا آلاتِ الطِّباعةِ، وتحتاجُ إلى ضبطِ النُّسَـخِ، وقد اشـتهَر التَّصحيفُ وتصرُّفُ النُّسَّاخِ؛ ممَّا احتِيجَ معَه إلى ضبطِ الكتبِ والنُّسَخِ.

وعلى هذه التَّأويلاتِ وغيرِها تَتنزَّلُ عباراتُ أهلِ العلمِ؛ كقولِ الإمامِ الشَّافعيِّ رحمه اللهُ: (مَن تفقَّه مِن الكتبِ؛ ضيَّع الأحكامَ)[1].

وكذلك ما حكاه النَّوويُّ -رحمه اللهُ- عن بعضِ العلماءِ أنَّهم قالوا: (ولا تأخذِ العلمَ ممَّن كان أخذُه له مِن بطونِ الكتبِ، مِن غيرِ قراءةٍ على شـيوخٍ أو شيخٍ حاذقٍ؛ فمَن لم يأخذْه إلَّا مِن الكتبِ؛ يقعْ في التَّصحيفِ، ويَكثُرْ منه الغلَطُ والتَّحريفُ)[2].

وقد سُئِل الشَّيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رحمه اللهُ- عن رأيِه في مثلِ هذه العبارةِ، فقال: (هـذا صحيحٌ. إنَّ مَن لم يَدرُسْ على أهلِ العلـمِ، ولم يأخذْ منهم، ولا عرَف الطُّرُقَ التي سـلكوها في طلبِ العلمِ؛ فإنَّه يخطئُ كثيرًا، ويلتبسُ عليه الحقُّ بالباطلِ؛ لعدمِ معرفتِه بالأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ والأحوالِ المرعيَّةِ التي درَج عليها أهلُ العلمِ، وحقَّقوها، وعَمِلوا بها.

أمَّـا كونُ خطئِه أكثرَ؛ فهذا محلُّ نظرٍ. لكنْ على كلِّ حالٍ أخطاؤُه كثيرةٌ؛ لكونِه لم يدرسْ على أهلِ العلمِ، ولم يسـتفدْ منهم، ولم يعرفِ الأصولَ التي ساروا عليها؛ فهو يخطئُ كثيرًا، ولا يُميِّزُ بينَ الخطأِ والصوابِ في الكتبِ المخطوطةِ والمطبوعةِ.

وقد يقعُ الخطأُ في الكتابِ، ولكنْ ليستْ عندَه الدِّرايةُ والتميزُ، فيَظُنُّه صوابًا، فيُفتِـي بتحليلِ ما حرَّم اللهُ، أو تحريمِ ما أحلَّ اللهُ؛ لعدمِ بصيرتِه؛ لأنَّه قد وقَع له خطأٌ في كتابٍ!

(١) «المجموع» للنَّوويِّ ١/ ٦٩.

(٢) «المجموع» ١/ ٦٦.

مثلًا: «لا يجوزُ كذا وكذا». بينَما الصَّوابُ أنّه: «يجوزُ كذا وكذا». فجاءت «لا» زائدةً.

أو عكسُه: «يجوزُ كذا وكذا». والصَّوابُ: «لا يجوزُ». فسقَطتْ «لا» في الطَّبعِ أو الخطِّ؛ فهذا خطأٌ عظيمٌ.

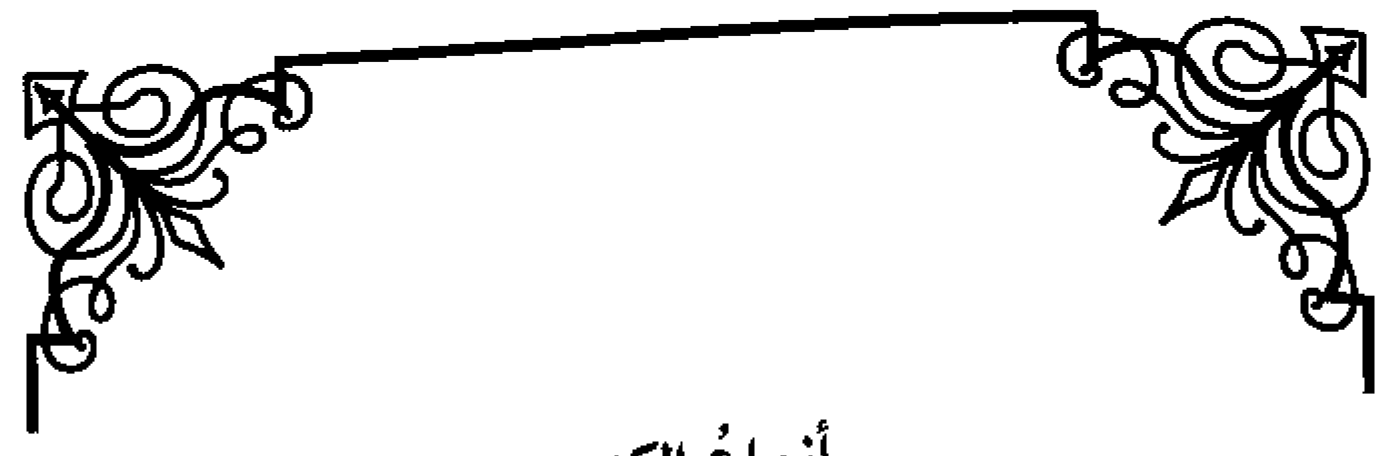
وكذا قد يجدُ عبارةَ: «ويصحُّ كذا وكـذا». والصَّوابُ: «ولا يصحُّ كذا وكذا». فيختلـطُ الأمرُ عليه؛ لعدمِ بصيرتِـه، ولعدمِ علمِه، فلا يعرفُ الخطـأَ الذي وقَع في الكتابِ، وما أشبَه ذلك)[1].

وقال الشَّـيخُ محمدٌ العُثَيمينِ -رحمه اللهُ- عن عبارةِ «مَن كان شـيخُه كتابَه؛ فخطـؤُه أكثرُ مِن صوابِه»: (هذا ليس صحيحًا على إطلاقِه، ولا فاسـدًا على إطلاقِه. أمَّا الإنسـانُ الذي يأخذُ العلمَ مِن أيِّ كتابٍ يراه؛ فلا شكَّ أنّه يخطئُ كثيرًا، وأمَّا الذي يعتمدُ في تعلُّمِه على كتبٍ مِن رجالٍ معروفين بالثِّقةِ والأمانةِ والعلمِ؛ فإنَّ هذا لا يكثُرُ خطؤُه، بل قد يكونُ مُصِيبًا في أكثرِ ما يقولُ)[2].

فللكتـبِ إذَنْ دَورُها في مدارجِ التعلمِ؛ إذْ بها يعلـو مقامُ الناظرِ فيها، المُتفهِّمِ لمعانيهـا ومراميها، على قدرِ أصالتِهـا في الفنِّ، وتميُّزِها في بابِهـا، وتركيزِها على حقائقِ العلمِ.

(١) «مجموع فتاوى ابن باز» ٧/ ٢٣٩.

(٢) كتاب «العلم» ضمنَ «مجموع فتاوى ورسائل الشيخ رحمه الله» ٢٦/ ١٩٧. وانظر: «كتب أثنى عليها العلماء» ص١٨.



أنواعُ الكتبِ

إذا كان طالبُ العلمِ مأمورًا بالسَّيرِ على منهجيةٍ مُعتبَرٍ فيها التدرُّجُ من البدايةِ التصوُّريةِ إلى العِلَّةِ الغائيَّةِ؛ كان لا بدَّ من خُطَّةٍ يستتمُّ معَها حِذقُ الصَّنعةِ، ألَا وهي:

التَّفريقُ بين أنواعِ مختلفةٍ من الكتب، تتفرَّعُ عنها منهجياتٌ، وهي: «كتبُ التَّخرُّجِ»، و«كتبُ استكمالِ التَّكوينِ»، و«كتبُ الإثراءِ المعرفيِّ».

فبينَ ثلاثتِها فرقٌ كبيرٌ، يحسنُ بالطالبِ مراعاتُه والتَّنبُّهُ له، وإلَّا صار تحصيلُ العلمِ كخَرْطِ القَتادِ، وسُبُلًا مُشتَّتةً مطموسةً معالمُها، مجهولةً نتائجُها.

فعُدَّةُ المبتدئِ في العلمِ من الكتبِ غيرُ عُدَّةِ المُنتهِي فيه، والكتبُ التي يتخرجُ عليها الطالبُ تأصيلًا في المراحلِ الأوَّليَّةِ، غيرُ الكتبِ التي ينتهي بها مُجتهِدًا في الفنِّ، مُدرِكًا له، راسخًا فيه ومُناظِرًا[1].

وليس مِن الصوابِ أن يعيشَ الطالبُ مُنحصِرًا على متونٍ معدودةٍ، اعتاد التَّجْوالَ بينَ صفحاتِها، وإنعامَ النَّظرِ في طيَّاتِها، والقناعةَ بما فيها، ظانًّا أنَّها تُغنيه، ضانًّا عن بذلِ الوقتِ في غيرِها، وينتظرُ حينَها أن تأتيَه ملكةُ العلمِ!

فهذا من الخطأِ في التصوُّرِ؛ إذْ ما من كتابٍ يُغني عن غيره، وضَنُّه بوقتِه عن التوسُّعِ في المسائلِ = ضنٌّ بالعلمِ والمسائلِ الجديدةِ على نفسِه، وقطعٌ لها في وادٍ مُقفِرٍ، بينَما الواحاتُ يَمْنةً ويَسْرةً.

---

(١) انظر: «مفهوم العالِمية» ص١٤٧.

ومِثلُه مَـن أعرَضَ عن «تِقْنيَّـاتِ العصـرِ» و «الموسـوعاتِ الإلكترونيَّةِ»، وما أحدَثَتْـه مِن بعضِ الإيجابيَّاتِ فـي العلمِ، وتقريبِ المسـائلِ، والبحثِ والتَّتبُّعِ لبعضِ المسـائلِ وألفاظِها ونصوصِها؛ ظانًّا أنَّها ليسـت سـبيلَ السـلفِ في التلقِّي والتحصيلِ وتربيةِ الطالبِ!

فصار الحديـثُ -إذَنْ- عن تطرُّقِ الخللِ إلى ذهنيَّةِ طالبِ العلمِ في وسـيلةِ التلقِّي، كالانحصارِ في كتابٍ أو متنٍ أو أكثرَ لا يُجاوِزُ تراقيَها.

مِـن هنا، كان المُتعيِّنُ انتقاءَ منهجٍ يُحاكِي برنامجَ التأصيلِ العلميِّ وهي «كتبُ التَّخرُّجِ»، ومنهجٍ آخرَ لاحقٍ ومُتمِّمٍ له وهي «كتبُ اسـتكمالِ التكوينِ العلميِّ»، كما يحسنُ أيضًا انتقاءُ منهجٍ «للتَّرويحِ الذِّهنيِّ، والإثراءِ المعرفيِّ».

فـإذا اتَّضحَتْ معالمُ هذه الأنـواعِ الثلاثةِ، والفروقُ بينَها؛ سَـلِم الطالبُ عن التَّخليـطِ بينَ ما هو أصلٌ في العلمِ وركنٌ فيه، وبينَ ما هو كمالٌ وإنضاجٌ، وبينَ ما هو استحسانٌ ترويحيٌّ، ممَّا لا يضرُّ بالطالبِ فقدُ بعضِه.

أوَّلًا: كتبُ التَّخرُّجِ:

(كتبٌ يَحصُلُ بها تأصيلُ الطَّالـبِ علميًّا، عبرَ منهجٍ مُنتقًى ومُرتَّبٍ على جادَّةٍ مطروقةٍ).

وقولُنا: «كتب»؛ ذلك أنَّها المنهجُ الذي يسيرُ فيه الطالبُ معَ المعلِّمِ، ولا يُحترَزُ بها هنا عن التلقِّي على الأشياخِ، وسماعِ السَّلاسلِ العلميةِ عندَ التعذُّرِ؛ إذِ الأصلُ في التلقِّي السـماعُ عبرَ منهجٍ مُعَدٍّ، وأكملُ صُوَرِ التلقِّـي المُتحقِّقةِ التي تُفضِي بالطالبِ إلى رسـمِ العالِميَّةِ: التلقِّي عن الأشياخِ مُشـافَهةً عبرَ منهجٍ مرحليٍّ على الكتبِ التي وُصِفتْ لسلوكِ جادَّةِ التَّفقُّهِ.

أمَّا «سماعُ السَّلاسلِ العلميَّةِ»؛ ففيها خيرٌ كبيرٌ للطالبِ النَّابهِ، خاصَّةً عندَ فواتِ الرِّحلةِ، وتعذُّرِ الوصولِ.

ثانيًا: كتبُ استكمالِ التَّكوينِ:

(كتبٌ يُتِمُّ بها المُتعلِّمُ طريقَ التَّعلُّمِ ليحصلَ على صورةٍ كاملةٍ للعلمِ).

ومِن أمثلتِها:

١- «تفسيرُ الطَّبريِّ»، و «تفسيرُ القرطبيِّ»، و «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ»، و «التَّحريرُ والتَّنويرُ» لابنِ عاشورٍ.

٢- الكتبُ السِّتَّةُ وشروحُها: «صحيحُ البخاريِّ»، و «صحيحُ مسلمٍ»، و«سُنَنُ أبي داودَ»، و «جامعُ التِّرمذيِّ»، و «سُنَنُ النَّسائيِّ»، و «سُنَنُ ابنِ ماجَهْ»، وكذلك «مُسنَدُ الإمامِ أحمدَ»، و «مُوطَّأُ الإمامِ مالكٍ».

٣- «البحرُ المحيطُ» للزَّركشيِّ، و «المُوافَقاتُ» للشَّاطبيِّ، و «أعلامُ المُوقِّعينَ» لابنِ القيِّمِ.

٤- «المُغنِي» لابنِ قُدامةَ، و «المجموعُ شرحُ المُهذَّبِ» للنَّوويِّ، و«المبسوطُ» للسَّرَخْسيِّ، و «الذَّخيرةُ» للقَرافيِّ.

٥- «مُقدِّمةُ ابنِ الصَّلاحِ» وشروحها، و «تدريبُ الرَّاوي» للسُّيوطيِّ، وما في مستواهما.

٦- شروحُ «ألفيَّةِ ابنِ مالكٍ»، و «مُغني اللَّبيبِ» لابنِ هشامٍ، و «البحرُ المحيطُ» لأبي حيَّانَ الأندلسيِّ.

ثالثًا: كتبُ التَّرويحِ الذِّهنيِّ والإثراءِ المعرفيِّ:

(كتبٌ يحصلُ بها إثراءُ الطَّالبِ معرفيًّا، وتَنَزُّهُه في غيرِ منهجٍ مطروقٍ).

وهذه الكتبُ يحصلُ بهـا الترويحُ والإثراءُ للطالبِ، ممَّـا يَفتُقُ ذِهنَه؛ ككتبِ التَّاريخِ، والاقتصادِ، والسِّياسـةِ، ونحوِها ممَّا يَتبصَّرُ به الطَّالبُ واقعَه؛ إذِ الواقعُ محلُّ تطبيقِ الأحكامِ وتنزيلِها.

تنبيهٌ:

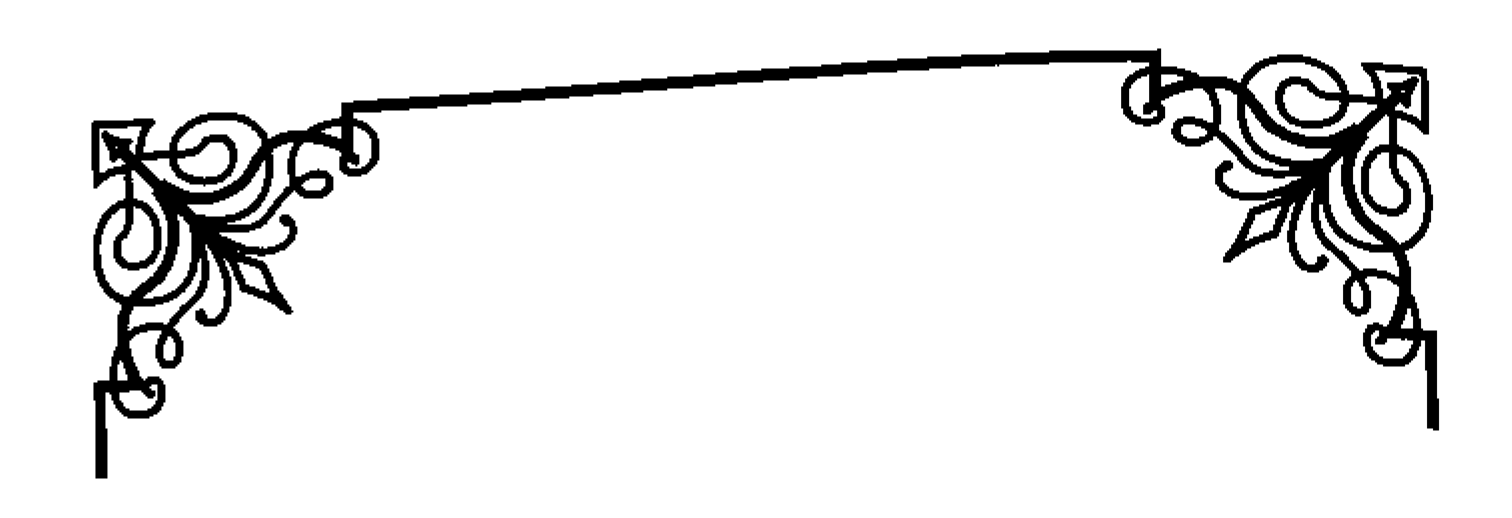
يحسنُ بنا هنا أن نتنبَّهَ إلى أنَّ التَّفريقَ بينَ «كتبِ التَّخرُّجِ» و «استكمالِ التَّكوينِ» و«الإثـراءِ المعرفيِّ» = من بابِ القِسْـمةِ الاعتباريَّـةِ لتبينَ للطالـبِ رُتبَ الكتبِ، ومراحلها؛ فلا يخلطَ بينَ ما هو أصليٌّ في تخرُّجِه، وبينَ ما هو للاسـترواحِ والإثراءِ، وغيرِ ذلك.



العوائق والعلائق

النَّفـــسُ إذا تجرَّدتْ عن العوائقِ؛ صار لها من الفِراســـةِ والكشــفِ بحسَــبِ تجرُّدِها..

الإمامُ ابنُ قيِّمِ الجوزيَّةِ رحمه اللهُ



كم من مُلتمِسٍ لسُـبُلِ التحصيلِ بجدٍّ وثباتٍ، وهـو يحملُ بينَ طيَّاتِه ما يعوقُ حصولَ الثَّمرةِ! لـذا فإنَّ رصدَ ما قد يقعُ فيه بعضُ المُنتسِـبينَ إلى الطلبِ ممَّا يجدُه العبدُ في نفسِه وإخوانِه = مُتعيِّنٌ. وإذا كان المُتصوَّرُ من طالبِ العلمِ التَّركيزَ على دَرْكِ الغاياتِ، والسِّـباقَ إلى الفوزِ في الجنَّاتِ؛ فيلزمُه إذن التَّخلِّي عن هذه الآفاتِ؛ طلبًا لسلامةِ المآلِ والنِّهاياتِ.

وأصلُ كلمةِ «العوائق» دائرٌ حولَ عدَّةِ معانٍ، وهي: الحبسُ والصرفُ، وكذلك التَّثبيطُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨]؛ أي المنافقين المُثبِّطين للمؤمنين. وكذلك تأتي بمعنى الإشغالِ.

فالمـرادُ بالعوائقِ هنا: «ما حبَس الطالبَ عن الأهمِّ في مدارجِ العلمِ، أو ثبَّطه، أو شغَله».

ومِن هذه العوائقِ:

١- فَلَتاتُ القلبِ، وكِيسُ العثراتِ.

٢- الموضةُ العلميةُ.

٣- التنمُّرُ بالألقابِ العلميةِ

٤- حرقُ المراحلِ.

٥- التَّعالي على الشيخِ المعلِّمِ.

٦- تأجير القلمِ، وضياع المشروع العلمي.

٧- الرِّحلةُ والأسفارُ قبلَ غربلةِ الدِّيارِ.

٨- التَّمَنطُقُ وقُوَّةُ الجدَلِ.

٩- القراءةُ «الاستعراضيَّةُ الأُفُقيَّةُ» والقراءةُ «السُّلَّميَّةُ المرحليَّةُ».

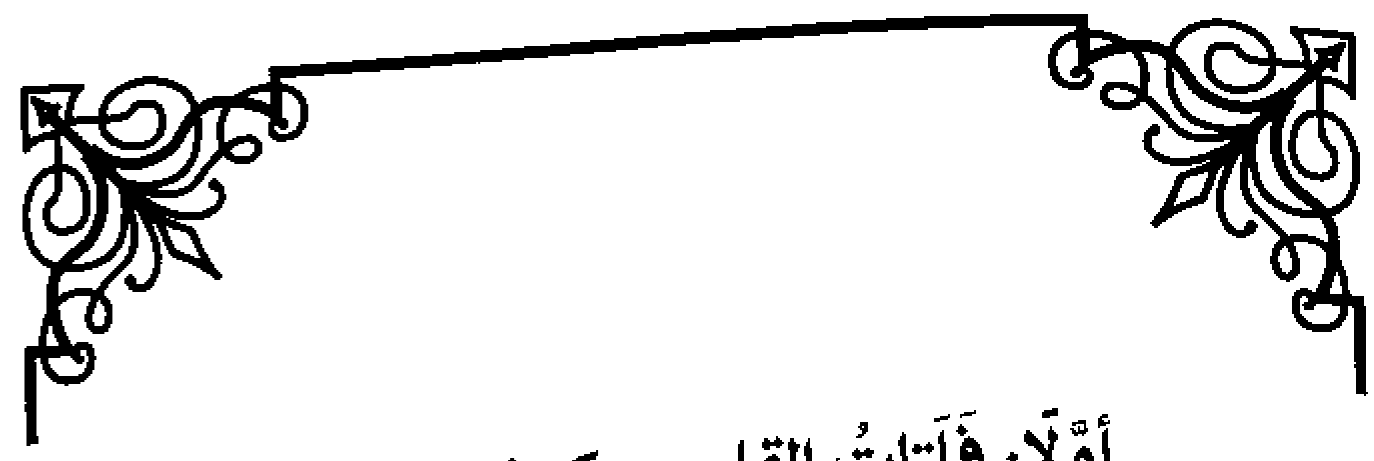
١٠- الدَّعاوى، ودعوى أنَّ «علومَ الآلةِ تُقسِّي القلوبَ» أنموذجًا.

١١- رُهابُ الكتبِ العلميةِ المنهجيةِ.

١٢- وهنُ المُقارَنةِ

١٣- منهجيةُ التَّذوُّقِ.

١٤- الغرورُ العلميُّ.



أوّلا: فَلَتاتُ القلبِ، وكِيسُ العثراتِ

لئن كانت لِلِّسانِ فلتةٌ؛ فإنَّ للقلبِ معَها فلتاتٍ، وإذا كانت للقدمِ عثرةٌ؛ فإنَّ للقلبِ وِزانَها عثراتٍ!، فاللسانُ مغترفٌ منْ ذلك الكيس.

والفَلْتةُ: «ما خرَج مِن غيرِ رَوِيَّةٍ، وبلا تدبُّرٍ أو رأيٍ، تطفو على وجهِ اللِّسانِ ممَّا استفاض في الجَنانِ».

وما حركةُ اللِّسانِ بالكلامِ إلَّا زَبَدُ القلبِ وفضولُه، تُخرِجُه أمواجُ الفكرِ واختلاجاتُ النَّفسِ وصراعاتُها؛ فالظَّاهرُ على اللسانِ نتيجةُ ما في القلبِ من فكرٍ وتدبيرٍ، فاللسانُ بريدُ القلب.

فما أسرَّ عبدٌ سريرةً بليلٍ إلَّا أظهَرها اللهُ على لسانِه، وإن ظنَّ أنَّها لا تظهرُ، فيراها البعضُ كالشَّمسِ، ويحسُّ بها آخرون، لكنَّها ستبدو حتمًا ويقينًا.

وقد أحسَنَ زُهَيرٌ في قولِه:

ومهما تكنْ عندَ امرئٍ مِن خَليقةٍ ... وإنْ خالَها تَخفَى على النَّاسِ تُعلَمِ

والحديثُ عن قلبِ طالبِ العلمِ حديثُ طُهْرٍ وصفاءٍ، حديثٌ عن قلبٍ يَحرُسُ الكلمةَ ويلحظُ الفِعالَ، يراقبُ القلبَ واللِّسانَ، لا كمَن جعل قلبَه مُستودَعَ الرَّزايا ومَكَبًّا لأخلاطِ الأخلاقِ؛ فهؤلاء تُظهِرُهم الفلتاتُ سريعًا، فترى في كتاباتِهم وثنايا سطورِهم فلتاتِ اللِّسانِ والقلمِ مِن نحوِ: (قُلْنا)، و (حقَّقتُها)، و (أَفتَيْنا بكذا)، و(أنا... وأخواتُها)، وغيرِها بما لا يتطلبُه سياقُ الكلامِ واتِّساقُه؛ لتنكشفَ بعدَها سوءةُ قلبٍ

مُلِيءٍ عِثارًا!

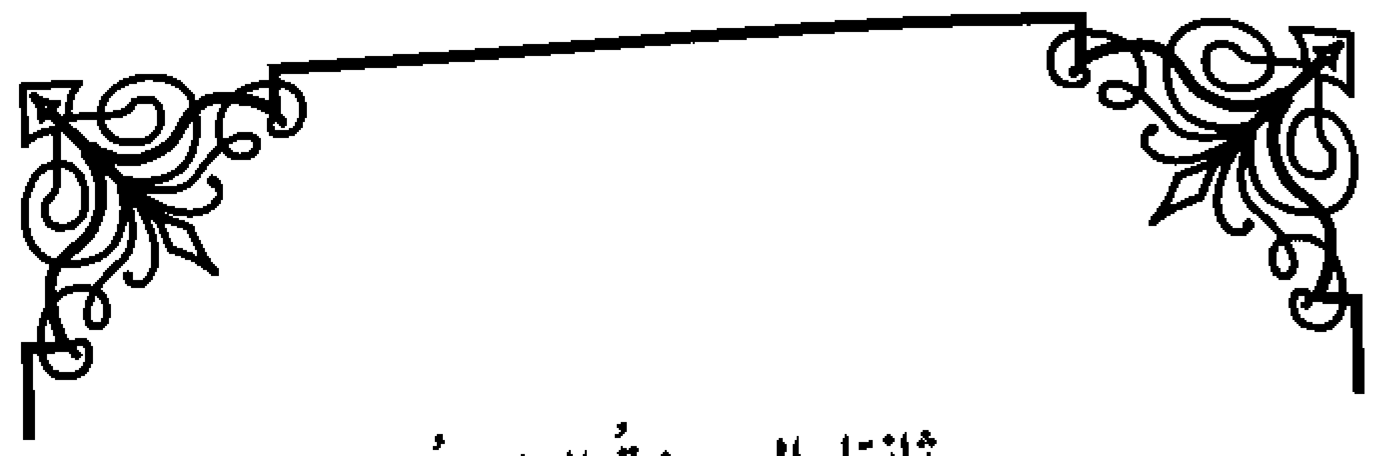
فقلبٌ يُقلِّبُ النظرَ إلى الخلقِ قبلَ تحقيقِ مُراقَبةِ الخالقِ..

وآخرُ يهوى النظرَ إلى مرادِ القومِ مُلتمِسًا رضاهم، ليَتعثَّرَ اللِّسانُ بعدَها بفتوى جائرةٍ على صفحةِ الشَّريعةِ النَّاصعةِ..

فترى قلبًا مُرتابًا زائغًا فَزِعًا، تحركُه عواصفُ الامتحانِ..

وترى قلبًا مليئًا بأكياسٍ من العثراتِ: كبرٍ، وعجبٍ، ورياءٍ، وتصُّنعٍ، وميلٍ إلى البطالةِ، وتركٍ للعملِ = فهذه عثراتٌ وعوائقُ تَصُدُّ تارةً، وتُشوِّشُ البالَ أخرى، وتحجبُ قلبَه تاراتٍ.

فإن كانت فلتاتُ اللِّسانِ فاضحةً؛ فإنَّ فلتاتِ القلبِ أشدُّ فظاعةً وحطًّا من قدرِ مُعتقِدِها؛ جزاءً وفاقًا! وهذا هو الشأنُ دومًا، نراه في أنفسِنا ومَن حولَنا: أنَّه ما اعتلَى أحدٌ وترفَّع وتكبَّر وأضمَر هذه العثراتِ؛ إلَّا حطَّ اللهُ مِن قدرِه، وطمَس قبولَه من القلوبِ، وحجَب قلبَه عن الوصولِ، وذلك بقدرِ ما ترفَّع وأضمَر.



ثانيا: الموضةُ العلميةُ

مِن زمنٍ إلى آخرَ، ومن جيلٍ إلى جيلٍ تتسلَّلُ بعضُ المفاهيمِ، ويعتري الناسَ تغيُّرٌ في الأفكارِ والعاداتِ والأعرافِ؛ فينشأُ عليها أبناءُ جيلٍ وقرنٍ حتى يعتادَها الناسُ، وتصبحَ من مُسلَّماتِ الحياةِ.

وفي واقعِ العلمِ والطلبِ، نجدُ الأمرَ كذلك أيضًا قد أصبحَ في كلِّ زمنٍ أوَّليَّاتٌ ومعارفُ تُفرِزُها أحداثُ الواقعِ، وعاداتُ الناسِ وحياتُهم، وجَلَبتُها (موضاتٌ علميَّةٌ) في الأسواقِ العلميةِ، ينصرفُ معَها الناسُ عن أصلِ العلمِ ومدارجِ التَّرقِّي فيه، فتستولي العادةُ والأعرافُ الجديدةُ لتصبحَ هي الأصلَ، وما عداها تخلُّفٌ ورجوعٌ إلى الخلفِ!!

فالموضةُ: «عاداتٌ وابتكاراتٌ يتعلقُ الناسُ بها زمنًا ثُمَّ يتركونها».

وبتحقيقِ المناطِ على الواقعِ العِلميِّ والتَّعليميِّ، فإنَّنا نستطيعُ أن نُعرِّفَ «الموضةَ العلميةَ» بأنَّها:

(تَمكُّنُ المُجاراةِ والتَّقليدِ لِما ذاع وراج في الواقعِ، بعيدًا عن الجادَّةِ التَّأصيليةِ في التعلُّم).

ففي الآونةِ الأخيرةِ -للأسفِ- دبَّ بعضُها إلى طلابِ العلمِ، وشابها هوًى خفيٌّ وداعٍ نفسيٌّ، قد يكونُ التعبيرُ عنه بـ(الموضةِ العلميةِ) صادقًا.

وإلَّا فحدِّثني عن إغراقِ الطُّلابِ في المشاركةِ في الواقعِ، ومُتابَعةِ أحداثِه

وتحليلاتِه، وجعلِ ذلك مُؤثِّرًا على منهجيةِ الطلبِ؛ فأضحى الواقعُ هو ما يُشكِّلُ المنهجَ العلميَّ، وأحداثُه وخطوبُه هي ما تُقرِّرُ المُقرَّراتِ، وندوبُه وآثارُه هي ما تُرجِّحُ الإكمالَ أو الاكتفاءَ..

فكم ترى من طلابِ العلمِ مَن انتهَض للتحصيلِ، وتفرَّغ للتلقِّي والمذاكرةِ، قد أعجَبكَ عزمُه واستقامتُه = إذا به يُعطِّلُ كُرَّاسَه، ويكسرُ أقلامَه؛ لينبريَ لمواقعِ السِّياسةِ والتحليلِ والأخبارِ وشاشاتِها!

وشواهدُ هذا كثيرةٌ.. للأسف!

فما زالتْ كتيبةُ العلماءِ والمتعلِّمين تتناقصُ أعدادُها، ويخفُّ تأهيلُ أفرادِها، حتى أضحَتْ هزيلةً قليلةً أفرادُها. فلو كان هذا الطالبُ درَّاكًا لغاياتِ ما يصنعُ؛ مِن جمعِ قلبِه على العلمِ، واستفراغِ الوسعِ في تحمُّلِه = لَمَا أهمَلَ العلمَ ومجالسَه بدعوى فقهِ الواقعِ والأحداثِ الجاريةِ وغيرِها.

وقُلْ مِثلَ هذا في قضايا الفِكرِ الدائرةِ حولَ الخلافاتِ بينَ السُّنَّةِ والشِّيعةِ، فإذا ما أُثِيرَ حدثٌ أو تُنُوقِلَ حديثٌ، وخاض أهلُ الإعلامِ ومُحرِّكو الدَّفَّةِ = كسَر صاحبُنا جناحَ الطلبِ ليغوصَ في بحارِ الفَرْقِ بينَ الفِرَقِ، ويتعمقَ في أصولِ المِلَلِ والنِّحَلِ ليتعرفَ على حقيقةِ هذا الخلافِ الدائرِ، ويُحلِّلَ تصاريحَ القومِ، ويُفنِّدَ كلامَ المُحلِّلينَ، كلُّ هذا على حسابِ التأصيلِ العلميِّ، وقد كان يكفيه أقلُّ من هذا، لكنَّه آثَر الخوضَ فيما يخوضُ فيه القومُ، ويلبسُ لبوسَ النفعِ المتعدي والدفاعِ في مرحلةِ النَّفعِ القاصرِ والتأصيل.

ومِثلَه أيضًا في القراءاتِ، إذا كانت سوقُها رائجةً؛ انبرَى ليكونَ القارئَ، وإن كان في علمِ المصطلحِ؛ تجهَّز ليكونَ المُحدِّثَ الأثريَّ، وإن كان في الإجازاتِ؛ راوَده حلمُ الإجازةِ والرِّوايةِ، ممَّا يكونُ إقحامًا في منهجِه في التعلُّمِ!

وأمّا إذا كانت الموضةُ من بابِ الإثراءِ المعرفيِّ والاستحسانِ؛ فإنَّه سيئولُ إلى انصرافٍ عن برنامجِه بالكُلّيّةِ.

فالجامعُ لفعلِ هؤلاءِ أمورٌ:

الأولُ: الانشغالُ عن التأصيلِ والتأسيسِ واستكمالِ التكوينِ:

وذلك على حســابِ موضةِ العصرِ وحديثِ العامّــةِ، أو قلْ: ما ليس هذا أوانُه ووقتُه.

الثاني: سلوكُ منهجيــةٍ جديدةٍ مُختَرَعةٍ تُوافِــقُ الفكرةَ التي خاض في رُبُوعِها:

فيلجأُ إلى جعلِ تخرُّجِه على تلك الكتبِ التي تناقشُ ما خاض فيه، وتُعِينُ على إدراكِه وفهمِ مراميه، وكلُّ هذا جنايةٌ على التمكُّنِ العلميِّ.

الثالثُ: تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ:

فهو سيلجأُ إلى استعجالِ القراءةِ في الرائجِ من التخصُّصاتِ الفرعيةِ في الفنونِ قبلَ التمكُّنِ مِن أُسِّها وأصلِها، فســيُقدِّمُ حتمًا ما حقُّه التأخيرُ، ولو صبر على مراحلِه العلميةِ؛ فســتأتيه هذه الكتبُ في رُتْبتِها المنهجيةِ، وفي سُــلَّمِها التعليميِّ، وســيفوزُ بانسيابِ العلومِ وترتيبِها وتدرُّجِها في ذهنِه.

كثيــرون هم في هذه الأيّامِ مِن طلابِ العلمِ مَن حرَصوا على المُجاراةِ لسُــنَّةِ أبناءِ العصرِ لا منهجٍ علميٍّ؛ فهل ســيكونُ هؤلاءِ كما أُرِيدَ لهم مِن قبلُ، أو كما تَمنَّوْا هم من قبلُ، أو كما يقولون في دعائِهم: (واجعَلْنا للمُتَّقِينَ إمامًا)؟ أم ســيكونُ الحالُ مُشابِهًا -معَ الفرقِ الكبيرِ- لمَن يقولُ: (رأيتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه)؟!

ضبطٌ وتتميم:

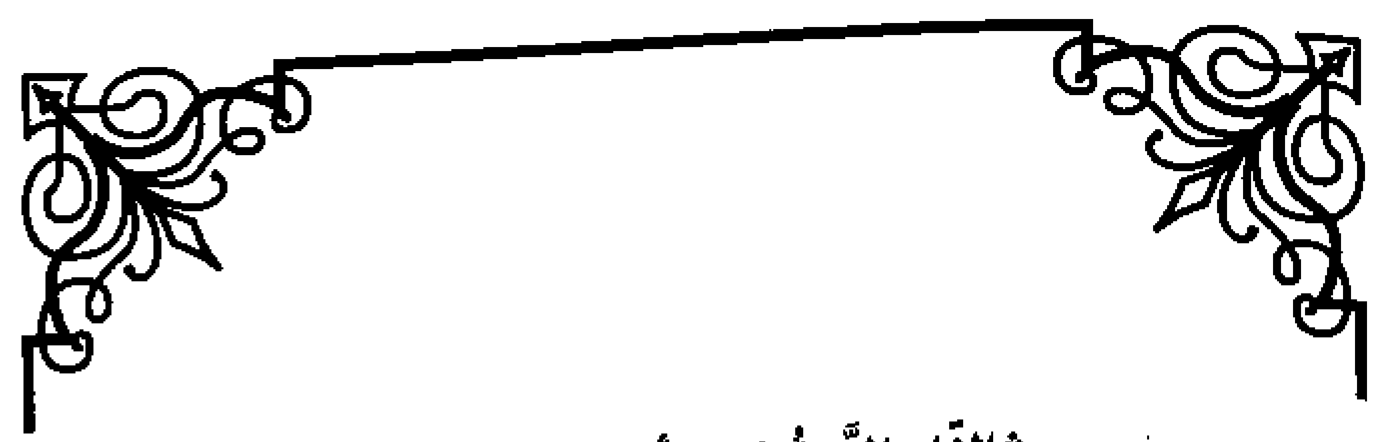
يجبُ أن يُلِمَّ الطالبُ بالنَّوازلِ ومعرفـةِ الخصومِ، ويتعمقَ في نقضِ مذاهبِهم المُخالِفةِ، لكنْ هل يُدَلُّ على هذا أيُّ طالبٍ كيفما اتَّفق، أم يختصُّ بمُتقدِّمٍ في الطلبِ والفهمِ والتصـوُّرِ؟ وهل يُكتفَى فيه بالمعرفـةِ الإجماليةِ، أم يَتطلَّـبُ ذلك تفصيلًا وتمحيصًا؟

يقولُ الزَّرْنُوجيُّ رحمه اللهُ: (وينبغي لطالبِ العلمِ: ألَّا يختارَ نوعَ العلمِ بنفسِه، بل يُفوِّضُ أمرَه إلى الأستاذِ؛ فإنَّ الأستاذَ قد حصَل له التجاربُ في ذلك، فكان أعرفَ بما ينبغي لكلِّ واحدٍ، وما يليقُ بطبيعتِه. وكان الشَّـيخُ الإمامُ الأجلُّ الأسـتاذُ برهانُ الحـقِّ والدِّينِ[1] رحمه اللهُ تعالى يقولُ: كان طلبـةُ العلمِ في الزَّمانِ الأولِ يُفوِّضون أمرَهم في التعلُّمِ إلى أُسـتاذِهم، وكانـوا يَصِلون إلى مقصودِهـم ومرادِهم، والآنَ يختارون بأنفسِهم؛ فلا يحصلُ مقصودُهم من العلمِ والفقهِ)[2].

---

(١) يقصدُ أسـتاذَه الفقيهَ الحنفيَّ الكبيرَ: برهانَ الدِّينِ علـيَّ بنَ أبي بكرٍ المَرْغِينانيَّ (ت٥٩٣)، صاحبَ كتابِ «الهداية في الفقه»، وغيرِه.

(٢) «تعليم المتعلِّم» للزَّرنوجيِّ ص٨٦.



ثالثًا: التَّنمُّرُ بالألقابِ العلميَّةِ

من الظواهرِ التي اشـتَهَرتْ بينَ طلابِ العلمِ في هـذا الزمنِ: التَّنمُّرُ بالألقابِ العلميةِ، وما كان أحدٌ يتصورُ أنَّها تصلُ بالبعضِ إلى هذا الحدِّ الذي يَشِـينُ صاحبَه! وهذا الأمرُ ليس من مفرداتِ عصرِنا، بل هو قديمٌ مُتجدِّدٌ، وقد سارتِ الرُّكبانُ بأبياتٍ من الشِّعرِ تُعبِّرُ عن هذه الظاهرةِ:

ممَّا يُزهِّدُني في أرضِ أندلُسٍ ... أسماءُ مُعتمِدٍ فيها ومُعتضِدِ

ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها ... كالهِرِّ يَحكي انتفاخًا صَوْلةَ الأسدِ

قال السَّـخاويُّ رحمه اللهُ: (أمَّا «شيخُ الإسلامِ»؛ فهو يُطلَقُ -على ما استُقرِئ مِن صنيعِ المُعتبَرِينَ- على المُتَّبعِ لكتابِ اللهِ تعالى وسُـنَّةِ رسـولِه ﷺ، معَ المعرفةِ بقواعدِ العلمِ، والتَّبحُّرِ في الاطِّلاعِ على أقوالِ العلماءِ، والتَّمكُّنِ مِن تخريجِ الحوادثِ على النُّصوصِ، ومعرفةِ المعقـولِ والمنقولِ على الوضعِ المرضيِّ، ورُبَّما وُصِف به مَن بلَغ درجةَ الولايةِ...).

ثُـمَّ قال: (وابتُذِلتْ هذه اللَّفظةُ؛ فوُصِف بها علـى رأسِ المائة الثَّامنةِ وما بعدَ ذلك مَن لا يُحصَى كثرةً، حتى صارت لقبًا لكلِّ مَن وَلِي القضاءَ الأكبرَ، ولو كان عاريًا عن العلمِ والسِّنِّ وغيرِهما، بل صار جَهَلةُ المُوقِّعينَ وغيرِهم يَجمَعون جُلَّ الأوصافِ التي لا تُوجَدُ الآنَ مُتفرِّقةً في سـائرِ الناسِ للشَّـخصِ الواحِدِ! والعَجَبُ ممَّن يُقِرُّهم

على ذلك؛ فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ)[1].

ومِن أعجبِ ما تراه هذه الأيَّامَ: منحُ ألقابِ (الاجتهادِ)، و (الباحثِ) بلا رقيبٍ ولا مِعيارٍ لمَن سلَّ سيفَ عقلِه بلا زمامٍ على ثوابتِ الشَّريعةِ، وأعمَلَ فيها ندوبًا وإشكاليَّاتٍ، ثُمَّ يُسوِّغُ هذا بدعوى (الرَّأيِ والرَّأيِ الآخَرِ)، و (الحوارِ)، وما أشبَه ذلك!

فهو قُرْحةٌ في وجهِ العلمِ لا قريحةٌ، وخُرَّاجٌ أَوْلى باستئصالِ مادَّتِه الفاسدةِ، لا أن تُمنَحَ له الألقابُ، ويُقَرَّ قولُه وتسميتُه ووصفُه بنعوتِ العلمِ والاجتهادِ. وأحقُّ مَن يُطلَقُ عليهم هذه الألقابُ الدَّالَّةُ على العلمِ والتمكُّنِ ذَوُوه لا أدعياؤُه[2]. كمَن انتصَب للعلمِ ودرسِه، وتغلَّل في خوافيه، وسلَك فيه مسلكَ الخبيرِ المُمارِسِ، وأمضى فيه عمرًا، حتى أصبَح العلمُ جاريًا في نفسِه مجرى الدَّمِ في العروقِ.

وهذا هو الإنصافُ والعدلُ في هذه الألفاظِ العظيمةِ والرُّتَبِ العليَّةِ؛ إذْ صرفُها

(١) «الجواهر والدُّرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسخاوي ١/ ٦٨.

(٢) ألفاظُ: (العالِم)، و (العلاَّمة)، و (الإمام)، و (الرَّبَّانيّ)، و (الحَبْر) التي لم تُطلَقْ على أكثرِ حَمَلةِ الشريعةِ والعلمِ أيَّامَ نضارةِ الدِّينِ = أصبحتْ تُطلَقُ على الجهلاءِ لعهدِنا! فبعدَ أن كانت هذه الألفاظُ تُجعَلُ لأفرادٍ في الأُمَّةِ امتازوا ميزةً ظاهرةً بعقولِهم وعلومِهم، وقد تستعرضُ القُطرَ بل الأقطارَ، بل العصرَ والأعصارَ، ولا تجدُ واحدًا استَحقَّ هذه الألقابَ، صِرتَ إذا دخلتَ في عهدِنا إلى مدينةٍ صغيرةٍ كطرابلس الشام تظنُّ نفسَك وجميعَ مَن لهم شيءٌ من الذِّكرِ قليلٌ، أو تولَّوا منصبًا ولو حقيرًا في خدمةِ الحكومةِ، يُعطَونَ لقبَ: (العالم الفاضل، والعلَّامة الفاضل، والإمام المُحدِّث) بدونِ نكيرٍ!! كان يُقالُ لجُبَيرِ بنِ زُهَيرٍ الحضرميِّ: عالمُ أهلِ الشامِ. وللخليلِ بنِ أحمدَ: علَّامةُ البصرةِ. ولمالكِ بنِ أنسٍ: إمامُ دارِ الهجرةِ. ولعبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ: ربَّانيُّ هذه الأُمَّةِ.
أمَّا اليومَ؛ فألفاظُ: (عالم)، و (علَّامة)، و (إمام) تُطلَقُ على المُمَخرِقينَ والمتنطعين الذين لم ينفعوا الأُمَّةَ بشيءٍ. انظر: «الألقاب العلمية»، مقال بمجلة المقتبس [نسخة إلكترونية] العدد (٧٧) بتاريخ ١/ ٧/ ١٩١٢م.

لكلِّ مُشتغِلٍ بالعلمِ جَورٌ عليها، ونأيٌ بها عن العدلِ. والجديرون بوصفِ العالِميةِ والإبداعِ العلميِّ تنمُّ أوصافُهم عنهم، لا ألقابُهم [ومُعرِّفاتُهم على الشَّبكاتِ الاجتماعيَّةِ].

فما عالمٌ تستهويه هباتُ الألقابِ ولا النُّعوتُ الفارغةُ، وما رأَيْنا عالمًا ممَّن عُنِي بالعلمِ مِن السَّلفِ والخلفِ إلا هاربًا من سطوةِ الألقابِ، حاطًّا على نفسِه.

وجهُ كونِ التَّنمُّرِ عائقًا عن التعلم:

١- أنَّ هذا التَّنمُّرَ يُقلِّلُ بركةَ علمِه، ويمحقُ خيرَه:

لأنَّه يعكسُ نفسيَّةً مُسمِّعةً، مدخولةَ النِّيَّةِ، وقد قيل: (قُلْ لِمَن لم يكنْ مُخلِصًا: لا تَتعَنَّ).

٢- أنَّ صاحبَه لا يستقيمُ أمرُه على شيءٍ غالبًا:

فهَوَسُ اللَّقبِ، وجَرْسُه في الأذنِ، وحُلمُ التَّحليقِ يحولُ دومًا دونَ إكمالِ برنامجِ التعلُّمِ، وهو مُلاحَظٌ على كثيرٍ ممَّن سلَكَ هذا السبيلَ؛ فتراه اليومَ يقرأُ في هذا العلمِ ليكونَ المُحدِّثَ الأثريَّ، وفي القراءاتِ غدًا لأنَّه وجَد مهابةً للمقرئِ الفلانيِّ.

٣- ضبابيَّةُ حقيقةِ العلمِ لديه:

ومِن أبرزِ صُوَرِ هذه الضَّبابيَّةِ: الربطُ الخاطئُ بينَ الإبداعِ في العلمِ واللَّقبِ العلميِّ.

وإذا كان هذا التنمُّرُ في اللقبِ العلميِّ؛ فإنَّ هناك حالتانِ قد تندرجانِ في ذلك:

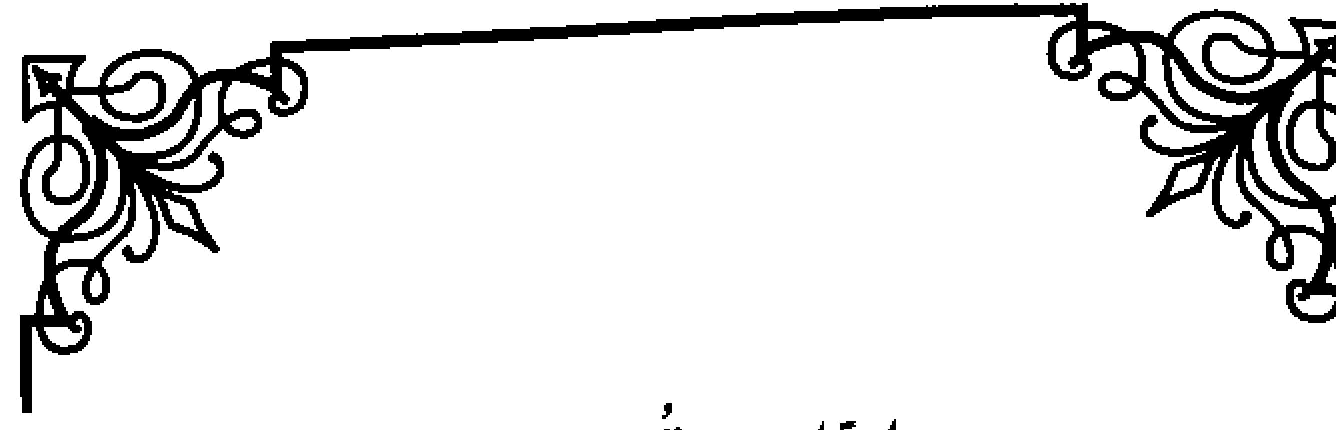
الأولى: الفخرُ بالنَّسبِ؛ كقولِ بعضِهم: (الشريفُ فلانٌ)، والحرصُ على

اســتعمالِه والتســمِّي به. وقلَّما وُجِد مَن نبَّه عليه، وهي موجودةٌ في بعضِ المنتسبين إلى العلمِ.

يقولُ شيخُ الإســلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (تعليقُ الشَّــرفِ في الدِّينِ بمُجرَّدِ النَّســبِ = هو حُكمٌ من أحكامِ الجاهليَّةِ الذين اتَّبعَتْهم عليه الرَّافضةُ، وأشباهُهم مِن أهلِ الجهلِ)[1].

الثَّانيــةُ: نحتُ بعضِ المُؤلِّفينَ لأسمائِهم على طريقِ الأقدمينَ في انتسابِهم في الأبحاثِ والكتبِ؛ ففيها هالةٌ تُظهِرُ دسيسةَ الغلوِّ، ودفينةُ حبِّ الشَّرفِ والرِّياسةِ.

(١) «مجموع الفتاوى» ٣٥/ ٢٣٠.



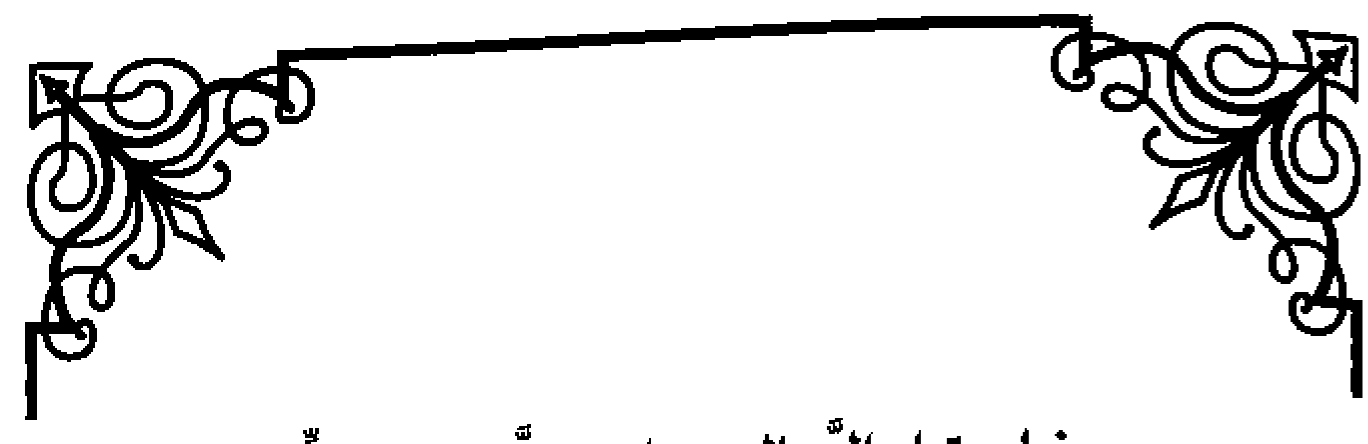
رابعًا: حرقُ المراحلِ

خُذْها عاليةً من أبي سـليمانَ الخطَّابيِّ (ت٣٨٨) رحمه اللهُ، إذ يقول: (ولكنَّ أقوامًا عساهم استوعَرُوا طريقَ الحقِّ، واستطالوا المُدَّةَ في دَرْكِ الحظِّ، وأَحَبُّوا عُجالةَ النَّيلِ، فاختصَروا طريقَ العلمِ، واقتصَروا على نُتَفٍ وحروفٍ مُنتزَعةٍ عن معاني أصولِ الفقهِ، سَمَّوْها عِلَلًا، وجعَلوها شعارًا لأنفسِهم في التَّرسُّمِ برسم العلم، واتَّخذوها جُنَّةً عندَ لقاءِ خصومِهم ونصَبوها دَرِيئـةً!!! للخوضِ والجدالِ يتناظرون بها ويتلاطمون عليها، وعندَ التصادرِ عنها قد حُكِم للغالب بالحِذْقِ والتبريزِ؛ فهو الفقيهُ المذكورُ في عصرِه، والرئيسُ المُعظَّمُ في بلدِه ومصرِه!!!

هذا، وقد دَسَّ لهم الشـيطانُ حيلةً لطيفةً، وبلَغ منهم مكيدةً بليغةً، فقال لهم: هـذا الذي في أيديكم علمٌ قصيـرٌ، وبضاعةٌ مُزْجاةٌ لا تَفِي بمبلـغِ الحاجةِ والكفايةِ؛ فاسـتعينوا عليه بالكلامِ، وصِلُوه بمُقطَّعاتٍ منه، واسـتَظهِروا بأصولِ المُتكلِّمين = يتَّسـعْ لكم مذهبُ الخوضِ ومجـالُ النظرِ. فصدَّق عليهم ظنَّـه، وأطاعه كثيرٌ منهم واتَّبعوه، إلَّا فريقًا من المؤمنين.

فيـا للرِّجالِ والعقولِ أنَّى يذهبُ بهم؟! وأنَّى يختدِعُهم الشـيطانُ عن حظِّهم وموضعِ رشدِهم؟! واللهُ المستعانُ)(١).

(١) «معالم السُّنَن» ١/ ٥.



خامسًا: التّعالي على الشَّيخِ المُعلِّمِ

وهذه الآفةُ تعتصرُ الفؤاد خجلًا وحياءً عندَ التَّنويهِ بها، والدَّندنةِ حولَها!

درَستُ على أحدِ المشايخِ عدَّةَ سنواتٍ، ومنَحَنا اللهُ من علمِه وأدبِه الكثيرَ، فلمَّا كان ذلك اليومُ الذي هو المجلسُ الأخير؛ قام فينا ناصحًا، فلا زال يَعلَقُ بقلبي أثرُ ذلك المجلسِ، وخشوعُه، وصدقُ ذلك النُّصحِ، فكان ممَّا قال:

(شيخُكَ سيبقى شيخَكَ. وإذا سَمِع أحدُكم عن موعدِ درسٍ، أو إعلانٍ عن مُحاضَرةٍ لأحدِ إخوانِه وزملائِه في الطلبِ؛ فَلْيَحرِصْ على جمعِ الناسِ عليه، وليكنْ هو مَن يُلصِقُ له الإعلانَ ليجمعَ الناسَ للاستفادةِ منه)؛ فواللهِ ما أعذَبَها من كلماتٍ!

لم أكدْ أُدرِكُ هذه الحقيقةَ حينَها، لكنْ ما أن تعتصرَكَ أحداثُ الحياةِ، ومتاهاتُ الطُّرقِ، وألوانُ الناسِ، حتى تعلمَ أنَّ التعاليَ لم يكنْ يومًا مُقتصِرًا على مُساوٍ أو صغيرٍ، بل تعدَّاه إلى الشَّيخِ المعلِّمِ!

ومِن موروثِ الأمثالِ الجميلةِ: (العينُ لا تعلو على الحاجبِ)؛ فكم من تلميذٍ فُتِن بقدرتِه على الجمعِ والكتابةِ، وآخرَ غرَّه بيانُه، وثالثٍ خدَعه جمهورُه ومُؤيِّدوه!

فاحذَرْ يا مسكينُ أن تتعالى وتتعاظَمَ على مَن أحسَن فيكَ الظَّنَّ يومًا، ومنَحكَ سهرَه وتعبَه وجهدَه خالصًا، فهو دَينٌ، وكما تدينُ تُدانُ.

ولا أنسى ذلك اليومَ إذْ رأى أحدُ مَن استفدتُ بعلمِهم مِن أهلِ العلمِ بعضَ مسائلَ كنتُ بحثتُها، فأراد نصحي فقال: (اعلَمْ أنَّ الطالبَ مهما بلَغ في قُوَّةِ البحثِ

والكتابةِ شأنًا؛ فإنَّ علميَّةَ العالِمِ تسبقُه).

صـدَق، فكثيرونَ أولئكَ الذيـن يُمضُون الأعمارَ في صقـلِ الألفاظِ ونحتِ الأسـجاعِ، وما حظُّهم من ذلـك إلا البريُ والصقـلُ، أمَّا حظُّ العالِـمِ فهو المعنى والحقيقةُ، فلا تَغُرَّنَّكَ مساحيقُ الألفاظِ والحروفِ، فدونَها تقعُ الحُتُوفُ!

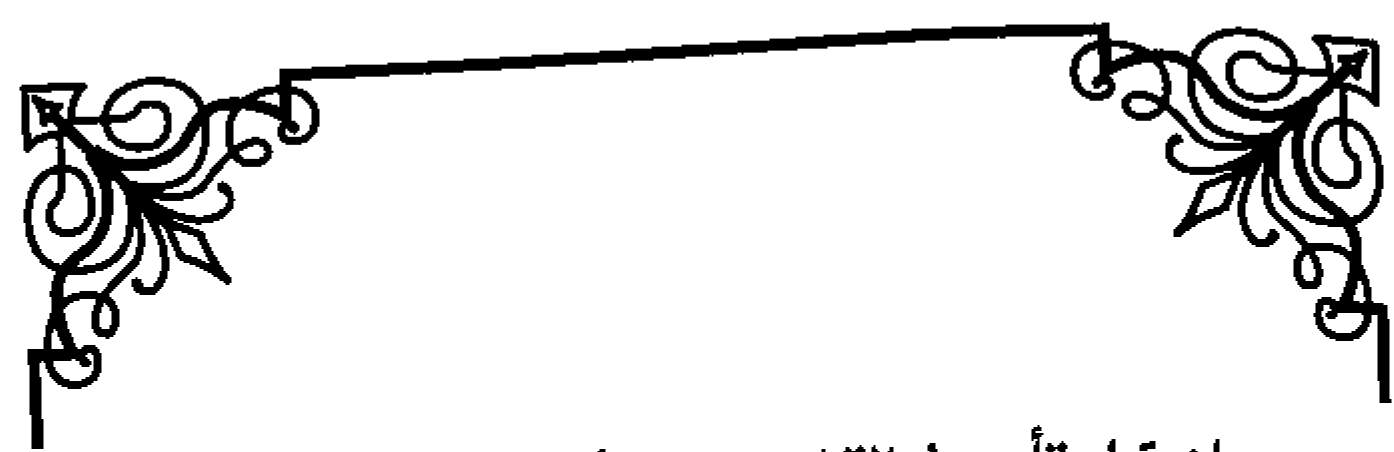
ذُكِـر في ترجمةِ أبي بكرِ بنِ الدَّهَّانِ النَّحـويِّ الضَّريرِ [المُبارَكِ بنِ المُبارَكِ بنِ سـعيدِ بنِ أبي السَّـعاداتِ الوجيهِ] (ت٦١٢) رحمه اللهُ، أنَّـه: (كان قليلَ الحظِّ من التَّلامذةِ، يتخرَّجون به ولا يُنسَـبون إليه. وكان جيِّدَ القريحةِ، حادَّ الذِّهنِ، مُتضلِّعًا في علومٍ كثيرةٍ، إمامًا في النَّحوِ واللُّغةِ والتَّصريفِ والعَروضِ ومعاني الأشـعارِ والتَّفسيرِ والإعرابِ وتعليلِ القراءاتِ، عارفًا بالفقهِ والطِّبِّ والنُّجومِ وعلومِ الأوائلِ، وله النَّظْمُ والنَّثرُ الحسـنُ؛ حسنَ التَّعليمِ، طويلَ الرُّوحِ، كثيرَ الاحتمالِ للتَّلامذةِ، واسعَ الصَّدرِ، لم يغضبْ قطُّ من شيءٍ، وشـاع ذلك حتى بلَغ بعضَ الخلفاءِ، فجهَد على أن يُغضِبَه فلم يقدرْ!

وكان حنبليًّا، ثُمَّ تحوَّل حنفيًّا، ثُمَّ لمَّا درَّس النَّحوَ بالنِّظاميَّةِ صار شـافعيًّا؛ لأنَّه شرطُ الواقفِ، فقال فيه تلميذُه أبو البركاتِ محمدُ بنُ أبي الفرجِ التَّكريتيُّ:

أَلا مُبلغٌ عنِّي الوجيهَ رسالةً ... وإنْ كانَ لا تُجدِي إليه الرَّسائلُ
تَمَذهَبتَ للنُّعمانِ بعدَ ابنِ حنبلٍ ... وذلك لمَّا أعوزَتْكَ المآكِلُ
وما اخترتَ رأيَ الشَّافعيِّ دِيانةً ... ولكنْ لِأنْ تَهوَى الذي منه حاصِلُ
وعمَّا قليلٍ أنتَ لا شكَّ صائرٌ ... إلى مالكٍ فافطَنْ لِما أنا قائلُ

قال جلالُ الدِّينِ السُّيوطيُّ رحمه اللهُ، مُعقِّبًا: (هكذا تكونُ التَّلامذةُ، يَتخرَّجون بأشياخِهم، ثُمَّ يهجونهم! لا قُوَّةَ إلَّا باللهِ)(١).

(١) «بغية الوعاة في طبقات اللُّغويِّين والنُّحاة» للسيوطي ٢/ ٢٧٢.



سادسًا: تأجيرُ القلمِ، وضياعُ المشروعِ العِلمي

(... لا يزورُ العلمُ قلبًا مشغولًا بترقُّبِ المناصبِ، وحسابِ الرَّواتبِ، وسَوْقِ الآمالِ وراءَ الأموالِ، كما لا يزورُ قلبًا مُقسَّمًا بينَ تصفيفِ الطُّرَّةِ، وصقلِ الغُرَّةِ، وحُسنِ القَوامِ، وجمالِ الهِنْدامِ، وطُولِ الهُيامِ بالكأسينِ: كأسِ المُدامِ، وكأسِ الغرامِ)[1].

هذه الكلماتُ سطَرَها الأديبُ مُصطفَى المَنْفَلُوطيُّ، وهي تحكي واقعَ قلبٍ حارٍ بينَ رعيِ مَقصَدِ العلمِ الأعظمِ، والولَعِ بمتاعِ الحياةِ الدُّنيا..

لقد استَقَرَّ في الأذهانِ جمالُ معنى العلمِ والغايةُ من إدراكِه، وردَّده الجميعُ، لكنْ في دنيا الواقعِ يُرى مَن يتَّجهُ إلى العلمِ بكُلِّيَّتِه زمانًا، ويُخلِصُ لطلبِه، حتى إذا استَتَمَّ له بعضُ ما يترتبُ على مَن حَظِي بنوالِه؛ مِن وجاهةٍ، أو محبَّةٍ، أو إقبالِ الناسِ عليه؛ لشرفِ ما يَحمِلُ = نجدُه يتوقفُ ويُفكِّرُ ليُرجِعَ رأسَه إلى وراءُ، لتعودَ إثرَها مِن بعدِ قُوَّةٍ أنكاثًا، لا ليتركَ العلمَ، بل ليصبحَ العلمُ آلةَ استثمارٍ!!

وهذا التحوُّلُ إنَّما هو انقلابٌ في الهدفِ والغايةِ؛ فبعدَ أن كان يطلبُه خالصًا للهِ، لا لدنيا أو متاعٍ إلا العلمَ والنفعَ للخلقِ، إذا به يُفتَنُ ببريقِ صورةِ الدُّنيا وزهرتِها، فيَتغيَّاها -بعملٍ من أعمالِ الآخرةِ المحضةِ- بعدَ أن كان يتحاشاها فكرًا وعملًا وطموحًا.

ومِن مُستحسَنِ ما قيل في هذه المعاني، ما أبدَعه ابنُ خَفاجةَ رحمه اللهُ:

(١) «مُؤلَّفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة» ١/ ٢٤٣.

دَرَسوا العلومَ ليَملِكوا بجدالِهم فيها صُدُورَ مراتبٍ ومَجالِسِ
وتَزَهَّدوا حتَّى أصابوا فُرْصةً في أخذِ مالِ مساجدٍ وكَنائِسِ[1]

نعم، قد يحتاجُ المرءُ عندَ الحاجةِ، وخاصَّةً إذا تعلَّق به مَن لَزِمه الإنفاقُ عليهم، لكنَّنا هنا نتحدثُ عن أثرِ هذا التوجُّهِ، ومآلِه في تعميقِ الانكسارِ.

ففي فترةِ طلبِه للعلمِ: تَملَّك البيانَ، واكتسَب قُوَّةَ القلمِ، فتماسكتْ عبارتُه كتابةً، واستقام لسانُه إفصاحًا؛ فراح بهما طائرًا إلى المطابعِ، ومراكزِ الأبحاثِ والدِّراساتِ ليُؤجِّرَ قلمَه، وإلى الشاشاتِ ليُسلِّمَ نفسَه إليها؛ ليتاجرَ بقلمِه وعلمِه، وينظرَ إلى الرائجاتِ من المواضيعِ، المُخالِفاتِ لِما استقرَّ عندَه من الراجحِ، فنشَر ما لا يَعتقِدُ، وطبَع ما لا يَرضَى عنه، وظهَر على شاشةٍ خالَفَها فكرًا ومنهجًا؛ فآلَ إلى تجارةٍ بالعلمِ والأدبِ وقُوَّةِ القلمِ واللِّسانِ!

سيَجْنُونَ أرباحَها عاجلًا فُتاتًا، وستَجنِي الأُمَّةُ على إثرِها مُرًّا وسُمًّا زُعافًا؛ وسِرُّ ذلك أنَّ المُنكَبَّ على تأجيرِ قلمِه يندرُ أن يَخلُصَ قلمُه للتحريرِ، ولسانُه للنَّفعِ؛ إذْ زَيفُ القلمِ وتزويقُ اللِّسانِ المُستشرِفِ لمتاعِ الدُّنيا صادٌّ للقلوبِ عن القبولِ، وللآذانِ عن الإذعانِ. ومِن مأثورِ الحكمةِ ما حكاه سفيانُ الثَّوريُّ رحمه اللهُ: (لا تَكُونَنَّ حريصًا على الدُّنيا؛ تَكُنْ حافظًا).

يا طالبَ العلمِ:

فرقٌ كبيرٌ بينَ مَن حقَّق العلمَ ليكونَ هاديًا للناسِ، وبينَ مَن سوَّد الكلماتِ عادًّا على وزنِها اللُّقَيماتِ؛ فالأولُ مُخلِصٌ قلبُه للعلمِ، والثاني مُحصٍ للأموالِ، وشتَّانَ بينَ مخلصٍ للهِ ومُحصٍ للأموالِ. وعزُّ الدِّينِ وإعلاءُ الشريعةِ لا يأتي إلا بصادقينَ تَمحَّضتْ نيَّاتُهم وغاياتُهم وتوفَّرتْ على إعلائِها.

(١) «ديوان ابن خفاجة» ص١٣٨.

وجِماعُ الأثرِ السَّيِّئِ لذلك:

١- اهتـــزازُ المعنى الأهمِّ والمَقصَدِ الأعظمِ من العلمِ؛ وهو عبادةُ اللهِ، وتعبيدُ الناسِ لربِّ العالمين.

٢- الإرثُ الهشُّ؛ فالقلمُ المُســتعارُ، واللِّسانُ المُستأجَرُ لا يتركُ إلا إرثًا هشًّا، وعلمًــا لا روحَ فيه، مُلِـئ مُمالأةً وحرصًا على الحياةِ الدُّنيا، ولم يكنْ لعزِّ الإســلامِ ولا خلاصِ النَّفسِ أمامَ اللهِ، إلا ما ندَر.

٣- عدمُ الوثوقِ بقلمٍ أجيرٍ؛ فالأُجرةُ قد تمنعُ كمالَ الثَّباتِ، وربَّما أصلَه، ومَن تأمَّل ارتعاشَ الفقهِ، والتناقضَ، وذوبانَ الشخصيةِ العلميةِ الرصينةِ الثابتةِ = يعلمْ يقينًا أنَّ ذلك مَرَدُّه إلى تزاوجِ العلمِ بالدِّينارِ، واختلاطِ قصعةِ الثَّريدِ بأحبارِ العلماءِ.

٤- وَأْدُ المشروعِ العلميِّ لصاحبِ القلمِ، وهذه أشدُّها؛ فكم ضاعتِ المشاريعُ والأفكارُ والدِّراســاتُ الخاصَّةُ بطالبِ العلمِ، ليدفعَ مكانَها دراساتٍ لغيرِه؛ بل يرفعُ خسيسةَ أقوامٍ ليَحُطَّ مِن قدرِ نفسِه وزانَها!

وما أحلَى ما عقَّب به ابنُ بطَّالٍ -رحمه اللهُ- على حديثِ أبي هريرةَ -رضي اللهُ عنه- عن النبيِّ ﷺ، قولُه: «**غَزَا نَبِيٌّ مِن الأنبياءِ، فقال لقومِه: لا يَتبَعْني رجلٌ ملَك بُضْعَ امرأةٍ وهو يريدُ أن يَبنِيَ بهــا، ولمَّا يَبْنِ بها...**»[1]؛ يقولُ: (فلمَّا كان قلبُ الرَّجلِ مُعلَّقًا بابتنائِه بأهلِه، أو ببنيانٍ يخافُ فســادَه قبلَ تمامِه، أو يُحِبُّ الرُّجوعَ إليه ولم يُوثَقْ بثباتِه عندَ الحربِ = فقُطِعتِ الذَّريعةُ في ذلك)[2].

قلتُ: وما أشــبَه العلمَ بالجهــادِ والنفيرِ، وما أحلى هــذه الكلماتِ والقواعدَ

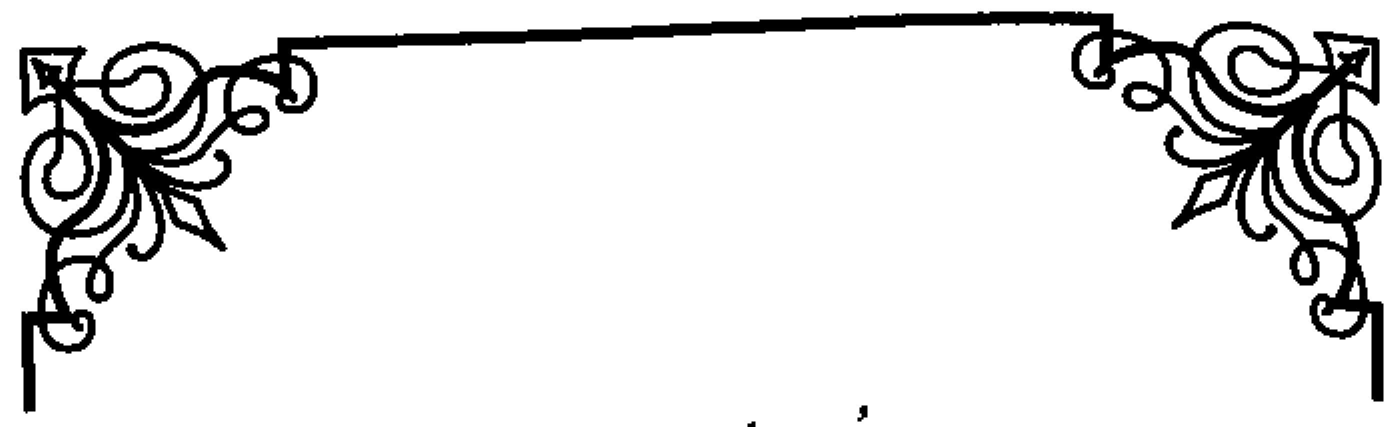
(١) «صحيح البخاري» ٤/ ٢٢٦ رقم (٣١٣٤).

(٢) «شــرح صحيح البخاري» لابن بطال ٧/ ٢٧٧، وانظر: «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن ٢٤/ ٤٩٣.

لتكونَ نِبراسًا لمَن يريدُ خلاصَ قلبِه للعلمِ والدارِ الآخرةِ!

لذا كانــت النصيحةُ البعدَ عن الخلطِ بينَ مقامِ العلمِ والقلمِ، ومقامِ الدُّنيا؛ فإنَّ التقاربَ ضارٌّ بأحدِهما، مُوبِقٌ بشرفِ أغلاها وهو العلمُ، إلا إذا وُجِدتِ الضرورةُ التي قد يدفعُ معَها طالبُ العلمِ مِن نفيسِ علمِه ووقتِه ومشروعِه.

وعلــى طالبِ العلمِ أن يتحلَّى بالثبــاتِ أمامَ طوفانِ المُغرِيــاتِ والمُغيِّراتِ، ويتذكرَ ما كان عليه سلفُ هذه الأُمَّةِ؛ من الصبرِ والزهدِ، وعدمِ المُداهَنةِ، وعدمِ تأجيرِ القلمِ.



سابعًا: الرِّحلةُ والأسفارُ قبلَ غربلةِ الدِّيارِ

لرحلةِ الطلبِ شـرفٌ كبيرٌ، ولمُلتمِسِـه عندَ أهلِه وذويه ممَّن نأَتْ بهم الدِّيارُ فضلُ الرِّحلةِ. لكنْ مِن الأخطاءِ التي لُوحِظـتْ في هذا: أن يبدأَ الطالبُ أمرَه مُغترِبًا، ومِشوارَه نائيًا عن أهلِ بلدِه بلا مُسوِّغٍ.

فسُنَّةُ التلقِّي عندَ السلفِ: أنَّهم يَجُوبونَ البلدةَ التي يَقطُنُون إن لم يكنْ ثَمَّ مانعٌ، ويُثنُّون بمَن يُظَنُّ فيهم الرسوخ.

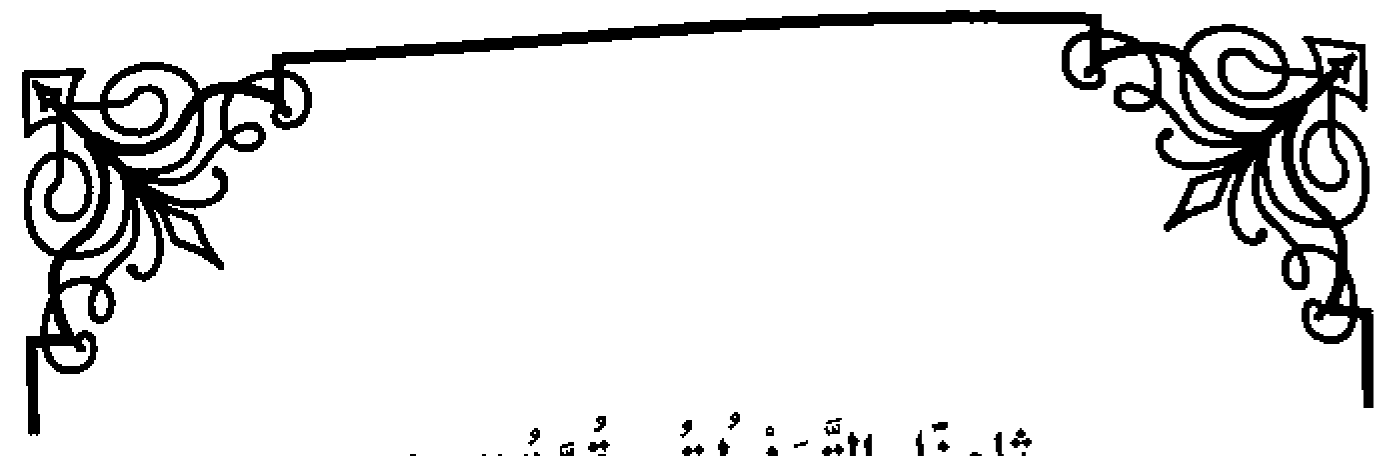
غيرَ أنَّ حالَ بعضِ الناسِ أنَّهم مُولَعون، بل لا يكادون يعترفون إلا بذاكَ العالِمِ البعيدِ غيرِ المُقِيمِ معَهم في سوقِ الحياةِ، فيُعلُون من شأنِ الآفاقيِّ، ويجدون لكلماتِه مشاعرَ وطربًا!

وسرُّ ذلك:

١ - أنَّ أهلَ بلدِه يكونون أقربَ إلى عقليَّتِه ولغتِه وفهمِه، وأسهلَ تناولًا.

٢- أنَّه يذهبُ إلى الموثوقِ منهم بسهولةٍ.

٣- أنَّه تحصلُ الثِّقةُ به وبعلومِه مُستقبَلًا؛ فهو عارفٌ بمذاهبِهم وأفكارِهم.



ثامنًا: التَّمَنْطُقُ وقُوَّةُ الجدَلِ

كان أهلُ العلمِ يَنأَون عن الخوضِ والجدالِ، إلا لفائدةٍ، وبالتي هي أحسنُ، ثُمَّ إنَّهم نهوا عن خوضِ المتعلِّمِ فيه إلا بقدرِ المصلحةِ؛ فإنَّ الانشغالَ عن العلمِ واكتسابَ الضغائنِ والأحقادِ إرثُ الجدالِ واللَّجاجِ، ويصرفُ العبدَ المشتغلَ به عن حقائقِ العلمِ، حتى وإن حصَّل قدرًا من العلمِ والأدبِ؛ فكيف بطالبٍ في مُقتبَلِ عمرِه، ولمَّا تُزهِرْ وردةُ أيَّامِه؟!

يقولُ وليُّ اللهِ الدِّهْلويُّ رحمه اللهُ: (وفتنةُ هذا الجدالِ والخلافِ والتَّعمُّقِ = قريبةٌ من الفتنةِ الأولى، حينَ تشاجَروا في المُلْكِ، وانتصَر كلُّ رجلٍ لصاحبِه، فكما أعقبَتْ تلك مُلكًا عَضُوضًا، ووقائعَ صمَّاءَ عمياءَ = فكذلك أعقبَتْ هذه جهلًا واختلاطًا وشكوكًا ووهمًا، ما لها من أرجاءٍ، فنشأَتْ بعدَهم قرونٌ على التقليدِ الصِّرفِ، لا يُميِّزون الحقَّ من الباطلِ، ولا الجدلَ من الاستنباطِ، فالفقيهُ يومَئذٍ هو الثَّرْثارُ المُتشدِّقُ الذي حَفِظ أقوالَ الفقهاءِ قويَّها وضعيفَها من غيرِ تمييزٍ، وسرَدها بشقشقةِ شِدْقَيْه، والمُحدِّثُ مَن عدَّ الأحاديثَ صحيحَها وسقيمَها، وهذَّها بقُوَّةِ لَحْيَيْه)[1].

الأثرُ السَّيِّئُ المُترتِّبُ على تَقحُّمِ النَّاشئةِ لبابِ الجدالِ:

١- خروجٌ عن جادَّةِ السَّلفِ في التَّحصيلِ:

إذْ جادَّتُهم في ذلك: أن يَبتدِئَ بحسنِ السَّماعِ والتلقِّي للعلومِ، لا شغلِ الرُّؤوسِ

(١) «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» ص٩٥-٩٦.

بالخلافِ.

٢- سببٌ لارتعاشِ فقهِ الطالبِ، وعدمِ وجودِ مسائلَ مُتَّفقٍ عليها في ذهنِه:

لأنَّه ابتدَأ علمَه ناقدًا، وكلما سمع مسألةً بادَر إلى ذهنِه الإشكالُ، فاعتاده وصار له سجيّةً وطبعًا، فكان حظُّ الشُّبهةِ والإشكالِ أعلى من حظِّ قرارِ العلمِ في قلبِه!

يقولُ الغزاليُّ رحمه اللهُ: (فمَن أَلِف طبعُه رسومَ الجدلِ؛ أذعَن ذهنُه لمُقتضَياتِ الجدلِ، وجَبُن عن الإذعانِ لذوقِ الفقهِ، وإنَّما يشتغلُ به مَن يشتغلُ لطلبِ الصِّيتِ والجاهِ، ويَتعلَّلُ بأنَّه يطلبُ عِلَلَ المذهبِ، وقد ينقضي عليه العمرُ ولا يصرفُ هِمَّتَه إلى علمِ المذهبِ)[1].

٣- وأدٌ لعمرِ الطالبِ، وضياعٌ لمشروعِه العلميِّ:

فإنَّ الجدالَ والنِّقاشَ يستغرقُ الأوقاتَ، ويذهبُ بِذِرْوةِ سَنامِ أوقاتِ الصفاءِ الذِّهنيِّ في الرَّدِّ والحشدِ والتعقُّبِ.

تنبيهٌ:

من الظواهرِ التي تُرى مُصاحِبةً لمَن أُوتِي الجدلَ: ما يُلاحَظُ من بعضِ طلابِ العلمِ الذين دبَّ إليهم الولعُ بمجامعِ الناسِ ومجالسِ الحواراتِ التي يحضرُها مَن تَسمَّوا بالمُفكِّرين وأنصافِ المُتعلِّمين، التي تجعلُ الحوارَ لأجلِ الحوارِ والتنظيرَ للتنظيرِ؛ فإنَّ هذه المجالسَ بها نشوةٌ خفيَّةٌ، ورغبةٌ مُتوارِيةٌ تدفعُ بهم إلى حيثُ تُضفَى عليهم الألقابُ، وتتهافتُ إليهم الأبصارُ. وليس هذا صنيعَ الصادقِ؛ فعلى طالبِ العلمِ أن يكونَ سالكًا للمحجَّةِ الواضحةِ، لا يعدلَ عنها، ولا يلتفتَ إلى ما سواها.

(١) «إحياء علوم الدين» ص٥١.

ويغلبُ على هؤلاءِ المُتأهِّبينَ لهذه المجالسِ كونُهم في مُقتبَلِ العمرِ، وبداياتِ مدارجِ التعلمِ والتحصيــلِ، فإقحامُهم في مجالسِ الجدالِ والحواراتِ ومنابرِ التعبيرِ عن الرأيِ = مُؤشِّرٌ خطيرٌ يُنذِرُ بأمرٍ جلَلٍ تستشرفُه الأجيالُ.

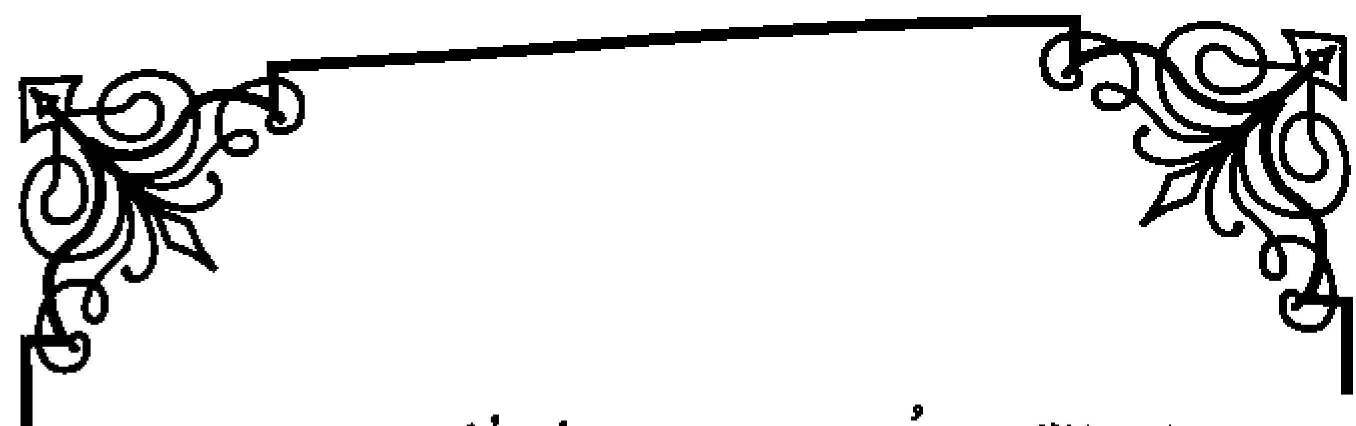
يقولُ الحَجْويُّ رحمه اللهُ: (ومَن تتبَّع تاريخَ مجالسِ المُناظَراتِ العلميةِ التي ينالُ صاحبُ الظُّهورِ فيها رياســةً أو جائزةً أو ظهــورًا = لا يَجِدْها قطُّ جاءت بفائدةِ إظهارِ الحقِّ ومحوِ الخلافِ، بل تكونُ بالعكسِ، فبسببِها يزدادُ الخلافُ تصلُّبًا وثبوتًا؛ إذِ الفصاحةُ والبلاغةُ لا تعدمُ مناســجُها إيجادَ أثوابٍ تُغطِّي وجــهَ الحقِّ إذا دُعِّمتْ بعِيدانِ النُّفوذِ، وطُلِيتْ بطِلاءِ السِّياسةِ، ومُتِّنتْ بأطنابِ الرِّياسةِ والأغراضِ)[1].

والواجبُ على الرَّاغبِ في تحصيلِ العلمِ: أن يجمعَ قلبَه، ويُســدِّدَ بصرَه على مُبتغــاه، ولا ينصرفَ عنه يمنةً ولا يســرةً، ولا يخلطَها بضوضاءِ السياســةِ وباطلِها، ولا خداعِ الإغراقِ فــي الأحداثِ الجاريةِ ولغطِها. قال ســفيانُ الثَّوريُّ رحمه اللهُ: (إنِّي لأَمُرُّ بالحائكِ، فأَسُدُّ أُذُني مخافةَ أن أحفظَ ما يقولُ)[2].

فكيف حالُكَ يا طالبَ العلمِ، وأنت تتوسعُ في الأخبارِ، وفي مُتابَعةِ كلِّ جديدٍ من برامجِها، و (تطبيقاتِها)، و (ضوضائِها) و (إشعاراتها)؟!

(١) «الفكر السامي» ٣/ ١٥٢.

(٢) «سير أعلام النبلاء» ٧/ ٢٥٧.

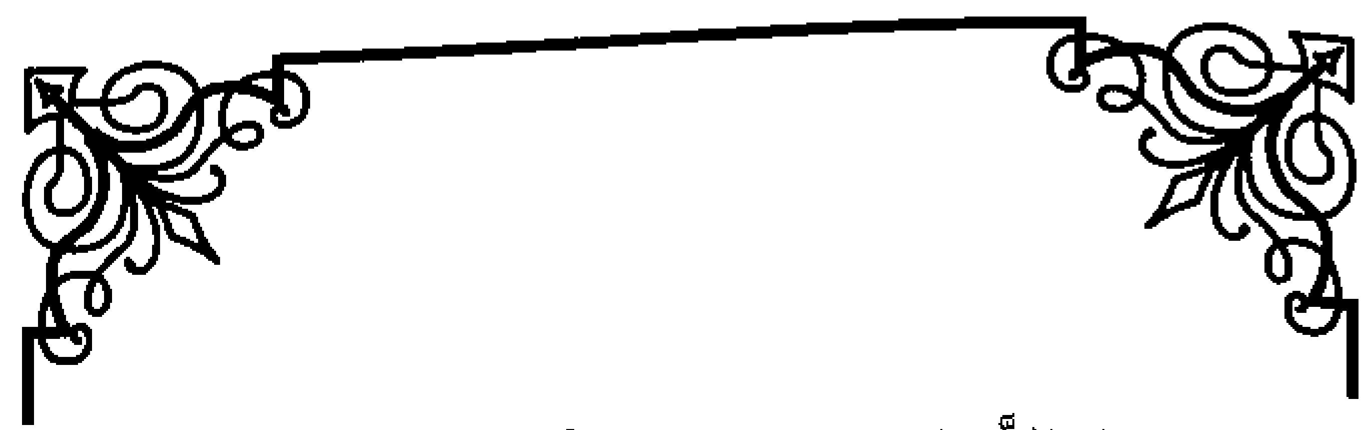


تاسعًا: القراءةُ «الاستعراضيّةُ الأُفُقيّةُ»، والقراءةُ «السُّلَّميّةُ المرحليّةُ»

الأصلُ في سيرِ الطالبِ اتِّباعُ المراحلِ العلميةِ، والترقِّي المرحليُّ في سُلَّمِ الكتبِ، لا القراءةُ «الاستعراضيَّةُ» التي بها يكتسحُ الطالبُ كلَّ ما يجدُه من شروحٍ أو تفاصيلَ قد تُسمَّى أيضًا «القراءةَ الاستقرائيَّةَ»، فهي القائمةُ على استيعابِ ما كُتِبَ وقُرِّر في المتنِ أو الكتابِ، ممَّا يكونُ على حسابِ ما بعدَه من الكتبِ أو الدرجاتِ العليا في مدارجِ العلمِ.

فلا يحسنُ بالطالبِ في أولِ التعلُّمِ أن يقرأَ قراءةً موسوعيَّةً، تأتي على ما قيل في القاعدةِ شرحًا وتمثيلًا ونحوًا وإعرابًا؛ فهذا مُشتِّتٌ لذهنِ الطالبِ حالَ الابتداءِ، ومُوصِلٌ إلى ضياعِ حقيقةِ البابِ والقاعدةِ التي أُورِدتْ في المتنِ.

وإنَّما يَحسُنُ هذا للمُتوسِّطِ والمنتهي، ممَّن أنهَى مرحلةَ التأصيلِ، وشرَع في إكمالِ تعلُّمِه، وذلك بقدرِ ما يُعِينُ على تفهُّمِ المتنِ وإتقانِ الفنِّ ضمنَ إطارِ التدرُّجِ العلميِّ والمنهجيِّ، لا قفزِ المراحلِ وحرقِها.



عاشرًا: الدَّعاوى، ودعوى أنَّ «علومَ الآلةِ تُقسِّي القلوبَ» أُنموذجًا

كثيرًا ما نســمعُ من بعضِ الطُّلابِ والمعتنين بالعلمِ ترديدَ هذه الكلمةِ: (طلبُ علومِ الآلةِ يُقسِّــي القلبَ)! فكم صدَّتْ من طلابٍ عن العلــمِ، وعن التخصُّصِ في بعضِ علومِ الآلةِ؛ فكان حظُّ الطُّلابِ الحذرَ، وقد تصلُ إلى المُعاداةِ!

وهذا شأنُ الدَّعاوى الباطلةِ التي هي أقربُ إلى إشاعةِ المُنكَرِ والمُستنكَرِ، ممَّا تَمُجُّه القلوبُ، وتَعافُه الأذهانُ الصافيةُ. وخطرُ الدَّعاوى أنَّها تنتشرُ لتجدَ مَن يحملُها ويَنفُثُها بينَ الطُّلابِ، لتقرَّ في قلوبِ بعضِهم، وتصبحَ يقينيَّةً يومًا ما.

ومن هذه الدَّعاوى الجائرةِ قولُهم: (إنَّ علومَ الآلةِ تُقسِّي قلوبَ الطُّلابِ)!

ومأخذُ دعوى تقسيتِها للقلوبِ ظنُّهم أنَّ دارسَها:

١- يئولُ أمرُه إلى الجرأةِ على العلومِ والمشايخِ.

٢- لا يظهرُ عليه أثرٌ مســلكيٌّ ظاهرٌ بعدَ القراءةِ والتعمُّقِ فيها، بل ويُقسِّــي القلبَ.

والناظرُ في هذه الدَّعوى، وما صاحَبَها من تثبيطٍ عن بعضِ العلومِ، أو التخصُّصِ فيها = يجدُ سَــيِّئَ أثرِها، وإن ادَّعى مُردِّدُها كونَها نصيحةً للطالبِ للاعتناءِ بالجانبِ المسلكيِّ؛ ذلك أنَّها طعنٌ ضمنيٌّ في علومٍ اهتَمَّ بها السلفُ، وكتَبوا فيها، ودَلُّوا عليها،

وفاقدُها مُنطَوٍ على قصورٍ ظاهرٍ في العلمِ.

مُناقشةُ هذه الدّعوى:

- دعـوى كونِها تئولُ إلـى: «الجرأةِ على العلومِ والمشـايخِ» مردودةٌ غيرُ مقبولةٍ؛ إذْ كلُّ العلومِ قد يُقالُ فيها: (تُجرِّئُ الطُّلابَ)، وهل مِن الجرأةِ ألَّا يُرَدَّ على سابقٍ أو عالمٍ في فنِّه بدعوى التأدُّبِ معَه؟! فالحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ، والباطلُ أَوْلى بأن يُظهَرَ ليحذرَه المتعلِّمُ.
- ودعوى: «عدمِ ظهورِ أثرٍ مَسْـلَكيٍّ ظاهرٍ بعدَ القراءةِ والتعمُّقِ فيها» مبنيٌّ على استقراءٍ خاطئٍ؛ فما من عبدٍ طلَبَ العلمَ، وتعبَّدَ للهِ بطلبِه وتحصيلِه = إلا ظهَر أثرُ ذلك عليه.

والنظرُ هنـا فيمَن يُعلِّمُه هذه العلومَ، وينقلُ إليه هذه المعارفَ؛ فهذا مُؤثِّرٌ جدًّا في تشكيلِ تصوُّرٍ عن هذه العلومِ، وبيانِ أثرِها في مسلكِه العلميِّ والحياتيِّ.

ولعلَّ القسوةَ الناتجةَ عن التعمُّقِ فيها يَنصَبُّ على مَن انتهَض إليها دونَ تأصيلٍ مُتَّزِنٍ مُرْضٍ في «علومِ الغايةِ»، فكان خوضُه في «علومِ الآلةِ» على حسـابِ كثيرٍ من فرائـضِ الدِّينِ وواجباتِ العبوديـةِ، فنقَصتْ هذه الواجباتُ وأنقَـص هذا مِن تديُّنِه وأخلاقِه وسلوكِه، وليس مَن أخطَأ بحُجَّةٍ على مَن لم يخطئْ.

والذي يُنكَرُ هنا هو على الداخلِ فـي علومِ الآلةِ في أوَّلِ الطلبِ، وجعلُها من مهمَّاتِ العلمِ؛ فإنَّه يُحالُ بينَـه وبينَ اللِّينِ والتَّألُّهِ والرِّقَّةِ إلا النادرَ، خلافًا لمَن أمضَى زمنًا في علومِ الغايةِ، معَ تنميةِ الحسِّ التَّعبُّديِّ، فكان ذلك أدعى للتوفيقِ، وأبعدَ له عن الغلظةِ وقلَّةِ الدِّيانةِ.

والواجـبُ على مَن عُنِي بالنَّشْءِ وتربيتِهم: أن يُرقِّيَهم في مدارجِ التعبُّدِ، فينموَ

لديه حسٌّ عباديٌّ ليصطحبَه معَه في حياتِه، لا أن يطلبَ الاجتهادَ رأسًا.

فالقسوةُ هنا لمَن لم يَلِجِ العلمَ من بابِه، ويَمزُجْه بالاجتهادِ في العبادةِ، وإلا فإنَّ العلمَ لم يكنْ يومًا بابًا للقسوةِ، وإنَّما يُقسِّي القلوبَ ويفسدُها أيضًا: المِراءُ والهوى، والتَّفريطُ في العبادةِ، والإسرافُ في المعاصي.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

ويقولُ سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

قال الشَّافعيُّ رحمه اللهُ: (المِراءُ في العلمِ يُقسِّي القلوبَ، ويُورِثُ الضَّغائنَ).

وقال إسحاقُ بنُ عيسى: كان مالكٌ يقولُ: (المراءُ والجدالُ في العلمِ يُذهِبُ نورَ العلمِ من قلبِ الرَّجلِ).

وقال ابنُ وهبٍ: سمعتُ مالكًا يقولُ: (المِراءُ في العلمِ يُقسِّي القلبَ، ويؤثِرُ الضِّغنَ).

وكان أبو شُرَيحٍ الإسكندرانيُّ يومًا في مجلسِه، فكثُرتِ المسائلُ؛ فقال: (قد دَرِنَتْ قلوبُكم منذُ اليوم، فقوموا إلى أبي حُمَيدٍ خالدِ بنِ حُمَيدٍ اصقُلُوا قلوبَكم، وتعلَّموا هذه الرَّغائبَ؛ فإنَّها تُجدِّدُ العبادةَ، وتُورِثُ الزَّهادةَ، وتجرُّ الصَّداقةَ. وأَقِلُّوا المسائلَ إلا ما نزَل؛ فإنَّها تُقسِّي القلوبَ، وتُورِثُ العداوةَ)[1].

ومَن تأمَّل حديثَ عُقْبَةَ بنِ عمرٍو أبي مسعودٍ -رضي اللهُ عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ أشار بيدِه نحوَ اليمنِ، فقال: «الإيمانُ يَمَانٍ ههنا، ألَا إنَّ القسوةَ وغِلَظَ القلوبِ في

(١) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٤٨، تحقيق: الأرناؤوط.

الفَدَّادِينَ عندَ أصولِ أذنابِ الإبلِ، حيثُ يَطلُعُ قَرْنَا الشَّيطانِ، في ربيعةَ ومُضَرَ»[1] = عَلِم أنَّ الانشغالَ بالدُّنيا هو ما يُقسِّي القلوبَ.

يقولُ الخطَّابيُّ رحمه اللهُ: (إنَّما ذمَّهم لاشتغالِهم بمُعالَجةِ ما هم فيه عن أمرِ دينِهم، وذلك يُفضِي إلى قسوةِ القلبِ)[2].

وإذا تعرَّضْنا لذكرِ هذه الدَّعوى؛ كان لا بدَّ من تنبيهٍ على عِلْمينِ زعَم البعضُ فيهما القسوةَ وإفسادَ الطُّلابِ، وهما: علمُ أصولِ الفقهِ، وعلمُ الحديثِ! وهي وإن لم تكنْ مُعلَنةً بالقدرِ الكافي، إلا أنَّ الأُذُنَ تسمعُها بينَ الفينةِ والأخرى، وتشمُّ رائحتَها كثيرًا.

فعلمُ «أصولِ الفقهِ»، زعَم بعضُ المنتسبين إلى العلمِ والتعليمِ أنَّه يُجرِّئُ الناسَ ويصيبُهم بالغرورِ! كذا سَمِعتُها، لكنَّ الحقيقةَ أنَّ الأمرَ ليس كذلك؛ فالمُغترُّ لا يحتاجُ للأصولِ ولا غيرِه من العلومِ؛ إذِ الدَّاءُ من نفسِه.

فإذا أحسَنَ الطالبُ فهمَ هذا العلمِ؛ أمدَّه اللهُ ببابٍ لتأمُّلِ كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، وأحسَنَ النظرَ فيهما، والاستدلالَ بهما، وانتزاعَ الأدلَّةِ وتطبيقَها، بل صار أداةً تُمكِّنُه من حسنِ التدبُّرِ.

والاستفادةُ الحقيقيةُ من علمِ أصولِ الفقهِ تأتي عبرَ طريقينِ:

١- معرفةُ منشأِ القاعدةِ ودليلِها:

وهذا أمرٌ يعطي الثِّقةَ، ويُنشِّطُ الذِّهنَ لضبطِ القاعدةِ؛ فإذا أتقَن أصلَها سهُل عليه -بإذنِ اللهِ- الولوجُ في مضايِقِ الخلافِ وتفاريعِه.

---

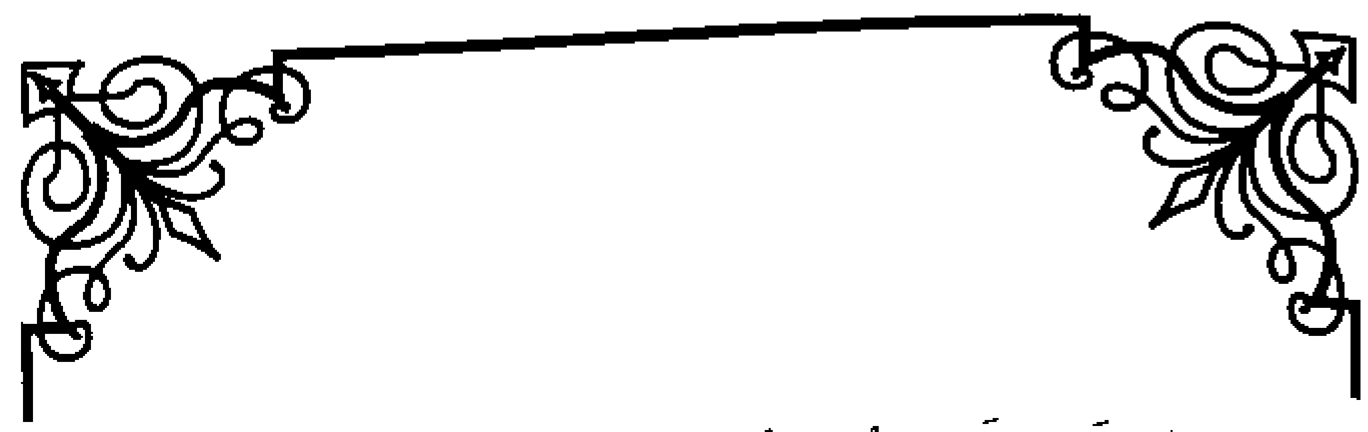
(١) رواه البخاري ٤/ ٣٣٥ رقم (٣٣٠٦)، ومسلم ١/ ٤٠٢ رقم (٤٣).
(٢) حكاه المُناويُّ في «فيض القدير» ٤/ ٤٦٢، نشر: دار المعرفة - بيروت.

٢- التطبيقُ الجيِّدُ لمادَّةِ العلمِ في المسائلِ الفرعيةِ.

وأمَّا «علمُ الحديثِ»؛ فكفَى بالمُشتغِلِ به شـرفًا قراءةُ تراجمِ القومِ وسِيَرِهم، والاطِّلاعُ على حديثِ رسـولِ اللهِ ﷺ، والنَّظرُ في عملِ السلفِ واهتمامِهم بالكتابِ والسُّنَّةِ والاتِّباعِ، وتعظيمُ المنقولِ عن رسولِ اللهِ ﷺ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عليه ﷺ.

وفي تقديري أنَّ الآفةَ سَـرَتْ بتهويلٍ وترديدٍ، توارَثَها البعضُ آثِرِينَ أو ذاكِرِينَ لها، فأعاقَتْهم وصدَّتْ غيرَهم عن التَّعمُّقِ في هذه العلومِ.

وأكثـرُ مَن يُرى مُحذِّرًا منها في الغالبِ ممَّن شـقَّ عليـه تطلابُها وتحصيلُها، أو كان ممَّن التَمَسَها فلم يصلْ إلى غايتِها وفائدتِها التي جعَلتِ السلفَ يُؤلِّفون الكتبَ فيها، ويحضُّون الطُّلابَ على تعلُّمِها.



حادِيَ عشَرَ: رُهابُ الكتبِ العلميةِ المنهجيةِ

رُهابُ الكتبِ العلميةِ المنهجيةِ آفةٌ دبَّت بينَ الطُّلابِ، وأفسَدتْ كثيرينَ ممَّن انتسَبوا إلى طلبِ العلمِ، فكانَ النَّأيُ والهربُ منها إلى ما يُداعِبُ الخاطرَ ويُطرِبُ الذِّهنَ من قصةٍ وفائدةٍ ومُلْحةٍ، ممَّا لا يُنظَمُ في عِقدِ تعليمٍ، أو يَجمَعُ شتاتَها سِلكٌ منهجيٌّ يتدرجُ فيه الطالبُ في مدارجِ العلمِ.

وإذا أنعَمتَ النظرَ في آحادِ المتنسبين إلى الطلبِ؛ وجدتَ أمامَ أعينِهم أسوارًا قد بُنِيتْ لتصيرَ سدودًا هائلةً، مُهمَّتُها الصَّدُّ عن الوصولِ إلى حقيقةِ العلمِ وبلوغِ ملكتِه.

يُشعِلُ فتيلَ رُهابِ الكتبِ العلميةِ ظنونٌ خاطئةٌ يعتقدُها الطالبُ، منها:

١- طموحُه الزائدُ في رؤيةِ نفسِه جوادًا مُسرَجًا، يعدو في مرابعِ الكتبِ بلا إشكالٍ أو عقباتٍ، أو طلبِ إيضاحٍ لاصطلاحٍ.

٢- اعتقادُ أنَّ العقباتِ والإشكالاتِ إنَّما جُمِعتْ له، وأنَّ كلَّ الطُّلابِ والعلماءِ يفهمون كلَّ مواطنِ الكتبِ الصَّعبةِ، ويتصورون الإشكالاتِ العقليةَ والذِّهنيةَ.

٣- تَصوُّرُه أنَّ على المُطَّلِعِ أن يتصورَ جميعَ المسائلِ تصوُّرًا كاملًا، من أولِ قراءةٍ واطِّلاعٍ على الفنِّ.

٤- عدمُ التَّفرقةِ بينَ كتبِ الجردِ وكتبِ الحفظِ والتأمُّلِ.

ولحلِّ الإشكالِ لا بدَّ من:

١- الصبرِ والاعتيادِ:

فإنَّــه لا بدَّ من الاعتيادِ على هذه اللُّغةِ؛ فهي فعــلًا لغةٌ قويَّةٌ، وبها مُصطلَحاتٌ جديدةٌ على المتعلِّمِ، فإذا وطَّن الطالبُ نفسَــه، وتصبَّر؛ اعتادها. فإتمامُ كتابٍ عميقِ المعنى جذلِ المبنى = حسنةٌ تتلوها حسنةٌ، وترفعُ عن القلبِ رُهابَ الكتبِ، وخوفَ عدمِ الفهمِ، وبالصبرِ والعزيمةِ تتيسرُ كثيرٌ من الصِّعابِ.

وممَّا يحدو الطالبَ للصبرِ علــى هذه الكتبِ: أن يعلمَ أنَّ فيها ترويضًا للذِّهنِ وشحذًا له، خاصَّةً ما قصد به ذلك.

وقد أشار إلى ذلك الفخرُ الرَّازيُّ -رحمه اللهُ- في «وصيَّته» قبلَ وفاتِه، فقال: (وأمَّا الكتبُ العلميةُ التي صنَّفتُها، أو اســتكثَرتُ من إيرادِ السُّؤالاتِ على المُتقدِّمينَ فيها؛ فمَن نظَر في شيءٍ منها: فإنْ طابت له تلك السُّؤالاتُ؛ فَلْيَذكُرْني في صالحِ دعائِه على ســبيلِ التفضُّلِ والإنعامِ، وإلا فَلْيَحذِفِ القولَ السَّــيِّئَ؛ فإنِّي ما أردتُ إلا تكثيرَ البحثِ وتشحيذَ الخاطرِ، والاعتمادُ في الكُلِّ على اللهِ تعالى)[1].

٢- التَّدرُّجُ المنهجيُّ:

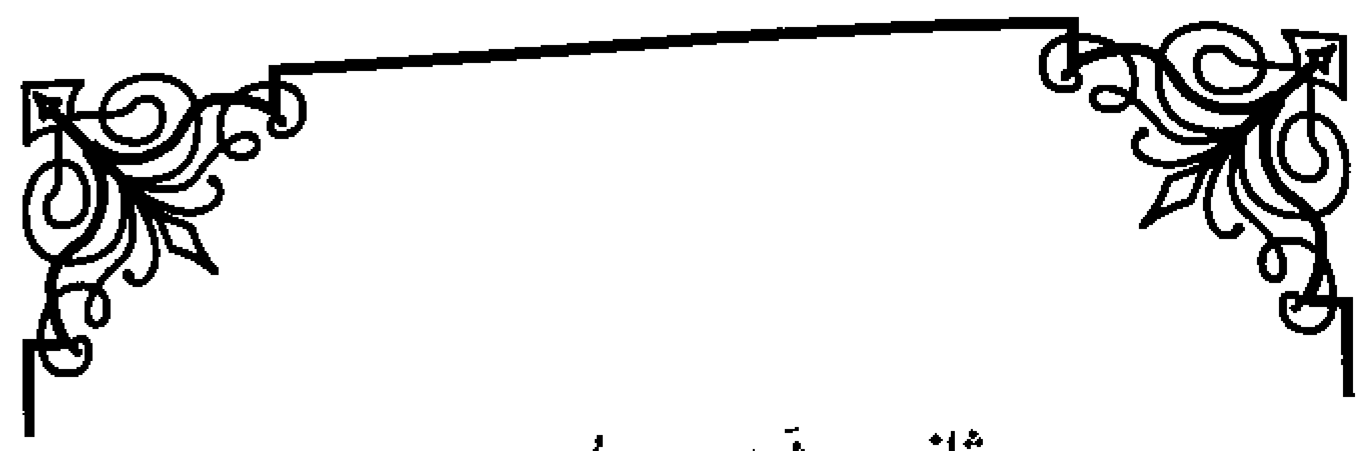
فيبدأُ بالسَّــهلِ منها نحــوَ الصَّعبِ، ويترقَّى من الإجمالِ إلــى التفصيلِ، ومن التَّصوُّرِ إلى التَّصديقِ؛ فإنْ فعَلَ أُعِينَ على فهمِها.

٣- التَّلقِّي على المعلِّمِ:

فبه تُفتَحُ مغاليقُ أبوابِ الفهمِ، ويستنيرُ عقلُ الطالبِ، ويتَّسعُ أُفُقُه، ويحصلُ له الفهمُ الصحيحُ لكلامِ العلماءِ.

---

(١) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ص ٤٦٨.



ثانيَ عشَرَ: وهنُ المُقارَنةِ

الهمَّةُ التي يُنادَى بها طالبُ العلمِ همَّةٌ تنأى به عن البطالةِ، وتعينُه على شـدائدِ التحصيلِ؛ فهي همةٌ نوعيةٌ لا كهمَّةِ الكُســالى من أبناءِ العصرِ، تسـمو به إلى القرونِ الأولى من أهلِ العلمِ.

لكنَّ الناظرَ في الواقعِ يجدُ ما يُكبِّلُ تلك الهمَّةَ يظنُّها البعضُ رافعةً للهمَّةِ، بينَما هي مُثبِّطةٌ نازلةٌ بها! فغَلَبَةُ الجهلِ، والقعودُ عن إدراكِ المعالي كبَّل كثيرين عن سلوكِ طريقِ الفضائلِ والتفرُّدِ في نَيلِها.

وهنـا أحكي مـا وقَع لي في ذلـك؛ إذ كان أوَّلُ أمري الإغراقَ في تتبُّعِ سِـيَرِ المعاصرين وأفرادِ الجيلِ، ونوادرِ ما يُحكَى من أحوالِهم؛ فاطَّلعتُ على أنَّ هذا العالمَ يقومُ الليلَ بكذا، وذاكَ يقرأُ عدَّةَ ساعاتٍ، وثالثٌ اعتزَل الوظيفةَ للتفرُّغِ للعلمِ، ورابعٌ يُصلِّي ركعاتٍ كثيرةً...

فلمَّا فتَح اللهُ عيني على كتبِ التراجمِ؛ إذا بي أُشفِقُ على نفسي وعلى أبناءِ هذا الجيلِ، وكيف لهم أن يُولَعوا بسِـيَرِ المُتأخِّرين وعندَهم شـموسُ الضُّحى وكواكبُ الجوزاءِ؟!

فقرأتُ مثلًا أنَّ عبدَ الغنيِّ المقدسيَّ رحمه اللهُ، صاحبَ «عمدةِ الأحكامِ» كان يُصلِّي بعدَ دخولِ وقتِ الضُّحى ثلاثَمائةِ ركعةٍ إلى قريبٍ من وقتِ النَّهيِ!

وهذا هنَّادُ بنُ السَّـرِيِّ رحمه اللهُ، صاحبُ كتابِ «الزُّهدِ»، حُكِي عنه أنَّه فرَغ

يومًا من القراءةِ لطُلَّابِه، فتوضَّأ، وجاء إلى المسـجدِ، فصلَّى إلى الزَّوالِ في المسجدِ، ثُـمَّ رجَع إلى منزِله فتوضَّأ، وجاء فصلَّى الظُّهرَ، ثُمَّ قام على رجليه يُصلِّي إلى العصرِ، يرفعُ صوتَه بالقرآنِ، ويبكي كثيرًا، ثُمَّ إنَّه صلَّى العصرَ، وأخَذ يقرأُ في المصحفِ، حتى صلَّى المغربَ. ويُقالُ: هذا دَأْبُه منذُ سبعينَ سنةً... وغيرُ ذلك كثيرٌ جدًّا.

فليس من أدبيَّاتِ الهمَّةِ هنا الإغراقُ في (المُقارَنةِ) و (الحثِّ) على تتبُّعِ سـيرةِ أبناءِ هـذا الجيلِ، حتى وإن رُوعِيتْ نوعيَّتُها وتميُّزُها؛ فالهمَّةُ شـيءٌ، والتكبيلُ بأبناءِ العصرِ شـيءٌ آخرُ. فهمَّةُ أبناءِ الجيلِ فاترةٌ قاصرةٌ فـي كثيرٍ من أحوالِها إذا ما قُورنتْ بهممِ السَّلف.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: (وما زالت الهمم تتقاصر، وآل الأمر إلى خلفٍ هم بئس الخلف، فمات العلم)[1] فقائس نفسـه على أبناء جيله إذا أمعن النَّظر فيهم وجد قرنه قد برَّ، فظنَّ نفسه قد حصَّل وجمع وتمكَّن، وما هو إلَّا مجموع الأصفار إذا ما قورن بتحصيل السَّلَف والرَّاسخين.

وقد اقترب من هذا المعنى جدًا الشيخ محمد الخضر حسين إذ يقول:

(لم يقض حقَّ العلمِ، بل لم يدرِ ما شرفُ العلمِ، ذلك الذي يطلبُه لينالَ به رزقًا، أو ينافسَ فيه قرينًا، حتى إذا أدركَ وظيفةً، أو أَنِسَ من نفسِه الفوزَ على القرينِ، أمسكَ عنانَه ثانيًا، وتنحَّى عن الطلبِ جانبًا)[2].

فما أن يعتريَ الطالبَ «وهنُ المُقارَنةِ» بجيلِه، حتى يَحارَ في المتاهاتِ، ويُكبِّلَه ضعفُ المُقارَنِ عن بلوغِ الغايةِ في الرُّسـوخِ، فإذا الضَّعـفُ والرَّكاكةُ قد حلَّا بقلبِ الطالبِ، لينزلَ من رتبةِ الإخلاصِ والهمَّةِ إلى الاغترارِ بما حباه اللهُ من علمٍ، ويسقطُ

(١) «تعظيم الفتيا» ص١٠٧.

(٢) «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين» ٥/ ١/ ١٦١.

في دركِ المُراءاةِ والتَّسميعِ.

لذا فإنَّ من أعظـم الخطرِ الولَعَ بتراجِم المعاصريـن، والنَّأيَ عن إنعامِ النَّظرِ وإقرارِ العينِ بحياةِ الأوائلِ من سـلفِ هذه الأُمَّةِ، ممَّـن حباهم اللهُ التجرُّدَ والصِّدقَ والهمَّـةَ العليَّةَ، التي كان وقودُها محبَّةَ اللهِ، وعزَّةَ هـذا الدِّينِ لا عزَّ الأنفسِ، ونصرةَ الحقِّ لا نصرةَ أنفسِهم.

وإذا كان «الإبداعُ» منوطًا بـ«الاتِّباعِ»، وسلامةُ البناءِ مبنيَّةً على عمقِ الأساسِ = فلا بدَّ إذَنْ من نظرةٍ مُتأنِّيةٍ في الأسوةِ والقدوةِ، ومُعايَرةِ الأسهمِ حذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ على معيارِ السلفِ في عملِهم وتنسُّكِهم؛ فلهم في محرابِ التعبُّدِ أنَّاتٌ وابتهالٌ، وفي ظلامِ اللَّيلِ إقبالٌ، ولهم في العبادةِ دروبٌ، كما أنَّ لهم في العلومِ مسـالكَ وطرقًا، ومُحالٌ أن يُنالَ إبداعٌ في العلومِ غيرُ قائمٍ على اتِّباعِ الأوائلِ في جادَّتِهم، فتعيَّنت الاستفادةُ ممَّا كُتِب في سِيَرِ أعلامِ هذه الأُمَّةِ، لا توهينُ العزائمِ وتكبيلُها بأبناءِ هذا الجيلِ!

نعـم، قد يُوجَدُ هذا الوصفُ في آحادِ المُتأخِّريـنَ، إلا أنَّ الكثرةَ الكاثرةَ على خلافِ ذلك، حتى مَن تميَّز منهم لم يَسـلَمْ من التأثُّرِ بصبغةِ الواقعِ سـلبًا، ومَن تأمَّل ذلك عَلِم.

وإذا كان من المُقرَّرِ أنَّ أغلـبَ الناسِ مُولعونَ بأبناءِ عصرِهم ومصرِهم، حتى كان ذلك جِبِلَّةً في الخلقِ؛ إذْ قد رُكِّب فيهم تقليدُ بعضِهم بعضًا وتأسِّي بعضِهم ببعضٍ = فـكان مِن نُصحِ الطالبِ أن يُروَى فضولُه بنماذجَ حيَّةٍ من عبقِ الماضي، يستنشـقُ عبرَها عبيرَ أنفاسِ السـلفِ، وحينئـذٍ فلا بدَّ له من اتِّخاذِ قـدواتٍ يرى جهادَهم في الطلبِ، ثم جهادَهم في العملِ والتعليمِ؛ فتُثارُ لديه مكامنُ الاقتداءِ.

فكلامُهم أقربُ إلى الحكمةِ، وعندَهم من إدراكِ العلومِ ما ليس لعصرِنا، ولهم من حُسـنِ التعبيرِ ما لم يصلْ إليه المعاصرون، وإذا أرَدْنا أن نسـتثنيَ شيئًا من ذلك؛

فليكنْ شيئًا قليلًا مُعِينًا على التأسِّـي والهمةِ، ممَّن ذاعت أخبارُهم من العلماءِ الذين شُهِد لهم بالاتِّباعِ والتمكُّنِ والنَّهمِ في الطَّلبِ؛ ذلك أنَّ تأثُّرَ الطُّلابِ في الجملةِ خاصَّةً مَن هم في أولِ الطلبِ بمَن يشاهدونه ويتعلمون منه، وحينئذٍ يُفتَحُ لهم بابٌ يسيرٌ من الاطِّلاعِ على سِـيَرِهم؛ إذْ إنَّ تأثُّرَهم بالأحوالِ والأعمـالِ أبلغُ من الاقتداءِ بالأقوالِ المُجرَّدةِ المرويَّةِ، ثُمَّ يُرقَّى بهم في الاطِّلاعِ على سيرِ القومِ وكيف كانت أحوالُهم.

وَمضةٌ:

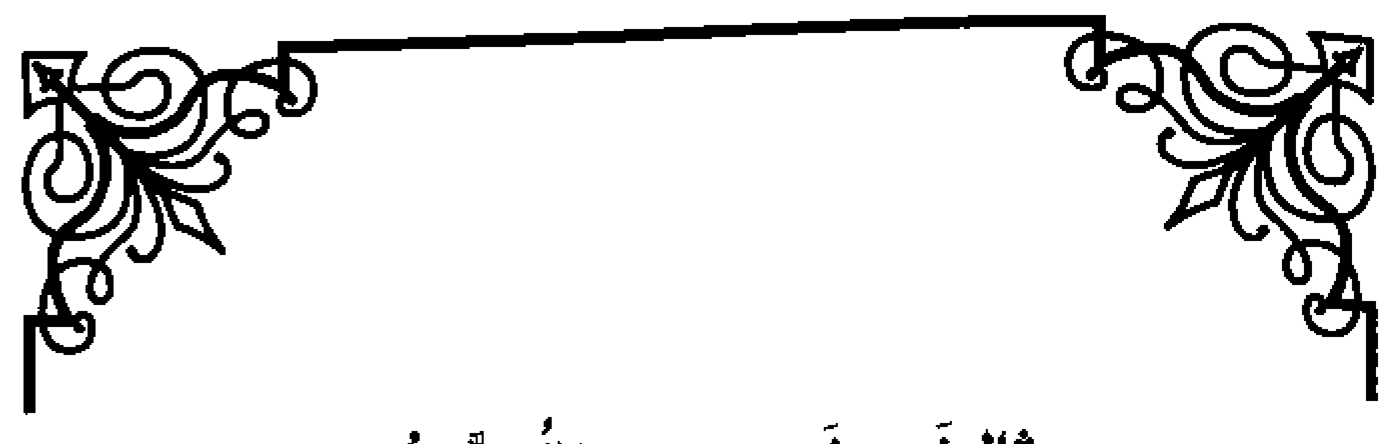
يقولُ ابنُ الجوزيِّ رحمه اللهُ: وأعوذُ باللهِ من سِـيَرِ هؤلاء الذين نعاشـرُهم! لا نرى فيهم ذا همَّةٍ عاليةٍ فيقتديَ بها المبتدي، ولا صاحبَ ورعٍ فيستفيدَ منه الزاهدُ.

فاللهَ اللهَ، وعليكم بمُلاحَظةِ سِـيَرِ السـلفِ، ومُطالَعةِ تصانيفِهم وأخبارِهم؛ فالاستكثارُ من مُطالَعةِ كتبِهم رؤيةٌ لهم، كما قال:

فاتَنِي أن أرى الدِّيارَ بطَرْفي   فلعلِّي أرى الدِّيارَ بسَمْعي[1]

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي ص٤٤٨-٤٤٩.



ثالثَ عشَرَ: منهجيّةُ التّذوُّقِ

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾، فلا بدَّ من التلقِّي على العالمِ لبلوغِ العلمِ، فيلزمُ مَن شهد له العلماءُ بالتمكُّنِ، وليس شأنُ العلمِ بأن يلتحقَ الطالبُ بمعلِّمٍ يقرأُ عليه زمنًا يسيرًا يقتبسُ منه معلوماتٍ، ويُحصِّلُ عليه بضعَ مسائلَ؛ إثباتًا للِّقاءِ والتلمذةِ! فليس هذا بمُلازِمٍ له على الحقيقةِ، بل هو الطالبُ الذَّوَّاقُ يتذوقُ الأساليبَ ويَستكنِهُ المجالسَ! فهو وإن نال عدَّةَ مسائلَ أو أبوابٍ من العلمِ؛ فأين هو والاستفادةُ من سمتِه وهديِه ومهارتِه؟!

فالقاعدةُ العامَّةُ، والحكمُ الأغلبُ: أنَّ كلَّ مَن تخرَّج على شيخٍ؛ لا بدَّ أنَّه قد اقتبَس شعبةً من هديِه وسمتِه وأخلاقِه، فضلًا عن علمِه، والمتذوِّقُ يفوتُه الكثيرُ من هذا.

ومن آفاتِ التذوُّقِ: تسرُّبُ الأغلاطِ والأفهامِ الخاطئةِ، خاصَّةً في مُشكِلِ المسائلِ. وهذا مردُّه إمَّا إلى قصورٍ في الملازمةِ لأهلِ الرسوخِ، أو ملازمةِ غيرِ الراسخين ممَّن لم يتأهلوا على العلماءِ.

فملازمةُ العالمِ لا تكونُ يومًا واحدًا في أسابيعَ مُتباعِدةٍ من عامٍ واحدٍ، بل يختلطُ به كثيرًا، ويسمعُه، ويتفاعلُ معَه بحثًا ونقاشًا، حتى يستوعبَ معالمَ فقهِه، فيصلَ الطالبُ لدرجةِ التنبُّؤِ بجوابِ الشيخِ وشرحِه قبلَ نُطقِه، وهذا قد يُسمَّى: (الإلمامَ بطريقتِه).

يقولُ فخـرُ الدِّينِ الرَّازيُّ رحمه اللهُ: (أمرُ التعلُّمِ لا يتأتَّى في جلسـةٍ واحدةٍ، ولا يتـمُّ في الخُفْيةِ، بل التعلُّمُ إنَّما يتمُّ إذا اختلَفَ المتعلِّمُ إلى المعلِّمِ أزمنةً مُتطاولةً، ومُدَدًا مُتباعِدةً)[1].

وعن أهميةِ الملازمةِ، والحرصِ على اتِّصالِ المسـائلِ، فقد ذكَر ابنُ خَلْدُونَ، وتابَعَه ابـنُ الأزرقِ، والقِنَّوجـيُّ -رحمهم اللهُ- ناصحينَ للمعلِّـمِ: (ينبغي لكَ أن لا تُطـوِّلَ على المتعلِّمَ في الفنِّ الواحدِ بتفريقِ المجالسِ وتقطيعِ ما بينَها؛ لأنَّه ذريعةٌ إلى النِّسيانِ، وانقطاعِ مسائلِ الفنِّ بعضِها من بعضٍ؛ فيعسرُ حصولُ الملكةِ بتفريقِها. وإذا كانت أوائلُ العلمِ وأواخرُه حاضرةً عندَ الفكرةِ، مُجانِبةً للنِّسيانِ = كانت الملكةُ أيسرَ حصولًا، وأحكمَ ارتباطًا، وأقربَ صبغةً؛ لأنَّ الملكاتِ إنَّما تحصلُ بتتابعِ الفعلِ وتكرارِه، وإذا تُنُوسِـيَ الفعلُ تُنُوسِيتِ الملكةُ الناشئةُ عنه، واللهُ علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون)[2].

وبعدَ أن تيسَّـرت سـبلُ الاتصالِ، يسـتطيعُ أن يحصلَ على أشرطةٍ وشروحِ العلماءِ عبرَ شبكةِ المعلوماتِ (الإنترنت)، بل ويتفاعلَ معَه -عبرَ البثِّ المباشرِ مثلًا- وإنْ نأتِ الدِّيارُ.

فالحديثُ -إذَنْ- عن ملازمةِ المعلِّمِ لا تذوُّقِه، والمكوثِ معَه لا إثباتِ اللِّقاءِ والمعاصرةِ التـي يتحدثُ عنها المُحدِّثون في التراجمِ والرِّواياتِ. ففرقٌ بينَ مَن جاء مُثبِتًـا اللِّقاءَ والحضورَ، وبينَ من جاء توصُّلًا إلى نيلِ مـا علَّمه اللهُ إيَّاه. وحريٌّ بمَن صدَق فـي ذلك، وأتى ليتحملَ عن المعلِّمِ ما اختَصَّه اللـهُ من فهمٍ وأدبٍ وعلمٍ: أن يُهدَى، ويُورِثَه اللهُ الفهمَ والأدبَ المنشودَ، والعلمَ النافعَ.

---

(١) «مفاتيح الغيب» ٢٠/ ٢٧٢.

(٢) انظر: «المقدمة» ٢/ ٣٤٨، و«بدائع السلك» لابن الأزرق ٢/ ٧٦٣-٧٦٤، و«أبجد العلوم» ص٧٣.

تنبيهٌ:

أَمَـا وإذْ تَمَّ التنبيهُ على الحذرِ من منهجيةِ التـذوُّقِ، وعدمِ المُكثِ معَ المعلِّمِ لإحـكامِ العلمِ والإفادةِ = فلا بدَّ من التنبيهِ على مسـألةٍ هامَّةٍ، وهـي: تغييرُ المعلِّمِ، والدِّراسةُ على شيخٍ آخرَ، إذا تَمَّ المقصودُ أو قلَّت الإفادةُ منه.

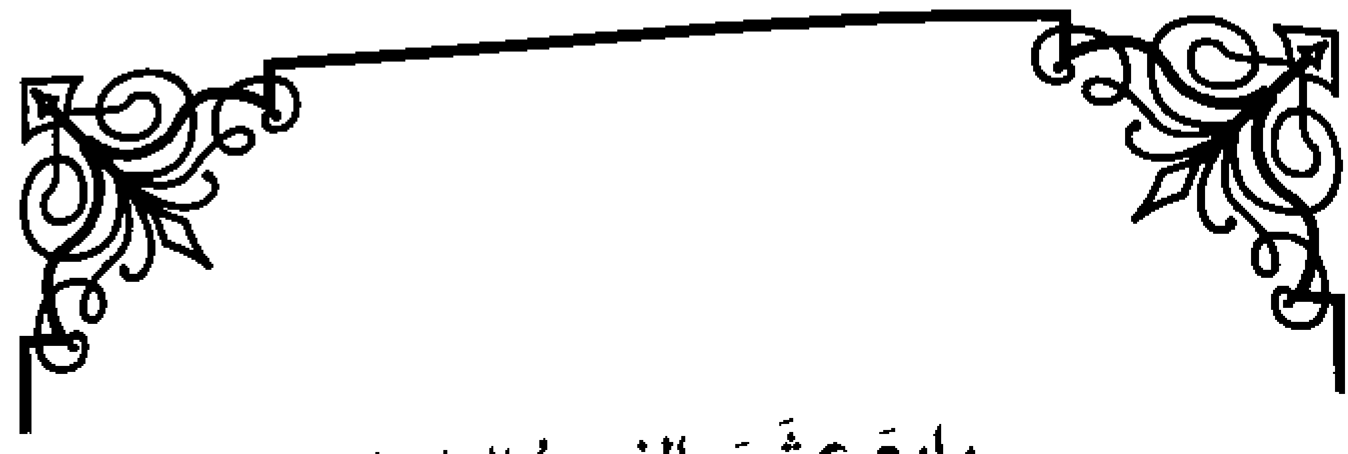
وهـذا أمرٌ مِن أهمِّ الأمورِ التـي يجبُ التنبُّهُ لها في مـدارجِ العلمِ؛ فأيُّ فائدةٍ تُرتجَى من إكمالِ العلمِ على مَن ظهَر قصورُه، معَ توفُّرِ البدائلِ عنه؟!

فكما أنَّ منهجيةَ التذوُّقِ وعدمِ المكثِ مظنَّةُ أغلاطٍ؛ فكذلك لزومُ شيخٍ واحدٍ وطريقةٍ واحـدةٍ في العلمِ مظنَّةُ أغلاطٍ كبـارٍ، يعرفُ هذا جيِّدًا مَـن نوَّع المدارسَ، والمشايخَ، والكتبَ.

ذكر شـيخُ الإسلامِ -رحمه اللهُ- مسألةً فقهيةً، ثُمَّ أورَد بعدَها تذييلًا لها يرشدُ المُطَّلِعَ على المقصودِ، ويُرقِّي فهمَه لمعرفةِ سِرِّ الفقهِ في الدِّينِ، فقال: (مَن لم يعرفْ إلا قولَ عالمٍ واحدٍ وحُجَّتَه، دونَ قولِ العالمِ الآخرِ وحُجَّتِه؛ فإنَّه مِن العوامِّ المُقلِّدينَ، لا مِن العلماءِ الذين يُرجِّحون ويُزيِّفون، واللهُ تعالى يهدينا وإخوانَنا لِما يحبُّه ويرضاه، وباللهِ التَّوفيقُ)[1].

ومعنى «يُزيِّفون»: يُظهِرون فسادَ الأقوالِ والمذاهبِ الخاطئةِ.

(١) «مجموع الفتاوى» ٣٥/ ٢٣٣.



رابعَ عشَرَ: الغرورُ العلميُّ

سُـــكنَى بَيْداءِ الوهمِ، وحُلمُ التحليقِ قصَما ظهورَ المُبدِعينَ من طلابِ العلمِ! ما إن يَنظِمَ عبارةً مُستحسَنةً حتى يتسربَ إليه غرورٌ علميٌّ.

يبدأُ الغرورُ نواةً ضعيفةً تتخفى، حتى إذا وجَدتْ غذائها من ثناءٍ وأتباعٍ فإذا بها تنمو وتستشري وتتسربُ في مكامنِ النَّفسِ ودواخلِها، وتتحكمُ في الداخلِ والخارجِ من أقوالٍ وأعمالٍ وألحاظِ العيونِ!

وانظرْ لهذا النَّصِّ الذي يشـــفي عِيَّ النفوسِ، مِن جميلِ مقولِ الإمامِ الشـــافعيِّ رحمه اللهُ: (اعلَمُوا أنَّ العلمَ والحصافةَ لا تُبطِرُه المنزلةُ الرفيعةُ، ولا تُعجِبُه نفسُه بالعزِّ الكاملِ؛ كالجبلِ لا يتزعزعُ، وإنِ اشـــتَدَّتْ به الرِّياحُ العواصفُ. والخفيفُ السَّخيفُ مِن الناسِ تُبطِرُه أدنى منزلةٍ يصيرُ إليها، وأيسرُ ولايةٍ ينالُها؛ فهو مثلُ الحشيشِ تُحرِّكُه أضعفُ الرِّياحِ)(١).

ومَـــن تأمَّلَ حالَ كثيرٍ مـــن مُتفقِّهي زمانِنا، ممَّن جمَعَ كتابًـــا واثنينِ في فنٍّ من الفنونِ، أو أُثنِي عليه = فلا يلبثُ إلا أن تراه لابسًا ثوبَ التحقيقِ العلميِّ، مُلتحِفًا بثوبِ ليس ثوبَه، يُزعَمُ فيه أنَّه فقيهُ البلدةِ وعالِمُها، وتراه لا يُحسِنُ أن يُفرِّقَ بينَ مصطلحاتِ العلمِ المختلِفةِ!

تَغُرُّه الأقاويلُ، ويُخدَعُ بالتهويلِ، ولا يُحسِنُ تصوُّرَ المسائلِ، أو يتصورُها على

---

(١) «الأخبار والفوائد» لابن حمكان الهمَذاني ص١٤٠، رقم (٣٠).

غيرِ وجهِها! فمَثَلُ سَيْرِه في العلمِ كطائرٍ بجناحٍ مُستعارٍ، فهو واقعٌ لا محالةَ، ولا يدري أهو واقعٌ على أرضٍ سَبِخَةٍ أم في نهرٍ.

فتـرى تقريراتٍ عِجابًا، وأحكامًا غِلاظًا شـدادًا، وأدهـى ذلك وأمرُّه دعوى الملكةِ العلميةِ والبصيرةِ بما لم يَنَلْ!!

وتأمَّلْ عبارةَ أبي القاسـمِ الآمِـديِّ (ت٣٧٠) رحمه اللـهُ، إذْ يقولُ: (لعلَّكَ -أكرَمـكَ اللهُ- اغترَرتَ بأنْ شـارَفتَ شـيئًا من تقسـيماتِ المنطـقِ، وجُمَلًا من الكلامِ والجدالِ، أو علمتَ أبوابًا من الحـلالِ والحرامِ، أو حفظتَ صدرًا من اللُّغةِ، أو اطَّلعـتَ على بعضِ مقاييسِ العربيةِ، وأنَّكَ لمَّا أخذتَ بطرَفِ نوعٍ من هذه الأنواعِ مُعاناةً ومُزاوَلةً ومُتَّصِلَ عنايةٍ، فتوحَّدتَ فيه وميَّزتَ - ظننتَ أنَّ كلَّ ما لم تُلابِسْـه من العلومِ ولم تُزاوِلْه يجري ذلك المجـرى، وأنَّكَ متى تعرَّضتَ له، وأمرَرتَ قريحتَكَ عليه نفَذتَ فيه، وكشَفتَ عن معانيه.

هيهاتَ! لقد ظننتَ باطلًا، ورُمتَ عسـيرًا؛ لأنَّ العلمَ -أيَّ نوعٍ كان- لا يُدرِكُه طالبُـه إلا بالانقطاعِ إليه، والإكبابِ عليه، والجدِّ فيه، والحرصِ على معرفةِ أسـرارِه وغوامضِـه، ثُمَّ قد يتأتَّى جنسٌ من العلومِ لطالبِه ويَسـهُلَ، ويمتنـعُ عليه جنسٌ آخَرُ ويَتعذَّرُ؛ لأنَّ كلَّ امرئٍ إنَّما يتيسرُ له ما في طبعِه قبولُه، وما في طاقتِه تعلُّمُه.

فينبغـي -أصلَحكَ اللـهُ- أن تقفَ حيثُ وُقِـفَ بكَ، وتقنعَ بما قُسِـمَ لكَ، ولا تتعدَّى إلى ما ليس من شأنِكَ ولا مِن صناعتِكَ)[1].

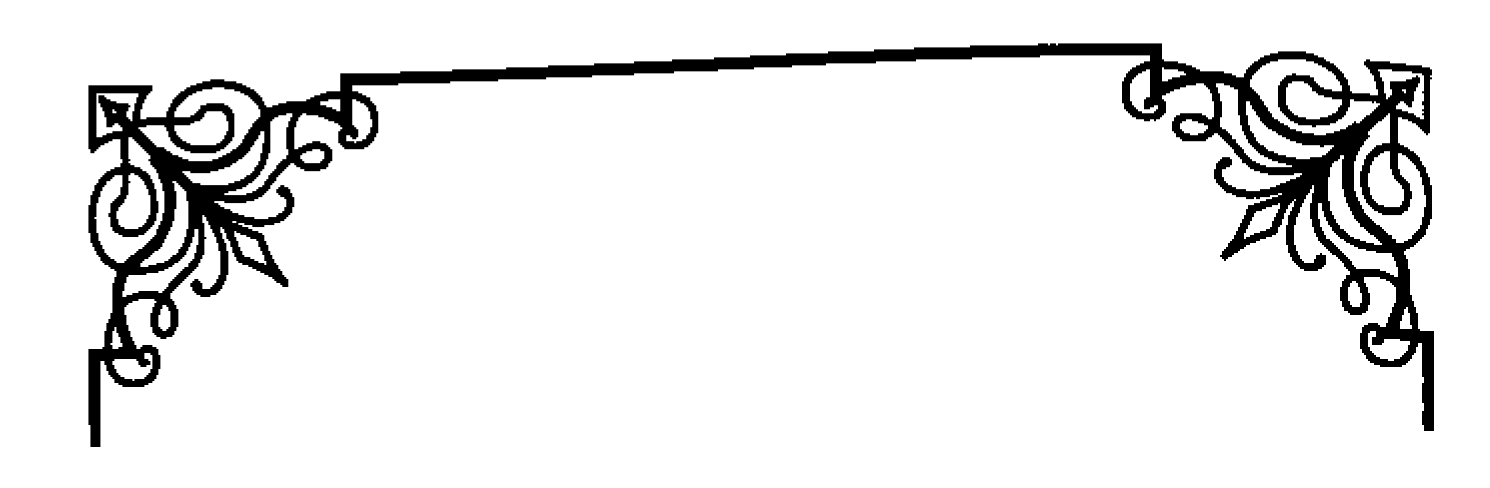


(١) «الموازنة بين أبي تمام والبحتري» لأبي القاسم الآمِدي، ص١٧٠-١٧١.

المهاراتُ الذِّهنيَّةُ لطالبِ العلمِ

(العلومُ ما دُوِّنَــتْ إلَّا لترقيةِ الأفكارِ، وصقلِ مرائي العقولِ، وبمقدارِ ما يفيدُه العلمُ من ذلك ينبغي أن يُزادَ في اعتبارِه، فما القصدُ من كلِّ علمٍ إلا إيجادَ الملكةِ)

[الطَّاهرُ ابنُ عاشورٍ رحمه اللهُ]



يرتكزُ تكوينُ الذِّهنيَّةِ العلميَّةِ لطالبِ العلمِ على جهدٍ خاصٍّ له، ودَورٍ للمعلِّمِ. وفي أولِ مــدارجِ التعلمِ يَتمحَّضُ الدَّورُ للمعلِّمِ، ثم يكــونُ الجهدُ خالصًا للطالبِ؛ لينتهضَ لصقلِ شخصيتِه العلميةِ، وينحتَها بنفسِها، وكذلك الحالُ في تفنُّنِه وتخصُّصِه في العلمِ.

دندن المُربُّون والمُختصُّون أنَّ دورَ المعلِّمِ في التعليمِ يبلغُ (٢٠٪)، وأنَّ الجهدَ الخاصَّ بالطالبِ يصلُ إلى (٨٠٪)، ومعَ ذلك فمرحلةُ الدِّراسةِ على المعلِّمِ مِن أولى المهماتِ في فتقِ الذِّهنيةِ العلميةِ وتعبيدِ الطريقِ إليها، ومعَه، وبه تنقدحُ شرارةُ العقلِ، ويتدرجُ في صناعةِ التفكيرِ والاستنباطِ والبحثِ العلميِّ وغيرِها من المهاراتِ.

وليس المرادُ بــدَورِ المعلِّمِ هنا ما كان مُقتصِرًا علــى التلقينِ المُجرَّدِ، فذلك لا يعدو أن يكونَ استنساخًا لمادَّةٍ مُسطَّرةٍ في كتابٍ أو عقلِ أستاذٍ، وإن كان مفيدًا في بعضِ المراحلِ الأوَّليَّةِ؛ إذِ الارتقاءُ بذهنيَّــةِ الطالبِ هو الأصلُ والمُعوَّلُ، فهي مناطُ الفِكرِ، وعلَّةُ الإدراكِ، وهي وقودُ الدارسِ أينما حلَّ وارتحل، وهي عمادُ صفةِ المُفتِي والمجتهدِ؛ فقد عدَّ ابنُ الصَّلاحِ -رحمه اللهُ- من شروطِ المفتي كونَه: (سليمَ الذِّهنِ، رصينَ الفكرِ، صحيحَ التصرُّفِ والاستنباطِ، مُتيقِّظًا)[1].

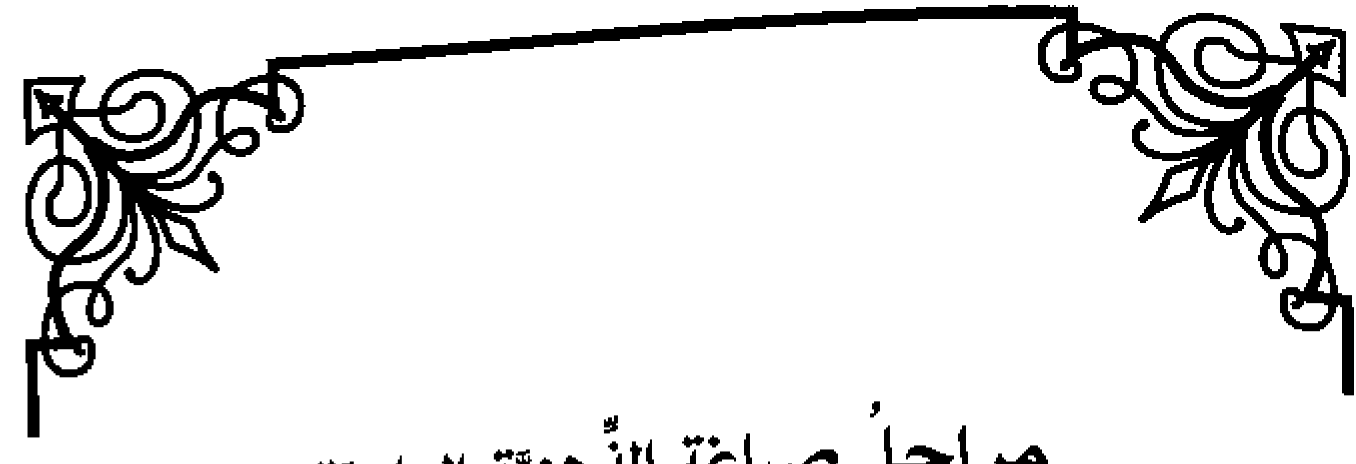
ويقولُ ابنُ عاشــورٍ رحمه اللهُ: (العلومُ ما دُوِّنــتْ إلا لترقيةِ الأفكارِ، وصقلِ

(١) «أدب المفتي والمستفتي» ص٨٦.

مرائـــي العقولِ، وبمقدارِ ما يفيدُه العلمُ من ذلك ينبغي أن يُزادَ في اعتبارِه، فما القصدُ من كلِّ علمٍ إلا إيجادَ الملكةِ التي استُخدِم لإصلاحِها)[1].

والمنهجيةُ التي نســلكُها هنا: التركيزُ على المهــارةِ، والإفاضةُ حيثُ تُرتجَى الفائدةُ للمُطَّلِعِ من طلابِ العلمِ.

(١) «أليس الصبح بقريب؟» ص١٥٣.



مراحلُ صياغةِ الذِّهنيَّةِ العلميَّةِ

قبلَ الخوضِ في المهاراتِ الذِّهنيةِ المختلِفةِ، لا بدَّ من التنبيهِ على وظيفةٍ لكلِّ مرحلةٍ من مراحلِ التعلُّمِ، تعينُ معرفتُها على الاستفادةِ من هذه المهاراتِ المختلِفةِ.

المرحلةُ الأولى: إنماءُ الاستعداداتِ والميولِ في مرحلةِ «التأصيلِ العلميِّ»:

الحديثُ عن المنهجياتِ التأسيسيةِ لطالبِ التأصيلِ العلميِّ حديثٌ عن مدارجَ تَتفرَّعُ بسالكِها، وسبلٍ تَتشعَّبُ بمُجتازِها، فكان لا بدَّ من النظرِ الجادِّ على أيِّ الأراضي يسلكُها المُجتازُ، وعلى أيِّ أرضٍ يُنيخُ الرَّحلَ؛ فالعلمُ دروبٌ وفنونٌ، قد تُلائِمُ بعضَ الطِّباعِ، وقد يُصَدُّ عنها آخرون، فكانت الإشارةُ بـ «احترامِ الاستعداداتِ والميولِ».

وما من مُتعلِّمٍ إلا وتبدو ميولُه واستعداداتُه في أوَّلِ مجالسِ الطلبِ، يستشرفُ منها المعلِّمُ مَطلِعَ شمسِه، حتى إذا أنهَى هذه المرحلةَ التأصيليةَ يكونُ قد أحسَّ الطالبُ من نفسِه، ودَلَّه مُعلِّمُه على مجالِ الإبداعِ في ذهنيَّتِه وشخصيَّتِه العلميةِ؛ ليعتنيَ بها ويرقى في بحرِ العلومِ التي تُوافِقُ ذهنَه و (تركيبةَ عقلِه).

ففيها تبدو ملامحُ عقليّاتٍ شتَّى: العقليةُ الناقدةُ، والعقليةُ التلقينيةُ الحافظةُ، والعقليةُ التحليليةُ، والعقليةُ الاستنباطيةُ، وغيرُها.

فإذا درَج المتعلِّمُ فيما يُحسِنُ، بعدَ خوضِه مرحلةَ التأصيلِ العلميِّ؛ كان عليه

التماسُ التقويمِ والإعانةُ بالخبرةِ والنُّصحِ، وبذلك تعلو نفسيَّةُ الطالبِ، ويُقبِلُ بحُبٍّ ونَهَمٍ على الرُّقِيِّ، ويكونُ سَيْرُه مأمونًا؛ حيثُ إنَّه قد ولَج فيما يوائمُ طبعَه.

وأسعد الطلاب من وفق للولوج فيما يتواءم مع طبعه وعقله، فقد ذكر أحمد بابا التنبكتي حال الشريف أبي عبد اللَّه التلمساني مع طلابه فقال: (يترك كل أحد وما يميل إليه من العلوم، ويرى الكل من أبواب العادة، ويقول: من رزق في باب فليلازمه)[1].

المرحلةُ الثّانيةُ: النّقاشُ العلميُّ، واستثمارُ مادّةِ العلمِ في مرحلتَي: «استكمالِ التّكوينِ»، و«البحثِ العلميِّ»:

تَحمُّلُ العلمِ شيءٌ هامٌّ وركيزٌ، لكنَّ الأهمَّ حسنُ استثمارِه، وتطبيقُه واستعمالُ مادَّتِه في المسائلِ والنَّوازلِ.

وهنا يأتي دَورُ المُذاكَرةِ العلميةِ، وجلساتُ النِّقاشِ في الفنِّ، ويُستعانُ في ذلك بالمعلِّمِ والسابقين في الطلبِ والأقرانِ.

ومِن جميلِ ما كان يسلكُه بعضُ أهلِ العلمِ في مجالسِهم: أنَّه كان يُورِدُ إشكالًا في مسألةٍ ما، ويطلبُ من الطالبِ أن ينصرَها ويستدلَّ لها، ويَتناقَشانِ في ذلك، ثمَّ يطلبُ منه أيضًا أن يقومَ بدَور المُخالِفِ فيها وينصرَ رأيَه، ويتعقَّبَ تعقُّبًا علميًّا، ويُورِدَ بأحسنِ عبارةٍ ما يراه، مُستعمِلًا مادَّةَ العلمِ والأصولَ والقواعدَ وعلومَ الآلةِ التي أتقَنَها.

وهذا الاستعمالُ في الحقيقةِ هو مقصودٌ عظيمٌ، يُحقِّقُ غايةً نفيسةً باستعمالِ مادَّةِ العلمِ، والبعدِ عن تجميدِ مسائلِه.

(١) «نيل الابتهاج بتطرير الديباج»، ص٤٣٥.

قد نلمـــسُ هذا المعنى الذي ندندنُ حولَه في عبارةِ محمدِ بنِ الحســنِ رحمه اللهُ، إذْ سُئل: كيف يكونُ من أهلِ الاجتهادِ؟ فقال: (أن يعرفَ وجوهَ المسائلِ، ويُناظِرَ أقرانَه إذا خالَفوه)[1].

والنِّقاشُ المعنيُّ هنا: ما كان منوطًا به صناعةُ الذِّهنيَّةِ وإثراؤُها، وليست قضيةً يُــرادُ منها الوصولُ إلى أحدِ جنبتَيِ الرأيِ. فإذا اســتقرَّ هذا المعنى؛ كان على المعلِّمِ ألَّا يُســرِعَ إلى التخطئةِ والصَّدِّ، بــل يفتحَ المجالَ لإعمالِ الفِكرِ وإثــارةِ الذِّهنِ، ثمَّ يتولَّى توجيهَه وإرشادَه، وإعطاءَه معنى الثباتِ على الطلبِ، وتقويةَ قلبِه في استعمالِ الأصولِ وعلومِ الآلةِ التي حصَّلها في العلومِ المختلِفةِ؛ فبهذا التشجيعِ والتثبيتِ ينتفعُ الطالبُ، ويتوقَّدُ ذهنُه.

قال عمرُ بنُ عبد العزيزِ رحمه اللهُ: (رأيتُ مُلاحاةَ الرِّجالِ تلقيحًا لألبابِهم).

وقال أيضًا: (ما رأيتُ أحدًا لاحَى الرِّجالَ إلا أخَذ بجوامعِ الكَلِمِ).

وقال يحيى بنُ مُزَينٍ رحمه اللهُ: (يريدُ بالمُلاحاةِ ههنا: المُخاوَضةَ، والمُراجَعةَ على وجهِ التعليمِ والتفهُّمِ، والمُذاكَرةَ، والمُدارَسةَ، واللهُ أعلمُ)[2].

يقولُ أبو محمدٍ ابنُ حزمٍ رحمه اللهُ: (ولقد انتفعتُ بمحكِّ أهلِ الجهلِ منفعةً عظيمةً؛ وهي أنَّه توقَّد طبعي، واحتدَم خاطِري، وحَمِي فكري، وتهيَّج نشاطي؛ فكان ذلك سببًا إلى تواليفَ لي عظيمةِ المنفعةِ. ولولا استِثارتُهم ساكني، واقتداحُهم كامِني؛ ما انبَعَثتُ لتلك التَّواليفِ)[3].

وهو هنا يقصدُ جدالَه ونقاشــاتِه معَ فقهاءِ المالكيــةِ، ونعتُهم بـ(أهلِ الجهلِ)

(١) انظر: «الإنصاف» للدِّهلوي، ص ١٠٦.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» ٢/ ٩٧٢-٩٧٣.

(٣) «الأخلاق والسير» ص١٢٨.

تجوُّزٌ منه في العبارةِ، وشدَّةُ وقعِها على المُخالِفِ معلومةٌ.

والشاهدُ من كلامِه: أنَّ إثارةَ الأفكارِ، وبعثَها بالنِّقاشِ يكونُ بابًا إلى توقُّدِ الذِّهنِ بالفكرِ في مسائلِ العلمِ، وتولُّدِ أفكارٍ مفيدةٍ للطالبِ.

وممَّا رأيتُه في محرابِ التعلُّمِ من الأساليبِ غيرِ المحمودةِ: أن يسألَ المعلِّمُ الطُّلابَ عن إشكالٍ، فيُجيبُ الطالبُ مُخالِفًا طريقةَ إجابةِ مُعلِّمِه، أو مُخالِفًا لِما أراده، فيُسرِعُ المعلِّمُ إلى تخطئتِه؛ لتغايرِ الأسلوبِ والعبارةِ، ورُبَّما يكونُ الطالبُ مُحِقًّا!

قد يُعذَرُ المعلِّمُ على ذلك، أو يكونُ الحاملُ له على هذا جِبِلَّةً أو توجُّهًا له، لكنْ يبقى أنَّ هذا الأسلوبَ لا يرقى لتكوينٍ أو إيقاظِ ذهنِ المتعلِّمِ، وتخريجِ طالبٍ نابِهٍ. لذا كان على المعلِّمِ أن يُعلِيَ مِن شأنِ الطالبِ، ويُكبِرَ فائدتَه؛ ليثبتَ قلبُه.

يقولُ التَّاجُ السُّبكيُّ عن والدِه التَّقيِّ السُّبكيِّ -رحمةُ الله عليهما: (وإذا ذكَرَ الطالبُ بينَ يديه اليسيرَ من الفائدةِ؛ استعظَمَها، وأوهَمه أنَّه لم يكنْ يعرفُها؛ لقد قال له مرَّةً بعضُ الطَّلبةِ بحضوري: حكى ابنُ الرِّفعةِ عن مُجلِّي وجهينِ في الطَّلاقِ في قولِ القائلِ بعدَ يمينِه: «إنْ شاء اللهُ تعالى»، هل هو رافعٌ لليمينِ، فكأنَّها لم تُوجَدْ، أو نقولُ: إنَّها انعقَدتْ على شرطٍ؟

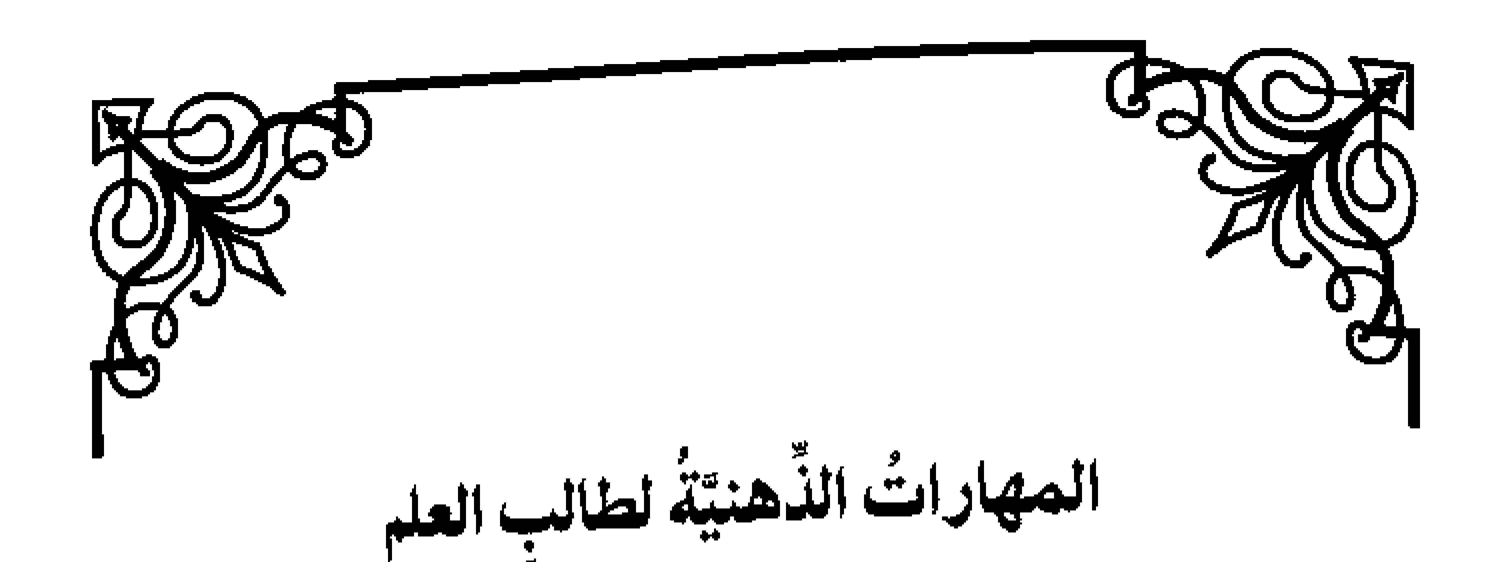
فقلتُ أنا: هذا في «الرَّافعيِّ»، أيُّ حاجةٍ إلى نقلِه عن ابنِ الرِّفعةِ عن مُجلِّي؟!

فقال لي الشَّيخُ الإمامُ: اسكُتْ، مِن أينَ لكَ؟! هاتِ النَّقلَ. وانزعَج.

فقمتُ، وأحضرتُ الجزءَ من «الرَّافعيِّ»، وكان ذلك الطالبُ قد قام، فواللهِ حينَ أقبَلتُ به قبلَ أن أتكلمَ؛ قال: الذي ذكرتَه في أوائلِ كتابِ الأيمانِ من «الرافعيِّ»، وأنا أعرفُ هذا، ولكنْ فقيهٌ مسكينٌ طالبُ علمٍ يريدُ أن يُظهِرَ لي أنَّه استحضَر مسألةً

غريبةً، تريدُ أنتَ أن تُخجِلَه، هذا ما هو مليحٌ)[1].

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ١٠/ ٢١٩-٢٢٠.



المهاراتُ الذِّهنيّةُ لطالبِ العلمِ

هناك العديدُ من المهاراتِ التي تفيدُ طالــبَ العلمِ، وتمَّ اختيارُ ما يُظَنُّ فيه أنّه أبرزُها وأَمَسُّها بتكوينِ الذِّهنيةِ العلميةِ الناقدةِ.

أولًا: مهارةُ التقصّي والاكتشافِ:

وهذه المرحلةُ نُقْلــةٌ نوعيّةٌ؛ فإنَّ الطالبَ يتهيّأُ عبرَهــا للجانبِ الذي ظهر فيه استعدادُه وميولُه، ومنها يخوضُ بحثًا في غمارِ الكتبِ.

وأســعدُ الطَّلبةِ مَن أعانه مُعلِّمُه على «التَّقصّي» و «البحثِ والتَّنقيبِ»، وأُعِينَ بالصَّبرِ، وأُمِدَّ بسَــعةِ الجلَدِ في التَّقصّي؛ في محطَّةٍ فارقةٍ بينَ درجةِ التعليمِ بالتلقينِ، ودرجةِ التأهيلِ لرتبةِ العالِميَّةِ.

قد نعتبرُ هذا الأســلوبَ بابًا من أبوابِ التحصيلِ عبــرَ البحثِ العلميِّ، فنعتبرُ حينَها عيــنَ البحثِ والكتابةِ تحصيلًا، وهو تحصيلٌ مُفضٍ إلى اتِّســاعٍ في المداركِ، واستيعابٍ لمســألةِ تاريخِ العلمِ ومُقدِّماتِه وكيفيةِ وصولِه، وفيها التعرُّفُ الجيِّدُ على مصادرِ الفنِّ ومظانِّه وأبرزِ ما حُرِّر فيه.

جاء أسلوبُ (التقصّي) أو (الاســتقصاء) في التعلُّمِ مُقابِلًا وتقويمًا لأسلوبِ (التلقينِ)، معَ أهميتِه في أوّلِ العلمِ.

فهي إذَنْ: (عمليّةٌ قائمةٌ على البحثِ والتَّقصّي بتوجيهٍ مِن المُعلِّمِ).

عِمادُها: أسئلةٌ واستشكالاتٌ يُثيرُها المعلِّمُ، تكونُ أُطُرًا للبحثِ.

قال الصَّفديُّ -رحمه اللهُ- في ترجمةِ شيخِه نجمِ الدِّينِ أبي محمدٍ ابنِ الشيخِ كمالِ الدِّينِ القُرَشيِّ القرطبيِّ الخطيبِ رحمه اللهُ: (وله قدرةٌ على التعليمِ، وفِراسةٌ في وجهِ التلميذِ إذا أخذ قولَه بالتسليمِ، يعلمُ مِن الطالبِ إذا فَهِم، ولا يخفى عليه إذا بَهِم، فلا يزالُ يُغيِّرُ له الأمثلةَ، ويديرُ الأسئلةَ إلى أن تتكشَّفَ عنه الغيابةُ، ويظهرَ له أنَّه حصَل على العنايةِ)[1].

فبأمثلةٍ وأسئلةٍ، وبتوجيهٍ وتقصٍّ وتحرٍّ تنشأُ العقليةُ العلميةُ، البحثيةُ الاستقصائيةُ، المُعتمِدةُ على التحرِّي والتحقيقِ للمعلومةِ وترتيبِها واستثمارِها، فيُحدِّدُ له المعلِّمُ مجالَ البحثِ، مُبرِزًا له إشكاليةَ المسألةِ، وما قد يلتبسُ عليه.

فأسلوبُ التعلُّمِ هنا يكونُ قائمًا على الاستفادةِ من المعلِّمِ، وتلقِّي التوجيهِ منه، ثم يأتي الجهدُ الشخصيُّ من بحثٍ، وترتيبٍ، وترجيحٍ، وإن لم يكنْ مطلوبًا الآنَ بقدرِ آليَّةِ البحثِ والاستكشافِ، والعرْضِ، وإعادةِ التنقيحِ.

الثِّمارُ المرجُوَّةُ مِن هذه المهارةِ:

معَ هذه المهارةِ تنمو للطالبِ عدَّةُ محاورَ، منها:

١- زوالُ رُهابِ الكتبِ المانعِ من الاستفادةِ منها.

٢- صقلُ شخصيَّتِه العلميَّةِ النَّقديَّةِ.

٣- تنميةُ الموضوعيَّةِ، والتَّجرُّدُ في تناولِ مسائلِ العلمِ، والبُعدُ عن التَّعصُّبِ.

٤- توسعةُ مداركِه.

(١) «أعيان العصر وأعوان النصر» ٢/ ٢٣٣.

٥- تنميةُ ملكةِ الكتابةِ والتَّعبيرِ.

السّلبياتُ التي قد تُصاحِبُ هذه المهارةَ:

١- تشتُّتُ الطالبِ:

فمــعَ فاعِليَّةِ وقدرةِ هذه المهارةِ العاليةِ على صياغةِ ذهنيةٍ علميةٍ بحثيةٍ، وترقيةٍ في مدارجِ العلمِ، لكنْ لمَّا كان البحثُ قد يطولُ وتتشــعَّبُ اتجاهاتُه؛ فالتخوُّفُ قائمٌ، فتعيَّن أخذُ الحَيْطةِ، والتأكيدُ على أن يُسبَقَ بمرحلةِ تأصيلٍ تأسيسيةٍ، يتلوها استكمالُ تكوينٍ. فباجتيازِ مرحلةِ (الأرضيَّةِ الصُّلْبةِ) يكونُ في مأمنٍ، وإلا تاهَ في ثنايا المســائلِ والفروعِ والمصطلحاتِ والفهارسِ.

٢- تَسرُّبُ الغرورِ إلى نفوسِ بعضِ الطُّلابِ:

فقد يغترُّ ببحثٍ بعضِ المسائلِ، ويكونُ مدعاةً للانفلاتِ من المنهجِ (القِرَائيِّ)، والتماسِ مجالسِ العلماءِ، ومراجعةِ المحفوظِ؛ فيُمسِي ويصبحُ بينَ المراجعِ يُنقِّرُ عن معلومةٍ لبحثِه، مُتفرِّغًا للتصنيفِ قبلَ التأهُّلِ والتأسيسِ.

فكان التركيزُ هنا على أنَّ القدرَ المســموحَ به ما يُعِينُ على توســيعِ المداركِ، ويُحــرَصُ علــى ألَّا ينهمكَ الطالبُ في ذلك ببحــوثٍ طويلةٍ، وإنَّما يُتســامَحُ بقدرِ ما يُعِينُ على الغرضِ.

٣- يَصعُبُ تحقُّقُ ذلك معَ طُلَّابٍ كثيرينَ، ويَندُرُ ذلك في المعلِّمينَ.

ثانيًا: مهارةُ التخريجِ والافتراضِ، وملَكةُ «التوقُّعِ»:

فالتخريجُ، وافتراضُ الصُّوَرِ، وإعمالُ الذِّهنِ في تخيُّلِ المسائلِ = رياضةٌ ذهنيَّةٌ تُكسِبُ الطالبَ طرقَ التفكيرِ العلميِّ، والأُهْبةَ لنوازلِ الفنِّ، والمُكْنةَ فيه، وقد نُعبِّرُ عن ذلك بـ (ملَكةِ «التوقُّعِ»).

وهذا بلا شـــكٍّ يجبُ أن يكونَ قائمًا على وِزانٍ قِسْـــطٍ بلا تجاوزٍ للمعقولاتِ الشرعيةِ، والمرادُ هنا تنميةُ ذهنيَّةِ طالبِ العلمِ.

وقـــد ذكر أبو العبَّاسِ ابنُ تيميَّةَ -رحمه اللهُ- أنَّ الفقهاءَ رحمهم اللهُ (يُقدِّرون مسائلَ يُعلَمُ أنَّها لا تقعُ؛ لتحريرِ القواعدِ، وتمرينِ الأذهانِ على ضبطِها)[1].

يقولُ الزَّنْجانيُّ رحمه اللهُ: (لا يخفى عليكَ أنَّ الفروعَ إنَّما تُبنَى على الأصولِ، وأنَّ مَن لا يفهمُ كيفيةَ الاســتنباطِ، ولا يهتدي إلى وجــهِ الارتباطِ بينَ أحكامِ الفروعِ وأدلَّتِها التي هي أصولُ الفقهِ = لا يتَّســعُ له المجالُ، ولا يمكنُه التفريعُ عليها بحالٍ؛ فإنَّ المســائلَ الفرعيةَ -على اتِّســاعِها، وبُعدِ غاياتِها- لها أصولٌ معلومةٌ، وأوضاعٌ منظومةٌ، ومَن لا يعرفُ أصولَها لم يُحِطْ بها علمًا)[2].

فإذا مــا تمَّت له هذه المراحــلُ برَوِيَّةٍ، وهدوءِ نفسٍ، وطــولِ بالٍ في البحثِ والصَّبرِ على المسائلِ؛ تهيَّأ لأمرٍ كبيرٍ، وزالتْ عنه الهيبةُ المانعةُ من البحثِ في الكتبِ والشُّــروحِ المُطوَّلةِ، وأحسَن اســتعمالَ مادَّةِ العلمِ في فهمِ كلامِهم، وتَصوَّرَه جيِّدًا، وحسُن منه التصرُّفُ عندَ وقوعِ الحادثةِ.

وإذا تأمَّلْنا واقعَ كثيرٍ ممَّن طلَبَ العلمَ، وأمضَى فيه وقتًا طويلًا؛ نجدُه لا يستطيعُ تحريرَ مسألةٍ، وصياغتَها، ونقاشَها. وهذا قد يكونُ لعدَّةِ أمورٍ، منها:

١- قِلَّةُ المادَّةِ العلميةِ لديه [= ضعفُ التَّحصيلِ].

٢- ضعفُ اســتعمالِ الآلةِ العلميةِ في تحقيقِ المســائلِ؛ فالعلمُ قد يكونُ موجودًا، لكنَّه مُفتقِرٌ إلى استعمالٍ وتطبيقٍ على آحادِ المسائلِ والنوازلِ.

(١) «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية ٤/ ٤٢٦.

(٢) «تخريج الفروع على الأصول» ص٣٤، تحقيق: محمد أديب صالح.

٣- خنقُ الطالبِ مِـن قِبَلِ مُعلِّمِه ومُتابِعِيه، وإغلاقُ طريقِ البحثِ والنِّقاشِ والتَّحاورِ معَ الطُّلابِ.

وكثيـرًا ما نجدُ في الواقعِ طالبَ علمٍ قد مرَّ علـى العلومِ، ودرَس كتابًا وأكثرَ، وتصوَّر مسـائلَها بشـكلٍ جيِّدٍ، لكنْ إذا طُرِحتْ عليه مسألةٌ تجدُ فهمَه لا يتعدَّى هذه الكتبَ، ولا يسـتطيعُ أن يستعملَ ما درَسـه في الرَّدِّ والتحريرِ، ولا أن يتعقَّبَ القولَ أو يفترِضَ صُوَرًا جديدةً؛ فذِهنيَّتُه جامدةٌ لا تُنتِجُ!

أورَد تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ -رحمه اللهُ- شروطَ المجتهدِ، وذكَر منها: (أن يكونَ فقيهَ النَّفسِ)، فشرَح الزَّركشـيُّ -رحمه اللهُ- ذلك، فقال: (أن تكونَ عندَه قُوَّةُ الفهمِ على التعرُّفِ بالجمعِ والتفريقِ، والترتيبِ، والتصحيحِ، والإفسادِ؛ فإنَّه مِلاكُ الصَّنعةِ. كذا قاله الأسـتاذُ أبو إسحاقَ. قال: ومَن كان موصوفًا بالبلادةِ وبالعجزِ عن التصرُّفِ؛ لم يكنْ مِن أهلِ الاجتهادِ. وما أحسَـن قولَ الغزاليِّ: إذا لم يتكلمِ الفقيهُ في مسألةٍ لم يسمعْها ككلامِه في مسألةٍ يسمعُها = فليس بفقيهٍ)(١).

ومضةٌ:

قال أبو زيدٍ الدَّبُوسـيُّ رحمه اللهُ: (لمَّا رأيتُ كلَّ هذا الشـرفِ للعلمِ، ونورُه كامنٌ في قلوبِ البشـرِ كُمُونَ النارِ في الشجرِ، ما يقدحُها إلا أيدي الهممِ العاليةِ بفكرٍ في الحُجَجِ الهاديةِ، وأكثرُ الناسِ قبَسوه بحواسِّهم ففقَدوه في اقتباسِهم = رأيتُ اتِّباعَ السـلفِ في إثارةِ هذا النُّورِ ببيانِ الحُجَجِ فرضًا، ثُمَّ إنارتِه بوقودِ المِدادِ في صحائفِ الكتبِ حقًّا)(٢).

(١) «تشنيف المسامع» لبدر الدين الزركشي ٤/ ٥٦٦.
(٢) «تقويم الأدلة في أصول الفقه» ١/ ١١.

ثالثًا: مهارةُ السّبرِ والتّقسيمِ:

السَّبرُ والتقسيمُ مسألةٌ أصوليةٌ منطقيةٌ، تحدَّث عنها التَّربويُّونَ[1]؛ وهي: إعمالُ الذِّهنِ في الفروضِ، ومُناقَشتُها على الترتيبِ، فتفتحُ وتُرسِّخُ العقليةَ العلميةَ، وتَصقُلُ الذِّهنَ الناقدَ.

أمّا صياغةُ الفرضيّاتِ؛ فهي عمليةُ تنبُّؤٍ، تحتاجُ إلى قدرةٍ كبيرةٍ على التعبيرِ عن الحلـولِ المُتوقَّعةِ تعبيرًا صحيحًا ودقيقًا، لا يقبلُ التأويـلَ، بحيثُ تكونُ كلُّ فرضيّةٍ قابلةً لأنْ تكونَ هي الفرضيّةَ الصحيحةَ، فالفرضيةُ الخاطئةُ يجبُ استبعادُها في عمليةِ الفحصِ وقبلَ عمليةِ الاختبارِ.

وأمّا عزلُ المُتغيِّراتِ؛ فتتضمنُ هذه العمليــةُ القدرةَ على معرفةِ العواملِ التي تُؤثِّرُ والتي لا تُؤثِّرُ على نتائجِ التجربةِ، وتحديدَها بدقَّةٍ.

لو تأمَّلْنا طريقةَ الفقهاءِ في حديثِ المُجامِعِ في نهارِ رمضانَ؛ لَوَجَدْنا تخريجاتٍ وأُفُقًا وافتراضاتٍ للوصولِ إلى المسألةِ الصحيحةِ[2].

---

(١) وذلك تحت مُسـمّى: (صياغـة الفرضيـات) *(Formulation Of Hypothesis)*، و (عزل المُتغيِّرات) *(Isolate Of Variables)*. انظر: «مدى فاعِليَّة طريقة الاستقصاء» ص٣٧-٣٨.

(٢) مِن أجملِ ما عثرتُ عليه في مســألةِ استخدامِ السَّبرِ والتقســيمِ في إعمالِ الذِّهنِ وصقلِه، وترتيبِ طريقةِ الاســتفادةِ منــه لطالبِ العلمِ، ما جــاء في مُناظَرةِ العلّامــةِ محمدِ الأمينِ الشِّنقيطيِّ -رحمه اللهُ- للشَّيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ رحمه اللهُ، التي حكاها الشيخُ أحمدُ بنُ محمــدِ الأمينِ الشــنقيطيِّ في كتابه: «مجالس مع فضيلة الشــيخ محمــد الأمين الجكني الشنقيطي» ص٥٠-٦١، وهذا نصُّها -معَ تصرُّفٍ يسيرٍ غيرِ مُخِلٍّ:
لقد اســتدعَى المســؤولون الشيخَينِ: شيخَنا الشــيخَ محمدًا الأمينَ الشــنقيطيَّ، والشيخَ عبدَ الرحمنِ الإفريقيَّ -رحمةُ اللهِ على الجميعِ، اســتُدعِيا للتدريسِ بالمعاهدِ والكُلِّيّاتِ، وأُنزِلا بدارِ الضِّيافةِ، واســتَقبَلَهما المســؤولون بحفاوةٍ وتكريمٍ ... ولقد أقبَلَ المسؤولون على فضيلةِ الشــيخِ محمدِ الأمينِ بغايةِ التقديرِ والاحتــرامِ. وكان هناك مصريٌّ حَضَريٌّ =

....

= أزهريٌّ من أصحابِ الشَّهاداتِ المبروزةِ، وكان قبلَ قدومِ الشيخِ يُعتبَرُ كأنَّه كبيرُ المُدرِّسين، ولمَّا رأى حفاوةَ المشايخِ بفضيلةِ الشيخِ دونَه؛ لعلَّ ذلك أخذ بخاطِرِه -ولا أظنُّ إلا خيرًا- فصار يتحيَّنُ الفُرَصَ له!

أخبَرَني شيخي -عليه رحمةُ اللهِ- قال: عندما كنتُ خارجًا من فصلٍ كنتُ فيه في درسِ تفسيرٍ، ودخلتُ غرفةَ استراحةِ المُدرِّسين، وكان الشيخانِ: سماحةُ الشيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ عبد اللطيفِ آلِ الشيخِ، وأخوه الشيخُ عبدُ اللطيفِ بنُ إبراهيمَ، كانا موجودَينِ في غرفةِ استراحةِ المُدرِّسين، الأولُ مفتي الدِّيارِ السُّعوديةِ، والثاني المديرُ العامُّ للمعاهدِ والكُلِّيَّاتِ، فعندما دخلتُ غرفةَ الاستراحةِ، إذا ذلك المصريُّ يقولُ: يا شنقيطيُّ، سمعتُكَ تُقرِّرُ في الدَّرسِ أنَّ النارَ أبديَّةٌ، وعذابُها لا ينقطعُ؟

قلتُ: نعم.

فقال: كيف تسمحُ لنفسِكَ يا شنقيطيُّ أن تُعلِّمَ أولادَ المسلمين أنَّ النارَ أبديَّةٌ، وعذابُها لا ينقطعُ؟ وهذا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ والمُجدِّدُ محمدُ بنُ عبد الوهَّابِ يُقرِّرانِ أنَّها تخبو وينبُتُ في قعرِها الجرجيرُ!

قال الشيخُ: وكنتُ آنذاكَ حديثَ عهدٍ بالصحراءِ، أغضبُ إذا استُغضِبتُ، فقلتُ له: يا مصريُّ، مَن أخبَرَكَ أنَّ الرَّسولَ الذي أُرسِلَ إليَّ، ووجَب عليَّ الإيمانُ بما جاء به، اسمُه محمدُ بنُ عبد الوهَّابِ؟!

إنَّ الرَّسولَ الذي أُرسِلَ إليَّ، ووجَب عليَّ الإيمانُ بما جاء به اسمُه محمدُ بنُ عبد اللهِ ﷺ، وُلِد بمكَّةَ ولم يُولَدْ بحُرَيملاءَ، ودُفِن بالمدينةِ ولم يُدفَنْ بالدِّرعيَّةِ، وجاء بكتابٍ اسمُه القرآنُ، والقرآنُ أحملُه بينَ جنبيَّ، وهو الذي يجبُ عليَّ الإيمانُ بما جاء به؛ ولمَّا تأمَّلتُ آياتِه وجدتُها مُطبِقةً على أنَّ النارَ أبديَّةٌ، وأنَّ عذابَها لا ينقطعُ، علَّمتُ ذلك لأولادِ المسلمين لمَّا ائتَمَنَني وليُّ أمرِ المسلمين على تعليمِهم، أسَمِعتَ يا مصريُّ؟!

قال: فقال سماحةُ الشيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ: (سَمْ؟) [وهي بلهجةِ أهلِ نجدٍ مِن مدلولِها: (ما تقولُ؟)].

فقال الشيخُ الأمينُ: فقلتُ له: ذاكَ إنسانٌ يعي ما يقولُ!!

قال: وكان [أي الشيخُ ابنُ إبراهيمَ] رجلًا عاقلًا، وقد عَلِم أنِّي مُحتَدٌّ، فقال سماحتُه: أطال اللهُ عمرَك، منكَ نستفيدُ [يعني: أفِدْنا]. =

....

= قال الشيخُ الأمينُ: إنّي قلتُ ما قلتُ بعدَ أن اطّلعتُ على ما استدَلَّ به ابنُ القيِّمِ تقريرًا لمذهبِ شيخِه. لقد استدَلَّ بآيةِ النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابٗا ۝ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ۝﴾، وبآيةِ هودٍ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝﴾. واستدَلَّ بأربعةِ أحاديثَ، ثلاثةٌ منها في غايةِ الضَّعفِ، ولا يمكنُ الاحتجاجُ بها، والرابعُ حديثُ طاووسٍ عن عبد اللهِ: «يأتي على النّارِ زمانٌ تَخفِقُ أبوابُها، ويَنبُتُ في قعرِها الجرجيرُ»، وهو حسنُ السَّندِ، صالحٌ للاحتجاجِ به. واستدَلَّ ببيتِ شعرٍ هو قولُ الشاعرِ:

.... لَمُخلِفُ إيعادِي، ومُنجِزُ مَوعِدِي

قال: لا مانعَ مِن أن يكونَ ما يجمُلُ عندَ العربِ كلُّه موجودٌ في القرآنِ، والعربُ يجمُلُ عندَهم إخلافُ الوعيدِ وإنجازُ الوعدِ، فلا مانعَ إذَنْ مِن إخلافِ وعيدِه لأهلِ النّارِ بالخلودِ.

قال: وذكَر ابنُ القيِّمِ سفسطةً للدَّهريِّينَ، هي قولُهم: إنَّ اللهَ أعدلُ مِن أن يعصيَه العبدُ حِقَبًا من الزمنِ، فيُعاقِبَه بالعذابِ الأبديِّ، قالوا: إنَّ الإنصافَ أن يُعذِّبَه قدرَ المُدَّةِ التي عصاه فيها. وأنا أُجِلُّ ابنَ القيِّمِ عن أن يكونَ ذكَر هذه السَّفسطةَ للاحتجاجِ بها، وإنَّما ذكَرها استطرادًا.

فقال سماحتُه: أفِدْنا -أطال اللهُ في عمرِكَ.

قال شيخُنا: فقلتُ له: إنّي أصبحتُ وإيّاكَ على طرفَيْ نقيضٍ، أنتم تُمثِّلون طائفةً من المسلمين تقولُ بفناءِ النّارِ وانقطاعِ عذابِها، وأنا أُمثِّلُ طائفةً من المسلمين تقولُ: النارُ أبديَّةٌ، وعذابُها لا ينقطعُ. واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝﴾. فقد أصبحْنا يا سماحةَ الشيخِ بمثابةِ المُتناظِرِينَ، ولا بدَّ للمُتناظِرِينَ من حَكَمٍ يُحكِّمانِه بينَهما يرجِعانِ إليه؛ لئلّا يتّسِعَ الخلافُ.

قال سماحتُه: فماذا ترى أن نُحكِّمَ بينَنا؟

قال شيخُنا: أرى أن نُحكِّمَ بينَنا كتابَ اللهِ تلاوةً لا تأويلًا، معناه: أنّه لا يُقبَلُ مِن أحدِنا الاستدلالُ إلا بآيةٍ يشهدُ له منطوقُها بدلالةِ المُطابَقةِ.

قال سماحةُ الشيخِ محمدٍ: فقد حكَّمْنا بينَنا كتابَ اللهِ تلاوةً لا تأويلًا.

فقال الشيخُ الأمينُ: إذا شاء سماحتُكم بحَثْنا هذه المسألةَ بالدَّليلِ الجَدَليِّ المعروفِ بـ(السَّبرِ والتَّقسيمِ)، والذي أتى به صاحبُ «مراقي السُّعودِ»، المسلكُ الرابعُ من مسالكِ العِلَّةِ؛ حيثُ يقولُ: =

=

والسَّبرُ والتَّقسيمُ قِسمٌ رابعُ ... أن يَحصُرَ الأوصافَ فيه جامعُ
ويبطلَ الذي لها لا يصلحُ ... فما بقي تعيينُه مُتَّضِحُ

ومعنى البيتينِ: أن يجمعَ المُتناظِرانِ أو المُتناظِرونَ الأوصافَ التي يُحتمَلُ أن تكونَ مسألةُ النِّزاعِ مُتَّصِفةً بها، فإن اتَّفقا أو اتَّفقوا أنَّ أوصافَ المسألةِ محصورةٌ فيما جمَعوا؛ شرَعوا في سَبْرِها، أي في اختبارِها، أي بعرضِها واحدةً بعدَ واحدةٍ على المُحكَمِ، فما رَدَّ منها المُحكَمُ وجَب ردُّه، وما بَقِي تعيَّنَ الأخذُ به.

فقال سماحةُ الشيخِ محمدٍ: وافَقْنا على بحثِ المسألةِ بالسَّبرِ والتَّقسيمِ.

قال شيخُنا: قيِّدوا ما تتَّفقون عليه من احتمالاتٍ للمسألةِ؛ لتتَمكَّنوا من عرضِها على المُحكَمِ واحدةً بعدَ الأخرى، فمثلًا:

يُحتمَلُ: أنَّ النَّارَ تخبو.

ويُحتمَلُ: أنَّها تأكلُ مَن أُلقِي فيها حتى لا يبقى مِن أهلِها شيءٌ.

ويُحتمَلُ: أنَّهم يخرجون منها فرارًا منها.

ويُحتمَلُ: أنَّهم يموتون فيها، والميتُ لا يَحُسُّ ولا يتألَّمُ.

ويُحتمَلُ: أنَّهم يتعوَّدون حرَّها، فلا يبقى يُؤلِمُهم.

ويُحتمَلُ: أنَّه لا يقعُ شيءٌ من ذلك كلِّه، وأنَّها أبديَّةٌ وعذابُها لا ينقطعُ.

ولمَّا اتَّفق الحضورُ على أنَّه لا يوجدُ احتمالٌ بعدَ هذه الاحتمالاتِ السِّتَّةِ المُقيَّدةِ؛ ابتدَءُوا بعرضِ الاحتمالاتِ على المُحكَمِ.

قالوا: يُحتمَلُ أنَّها تخبو. فإذا المُحكَمُ يقولُ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٩٧].

ومعلومٌ أنَّ «كُلَّما» أداةٌ مِن أدواتِ التَّكرارِ بلا خلافٍ، فلو قلتَ لغلامِكَ: كُلَّما جاءكَ زيدٌ أَعْطِه كذا من مالي. فإذا منَعه مرَّةً ظلَمه بلا خلافٍ.

وقالوا: يُحتمَلُ أنَّها تأكلُهم حتى لم يبقَ منهم شيءٌ. فإذا المُحكَمُ يقولُ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. فلم يبقَ لهذا الاحتمالِ نصيبٌ بموجبِ هذه الآيةِ.

وقالوا: يُحتمَلُ أنَّهم يخرجون منها هاربينَ. فإذا المُحكَمُ يقولُ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ الآيةَ [السجدة: ٢٠]، ويقولُ: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝﴾ الآيةَ [الحِجْر: ٤٨]. فلم يبقَ لهذا الاحتمالِ أيضًا نصيبٌ من الاعتبارِ.

=

....

= وقالوا: يُحتمَلُ أنَّهم يموتون فيها، والميتُ لا يَحُسُّ ولا يتألمُ. فإذا المُحكَمُ يقولُ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ الآيةَ [طه: ٧٤]، ويقولُ: ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم: ١٧]. فلم يبقَ إذَنْ لهذا الاحتمالِ نصيبٌ من الاعتبارِ.

وقالوا: يُحتمَلُ أنَّهم يتعوَّدون حرَّها، فلم يبقَ يُؤلِمُهم؛ لتعوُّدِهم عليه. فإذا المُحكَمُ يقولُ: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النبأ: ٣٠]، ويقولُ: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٥]. والغرامُ: المُلازِمُ، ومنه جاء تسميةُ الغَرِيمِ. ويقولُ المُحكَمُ: ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الآيةَ [الفرقان: ٧٧]، فلم يبقَ لهذا الاحتمالِ أيضًا نصيبٌ من الاعتبارِ.

قال شيخُنا: فلم يبقَ إلا الاحتمالُ السَّادسُ، وهو أنَّها أبديَّةٌ وعذابُها لا ينقطعُ. وقد جاء ذلك مُبيَّنًا في كتابِ اللهِ العزيزِ في خمسينَ موضعًا منه.

فسرَدها لهم مُرتَّبةً بحسَبِ ترتيبِ مصحفِ عثمانَ -رضي اللهُ عنه- وكأنَّها جاءتْ مسرودةً في صفحةٍ واحدةٍ.

وعندَ ذلك قال سماحةُ الشيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ مفتي الدِّيارِ السُّعوديَّةِ، قال: آمنَّا باللهِ، وصدَّقْنا بما جاء في كتابِ اللهِ.

فقال شيخُنا -عليه رحمةُ اللهِ: وعلينا أن نُجيبَ عن أدلَّةِ ابنِ القيِّمِ، وإلَّا ترَكْنا المسلمين في حَيرةٍ. ولَنُجيبَنَّ عليها بالكتابِ تلاوةً لا تأويلًا، فنقولُ:

أمَّا آيةُ النَّبإِ؛ فلا دليلَ فيها لِما يريدُ الاستدلالَ بها عليه؛ إذْ غايةُ ما تفيدُه آيةُ النَّبإِ هذه، هو: أنَّ أهلَ النَّارِ يمكثون أحقابًا من الزَّمنِ في نوعٍ من العذابِ هو الحميمُ والغسَّاقُ، ثُمَّ ينتقلون منه إلى آخرَ؛ بدليلِ قولِه تعالى في (ص): ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص: ٥٧-٥٨]، ومعلومٌ أنَّ عذابَ أهلِ النارِ أنواعٌ، وخيرُ ما يُفسَّرُ به القرآنُ القرآنُ.

وأمَّا استدلالُه ببيتِ الشِّعرِ؛ فإنَّ ما قاله يمكنُ اعتبارُه، لولا أنَّنا سمعنا اللهَ تعالى يقولُ في كتابِه: إنَّ وعيدَه لأهلِ النارِ لا يُخلَفُ، قال في (ق): ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ الآيةَ [ق: ٢٨- ٢٩]، وقال أيضًا في نفسِ السُّورةِ: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ الآيةَ [ق: ١٤].

وأمَّا سفسطةُ الدَّهريِّين التي ذكَرها استطرادًا؛ فقد تولَّى اللهُ تعالى الجوابَ عنها في =

= مُحكَــمِ تنزيلِه، وهو الذي يعلمُ المعدومَ لو وُجِد كيف يكونُ، وقد عَلِم في ســابقِ علمِه أنَّ الخُبــثَ قد تأصَّل في أَرُومةِ هــؤلاءِ الخبثاءِ؛ بحيثُ إنَّهم لو عُذِّبوا القــدرَ من الزَّمنِ الذي عصَوُا اللهَ فيه، ثم عادوا إلى الدنيا؛ لَعادوا لِما يســتوجبون به العذابَ، لا يســتطيعون غيرَ ذلك؛ قال تعالى في ســورةِ الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨].

فيبقــى لدينا من أدلةِ ابنِ القيِّــمِ آيةُ هودٍ، وهي قولُه تعالــى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝﴾ [هــود: ١٠٧]، وحديــثُ أبي داودَ، وهو قولُه ﷺ: «يأتي علــى النارِ زمانٌ تَخفِقُ أبوابُها، ويَنبُتُ فــي قعرِها الجرجيرُ»، أو كما قال ﷺ. فإنَّهما دليلانِ صالحانِ للاحتجــاجِ بهما، فيجبُ علينا البحثُ والتنقيبُ عن وجهٍ يمكنُ به الجمعُ بينَ الأدلــةِ؛ لأنَّ إعمالَ الدليلينِ أَوْلى من طرحِ أحدِهما، كما هو مُقرَّرٌ في فنِّ الأصولِ، قال في «مراقي السعود»:

والجمعُ واجبٌ متى ما أمكنَا ... إلَّا فلِلأخيرِ نسخٌ بيِّنا

إنَّ عندَنــا أدلةً على أنَّ النارَ أبديَّةٌ ولا ينقطعُ عذابُها، وهذه الآيةُ التي من ســورةِ هودٍ، وهذا الحديثُ الحسنُ دليلانِ يفيدانِ أنَّ النارَ تفنى؛ فما العملُ؟

والجوابُ: أنَّنا نرى إمكانَ الجمــعِ بينَ هذه الأدلةِ، بحملِ آيةِ هودٍ، وحديثِ أبي داودَ على الدَّركِ من النارِ المُخصَّصِ لتطهيرِ عُصاةِ المسلمين؛ فإنَّه يخرجُ منه آخِرُ مَنْ بقلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمانٍ، ويخبو، وتخفقُ أبوابُه، وينبتُ في قعرِه الجرجيرُ. أمَّا دركاتُ النارِ المُعَدَّةُ ســجنًا وعذابًا للكُفَّارِ؛ فهي أبديَّةٌ وعذابُها لا ينقطعُ.

وهنا تُنسَجُ الأدلةُ الشرعيةُ في بوتقةٍ واحدةٍ لا تعارُضَ بينَها، ولا يُكذِّبُ بعضُها بعضًا، وباللهِ تعالى التوفيقُ، وهو حسْبُنا ونعمَ الوكيلُ.

فقال ســماحةُ المفتي الشــيخِ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ عبدِ اللطيفِ آلِ الشيخِ: يا عبدَ اللطيفِ [يعني أخاه، المديرَ العــامَّ للمعاهدِ والكُلِّيَّاتِ]، الرُّجوعُ إلى الحــقِّ أَوْلى من التمادي في الباطلِ، من الآن قرِّروا أنَّ النارَ أبديَّةٌ، وأنَّ عذابَها لا ينقطعُ، وأنَّ تلك الأدلةَ المرادُ بها الدركُ من النارِ المُخصَّصُ لتطهيرِ عصاةِ المسلمين. اهـ.

رابعًا: مهارةُ التّفكُّرِ والتّفهُّمِ لا مَحْضُ الحفظِ:

لا شكَّ أنَّ مَن أراد إتقانَ صنعةٍ؛ فإنَّه يُكثِرُ من الدُّربةِ عليها؛ لِيَعتادَها، وتألَفَها جوارِحُه، وتدركَ نفسُه مكامنَها. والأمرُ نفسُه معَ صنعةِ العلمِ وفنِّ التعلُّمِ، بل هو أعظمُ الصنائعِ.

وعمادُ صنعةِ العالمِ الفقيهِ هي الاستنباطُ من الكتابِ والسُّنَّةِ، وتنزيلُ مُقتضى النُّصوصِ الشرعيةِ على الواقعِ بما يناسبُه؛ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

يقولُ النَّوويُّ رحمه اللهُ: الاعتناءُ بالاستنباطِ مِن آكَدِ الواجباتِ المطلوبةِ؛ لأنَّ النُّصوصَ الصَّريحةَ لا تفي إلا بيسيرٍ من المسائلِ الحادثةِ، وإذا أُهمِلَ الاستنباطُ، فات القضاءُ في مُعظَمِ الأحكامِ النازلةِ، أو بعضِها.

لذا كان على طالبِ الملكةِ الفقهيةِ من الدُّربةِ الجادَّةِ على الاستنباطِ، واستمطارِ الأحكامِ من النصوصِ بغيرِ تكلُّفٍ. وممَّا يُستعانُ به على ذلك المِراسِ: التفكُّرُ في النُّصوصِ، ومُلازَمةُ النظرِ إلى شواهدِ الحالِ، واعتبارُ المصالحِ؛ فهذا ممَّا يُورِثُ قُوَّةً في الفقهِ شبيهةً بقُوَّةِ المهنةِ التي يُحصِّلُها أهلُ الصِّناعاتِ المختلفةِ كلما تقدَّم بهم الزَّمنُ.

فقُوَّةُ الحاسَّةِ الفقهيةِ عندَ المجتهدِ والفقيهِ عمومًا، تُمكِّنُه من استخلاصِ الحلولِ، وسَبْرِ آراءِ العلماءِ، واستظهارِ مواقفِ المجتهدين بسهولةٍ بالغةٍ؛ لمُعايَشتِه لأصولِهم، وإدراكِه لأسبابِ ومكامنِ تعدُّدِ أوجهِ الرأيِ في المسألةِ محلِّ النَّظرِ، وإنْ لم يَسبِقْ له الاطِّلاعُ عليها.

فالمسافةُ بينَ التلقينِ المُجرَّدِ ومهارةِ الفهمِ تحكي فرقًا شاسعًا بينَ عقلينِ ومنهجينِ ومدرستينِ، كُلٌّ منهما له وادٍ يسبحُ فيه:

الأولُ: يدورُ في فلكِ رياضةٍ تلقينيةٍ، لفظيةٍ، طابعةٍ.

والآخرُ: يدورُ في فلكِ المعنى، ويتعلمُ سبلَ الوصولِ، ومعرفةَ حقيقةِ الأشياءِ.

فصناعةُ القوالبِ الجامدةِ لا تَفتُقُ ذهنًا، بل تخلقُ فكرًا رتيبًا، لا يستطيعُ النظرَ، ولا استعمالَ ما تعلَّمه.

يقولُ القِنَّوجيُّ رحمه اللهُ: (وقال أبو القاسـمِ في «حاشيةِ المُطوَّلِ»: إنَّ جعلَ أسـماءِ العلومِ المُدوَّنةِ مُطلَقةً على الأصولِ والقواعـدِ وإدراكِها والملكةِ الحاصلةِ على سـواءٍ، وكذا لفـظُ العلمِ؛ صَحَّ. ثُمَّ إنَّهـم ذكروا أنَّ المُناسِـبَ أن يُرادَ بالملكةِ ههنا كيفيةٌ للنَّفسِ بها يُتمكَّنُ من معرفةِ جميعِ المسـائلِ، يُستحضَرُ بها ما كان معلومًا مخزونًا منها، ويُستحصَلُ ما كان مجهولًا، لا ملكةُ الاستحضارِ فقطِ المُسمَّاةِ بالعقلِ بالفعلِ؛ إذِ الظاهرُ أنَّ مَن تمكَّن من معرفةِ جميعِ مسـائلِ علمٍ بأن يكونَ عندَه ما يكفيه فـي تحصيلِها = يُعَدُّ عالمًا بذلك العلمِ، من غيرِ اشـتراطِ العلمِ بجميعِها، فضلًا عن صيرورتِها مخزونةً، ولا ملكةُ الاسـتحصالِ فقطِ المُسمَّاةُ بالعقلِ بالملكةِ؛ لأنَّه يلزمُ أن يُعَدَّ عالمًا مَن له تلك الملكةُ معَ عدمِ حصولِ شـيءٍ من المسائلِ. فالمرادُ بالملكةِ أعمُّ من ملكةِ الاستحضارِ والاستحصالِ)[1].

خامسًا: مهارةُ الاستقراءِ، ودَورُها في صياغةِ الذِّهنيَّةِ العلميَّةِ:

للاستقراءِ دَورٌ مهمٌّ في صياغةِ الذِّهنيَّةِ العلميةِ واستقرارِها، فمِن ذلك أنَّه يعملُ على:

١- تماسكِ مسائلِ العلمِ وترابطِها:

فالمنهجُ الاستقرائيُّ يشـحذُ ذهنيَّةَ المتعلِّمِ إلى النظرِ دائمًا إلى النسبةِ الرَّابطةِ

(١) «أبجد العلوم» ص٤٣، ونحوه: «كشف الظنون» ١/ ٤٣-٤٤.

أو العَلاقةِ بينَ المسائلِ؛ فهو يُنمِّي لدى طالبِ العلمِ مسألةَ (الفُرُوقِ) بينَ المسائلِ وإيجادِ أوجهِ التَّشابهِ. وهي مِن أنفعِ الملكاتِ التي يكتسبُها؛ إذْ بها يقوى العلمُ، ويصيرُ وحدةً مُتماسِكةَ البِنيةِ.

٢- اتّساعِ مداركِ طالبِ العلمِ:

فقد ذكر الأسنوي أن المطارحة بالمسائل ذوات المآخذ المؤتلفة المتفقة والأجوبة المختلفة المفترقة من مآثر أفكار العلماء[1].

٣- الموضوعيّةِ في تناولِ المسائلِ وبحثِها:

فالتفكيرُ الاستقرائيُّ مبنيٌّ على الأدلَّةِ وتتبُّعِ المسائلِ، ويخلصُ إلى نتيجةٍ مُترتِّبةٍ على حسٍّ وتفكُّرٍ. ومِثلُ هذا يُبعِدُ الناظرَ عن التحيُّزِ في الترجيحِ، ويعينُه على الخلوصِ إلى قاعدةٍ أو ضابطٍ للمسألةِ.

٤- الأمانِ مِن الشُّذوذِ في مسائلِ العلمِ والترجيحِ:

ذلك أنَّ الذِّهنيَّةَ الاستقرائيةَ، سواءٌ استخدَم الاستقراءَ التَّامَّ أو الناقصَ، هي أقربُ إلى الصِّحَّةِ في الجملةِ، وأبعدُ عن التَّفرُّداتِ.

فالتَّامُّ من الاستقراءِ: يَحُضُّه على الحكمِ الكُلِّيِّ، والنظرةِ الكُلِّيَّةِ المُبتناةِ على نظرٍ كُلِّيٍّ شموليٍّ يجمعُ الأفرادَ كلَّها.

والناقصُ من الاستقراءِ: يَحُضُّه على القياسِ على النظائرِ، وأن يسيرَ في مُفرَدةٍ ما سَيْرَه في نظائرِها، وأن يحكمَ حكمًا كُلِّيًّا بما حكَم به على بعضِ الأفرادِ.

هذا بالنسبةِ للاستقراءِ التَّامِّ والنَّاقصِ. أمَّا الاستقراءُ الذي بمعنى (التَّغليبِ)،

---

(١) نقله ابن بدران في «المدخل» ص ٤٥٧.

الذي هو تقويـةُ حُكمٍ على آخرَ؛ لوجودِه مُطَّرِدًا في أكثرِ الحالاتِ الدَّاخلةِ تحتَ نوعٍ واحدٍ[1] = فعليه عملُ الكثيرِ في الترجيحِ.

فإذا تَماسَكتْ أوصالُ العلمِ، وتـآزَرتْ فصولُه، معَ اتِّسـاعِ المداركِ، وأمنِ الشُّـذوذِ، وصاحَبَ ذلك توفيـقُ اللهِ تعالى للعبدِ = تَمَّ له مـا كان يُؤمِّلُه، وحصَّل ما سعى لنَيلِه.

مراحلُ الاستقراءِ:

يرى بعضُ العلماءِ المعاصرين أنَّ الاستقراءَ لا بدَّ أن يمرَّ بمراحلَ مُعيَّنةٍ ليكونَ علميًّا، وهي:

١- مرحلةُ الملاحظةِ والتجربةِ.

٢- مرحلةُ وضعِ الفروضِ العلميةِ التي تُفسِّرُ بها نتائجُ الملاحظةِ والتجربةِ.

٣- مرحلةُ التَّثبُّتِ من صحَّةِ الفروضِ[2].

سادسًا: مهارةُ الضَّبطِ والتَّقعيدِ:

كان مبدأُ العلمِ ملكةً تتناقلُها الأجيالُ، من سـلفٍ إلى خلفٍ، وسليقةٌ عربيةٌ لم يطرأْ عليها عُجْمةٌ تشوبُها، أو لحنٌ يخدشُ بهاءَها. ومعَ مرورِ الزمنِ، وضعفِ العلمِ، وفُشُوِّ اللحنِ والعُجمةِ = احتاج الناسُ إلى قوانينَ وقواعدَ تضبطُ الأصلَ، وتعينُ على

(١) «الاستقراء» للطيب السنوسي، ص١٤٢، عن: «الاستقراء ومجالاته في الأحكام الشرعية» ص٤٦٣.

(٢) انظـر تفصيلًا لذلك، وأمثلـةً تطبيقيةً في مجـالاتِ العلومِ في المراجـعِ الآتيةِ: «المنطق التوجيهي» ص١٣٠-١٥٩، و«مسـائل فلسـفية» ٢/ ١٥٧-١٧٢، و«المنطق» للدكتور كريم متى ص١٦٥-١٨٢، و«ضوابط المعرفة» ص٢٠٣-٢٣٢، عن: «طرق الاسـتدلال ومقدماتها عند المناطقة والأصوليين» للدكتور يعقوب الباحسين ص٢٩٥-٢٩٦.

حسنِ التفريعِ بإلحاقِ النظيرِ بالنظيرِ، والتفريقِ بينَ الأصيلِ والدخيلِ؛ فكان إتقانُ هذه القواعدِ وأدلتِها وشواهدِها وأمثلتِها يئولُ إلى التمكُّنِ في العلمِ، وحصولِ ملكةٍ تُنمِّي الحسَّ الاجتهاديَّ.

فأصلُ تقنينِ القواعدِ والضوابطِ ونحتِها كان للإعانةِ على بلوغِ الملكةِ، واكتسابِ المهارةِ وحسنِ استعمالِها[1].

وقد عبَّر الإمامُ ابنُ رجبٍ -رحمه اللهُ- عن وظيفتِها بقولِه: (تضبطُ للفقيهِ أصولَ المذهبِ، وتُطلِعُه مِن مآخذِ الفقهِ على ما كان عنه قد تغيَّب، وتنظمُ له منثورَ المسائلِ في سلكٍ واحدٍ، وتُقيِّدُ له الشَّواردَ، وتُقرِّبُ عليه كلَّ مُتباعِدٍ)[2].

(١) وهنا يحسنُ التنبيهُ إلى أنَّ هذه الكتبَ التي تُعنَى بصُنعِ القواعدِ والضوابطِ، صُدَّ عنها بعضُ الطلابِ، ومِن أسباب ذلك: خشونةُ اللفظِ، وقلةُ التمثيلِ، ووحشيةُ بعضِ العباراتِ. والمُوفَّقُ مَن صبَّره اللهُ على لأواءِ الألفاظِ والتعبيراتِ، وأمعَن في تفهُّمِها، ولو أنَّه اعتبرَها لغةً أجنبيةً لاستطاع بصبرٍ تفهُّمَها في شهورٍ قلائلَ؛ فكيف وهي عربيَّةُ اللسانِ إسلاميَّةُ اللهجةِ؟! وفي عصرِ الإنترنتِ والاتصالاتِ، لم يَعُدْ هناك مستحيلٌ يصعبُ فهمُه، فعليه بسؤالِ مَن سبقَه.
وللأسفِ، فإنَّ الناظرَ في أبناءِ هذا الجيلِ، يجدُ شبابًا تلقَّفَهم أدباءُ وإعلاميُّون، تغايَرتْ شخوصُهم وتعدَّدتْ وجوهُهم، كتَبوا في مسائلِ العلمِ، وناقَشوا أمورًا من الشريعةِ، خاصَّةً ما يتعلقُ بنوازلِ الفقهِ الإسلاميِّ، بخطابٍ بعيدٍ عن المسلكِ الفقهيِّ المُتَّزِنِ المعهودِ المبنيِّ على قواعدِ العلماءِ. فوُجِدتْ لغةٌ غريبةٌ دخيلةٌ على لغةِ العلمِ الشرعيِّ، تداعبُ مشاعرَ الشبابِ والمُثقَّفين، بعيدةٌ عن الأصولِ العلميةِ، فصار أبناءُ هذا الجيلِ مُولَعِينَ بالكتاباتِ الخفيفةِ الطريفةِ، وثقافةِ الوجبةِ السريعةِ، فإذا استمرَّ الأمرُ على هذا يوشكُ أن يُنذِرَ بكارثةٍ على المستوى العلميِّ والدعويِّ والفكريِّ.
لذا كانت النصيحةُ: أكثِرْ مِن الاطِّلاعِ على الكتبِ الجادَّةِ التي تَفتُقُ الذهنَ وتُكسِبُ لغةَ العلمِ.

(٢) «القواعد» لابن رجب ١/ ٣.

ويقولُ الزَّركشيُّ رحمه اللهُ: (ضبطُ الأمورِ المُنتشِرةِ في القوانينِ المُتَّحِدة، هو أَوْعى لحفظِها، وأَدْعى لضبطِها)[1].

وإذا كان الحديـــثُ عن مهارةِ الضبطِ والتقعيدِ؛ فإنَّها في الأســـاسِ مبنيَّةٌ على الاستقراءِ، سواءٌ كان الاستقراءَ الأصوليَّ الذي يَتحدَّثُ عنه الأصوليُّون، أو الاستقراءَ بمعنى (التَّغليب)، وقد نُســـمِّيه الاســـتقراءَ التَّغليبـــيَّ. وحيثُما وُجِـــد التقعيدُ وُجِد الاستقراءُ؛ إذْ لا تقعيدَ إلا باستقراءٍ لأفرادِ المسائلِ والفروعِ.

أمَّا عن المهارةِ الذِّهنيةِ التي يكتسبُها المتعلِّمُ من التقعيدِ والضبطِ؛ فإنَّنا نستطيعُ أن نفهمَها من خلالِ معرفةِ ماهيَّةِ التقعيدِ، التي هي «ســـعيٌ إلى إدراكِ الكُلِّ»، وعلى ذلك فهو انتقالٌ من مستوًى إلى مستوًى أعلى منه، وفيها يتمُّ:

١- بيانُ المُشترَكِ في الكثرةِ المبحوثةِ.

٢- إسقاطُ المُشخّصاتِ.

٣- مراعاةُ الفروقِ بين ما ظاهرُه التَّشابهُ.

٤- مراعاةُ مـــا يدخلُ في القاعدةِ من فروعٍ معَ اســـتثنائِه، حيـــثُ تُعَدُّ هذه الفروعُ عندَ إغفالِها، أو إغفالِ موجبِ استثنائِها مُعطِّلةً لعمليةِ التقعيدِ.

٥- مراعاةُ الجوامعِ، وهو الجمعُ بينَ ما ظاهرُه الافتراقُ[2].

وقد ذكر الزركشيُّ -رحمه اللهُ- عن الأستاذِ أبي إسحاقَ -رحمه اللهُ- أنَّ مِن شروطِ المجتهدِ أن تكونَ عندَه: (قُوَّةُ الفهمِ على التعرُّفِ بالجمعِ والتفريقِ، والترتيبِ،

---

(١) «المنثور في القواعد» ١/ ٦٥.

(٢) مُستفادٌ مِن: «المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية» لعلي جمعة عبد الوهاب.

والتصحيحِ، والإفسادِ؛ فإنَّه مِلاكُ الصَّنعةِ)[1].

لكنْ يلزمُ التنبيهُ على أنَّ المرادَ بمهارةِ التقعيدِ هنا ليستْ ما نادَى به البعضُ من تجديدِ قواعدِ الفقهِ والشريعةِ، التي هي مبنيَّةٌ على الأدلةِ الشرعيةِ المُعتبَرةِ.

وإنَّما المرادُ ما يَفتُقُ ذهنَ الطالبِ، ويُعوِّدُ ذِهنيَّته على الربطِ بينَ المسائلِ، وردُّ الفروعِ إلى تقعيدِ مُستَمَدٍّ من أدلَّةٍ مُعتبَرةٍ، وربطِ الفرعِ بأصلِه، وتطبيقِ القاعدةِ على فروعٍ جديدةٍ وحوادثَ نازلةٍ ونحوِ ذلك؛ لتتمرَّسَ عقليَّتُه الفقهيةُ.

فبإجمالٍ للكلامِ تارةً، وبرَدِّه إلى قواعدَ أخرى، وبتقعيدٍ أو تحليلٍ تاراتٍ = يتفجرُ في قلبِ الطالبِ الإدراكُ الذِّهنيُّ والاستيعابُ الواسعُ لكلامِ الفقهاءِ، واستحلابُ الضوابطِ والقواعدِ والرَّدُّ إليهما.

نماذجُ عمليَّةٌ لمهارةِ الضبطِ والتقعيدِ:

فهذه نماذجُ مُستقاةٌ من تراثِ الفقهاءِ، تَمَّ فيها استعمالُ مهارةِ الضبطِ والتقعيدِ:

١- يقولُ أبو إسحاقَ الشِّيرازيُّ رحمه اللهُ: (وإنِ اشترَى عبدًا للتِّجارةِ؛ وجَبتْ عليه فِطْرتُه لوقتِها، وزكاةُ التِّجارةِ لِحَوْلِها؛ لأنَّهما حقَّانِ يجبانِ بسببينِ مُختلِفينِ، فلم يمنعْ أحدُهما الآخَرَ؛ كالجزاءِ والقيمةِ[2]، وحَدِّ الزِّنا والشُّربِ)[3].

هذا نصٌّ فقهيٌّ، تَمَّ فيه إعمالُ مهارةِ التقعيدِ، واستَدَلَّ بقاعدةٍ رَدَّ إليها الفرعَ، وهي: «الحَقَّانِ المُختلِفانِ لا يَتداخلانِ».

(١) «تشنيف المسامع» لبدر الدين الزركشي ٤/ ٥٦٦.

(٢) المرادُ به جزاءُ الصيدِ والقيمةُ، وهو أنَّ المُحرِمَ إذا قتَل صيدًا مملوكًا؛ فعليه قيمتُه لمالكِه، والجزاءُ للمساكينَ. «المجموع» ٦/ ٥٢.

(٣) «المُهذَّب في فقه الإمام الشافعي» ١/ ٥٢٦.

وهذه القاعــدةُ مَفادُها أنَّه: (إذا ترتَّب في ذمَّةِ المُكلَّفِ حقَّانِ، يتعلقُ كلٌّ منهما بجهةٍ مُعيَّنةٍ، ســواءٌ كانا مِن حقوقِ اللهِ، أو مِن حقوقِ العبادِ، أو من النَّوعينِ معًا؛ فإنَّ ذِمَّتَه لا تبرأُ إلا بأداءِ الحقَّينِ معًا، ولا يُجزِئُه الاقتصارُ على واحدٍ منهما.

وهذا يشــبهُ قاعدةً أخرى عندَ الشــافعيةِ والحنابلةِ، وهــي: «حقوقُ الآدميِّينَ لا تَتداخَلُ».

وعبَّر السَّرَخْســيُّ الحنفيُّ عن هذه القاعدةِ بقولِه: «الحقَّانِ إذا وجَبا بســببينِ؛ فاستيفاءُ أحدِهما لا يُسقِطُ الآخرَ».

ومِن تطبيقاتِها: وجوبُ الدِّيةِ والكفَّارةِ على القاتلِ خطأً؛ لأنَّ الدِّيةَ حقُّ الآدميِّ يســتحقُّه أولياءُ المقتولِ، والكفَّــارةَ حقٌّ للهِ تعالى، فوجَب الحقَّــانِ معًا، ولم يصحَّ دخولُ أحدِهما في الآخرِ)[1].

٢- يقولُ سِــبطُ ابنِ الجوزيِّ رحمه اللهُ: (إذا صال الجملُ على إنسانٍ، فقتَله المصولُ عليه؛ دفعًا لشَــرِّه = يضمنُ. وقال الشافعيُّ: لا يضمنُ. وعلى هذا الخلافِ سائرُ البهائمِ، والصَّبيُّ، والمجنونُ.

وكذا لو سقَط مالُ الغيرِ عليه مِن أعلى، فدفَعه عن نفسِه، فأتلَفه؛ ضَمِن عندَنا، خلافًا له.

وقد تساعدنا على أنَّ الحُرَّ أو العبدَ إذا صال على إنسانٍ، فقتَله المصولُ عليه؛ لا يضمنُ.

لنا: أنَّه أتلَف مالًا معصومًا فيضمنُ؛ عملًا بالنُّصوصِ المُحرِّمةِ لمالِ الغيرِ.

وقولُه ﷺ: «العَجماءُ جُرحُها جُبارٌ»؛ أي فِعلُ البهيمةِ هدَرٌ، فلو لم يجب

(١) «القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة» ١/ ٣٢٦.

الضمانُ لكان ذلك اعتبارًا لفعلِهما، وفعلُها غيرُ مُعتبَرٍ.

له: العموماتُ النافيةُ لوجوبِ الضمانِ.

قلنا: المُثبِتُ مُقدَّمٌ على النافي؛ لِمَا عُرِف)[1].

فكلامُه -رحمه اللهُ- يشتملُ على عدَّةِ قواعدَ فقهيَّةٍ:

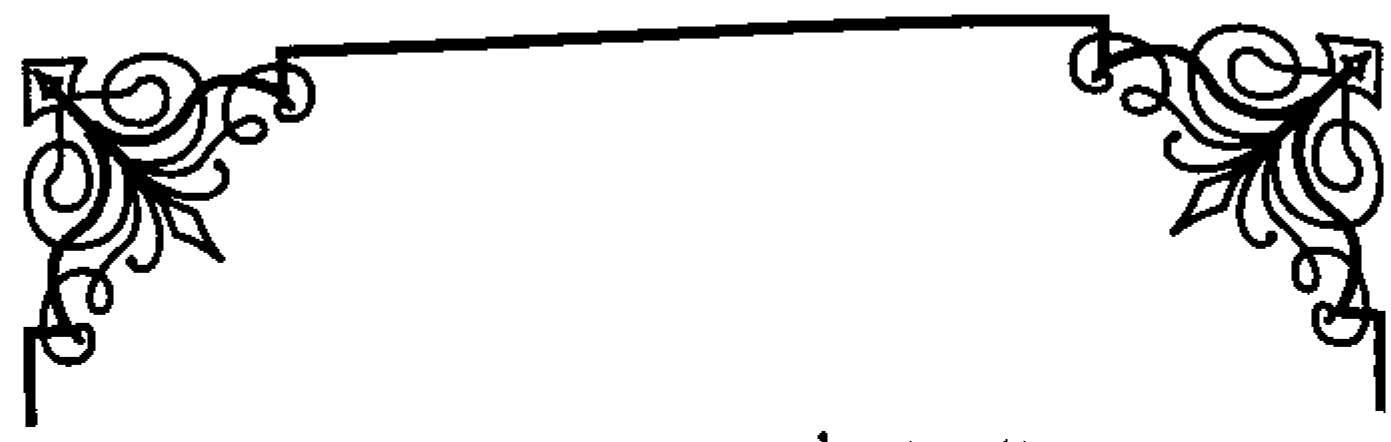
١- كلُّ مَن أتلَفَ مالًا معصومًا فعليه الضمانُ.

٢- فعلُ البهيمةِ هدَرٌ.

٣- المُثبِتُ مُقدَّمٌ على النافي[2].

(١) «إيثار الإنصاف في آثار الخلاف» لسِبْط ابن الجوزي يوسف بن قزغلي ص ٤٠٠-٤٠١.

(٢) ينظر: «نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء» ص ٢٦٠.



المهاراتُ الواجبُ اكتسابُها في مرحلتَيِ «التَّأصيلِ» و «استكمالِ التَّكوينِ»

هناكَ العديدُ من المهاراتِ التي من الممكنِ أن يدركَها الطالبُ إذا تمَّ له برنامجُ التأصيلِ واستكمالِ التكوينِ والبحث العلمي على الوجهِ المطلوبِ، فمنها[1]:

١- مهارةُ المُلاحَظةِ.

٢- مهارةُ المُوازَنةِ:

وهي القدرةُ على معرفةِ أوجهِ الشَّبهِ والاختلافِ، ومعرفةِ القدرِ الفارقِ والقدرِ المُشترَكِ، في الحكمِ الكُلِّيِّ والجزئيِّ، في الأصولِ والفروعِ.

٣- مهارةُ الحدِّ والتعريفِ:

وهي قدرةٌ على تحديدِ حقيقةِ الأشياءِ، وضبطِها، وتسميتِها، وتمييزِها عن غيرِها.

٤- مهارةُ التَّصنيفِ:

وهي قدرةٌ على تقسيمِ وتصنيفِ المعلوماتِ والأشياءِ بغرضِ تشكيلِ

(١) مستفادٌ -مع توظيفه فيما نحن بصدده- من: «مدى فاعِليَّةِ طريقة الاستقصاء الموجه» ص٣٥ وما بعدها.

مجموعاتٍ منها.

٥- مهارةُ التفسيرِ:

وهي القــدرةُ على بنــاءِ أحكامٍ غيــرِ ملحوظةٍ تتضمــنُ التفســيرَ والتعليلَ للمُلاحَظاتِ أو الأحكامِ.

٦- التّنبُّؤ:

وهي تتضمنُ القــدرةَ على صياغةِ ما يمكــنُ أن يحدثَ مُســتقبَلًا؛ بناءً على الملاحظاتِ السابقةِ، وهذه المهارةُ تفيدُ في إدراكِ المآلِ، ومراعاتِه عندَ تقريرِ الحكمِ المناسبِ على الواقعةِ.

٧- صياغةُ الفرضيّاتِ والحلولِ المُمكِنةِ.

٨- عزلُ المُتغيّراتِ، واستبعادُ غيرِ المُؤثِّرِ.

قصورُ النَّظرِ العلمي وإشكالاتُه

يُعنَى هذا المبحثُ بجدلياتٍ وإشكالاتٍ يكثرُ الخوضُ فيها، وتُؤثِّرُ قطعًا على النظرِ الصحيحِ لمسائلِ العلم، وقد تحجبُ الرؤية؛ أصلَها أو كمالَها.



١- إشكاليَّةُ تغايرِ اصطلاحاتِ الفنونِ والمذاهبِ

اصطلاحاتُ العلومِ المُختلِفةِ والمذاهبِ المُتنوِّعةِ، سواءٌ كانت عَقَديَّةً أو فقهيةً أو لُغَويةً أو غيرَها، قد تُسفِرُ عن نوعِ التباسٍ على الباحثِ في العلمِ؛ ذلك أنَّها تتغايرُ تارةً وتتناوبُ أخرى.

هنا كان لا بدَّ للناظرِ في الفنِّ المُعيَّنِ من تناولِ مُقدِّمةٍ فيه ومدخلٍ إليه يُعبِّرُ عن خصائصِه واصطلاحاتِه ومقاصدِه، وإلا حصَل التباسٌ وتداخلٌ وفهمٌ للكلامِ على غيرِ وجهِه الصحيحِ المُعتبَرِ عندَ ذويه.

وإذا أُسِيءَ فهمُ كلامِ العلماءِ، وجاء على غيرِ وجهِه؛ تخلَّل الفسادُ في تصوُّرِ المسائلِ ودركِ كُنْهِ الخلافِ بينَ المختلِفين، وحينَها يظهرُ عَوارٌ كبيرٌ في النظرِ والمباحثةِ، وجورٌ في الثمرة والنتائجِ.

وَلْنَضرِبْ مثالًا على أثرِ اختلافِ المصطلحاتِ ومقاصدِها في الخلطِ في «مسائلِ الاعتقادِ»:

يقولُ شيخُ الإسلامِ رحمه اللهُ: (لفظُ التوحيدِ، والتنزيهِ، والتشبيهِ، والتجسيمِ = ألفاظٌ قد دخَلها الاشتراكُ؛ بسببِ اختلافِ اصطلاحاتِ المُتكلِّمين وغيرِهم، وكلُّ طائفةٍ تعني بهذه الأسماءِ ما لا يَعنيه غيرُهم.

فالجهميةُ من المعتزلةِ وغيرِهم يريدون بالتوحيدِ والتنزيهِ: نفيَ جميعِ الصفاتِ، وبالتجسيمِ والتشبيهِ: إثباتَ شيءٍ منها، حتى إنَّ مَن قال: «إنَّ اللهَ يرى»، أو «إنَّ له

علمًا»؛ فهو عندَهم مُشبِّهٌ مُجسِّمٌ.

وكثيرٌ من المُتكلِّمةِ الصِّفاتيَّةِ يريدون بالتوحيدِ والتنزيهِ: نفيَ الصفاتِ الخبريةِ أو بعضِها، وبالتجسيمِ والتشبيهِ: إثباتَها أو بعضِها.

والفلاسفةُ تعني بالتوحيدِ ما تعنيه المعتزلةُ وزيادةً، حتى يقولون: ليس له إلا صفةٌ سلبيةٌ، أو إضافيةٌ، أو مُركَّبةٌ منهما.

والاتِّحاديَّةُ تعني بالتوحيدِ: أنَّه هو الوجودُ المُطلَقُ.

ولغيرِ هؤلاءِ فيه اصطلاحاتٌ أخرى. وأمَّا التوحيدُ الذي بعَث اللهُ به الرُّسلَ، وأنزَل به الكتبَ؛ فليس هو مُتضمِّنًا شيئًا من هذه الاصطلاحاتِ)[1].

فالناظرُ الخبيرُ مَن يُدرِكُ الفَرْقَ بينَ الفِرَقِ، وصورَ الوِفاقِ والاختلافِ بينَ المذاهبِ في تعاملهم من الاصطلاحات، ثم يحملُه على محاملِ الجادَّةِ عندَ أهلِه ومُعتقِديه بلا شططٍ أو تجاوزٍ، بل ويتغلبُ على إشكاليةِ تعدُّدِ الأقوالِ وتشعُّبِها، حينَها يستطيعُ الوصولَ إلى برِّ السلامةِ في بابِ النظرِ العلميِّ للمسائلِ، ويَحُلُّ إشكالاتٍ كثيرةً لِمَا ظاهرُه المُخالَفةُ وهو خلافٌ لفظيٌّ في الحقيقةِ، أو ما ظاهرُه المُوافقةُ وبينَهما بُعدُ المشرقينِ.

فهناك أبوابٌ قد يُظَنُّ أنَّ فيها خلافًا معنويًّا، وهي ليست كذلك، ومِن ذلك ما قاله شيخُ الإسلامِ رحمه اللهُ: (وللناسِ في هذا البابِ اصطلاحاتٌ مُتعدِّدةٌ، مَن لم يعرفْها يجعلْ بينَهم نزاعًا معنويًّا)[2].

وقال أيضًا: (ينبغي لمَن خاطَب به أن يعرفَ مقصودَ المُخاطَبِ به؛ فقد رأيتُ

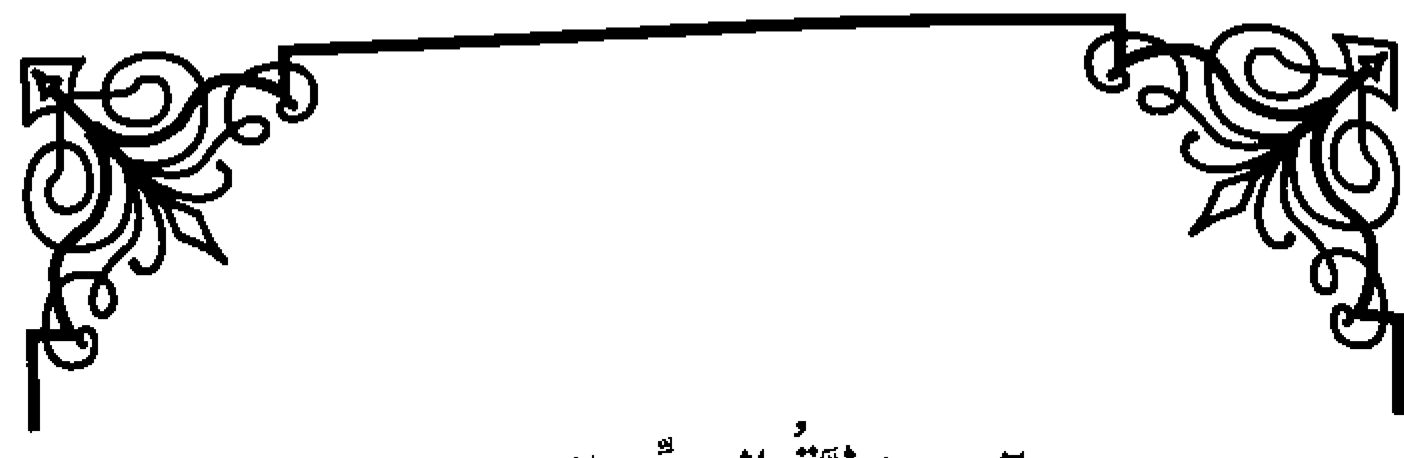
(١) «مجموع الفتاوى» ٤/ ١٥٠.
(٢) «درء التعارض» ٤/ ٢٨.

مِن غلطِ الناسِ -بسببِ اشتراكِ هذا اللفظِ؛ لتعدُّدِ الاصطلاحاتِ فيه- ما لا يمكنُ إحصاؤُه ههنا)[1].

وإذا نظرتَ إلى كثيرٍ ممَّن انبرَى للنظرِ الفقهيِّ، أو النظرِ المُقارِنِ في المذاهبِ والفِرَقِ وغيرِها؛ تجدُه قد تاه في مُحاوَراتِهم ونقاشاتِهم، فخلَط بينَ أصيلِ القولِ ودخيلِه، وبينَ شاذِّ الفكرِ وركيزِه.

فالمُحقِّقُ -إذَنْ- مَن لا يلحقُه فسادُ التشعُّبِ، ولا ينالُه التشغيبُ، أو التشوُّشُ في متاهةِ المصطلحاتِ، وحريٌّ به أن يصلَ إلى الراجحِ بسلامٍ.

(١) «درء التعارض» ٥/ ٢٤٣.



٢- جدليَّةُ الحدِّ والتعريفِ

للحدِّ أو التعريــفِ دَورٌ كبيرٌ فــي إدراكِ المحدودِ، وهو بــابٌ لإدراكِ ماهيَّةِ المُعرَّفِ وحقيقتِه، فيســتغني به عن اســتحضارِ كثيرٍ من التفريعِ والتفصيلِ. وكما هو مقررٌ في كتبِ الأصولِ والمنطقِ أنَّه قد يُرادُ به تمييزُ الشــيءِ عن غيرِه، أو ذكرُ ما يزيلُ الاشــتباهَ العارض، أو ذكرُ حقيقةِ الشيء، أو ذكرُ القسمةِ الحاصرةِ لأفرادِه، والبعضُ قد يُعرِّفُ الشيءَ بحُكمِه المُترتِّبِ عليه لا بماهيَّتِه، وهو وإن كان مردودًا كحدٍّ منطقيٍّ، إلا أنَّ بعضَ العلماءِ قد يلجأُ إليه لحاجةِ المُتعلِّمِ، ومُراعاةً للتدرُّجِ في تعليمِه، خاصَّةً في مُختصَراتِ العلومِ.

والبعضُ قد يُعرِّفُ الشيءَ بذكرِ أحدِ أفرادِه المُندرِجةِ تحتَه، أو لوازمِه.

وبين هذه الطرقِ قد يقعُ الخلطُ بين أنواعِ التعريفِ ومناهجِه وأساليبِه.

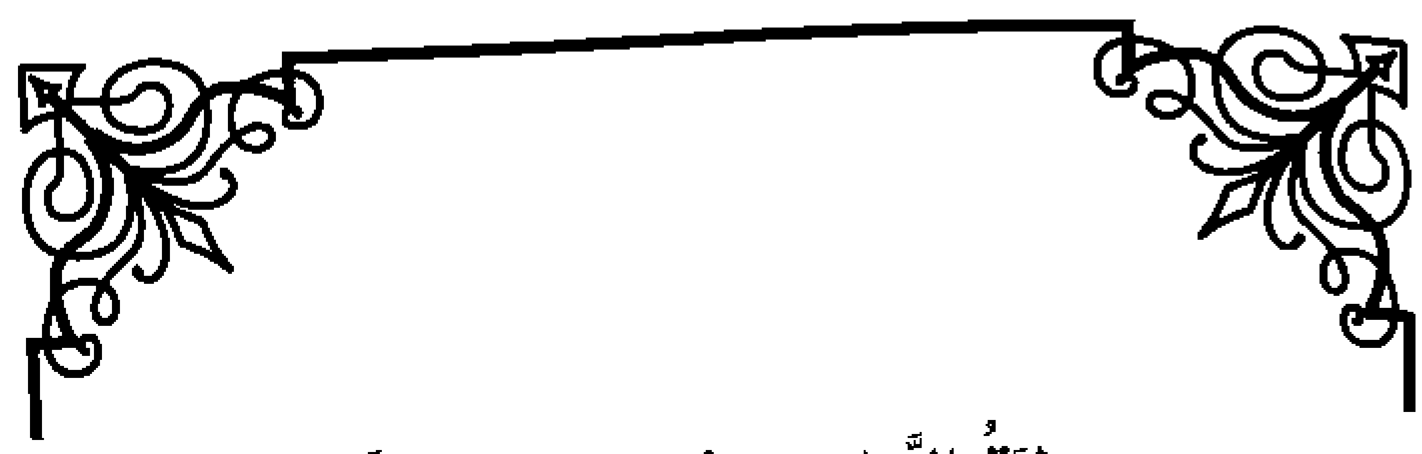
ومن جهة أخرى تختلف النظرة إلى الحد والتعريف بين البســط، أو التوسط، أو الاختصار (وقد يصــل إلى الاعتصار)، فالأول: من يجعلُه محلَّ بســطٍ وإطنابٍ وزيادةِ إيضاحٍ، وإن كان الإجمالُ هو الأَوْلــى، كما نَصَّ عليه غيرُ واحدٍ من العلماءِ، إلا أنَّهم قد يطيلون العبارةَ بذكرِ مُكمِّلاتِ التعريفِ؛ للسَّلامةِ من المُعارِضِ، ولجمعِ الأفرادِ، ومنعِ غيرِها من الالتباسِ بها. والثاني: من يجعله محل توسُّطٍ. والثالث: مَن يراه مقامَ اختصارٍ، والأكثرون على الأخيرِ.

مفادُ ما سبق:

أن الواجبَ عندَ النظرِ في الحدودِ والتعاريفِ: إدراكُ أنَّ الحدَّ لتمييزِ المحدودِ عن غيرِه، وأنَّه قد يحصلُ به تصوُّرُ المحدودِ لمَن كان به جاهلًا، ولا يشغلُ بالَه أن يكونَ مُختصَرًا أو مُتوسِّطًا أو مُطوَّلًا، وأن يجعلَ مِعيارَه التمييزَ والتصوُّرَ، وحصولَ ما يفيدُه في إدراكِ حقيقةِ التعريفِ، وأن يكونَ مُلِمًّا بمناهجَ المناطقةِ والفقهاءِ في الحدِّ والتعريفِ، ويستفيدَ من هذا أحيانًا ومن الآخرِ أحيانًا أخرى، ولا يُعنَى بالاستكثارِ من التعاريفِ إلا ما أفاد وحقَّق المرادَ.

يقولُ تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ -رحمه اللهُ- عند النِّقاشِ حولَ تعريفِ «النَّسْخ»: (وأنا أبدًا أستثقلُ الإكثارَ من ذكرِ التعاريفِ، والاشتغالَ بتزييفِها؛ فإنَّ المعانيَ إذا لاحَتْ لم يَحسُنْ بطالبِ التحقيقِ تضييعُ الأوقاتِ في تحريرِ العبارةِ عنها، والأوقاتُ أنفسُ مِن التَّنافُسِ في ذلك)[1].

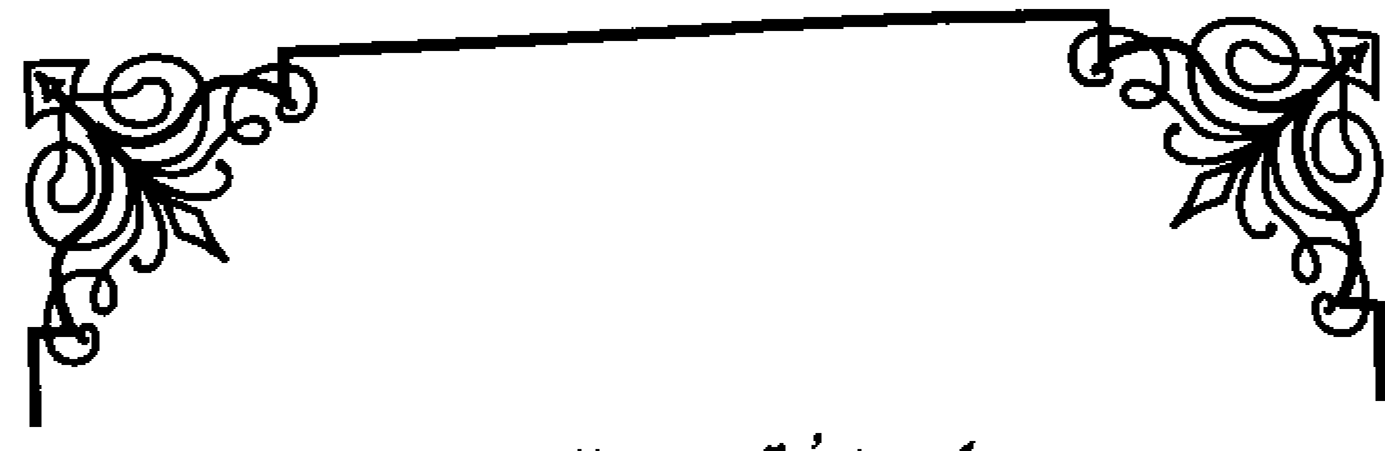
(١) «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب» ٤/ ٣٨.



٣- جدليَّةُ النَّظرةِ الجُزئيَّةِ للعلمِ الشَّرعيِّ

كناظـــرٍ مِن مِنظارِ الفقهِ فقــطْ، أو الأصولِ، أو الحديثِ، فــلا ينظرُ إلى العلمِ الشرعيِّ ككُلٍّ مِن جميعِ الزَّوايا العلميةِ أو يحررَ كلَّ مقامٍ وما يناسبُ بابَه.

ومِن أمثلتِه: الاعتمــادُ الكُلِّيُّ في تعريفِ «الصَّحابيِّ» على إحدى مدرســتَيِ الأصولِ أو الحديثِ، دونَ الجمعِ بينَهما والاستفادةِ من مناهجِهما.



٤- عدمُ تحريرِ المسائل

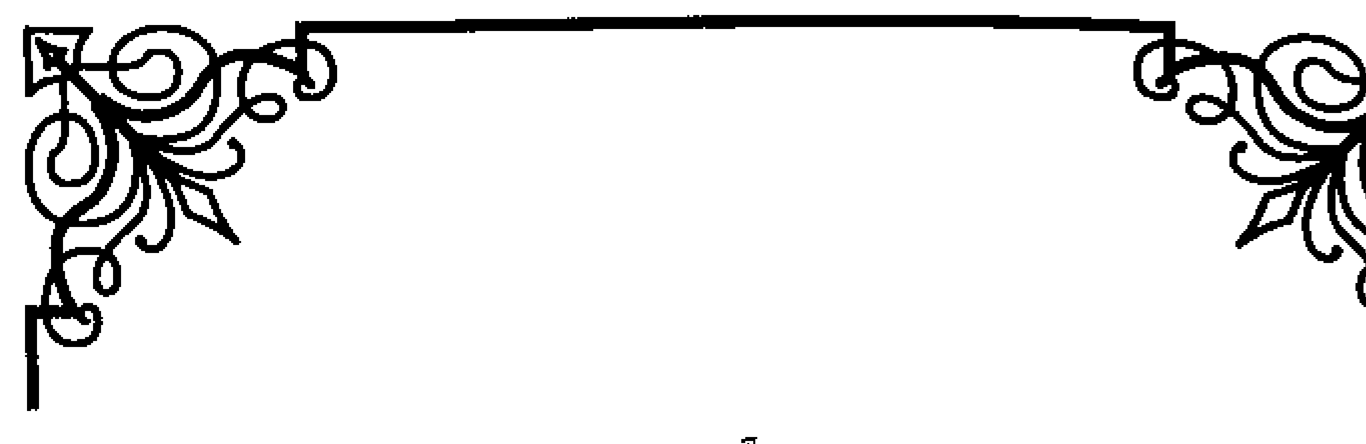
والمــراد بعدم التحرير عــدمُ القدرة علــى التفريق بين محــلِّ النزاع ومحلِّ الإجماع، وانعدام هذا التحريرِ فقدٌ لمسبار التحقيق العِلمي، وحبسٌ للنفسِ عن النَّظرِ الدقيقِ والفحصِ العميقِ للمسائل.

وهذا يتنزَّلُ على جميعِ العلومِ والفنون، يقول الغزَّاليُّ رحمه الله: (ما من علمٍ من هذه العلومِ إلا ولهُ مواقعُ إجماعٍ ومثاراتُ نزاعٍ)[1].

فإذا كان الأمر كذلك فمِنْ قُصــورِ النَّظَر: الغفلةُ عن مواقعِ الإجماعِ ومثاراتِ النزاعِ.

---

(١) «المنخول»، ص٥.

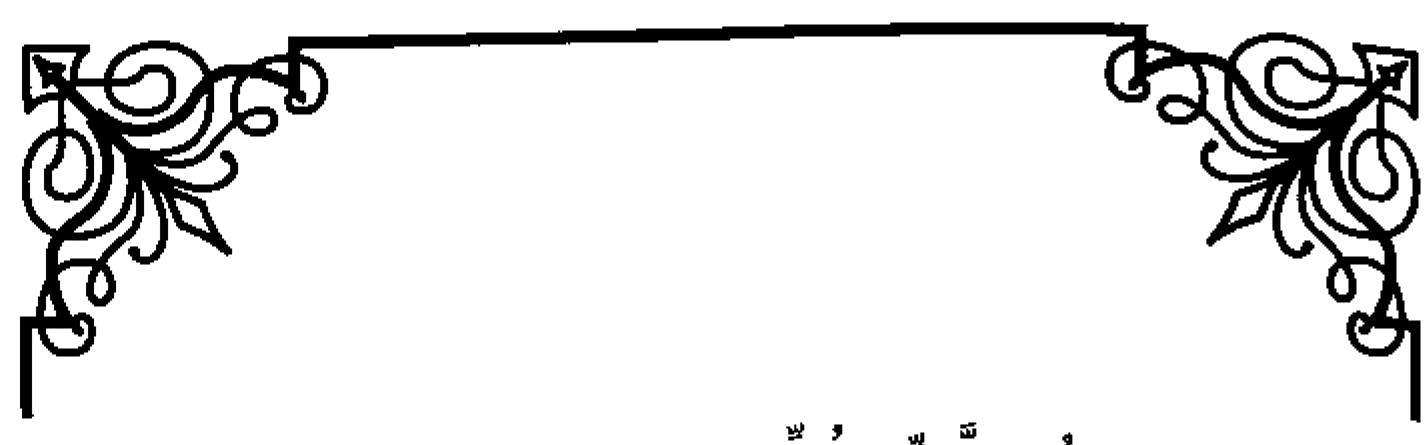


٥- فقرُ المادَّةِ والتوظيفِ

الاطِّلاعُ العامُّ يعطي معرفةً عامَّةً في العلومِ، ويُوسِّعُ المداركَ، فيكونُ اطِّلاعُ الطالبِ فيه مُرتَّبًا مُؤطَّرًا بهدفٍ.

وأمَّا الاطِّلاعُ الخاصُّ؛ فيفيدُ في تنميةِ القدرةِ العلميةِ في فنٍّ أو مسائلَ بعينِها، فيحتاجُ الطالبُ إلى جردِ ما أُلِّف فيه؛ ليكونَ مُلِمًّا بكتبِه ومباحثِه ومظانِّ مسائلِه.

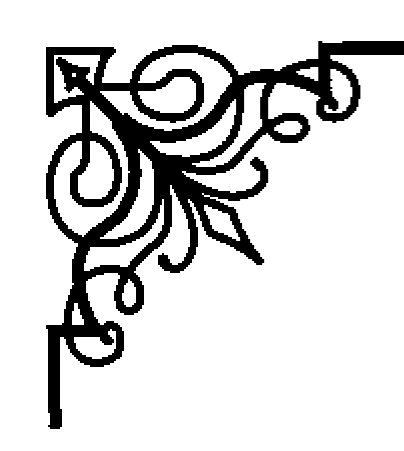
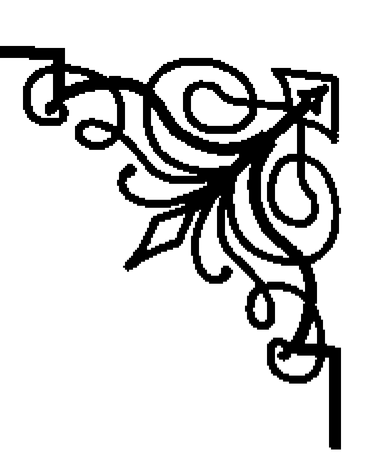
وبهذَينِ الاطِّلاعينِ يَسْلمُ الطالبُ من فقرِ المادة؛ بحسنِ الاطِّلاع، ويَسْلمُ كذلك من فقرِ التوظيفِ إن أحسن استخدامَ أدواتِ العلمِ وتحقيق مناطاتِه.



٦- حسنُ الظَّنِّ بكُلِّ معلومةٍ دونَ تمحيصِها

الأَوْلى في عقليةِ طالبِ العلمِ استعمالُ النَّباهةِ، وألَّا يُمرِّرَ المعلوماتِ إلا بعدَ عبورِها بقناةِ التمحيصِ والتحرِّي؛ فإنَّ حُسنَ الظَّنِّ بكلِّ معرفةٍ يكشفُ عن سطحيَّةِ التفكيرِ، ومِن هنا تولَّد المصطلحُ الشائعُ المعروفُ بـ«حاطِبِ اللَّيل».

فكلُّ «حاطبِ ليلٍ» في الحقيقةِ مُخلِّطٌ في مصادرِ العلمِ، ومُفرِّطٌ في حُسنِ الظَّنِّ بكلِّ ما يُنشَرُ، وقبولِ كلِّ ما يُذكَرُ، فعلومُنا -أهلَ الإسلامِ- لا تقبلُ الخرافةَ ولا تروِّج لها.

٧- غيابُ «تفقُّدِ العلومِ»

تَفقُّدُه: أن يُنقِّبَ ويفتِّشَ في علومِه، وما وصَل إليه بُنيانُه.

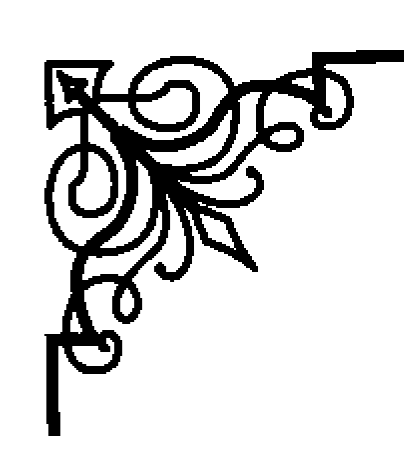
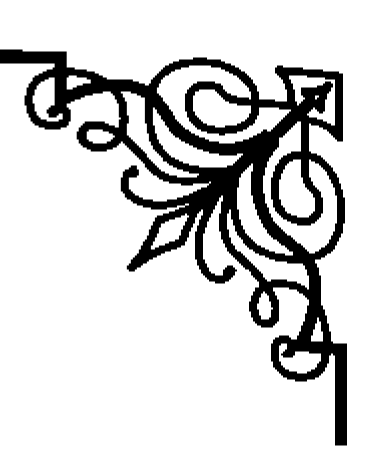
معَ دوائرِ الزَّمنِ تتراكـمُ أكوامٌ من غثِّ الكلامِ، وتنطبـعُ في الأذهانِ معارفُ لا تزنُ شيئًا عندَ صيارفةِ التحقيقِ والرسوخِ.

وفي عالمِ الفضاءِ المفتوحِ تأتي جنايةُ المواقعِ الشَّـبكيةِ والصُّحفِ ومنتدياتِ الحوارِ لتُسرِّبَ أغلاطًا، وتُثبِّتَ تصحيفاتٍ.

ومردُّ هذا كلِّه: حسـنُ الظَّنِّ بهذه المنابرِ، وما تقذفُه من حواراتٍ ونقاشـاتٍ، ومعَ الاستعجالِ يستمرئُ الطالبُ هذا الأسلوبَ ليَنتُجَ عنها إرثٌ هشٌّ وعلمٌ مُشوَّشٌ، لا يسندُ صاحبَه عندَ قلمِ التحقيقِ.



الإشكالاتُ الذِّهنيَّةُ

الذِّهنُ الوقَّادُ منَّةٌ كبيرةٌ، وعطيَّةٌ لا تُقارَنُ، فبحسنِ التصوُّرِ وجودةِ الاستشكالِ يستطيعُ الطالبُ التمييزَ بينَ المُفترِقاتِ، والجمعَ بينَ المُؤتلِفاتِ المُتَّفِقاتِ، وضمَّ النظيرِ إلى نظيرِه بلا تكلُّفٍ أو تعسُّفٍ.

ومرجعُ ذلك أنَّ معرفةَ الاستشكالِ في نفسِه علمٌ وفتحٌ من اللهِ على طالبِ العلمِ؛ كما قال القرافيُّ رحمه اللهُ: (معرفةُ الإشكالِ علمٌ في نفسِه، وفتحٌ مِن اللهِ تعالى)[1].

فعدَّ معرفةَ الإشكالِ «علمًا» و«فتحًا»؛ لكونِه يكشفُ جهلًا، ويُيسِّرُ الفهمَ على نفسِه وغيرِه، وبرفعِه تُدفَعُ تهمةُ التناقضِ والتعارضِ عن الشريعةِ، فنجدُ الإمامَ القرافيَّ نفسَه لمَّا أورد الفرقَ بينَ (ما تُشرَعُ فيه البسملةُ، وما لا تُشرَعُ فيه البسملةُ)، قال بعدَها: (فأمَّا ضابطُ ما تُشرَعُ فيه التسميةُ من القُرُباتِ، وما لم تُشرَعْ فيه؛ فقد وقَع البحثُ فيه معَ جماعةٍ من الفضلاءِ، وعسُر تحريرُ ذلك وضبطُه.

وإنَّ بعضَهم قد قال: إنَّها لم تُشرَعْ في الأذكارِ وما ذُكِر معَها؛ لأنَّها بركةٌ في نفسِها.

فورَد عليه قراءةُ القرآنِ، فإنَّها من أعظمِ القُرُباتِ والبركاتِ، معَ أنَّها شُرِعتْ فيه.

(١) «الفروق» ١/ ١٢١.

فالقصدُ مِن هذا الفرقِ: بيانُ عُسرِه، والتنبيهُ على طلبِ البحثِ عن ذلك؛ فإنَّ الإنسانَ قد يعتقدُ أنَّ هذا لا إشكالَ فيه، فإذا نُبِّه على الإشكالِ استفاده، وحثَّه ذلك على طلبِ جوابِه، واللهُ تعالى خلَّاقٌ على الدَّوامِ، يَهَبُ فضلَه لمَن يشاءُ، في أيِّ وقتٍ شاء)[1].

ويقابِلُ هذه المنَّةَ والفتحَ رزيَّةٌ يُبتلَى بها المرءُ في عقلِه وذهنِه، ليصيرَ مُعاقَ الذِّهنِ، مُشوَّشَ الفكرِ، قاصرًا عن إدراكِ الأمورِ وتقديرِها، وتختلطُ عليه المسائلُ، والفروعُ والأصولُ، والكُلِّيَّاتُ والجزئياتُ، فيُقدِّمُ ما حقُّه التأخيرُ، ويُؤخِّرُ ما حقُّه التقديمُ.

والعبدُ لا يزالُ سابحًا في تصوُّراتٍ وأفكارٍ ذهنيَّةٍ مدى الحياةِ، منها ما يتعلقُ بمسائلِ العلمِ الشرعيِّ، ومنها ما يكونُ في غيرِه؛ وذلك لأنَّ (نتائجَ الأفكارِ لا تقفُ عندَ حدٍّ، وتصرُّفاتِ الأنظارِ لا تنتهي إلى غايةٍ، بل لكُلٍّ عالمٍ ومُتعلِّمٍ منها حظٌّ يحرزُه في وقتِه المُقدَّرِ له، وليس لأحدٍ أن يزاحمَه فيه)[2].

لكنَّ أمرَها يحتاجُ إلى ضبطٍ، ويَجدُرُ بنا الاعتناءُ بها والنظرُ إليها نظرةً حكيمةً مُتَّزِنةً؛ لأنَّها قد تئولُ بالطالبِ إلى التمكُّنِ، وقد تَزِلُّ به إلى حضيضِ الزَّيغِ وارتعاشِ الحقِّ في قلبِه.

وإذا نظَرْنا إلى مَقصَدِ العلمِ الأعظمِ؛ وجَدْنا أنَّ العلمَ ما أزال الشُّبهةَ لا ما أدخَل فيها، ووجَدْنا أنَّ العلمَ ما رفَع الاختلافَ والفُرقةَ لا ما تسبَّب فيها؛ فهذه غايةُ العلمِ الكبرى: دفعُ الشبهةِ، ورفعُ الاختلافِ والتدابرِ والافتراقِ.

فمعَ إلفِ الاستشكالِ قد يزيغُ القلبُ عن قصدِ الحقِّ، ويتشربُ حبَّ الخلافِ

(١) «الفروق» ١/ ١٣٢.

(٢) «كشف الظنون» ١/ ٣٩، وينظر: «بصائر ذوي التمييز» ١/ ٧٩.

والجدلِ، فيصابُ بحالةٍ مِن فَرْطِ النُّزوعِ إلى صناعةِ الخلافِ وادِّعاءِ التعارضِ، بل قد يستمرئُ الطالبُ -كأثرٍ مُترتِّبٍ على هذا النُّزوعِ والرَّغبةِ القويةِ- أن يعارضَ كلَّ قولٍ، أو حتى قاعدةٍ ودليلٍ!!

قد نلحظُ هذا في استقرائيَّةٍ دوَّارةٍ تكشفُ ما نحنُ بصددِه، وهي قولُهم: (ليس على العمومِ)، وقولِ: (لا نُسلِّمُ لكَ بكذا...). فقد أصبَحتْ مادَّةً تلوكُها ألسنةُ كثيرٍ من المُعترِضين بلا ضابطٍ؛ ولعًا بالمعارضةِ والاستشكالِ السَّفسَطيِّ! إذْ ما من مسألةٍ إلا وقد يُقالُ فيها: (ليس على العمومِ)، وما من قاعدةٍ إلا وقد يندُّ منها فردٌ على خلافِ القاعدةِ، أو يأتي المتفردُ عن القاعدةِ الأمِّ على وجه استحسانٍ، أو لوجودِ قدرٍ فارقٍ، ممَّا تُخطِئُه النظرةُ العَجْلى.

خطورةِ الإغراقِ في الإشكالاتِ:

١- اهتزازُ صورةِ (الحقِّ) و(الرَّاجحِ)، والتَّساهلُ في ادِّعاءِ الخلافِ وإن لم يُحْكَ فيها خلافٌ أصلًا.

٢- قد يترقَّى الاستشكالُ مع الطالبِ إلى مرحلةِ الحُكمِ وتنقيحِ المناطِ، وهذا أمرٌ خطيرٌ لمَن هو في مُقتبَلِ العمرِ وأوَّلِ التفقُّهِ.

وبيانُه: أنَّ الاستشكالَ غالبًا ما يقعُ في حيِّزِ الفهمِ، (فهو أمرٌ تصوُّريٌّ). أمَّا انتقالُه إلى درجةِ الحكمِ، وتنزيلُه على الواقعِ؛ (فهو أمرٌ تصديقيٌّ)، فهذا مكمنُ الخطرِ، تمنعُ منه الأهليةُ الناقصةُ في العلمِ والاجتهادِ، وضعفُ التصوُّرِ الجُملي لقضايا العِلم.

فإلفُ الاستشكالِ -خاصَّةً معَ عدمِ المُجيبِ والمتابعِ- يئولُ إلى تعجُّلِ المتعلِّمِ لإصدارِ الأحكامِ، والدخولِ في مسائلَ مُشكِلةٍ، ويحاول تنزيلَها على واقعِ المسلمين.

وفي الواقعِ، نجدُ مَن انخرَط في تصنُّعِ الإشـكالاتِ، وشـغَل نفسَـه بالاعتراضاتِ غاليًا فيها مِن طلاب العلمِ؛ نجدُه مِن أسرعِ الناسِ تفلُّتًا، ودخولًا في الفتنِ وتشرُّبِها!

٣- الجرأةُ على النقدِ، وفقدانُ الأدبِ معَ الكبارِ من أهلِ العلمِ:

خاصَّةً معَ ممارسةِ الجدلِ، والتتبُّعِ للمسألةِ، وجعلِها مركزيةً دوَّارةً على لسانِه، سيَّارةً في مجالسِه وأترابِه.

٤- تحوُّلُ الاستشكالِ إلى اعتراضٍ ونقدٍ ونُهمةٍ في التَّشكيك:

فالاستشـكالُ بابٌ للعلمِ، ويفتحُ الأذهانَ، لكنَّه قد يئـولُ إلى آلةِ نقدٍ تدفعُ بالأفكارِ، وتعترضُ للاعتراضِ؛ ليتمحَّضَ الذِّهنُ ويعاد تأسيسِـه إلى الإنكارِ لا القبولِ، ودفعِ العلمِ لا أخذِه والاستفادةِ منه.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (فضيلةُ أحدِهم باقتدارِه على الاعتراضِ والقدحِ والجدلِ، ومن المعلومِ أنَّ الاعتراضَ والقدحَ ليس بعلمٍ ولا فيه منفعةٌ، وأحسـنُ أحوالِ صاحبِـه أن يكونَ بمنزلةِ العامِّيِّ، وإنَّما العلمُ في جوابِ السـؤالِ. وهذا أبـو عبد اللهِ الرَّازيُّ، من أعظمِ الناسِ في هذا البـابِ -بابِ الحَيرةِ والشَّـكِّ والاضطرابِ- لكنْ هو مُسرِفٌ في هذا البابِ؛ بحيثُ له نَهْمةٌ في التشكيكِ دونَ التحقيقِ)[1].

موقفُ المتعلم من الإشكالاتِ:

١- تقديـمُ ما حقُّه التقديمُ من مسـائلَ وقضايا؛ فلا يأتي إلى كبارِ المسـائلِ التي توقَّف فيها كبارُ المُحقِّقين ليقفَ أمامَها بعقلِه الذي هو طورُ التأهُّلِ.

(١) «مجموع الفتاوى» ٤/ ٢٧-٢٨ باختصار.

٢- التفريقُ بينَ الإشكالِ الذي يترتبُ عليه حكمٌ على الواقعِ ومسائلِ تحقيقِ المناطِ، وبينَ ما كان منها من قَبِيلِ تصوُّرِ المسائلِ (ذهنيًّا فقطْ).

٣- أن يعلمَ الطالبُ أنَّ أغلبَ الاستشكالاتِ التي تَعرِضُ له، تكونُ مُقارَنَةً بما وقَر أولًا، وبه يقعُ الاقتناعُ قوَّةً وضعفًا.

٤- التفرقةُ بينَ الإشكالِ الحقيقيِّ الواقعيِّ، والإشكالِ الذِّهنيِّ المدفوعِ بمتعةِ العلمِ ولذَّةِ احتواءِ الجانبِ المعرفيِّ. وقد لا يكونُ متعةً للذهنِ، فقد يكونُ من بابِ الرِّياضةِ الذهنيةِ.

٥- التمييزُ بينَ ما تُلِحُّ الحاجةُ إليه، وبينَ ما يأتي تبعًا بالصبرِ، مَعَ اتِّساعِ المداركِ وتفتُّحِ العقلِ.

٦- أن يعلمَ أنَّ الاجتهادَ يتغيرُ، وأنَّ الآراءَ تختلفُ مَعَ التقدُّمِ في العلمِ والسِّنِّ:

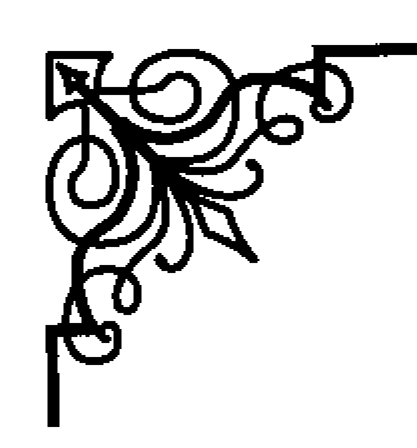
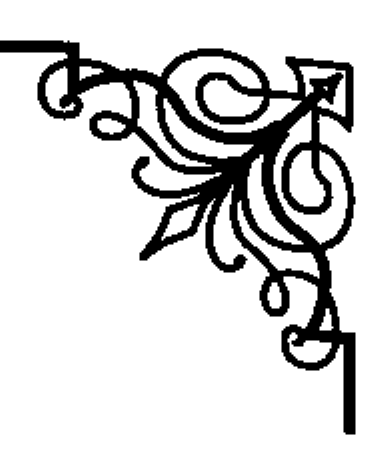
يقولُ المازَريُّ رحمه اللهُ: (كم مِن عالمٍ نحريرٍ نصَر مذهبًا، حقًّا أو باطلًا، أكثرَ أيَّامِ عمرِه، وكان واثقًا من استدلالِه عليه، ثُمَّ انتقَل عنه إلى نقيضِه)[1].



(١) «إيضاح المحصول من برهان الأصول» ص١١٧.

المتعلم وآلةُ الواقع

في هذا الزمـــنِ، كثُرتِ النـــوازلُ وعمَّتْ، وأضحى الناسُ مـــن كثرتِها كأنَّهم يعيشون واقعًا يختلفُ كثيرًا عن الأمسِ، بل لستُ مبالغًا إذا قلتُ: يَحْيَوْنَ حياةً مختلفةً سلوكًا وفكرًا وذهنًا!

سمةُ الواقعِ

١- طغيانُ الآلةِ الحاسُوبيّةِ:

ففي هذا الزمنِ، طغَت الآلةُ الحاسوبيةُ والإلكترونيةُ، ودخلَتْ شتى مجالاتِ الحياةِ، وتفـرَّع عنه دخولُ العالـمِ إلى عالمٍ رَحْبٍ بالشبكةِ الدوليـةِ [الإنترنت]، واستعمالُها في العلمِ والبحثِ، وانفتاحُ أُفُقٍ جديدٍ في العلمِ والتجربـةِ؛ فتُنُوقِلتِ العلومُ، ولم تَعُدْ حِكرًا على فئةٍ أو شعبٍ أو دولةٍ.

ومِن أثرِ انتشارِ الآلةِ، وذيوعِ استعمالِ الشبكةِ الدوليةِ: أنَّ السائلَ لا يرجعُ إلى المفتي إلا بعدَ أن يكونَ قد بحث في الإنترنتِ قبلَها مرَّاتٍ!

٢- دخولُ العالمِ إلى أُفُقٍ ونظريّاتٍ جديدةٍ:

وذلك فـي الفكرِ، والسياسـةِ، وغيرِهما؛ ممَّا يُعَدُّ ثورةً علميـةً على كثيرٍ من القديمِ.

٣- ارتفاعُ موجةِ الإلحادِ، والتفلُّتِ من الدِّينِ:

فمِن أخطـرِ إفرازاتِ الواقع ارتفـاعُ موجةِ الإلحادِ، ومُحاوَلـةُ ربطِه بالعلومِ والدِّراسـاتِ الأكاديميةِ، خاصَّةً المـدارسَ العالَميَّةَ الأورُبِّيَّـةَ والأمريكيةَ، فيتلقَّفُها الطالبُ نبتةً صغيرةً في مُقتبَلِ عمرِه، وينشـأُ عليها، وإذا به يجدُها شـجرةً كبيرةً -في المرحلةِ الجامعيةِ وما بعدَها- قد سُقِيتْ بما يدعمُها من مُعلِّمينَ وباحثينَ ودراساتٍ.

٤- الولعُ بالحضارةِ الغربيةِ:

فممَّا زاد -كنتيجةٍ لبعضٍ ممَّا سبَق- ولعُ الناسِ بالغربِ وعاداتِه حلوِها ومُرِّها، بغيرِ تصفيةٍ لشوائبِ الأفكارِ والسلوكِ.

٥- صراعُ الإعلامِ:

ففي هذا الزمنِ، معَ انفتاحِ البثِّ المباشرِ، وصراعِ الإعلامِ، و (سلطانِ الصُّورةِ) = بات الكثيرُ من أفرادِ هذا العالمِ يعيشُ على الإعلامِ علمًا وفكرًا، فأصبَح الإعلامُ مصدرَه وثقافتَه، يدندنُ حولَ ما يدندنون، ويُعبِّرُ كتعبيرِهم، ويُفكِّرُ بطريقتِهم.

٦- انفتاحُ شبكاتِ التواصلِ الاجتماعيِّ بينَ الناسِ:

أثَّرتْ مواقعُ التواصلِ الاجتماعيِّ بعضَ المجالاتِ في تقاربِ المعلومةِ وسرعةِ نشرِها، لكنَّ هذه البيئةَ امتَدَّتْ إليها أيادٍ خبيثةٌ، وأشعَلتْ فيها قِيَمًا خاطئةً. والذي يهمُّنا هنا أن نقولَ: إنَّ الكثيرَ من الناسِ -ومنهم المُثقَّفون وطُلَّابُ العلمِ- يُمضُون أوقاتًا كثيرةً أسرى بينَ فكَّيْ هذه المواقعِ، فقد أصبَحتْ مصدرَ معلوماتٍ وقراءةٍ!

فبتَّ ترى بعينِكَ رحيلَ ذلك القارئِ النَّهِمِ المُستجمِعِ الذِّهنِ ليطَّلِعَ على الكتبِ، ويتابعَ المجلاتِ العلميةَ المُحكَّمةَ، والبحوثَ الجديدةَ، وأحدثَ الكتبِ والرسائلِ العلميةِ، وأفرَز ذلك الواقعُ سطحيَّةَ الفكرِ، وسرعةَ اتِّخاذِ القرارِ والحكمِ على الكاتبِ، وولعَ التصنيفِ للناسِ، والجرأةَ على الرَّدِّ والتعقُّبِ والإيرادِ.

ومِن أشدِّ إفرازاتِه -في نظري- زوالُ هيبةِ العالمِ والمعلِّمِ، مُقابَلةً بارتفاعِ رصيدِ السياسيِّ والمشهورِ ومُقدِّمِ البرامجِ، فنتَج عن ذلك أيضًا الجرأةُ على الخوضِ في مسائلِ الشريعةِ وتقريراتِها، والأخذِ والرَّدِّ.

فكان لا بـدَّ من إبرازِ التصوُّرِ الشـرعيِّ، والتعاملِ في ضوءِ هـذه المُعطَياتِ السابقةِ، وفرضِ الإسلامِ بقُوَّةِ الحُجَّةِ وآلةِ البيانِ معَ هذا الواقعِ الشائكِ والمُعقَّدِ.

وأشدُّ ما يخشاه الحريصُ على دينِه أن يُساءَ الظَّنُّ بالدِّينِ والتشريعِ الإسلاميِّ؛ كأنْ يُرمَى بقصورٍ أو عُقمٍ تشـريعيٍّ يُحقِّقُ مقصدَ الإسـلامِ، أو أن تنالَ العالِمَ إساءةٌ؛ كرميِه بقصورِ العلمِ وضعفِ التصوُّرِ، أو سـوءِ الفهمِ؛ إذِ النَّوازلُ كثيرةٌ، والمسـائلُ مُتشابِكةٌ.

حدَّثَني أحدُ الإخوةِ ممَّن يدرسُ في بلادِ الغربِ أنَّ أبناءَ جلدتِه ومَن يدرسون معَه من أبناءِ الإسـلامِ نحَـى بعضُهم إلى الإلحادِ، وتمكَّن منـه، وخرَج من الدِّينِ!! وعلَّل أخي ذلـك بقولِه: (لأنَّه لم يجدْ مَن يُريحُه مِن هذه الشُّـبهاتِ التي تُؤرِّقُه؛ في مجالِ نشأةِ الخلقِ، والمَقصَدِ من الحدودِ، والارتباطِ بالخالقِ، وعِدَّةِ قضايا مُتنوِّعةٍ).

ليتَ الأمـرَ توقَّف عندَ ذلك الحدِّ، بل قال: (أخَذْنا فـي البحثِ عن ردودٍ في مثلِ هذه المسائلِ بلغةِ العلمِ، وتُقرِّبُ فكرةَ الإيمانِ بخالقٍ؛ فلم نجدْ إلا ردودًا لبعضِ القساوسةِ، وهي أقوى المطروحِ آنذاكَ)! اهـ.

٧- بروزُ سلطانِ الجماهيرِ والثَّوراتِ.

٨- الحاجةُ إلى الإقناعِ، لا التسليةِ ودغدغةِ المشاعرِ:

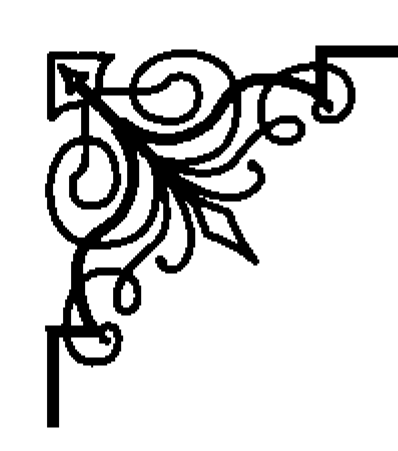
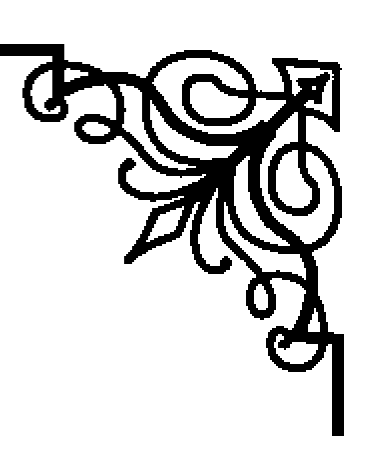
لقد بات عصرُنا عصرَ فكرٍ وإقناعٍ، وإلا تفلَّت أبناءُ المسلمين؛ فكثيرٌ من حالاتِ الإلحادِ والرِّدَّةِ باعِثُها الفكرُ لا الشـهوةُ، والعقلُ القاصرُ لا حُبُّ التفلُّتِ للوصولِ إلى المَلاذِّ.

ومِن إشـكالياتِ ذلك: أنَّه لم يعدْ هناك سـقفٌ ولا أُطُرٌ للأطروحاتِ، وصار النِّـزاعُ في وجودِ الخالقِ بعـدَ أن كان في بعضِ التفاصيلِ على اسـتحياءٍ، فلقد تغيَّر

الزمنُ حقيقةً، وتغيَّر أبناؤه، وتغيَّرتِ العقولُ، وما كان يُسكِتُ شخصًا في الماضي = أصبح ابنُ هذا الزَّمنِ يزدريه! فتعيَّن الإقناعُ ومُخاطَبةُ الناسِ على قدرِ العقولِ.

٩- اهتزازُ صورةِ العلمِ الشَّرعيّ، وعالمِ الشَّريعةِ:

وهذا مِن أهمِّ ملامحِ الواقعِ، ولا يكادُ أحدٌ ينازعُ في ذلك؛ فبأقلِّ نظرةٍ يعقدُ المرءُ فيها مُقارَنةً، يجدُ مكانةَ كثيرٍ من علماءِ الشريعةِ قد هبَطتْ من سماءِ الاعتزازِ إلى سفحِ الإهمالِ والتنقُّصِ.

مُناكَفةُ الواقعِ

إذا كان الحديثُ عن طالبِ علمٍ يُواجِهُ واقعًا؛ كان لا بدَّ من طرحِ آلةٍ للمُواجَهةِ، وتذليلِ السُّبلِ لمعالجتِه، ومن ذلك:

١- الحرصُ على تصوُّرِ الواقعِ تصوُّرًا دقيقًا:

ويلزمُ منه عدمُ الخوضِ في المسائلِ الحادثةِ إلا بعدَ تصوُّرِها وتصوُّرِ أبعادِها بدقَّةٍ.

وممَّا ينبغي التنبُّهُ له أنَّ الحضَّ على معرفةِ الواقعِ لا يعني قطعًا اندراجَه في العلومِ الطبيعيةِ، والخوضَ في السياسةِ ومُسايَرةَ أبناءِ الزمانِ في خوضِهم، كلَّا، بل المرادُ تصوُّرُ ما عليه الناسُ؛ بحيثُ يَسلَمُ له تنزيلُ أحكامِ الشريعةِ على الواقعِ المناسبِ.

ومن غيرِ المقبولِ أن يُقالَ: إنَّ العلماءَ يعيشون في برجٍ عاجيٍّ. رميًا لهم بانقطاعِهم عن الواقعِ؛ لعدمِ خوضِهم في كلِّ حدثٍ وحديثٍ.

وفي عصرِ الثَّوراتِ، يصحُّ أن يُقالَ: إنَّ مولودَها من طلابِ العلمِ= مُبتَسَرٌ، وعلمَه المشوبَ بمزيجِ الواقعِ والمُتابَعةِ لجميعِ أحداثِه وفصولِه = خِداجٌ.

قديمًا قال أبو محمدٍ ابنُ حزمٍ رحمه اللهُ: (نُوَّارُ الفِتنةِ لا يَعقِدُ)[1]. ففي الفتنِ

---

(١) «الأخلاق والسير» ص١٠٦. النُّوَّارُ: زهرةُ الشَّجرِ والنَّباتِ. و لا يَعقِدُ: لا يتكاملُ =

نرى مظهرًا خادعًا في مبدئِه، قد يستحسـنُ الناسُ صورتَه ومولودَه وأبطالَه ومُحلِّلِيه، لكنْ كلُّ هذا سرابٌ؛ كنُوَّارِ الثَّمرِ الخادعِ، الذي يموتُ قبلَ أن يتفتحَ ويُثمِرَ!

٢- مُواكَبةُ التَّطوُّرِ العلميِّ، والاستفادةُ من إمكاناتِه:

فينبغي للعالِمِ الخوضُ فـي آلةِ البحثِ والاطِّلاعِ المُتيسِّـرةِ، وأن يواكبَ زمانَه.

٣- الاطِّلاعُ على المعروضِ قبلَ الطَّرحِ:

وهنـا لفتةٌ مهمةٌ إلى أنَّ الزمنَ قد تغيَّر، وتُنُوقِلـتِ العلومُ، وتلاقَحتِ الفهومُ؛ فـلا ينبغي لعالمٍ أن يكـونَ بمعزِلٍ عن الإنتاجِ الغربيِّ، خاصَّةً ما كتَبوه عن الإسـلامِ وتحدِّياتِه وإشـكاليَّاتِه؛ فلهم في هذا دراساتٌ وأبحاثٌ ونقاشاتٌ، تفيدُ في فهمِ سبلِ إقناعِهم، ومواجهةِ الغزوِ الفكريِّ ونحوِه.

فيجبُ على مَن أراد دفعَ الشبهاتِ التي يَصُدُّونَ بها الناسَ عن الدِّينِ التعمُّقُ في معرفةِ ما ينشـرون ويُروِّجون له، والتوصُّلُ بالدِّراسةِ العميقةِ إلى الأسبابِ الحقيقيةِ، والدوافعِ التي تنشأُ عنها مقالاتُهم ومذاهبُهم.

وفي هذا يقولُ شـيخُ الإسـلامِ رحمه اللهُ: (معرفةُ المرضِ وسببِه يُعِينُ على مداواتِه وعلاجِه، ومَن لم يعرفْ أسبابَ المقالاتِ -وإن كانت باطلةً- لم يتمكنْ من مداواةِ أصحابِها، وإزالةِ شبهاتِهم)[1].

= أو يَنضَجُ. اهـ. من حاشـيةِ مُحقِّقِه. وذكَر أيضًا ما مفـادُه: وهي حكمةٌ عظيمةٌ من نتاجِ فكرِ الإمـامِ ابنِ حزمٍ -رحمه اللهُ- الذي عاصَر فتنةَ البربرِ في الأندلسِ، ورأى بنفسِـه كيف أنَّ الناسَ يَعقِدون على كلِّ ثائرٍ وثورةٍ وشـرارةِ فتنةٍ جديدةٍ، آمالًا كبيرةً في الإصلاحِ والتغييرِ؛ ولكنْ سَرْعانَ ما تتحولُ الآمالُ إلى مآسٍ وأحزانٍ، وضحايا وتدميرٍ!

(١) «الرد على البكري» ١/ ١٨٢.

٤- البُعدُ عن الفتوى الفرديّةِ، والتّصوُّرِ الفرديّ قدرَ الإمكانِ:

فالأمورُ قد تشـابَك طرَفاها، واسـتَجمَعتْ أذرعُها، وأضحَتِ النظرةُ الفرديةُ للمسائلِ تكادُ تكونُ صعبةً جدًّا.

فما من مسـألةٍ إلا وتتّصلُ بها أخـرى، فيزيائيًّا وكيميائيًّـا وأحيائيًّا وتاريخيًّا واقتصاديًّا وسياسـيًّا وإعلاميًّـا... وأنَّى لعالِـمٍ أن يُتاحَ له من العمرِ اسـتكناهُ ذلك واستيعابُه؟! فضلًا عن إبرازِ الحُكمِ الشرعيِّ والتفسيرِ الإسلاميِّ لذلك!

٥- براعةُ التّوظيفِ لمادّةِ العلمِ:

فليس الشـأنُ الآنَ تحصيلَ المادّةِ؛ فقد سـهُلَ الحصولُ عليها بطرقٍ مُتنوِّعةٍ، فأصبَح التحدِّي الكبيرُ منحصرًا في تحقيقِ المناطِ على واقعٍ مناسـبٍ ملائمٍ للحكمِ والاستنباطِ.

قد يدَّعي كثيرون العالِميَّةَ والتمكُّنَ بشكلٍ أو آخرَ، لكنَّ الامتحانَ الحقيقيَّ هو في حسنِ التوظيفِ والتأليفِ بينَ الواقعِ ومُعطَياتِه كأرضٍ خصبةٍ لدليلٍ صحيحٍ.

وليس من المقبولِ أبدًا أن تكونَ عقليَّةُ التعاملِ معَ المُخالِفِ القديمِ كالمُخالِفِ المُعاصِرِ، وردُّ الشـبهةِ البائدةِ كرَدِّ الشبهةِ الحاضرةِ؛ فلئنْ شرَّقتْ صفحاتُ الإنترنتِ والتواصلِ بالناسِ وغرَّبتْ، فإنَّ العقولَ أيضًا مسَّـها ذلك، وأثَّر فـي آليَّةِ تعاملِها معَ الدِّينِ والشريعةِ، وسرَى إليها لحنُ العقلِ الغربيِّ!



طالبُ العلمِ في فضاءِ الإنترنتِ

الشـــبكةُ العالميةُ بحرٌ لا ساحلَ له، وبها الغثُّ والسمينُ، وفيها مادَّةٌ قويةٌ تعينُ الطالبَ، وتكونُ ســـببًا في ســـهولةِ الحصولِ على المعلومةِ، وبإمكانِه الاستفادةُ من (الإنترنت)، كالتالي:

١- سماعُ مادَّةٍ صوتيَّةٍ (عبرَ الجوَّالِ) بالسَّمَّاعةِ.

٢- الاشتراكُ في مجموعةٍ علميةٍ للمُذاكَرةِ عبرَ مواقعِ التواصلِ الاجتماعيِّ.

٣- حضورُ مجالسِ العلماءِ عبرَ البثِّ المباشرِ.

٤- تحميلُ الكتبِ المُتاحةِ التي يَصعُبُ اقتناؤُها.

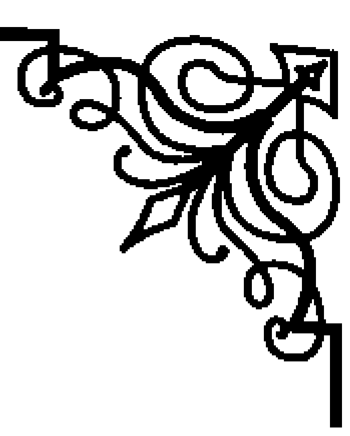
٥- تحميلُ الدُّروسِ العلميةِ والشُّروحِ التي تُعنَى بالمنهجيةِ.

٦- سؤالُ العلماءِ ومُتابَعتُهم عبرَ حساباتِهم ومواقعِهم.

التَّعلُّم على الشُّروحِ الصَّوتيَّةِ المُسجَّلةِ

الأصلُ في تلقِّي العلمِ هو المُشـــافَهةُ والمُجالَســـةُ، وإذا تعـــذَّر ذلك لجأ إلى الشُّروحِ الصوتيةِ معَ تدوينِ الفوائدِ على الكتبِ. وقد رأيتُ في تراجمِ بعضِ الأفاضلِ مِـــن هذا الجيلِ قولَه: تعلَّمتُ على أشـــرطةِ الشَّـــيخِ ابنِ بازٍ، أو الشَّـــيخِ ابنِ عُثيمين رحمهما اللـــهُ. فلا ملامةَ عندَ تعذُّرِ الوصولِ إلى العالمِ إذا أحضَر الطالبُ النُّســـخةَ، وقيَّد الفوائدَ والتَّعقبُّاتِ والأمثلةَ.

فيحرصُ مثلًا على سماعِ سلاســـلِ وشروحِ بعضِ العلماءِ ممَّن عُرِف بالجادَّةِ العلميةِ، وكثُرت شروحُهم وتأصيلاتُهم وتوفَّرتْ.

مُخطَّطٌ لمرحلتَيِ
التَّأصيلِ العلميِّ، واستكمالِ التَّكوينِ

في هذا المبحثِ تخطيطٌ لفكرةِ المدارجِ عبرَ التأصيلِ والاستكمالِ، وفيه تصوُّرٌ دقيقٌ مُجدوَلٌ كي يسهلَ استيعابُه، وفيه فوائدُ لا يستغني عنها مَن شرَع في العلمِ؛ كالتنبيهِ على بعضِ ما يفوتُ الطالبَ مِن فنونٍ وكتبٍ ليتداركَها.

أولًا: مُخطَّطٌ تفصيليٌّ لبرنامجِ التَّأصيلِ العلميِّ

يقومُ البرنامجُ التأصيليُّ على ٨ متونٍ علميةٍ، وكتابِ «حِلْيَةِ طالبِ العلمِ»، تُعتبَرُ أوَّليَّاتِ العلمِ، وهي المرحلةُ الأُولَى في مدارجِ الطلبِ:

١- «ثلاثةُ الأصولِ» للشَّيخِ محمدِ بنِ عبد الوهابِ رحمه اللهُ.

٢- «كتابُ التوحيدِ» للشَّيخِ محمدِ بنِ عبد الوهابِ رحمه اللهُ.

٣- «العقيدةُ الواسطيةُ» لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رحمه اللهُ.

٤- «منهجُ السَّالكينَ» للشَّيخِ عبد الرَّحمنِ بنِ سِعْديٍّ رحمه اللهُ.

٥- «أصولُ التَّفسيرِ» لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةِ رحمه اللهُ.

٦- «المُقدِّمةُ الآجُرُّوميَّةُ في النَّحوِ» لابنِ آجُرُّومَ رحمه اللهُ.

٧- «نُخْبةُ الفِكَرِ» للحافظِ ابنِ حجرٍ رحمه اللهُ.

٨- «الورقاتُ في أصولِ الفقهِ» للجوينيِّ رحمه اللهُ.

٩- «حِلْيةُ طالبِ العلمِ» للشَّيخِ بكرِ بنِ عبد اللهِ أبو زيدٍ رحمه اللهُ.

أمّا تفاصيلُ هذا المنهجِ فهي:

١- هذا المنهجُ يعتمدُ على الدِّراسةِ على شيخٍ، لا القراءةِ المُجرَّدةِ.

٢- اعتمادُ كتابِ «حِلْيةِ طالبِ العلمِ» كمُقدِّمةٍ لكلِّ مجلسٍ.

٣- إذا تمَّ عقدُ البرنامجِ في مجلسٍ واحدٍ أسبوعيًّا؛ فإنَّه حينئذٍ يستغرقُ عامينِ تقريبًا، وإذا تمَّ في مجلسينِ أسبوعيًّا؛ فسيستغرق عامًا تقريبًا للمُتفرِّغِ، الجامعِ الهمِّ، المُتوفِّرِ العزيمةِ على الطلبِ.

٤- التركيزُ على حقيقةِ العلمِ، معَ الإيجازِ والاختصارِ، وعدمِ الخروجِ عن المتنِ المُقرَّرِ.

٥- إشغالُ الطالبِ بعدَ الدَّرسِ بمراجعةِ الشُّروحِ والحواشي، وإثراءِ ما يتلقَّاه في الدرسِ على مدى الأسبوعِ.

٦- عقدُ اختبارٍ شاملٍ لكُلِّ متنٍ يُنتهَى منه، ويعتمدُ الطالبُ في المذاكرةِ على ما سجَّله عن المعلِّمِ في مجلسِ الشَّرحِ، وبعضِ الشُّروحِ المُعتمَدةِ في كلِّ متنٍ، ويكونُ التركيزُ على فَتْقِ ذهنِ الطالبِ ومُعالَجةِ كتبِ الشُّروحِ عليها بعدَ إتمامِ دراستِه في المجالسِ.

وفيما يلي الجدولُ الزَّمنيُّ المُقترَحُ لإنهاءِ المتونِ التأصيليةِ التي هي أوَّليَّاتُ العلمِ ومُقدِّماتُه، معَ تفاصيلَ للبرنامجِ.

جدولٌ توضيحيٌ

م	المتن التأصيلي	تفاصيل الدرس	عدد المجالس	الزمن
١	ثلاثة الأصول	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة ثلاثة الأصول: (١,٥) ساعة	٣	٣ أسابيع
٢	كتاب التوحيد	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة كتاب التوحيد: (١,٥) ساعة	١٢	١٢ أسبوعًا
٣	العقيدة الواسطية	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة العقيدة الواسطية: (١,٥) ساعة	٦	٦ أسابيع
٤	منهج السالكين	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة منهج السالكين: (١,٥) ساعة	٤٤	٤٤ أسبوعًا
٥	أصول التفسير	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة أصول التفسير: (١,٥) ساعة	٤	٤ أسابيع
٦	المقدمة الآجرومية	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة المقدمة الآجرومية: (١,٥) ساعة	١٠	١٠ أسابيع
٧	نخبة الفكر	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة نخبة الفكر: (١,٥) ساعة	٨	٨ أسابيع
٨	الورقات	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة الورقات: (١,٥) ساعة	٨ + ١	٩ أسابيع
		الإجمالي	٩٦	٩٦ أسبوعًا = عامان

ثانيا: مُخطَّطٌ تفصيليٌ لمرحلةِ استكمالِ التَّكوينِ[1]

النَّظريَّةُ الأُولَى: نظريةُ التَّكرارِ، وأثرُها في التَّأصيلِ:

نظريــةُ التَّكرارِ تعني أنَّ التَّكرارَ في كتبِ أهــلِ العلمِ كثيرٌ جدًّا، وقد وصَل في بعضِ الفنونِ إلى نسبةِ ٩٩٪، وهذه نســبةٌ خطيرةٌ ومُؤثِّرةٌ في منهجِ الطَّلبِ؛ إذْ تُوحِي للمتعلِّــمِ أنَّه ليس مُحتاجًا لقراءةِ كلِّ هذه الكتــبِ، وأنَّ ١٪ من المعلوماتِ يكفيه بل ويجعلُه مُلِمًّا بكلِّ مســائلِ الفنِّ، لكــنَّ المُهِمَّ: أين تجدُ هذا الواحــدَ في المائةِ غيرِ المُكرَّرِ؟

هذه النَّظريَّةُ لها إشــارةٌ قرآنيةٌ في ســورةِ التكاثرِ، في قولِــه تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، وقد أشــار لذلك الخليفةُ الرَّاشــدُ عليُّ بنُ أبي طالــبٍ -رضي اللهُ عنه- في قولِه: العلــمُ قطرةٌ كثَّرها الجاهلون. أخرَجه ابنُ عبد البــرِّ في (جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه).

والعلماءُ يقولون: لو سكَت مَن لا يعلمُ؛ لقَلَّ الخلافُ. ومعلومٌ أنَّ الحقَّ واحدٌ، ولو سكَت المخالفُ للحقِّ؛ لقلَّ الخلافُ والنِّقاشاتُ التي لا داعيَ لها، وامتَلأتْ بها كتبُ أهلِ العلمِ من أقوالٍ شاذَّةٍ وضعيفةٍ!

وهــذا يعني التركيــزَ على كتبِ أهلِ العلــمِ الأصيلةِ في البــابِ ذاتِ المنهجِ الصحيحِ واختيارَ أفضلِها ثم التركيزَ عليه بالدَّرسِ والتَّكرارِ والاستحضارِ.

وبنــاءً على هذا، فيُختارُ كتابٌ واحدٌ في كلِّ فنٍّ، ويُركَّزُ عليه في منهجِ الطلبِ، فيخرجُ لنا كتابٌ واحدٌ في كلِّ فنٍّ، بحسَبِ عددِ الفنونِ.

---

(١) هذا المنهجُ راســلني به مُعدُّهُ فضيلةُ الشيخِ الدكتورِ عبد اللهِ بنِ مُبارَكٍ آلِ سيفٍ -وفَّقه اللهُ، وجزاه خيرَ الجزاءِ، واقتصرت منه على ما يفيدُ في استكمالِ التكوينِ العلمي.

النظريةُ الثانيةُ: التكرارُ في القراءة:

ومُلخَّصُ هذه النَّظريَّةِ أنَّ القارئَ يقرأُ الكتابَ المُختارَ في البابِ عشرَ مرّاتٍ قراءةَ تركيزٍ وتمعُّنٍ وفهمٍ واستيعابٍ:

القراءةُ الأولى: يُتوقَّعُ أن يثبتَ في الذِّهنِ منها ١٠٪، والقراءةُ الثّانيةُ ٢٠٪، والثّالثةُ ٣٠٪... والعاشرةُ ١٠٠٪ تقريبًا، فيحفظُ معانيَ الكتابِ وإن لم يحفظْ ألفاظَه.

والعلماءُ يقولون: صاحبُ الكتابِ يغلبُ صاحبَ الكتبِ؛ أي أنَّ مَن قرأ كتابًا واحدًا وأتقَنه؛ صار أقوى ممَّن قرأ عشرةَ كتبٍ مُتشابِهةٍ في نفسِ الموضوعِ.

قراءةُ كتابٍ يتكونُ مِن ٣٥٠ صفحةً، في العادةِ يستطيعُ طالبُ العلمِ المُتفرِّغُ أن يقرأَه في يومٍ واحدٍ للمُتعوِّدِ على القراءةِ، وخاصَّةً معَ التدريبِ، وقد درَّبتُ بعضَ الشبابِ على ذلك فأمكنَهم ذلك بسهولةٍ.

وهذا يعني أنَّه يمكنُ قراءةُ ثلاثةِ كتبٍ تأصيليةٍ خلالَ شهرٍ واحدٍ بتركيزٍ بمُعدَّلِ عشرةِ أيَّامٍ لكلِّ كتابٍ.

النَّظريَّةُ الثَّالثةُ: التَّفرُّغُ التَّامُّ والانقطاعُ في بيئةٍ علميَّةٍ مُناسبةٍ:

العلماءُ يقولون: التركيزُ يُولِّدُ النَّجاحَ، والتفرُّغُ التَّامُّ والانقطاعُ في بيئةٍ علميةٍ مُناسِبةٍ يساعدُ على نجاحِ التجربةِ. والانقطاعُ التَّامُّ للطلبِ بقدرِ الإمكانِ يعني توفيرَ بيئةٍ علميةٍ مناسبةٍ بعيدةٍ عن مشاغلِ الحياةِ وصوارفِها.

عدمُ تطبيقِ نظريةِ التركيزِ والانقطاعِ يعني التشتُّتَ وضياعَ المعلومةِ من فترةٍ لأخرى ونسيانَها معَ بُعدِ العهدِ. فهي مثلُ الذي يحفرُ بئرًا فإن كان الحفرُ مُتواصِلًا أنهاه في فترةٍ وجيزةٍ وإن كان مُتقطِّعًا استغرَق وقتًا أطولَ بحسَبِ الانقطاعِ.

ولهذا يُقتـرَحُ أن يكونَ هناك مكانٌ مُناسِـبٌ في بيتٍ علمـيٍّ مُهيَّأٍ من جميعِ النواحي ويجتمعُ فيه عددٌ مُناسِبٌ للتعاونِ على الطلبِ والانقطاعِ له.

النّظريّةُ الثّالثةُ: نسبةُ المُشكِلِ في كلامِ أهلِ العلمِ:

المُشـكِلُ في كلامِ أهلِ العلمِ قليلٌ وليس بالكثيرِ، فالطالبُ يقرأُ في الصفحةِ الكاملةِ فلا يُشكِلُ عليه منها إلا عددٌ محدودٌ بنسبةِ ١-١٠٪، ونستفيدُ من هذه النظريةِ ما يلي:

أنَّـه يمكنُ للطالبِ قراءةُ الواضحِ من كلامِ أهلِ العلمِ ليختصرَ بذلك ٩٠٪ من الوقتِ، ويجمعَ المُشكِلَ على شكلِ تساؤلاتٍ مكتوبةٍ، ثم تُحَلُّ هذه الإشكالاتُ من خلالِ أمرينِ:

الأولُ: لقاءٌ بينَ الطَّلبةِ يوميٌّ للمُذاكَرةِ في الكتابِ وحَلِّ مُشكِلِه.

الثاني: لقاءٌ علميٌّ أسبوعيٌّ معَ مُتخصِّصٍ من علماءِ التَّخصُّصِ في مجالِ الفنِّ ويُسألُ فيها عن المُشكِلاتِ وتُطرَحُ عليه الاستفساراتُ، وهذه اللقاءاتُ في كلِّ أسبوعٍ يُرتَّبُ لها معَ طلبةِ علمٍ أقوياءَ.

ولا ننسـى أنَّ هذا البرنامجَ مُوجَّهٌ للمُتخرِّجينَ من الجامعةِ، وهذه الشَّـريحةُ يُفترَضُ فيها أنَّها دارسـةٌ لكثيرٍ من الفنونِ في كُلِّيَّاتِها الشَّرعيَّةِ على علماءَ مُتخصِّصينَ في مجالِهم، فهم في النهايةِ حضَروا دروسَ أهلِ العلمِ في المساجدِ أيضًا وتلقَّوا على الشيوخِ في الثَّانويَّةِ والجامعةِ.

النّظريّةُ الرّابعةُ: الجمعُ بينَ حضورِ دروسِ أهلِ العلمِ، والقراءةِ الفرديّةِ:

وهذه النظريةُ تقترحُ الاسـتماعَ لدرسٍ علميٍّ في الكتابِ الذي تريدُ قراءتَه في يومٍ كاملٍ مُركَّزٍ، معَ كتابةِ جميعِ الإشكالاتِ التي أَشكَلتْ عليكَ في فهمِ الدرسِ، ثم

تعرضُ الإشكالاتِ في لقاءِ حَلِّ الإشكالاتِ العلميةِ الأسبوعيِّ.

وهذه الطريقةُ تجمعُ بينَ الاستماعِ لدروسِ أهلِ العلمِ، والقراءةِ الفرديَّةِ، فكأنَّ الطالبَ حضَر معَ الشَّيخِ واستمَع له في درسِه، وخاصَّةً مَن لا يتيسرُ لهم في بلدانِهم دروسٌ أو كُلِّيَّاتٌ شرعيةٌ. والدروسُ الصوتيةُ والمرئيةُ مُتوفِّرةٌ -بحمدِ اللهِ- في كثيرٍ من التخصُّصاتِ العلميةِ، وبناءً على هذا فإذا كانت دروسُ الشَّرحِ الصوتيِّ ثلاثينَ ساعةً؛ فهذا يعني الحاجةَ لثلاثةِ أيَّامٍ أو يومينِ لسماعِها فتكونُ من ضمنِ البرنامجِ، وعندَ تعدُّدِ الدُّروسِ في مجالٍ واحدٍ فالأَوْلى أن يُختارَ الوسطُ إذا كان هناك أكثرُ من درسٍ ويختارُ أوضحَها أسلوبًا وأكثرَها سلاسةً وسهولةً وتأصيلًا علميًّا.

هذه الطريقةُ يُفترَضُ أن تسبقَ برنامجَ القراءةِ الفرديةِ؛ لتفتحَ الأذهانَ لفهمِ الكتابِ في برنامجِ القراءةِ الفرديةِ.

النَّظريَّةُ الخامسةُ: كتبُ تأصيلٍ، وكتبُ قراءةٍ وجَرْدٍ:

تقومُ هذه النظريةُ على التفريقِ بينَ كتبِ التأصيلِ -التي تُقرَأُ عشرَ مرَّاتٍ- والكتبِ التي تُقرَأُ للجردِ والاطِّلاعِ مرَّةً واحدةً، ولذا فسوف تجدُ قائمةً في البرنامجِ لكتبِ الجردِ وقائمةً لكتبِ التأصيلِ العلميِّ.

ومُرفَقٌ في الملفِّ قائمةٌ لكتبِ الجردِ العلميِّ في التخصُّصِ على ثلاثِ مستوياتٍ، وتُطبَّقُ طريقةُ الجردِ بعدَ انتهاءِ البرنامجِ.

فكتبُ التأصيلِ العلميِّ كتبٌ مهمةٌ، ولا يُستغنَى عنها في التأصيلِ في التخصُّصِ، بينَما كتبُ الجردِ تُوسِّعُ الاطلاعَ على الفنِّ ومسائلِه.

النَّظريَّةُ السَّادسةُ: الاستفادةُ من نظريَّةِ المجموعةِ في التأصيل:

تقومُ الفكرةُ على نظريةٍ علميةٍ، هي: أنَّ طلبَ العلمِ شاقٌّ، ويحتاجُ إلى حافزٍ

قويٍّ ومُؤثِّرٍ، وهذا الحافزُ هو وجودُ نُظَراءَ للمتعلِّمِ في السِّنِّ مِن خلالِ مجموعةٍ من الطلبةِ المُتقارِبينَ في السِّنِّ ليُشعِلَ بينَهم رُوحَ المنافسةِ، ويتعاونون على الابتعادِ عن المُلهِياتِ من جوَّالاتٍ وأجهزةٍ وغيرِها. وبالتجربةِ تبيَّن أنَّ مَن معَه شخصٌ يُعِينُه على الطلبِ أدعى للاستمرارِ ممَّن ليس له مَن يُعِينُه على الطلبِ وخاصَّةً معَ كثرةِ المُلهِياتِ في هذا الزمانِ.

فكرةُ مجلسِ حَلِّ الإشكالاتِ الأسبوعيِّ:

فكرتُه: مجلسٌ أسبوعيٌّ لمُدَّةِ ساعتينِ مُرتَّبٌ معَ طلبةِ علمٍ أقوياءَ في التخصُّصِ لحَلِّ الإشكالاتِ التي تَعرِضُ للطلبةِ في أثناءِ القراءةِ الفرديةِ، يُجمَعُ فيه جميعُ الطلبةِ للاستماعِ لإشكالاتِهم.

الهدفُ من هذه النَّظريَّة:

١- تنميةُ الارتباطِ بأهلِ العلمِ والحاجةِ لهم في حَلِّ المُعضِلاتِ، وعدمُ الخروجِ عن رأيِهم وتوجيهِهم، وبيانُ معرفةِ مكانةِ العلماءِ من خلالِ إدراكِ الطالبِ لقدرتِهم على حَلِّ الإشكالاتِ وحاجتِه لهم.

٢- حَلُّ الإشكالاتِ التي تَعرِضُ للطلبةِ في أثناءِ القراءةِ.

٣- تنميةُ الملَكةِ العلميةِ، والغوصُ في أسرارِ العلمِ من خلالِ النِّقاشِ والحوارِ والتوجيهاتِ التي يتلقَّوْنها في اللقاءِ.

٤- مُراقَبةُ فهمِ الطلبةِ، وقياسُ التجربةِ، ومعرفةُ مدى نجاحِها؛ لأنَّها ما زالتْ تجربةً وليدةً تحتاجُ لإنضاجٍ وتعديلِ مسارٍ حتى تصلَ للمرجوِّ منها.

٥- استفادةُ الطلبةِ من الإشكالاتِ التي يطرحُها زملاؤُهم ولم ينتبهوا لها، ممَّا يُنمِّي فهمَ العلمِ والرُّسوخَ فيه تدريجيًّا.

منهجُ القراءةِ (منهجُ جَرْدِ الكتبِ):

هــذه المنهجُ مُقترَحٌ للتوسُّــعِ، ويُعمَلُ بــه بعدَ الانتهاءِ من برنامــجِ التَّأصيلِ العلميِّ السابقِ، وهذا يساعدُ على الرســوخِ في العلمِ والتمكُّنِ فيه، وهو مُقسَّمٌ على ثلاثِ مســتوياتٍ، ويختارُ منها الطالبُ ما يناسبُ مستواه، ويحاولُ تجنُّبَ التَّكرارِ في الاختيارِ إذا تكرَّر معَ ما قرأه سابقًا في البرنامجِ:

١- العقيدةُ:

المستوى الأولُ:

- «كتابُ التوحيدِ».
- «كشفُ الشُّبُهاتِ».
- «ثلاثةُ الأصولِ».

المستوى الثاني:

أ- «قُرّةُ عيونِ المُوحِّدينَ».

ب- «إبطالُ التَّنديدِ».

ت- «العقيدةُ الواسطيَّةُ».

المستوى الثالثُ:

أ- «فتحُ المجيدِ»، أو «تيسيرُ العزيزِ الحميدِ».

ب- «الرَّوضةُ النَّديَّةُ شرحُ العقيدةِ الواسطيَّةِ».

ت- «شرحُ ابنِ عُثَيمينَ على العقيدةِ الواسطيَّةِ».

ث- «معارجُ القَبولِ».

ج- «شرحُ الطحاويَّةِ» لابنِ أبي العِزِّ الحنفيِّ.

ح- «مُختصَرُ مِنهاجِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ».

خ- «مُختصَرُ الصَّواعقِ».

د- «لوامعُ الأنوارِ البهيَّةِ شرحُ السَّفَّارينيَّةِ».

ذ- «موسوعةُ الأديانِ والمذاهبِ المُعاصِرةِ».

٢- التفسيرُ:

المستوى الأولُ:

أ- «تفسيرُ السَّعْديِّ».

المستوى الثاني:

أ- «فتحُ القديرِ».

ب- «زاد المسيرِ».

المستوى الثالثُ:

- «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ».
- «تفسيرُ القرطبيِّ».

٣- علومُ القرآنِ:

- «شرحُ أصولِ التفسيرِ» لابنِ قاسمٍ [شرحٌ لأصولِ التفسيرِ لابنِ تيميَّةِ].
- «التحبيرُ في علمِ التفسيرِ» للسيوطيِّ.

- «البرهانُ في علومِ القرآنِ» للزَّركشيِّ.
- «الإتقانُ في علومِ القرآنِ» للسيوطيِّ.
- «مناهلُ العرفانِ» للزُّرْقانيِّ.

٤- **الحديثُ:**

المستوى الأولُ:

أ- «رياضُ الصَّالحينَ».

ب- «الترغيبُ والترهيبُ».

ت- «مُختصَرُ صحيحِ البخاريِّ».

ث- «مُختصَرُ صحيحِ مسلمٍ» للمُنذِريِّ، أو القرطبيِّ.

ج- قراءةُ مشروعِ السُّـنَّةِ كاملًا بجميعِ مُذكِّراتِه [أكثرُ مِن خمسينَ كتابًا من كتبِ السُّنَّةِ].

ح- قراءةُ الكتبِ التِّسعةِ.

المستوى الثاني:

أ- «طرحُ التَّثريبِ».

ب- «بلوغُ المرامِ» معَ أحدِ شروحِه؛ مثلَ «سُبُلِ السَّلامِ».

المستوى الثالثُ:

أ- «فتحُ الباري».

ب- «شرحُ النَّوويِّ على صحيحِ مسلمٍ».

ت- «عونُ المعبودِ»، و «التَّمهيدُ».

ث- «عَارِضةُ الأَحْوذيِّ».

ج- «نيلُ الأوطارِ».

ح- «شرحُ السُّنَّةِ».

خ- «شرحُ عِلَلِ التِّرمذيِّ» [علمُ العِلَلِ].

د- قراءةُ «الخُلاصةِ» للخزرجيِّ، أو «التَّقريبِ» لابنِ حجرٍ.

٥- الفقهُ: المذهبُ الحنبليُّ:

المستوى الأولُ:

- «الرَّوضُ المُربعُ».
- «منارُ السَّبيلِ».
- «العُدَّةُ شرحُ العُمْدةِ».
- «الشَّرحُ المُمتعُ» لابنِ عُثَيمينَ.

المستوى الثاني:

- «كشَّافُ القِناعِ».
- «شرحُ مُنتهَى الإراداتِ».

المستوى الثالثُ:

- «المُغنِي».
- «الإنصافُ».

٦- المصطلحُ:

المستوى الثاني:

أ- «نُزْهةُ النَّظرِ شرحُ نُخْبةِ الفِكَرِ» لابنِ حجرٍ.

ب- «المُوقِظةُ» للذَّهبيِّ.

ت- «التقييدُ والإيضاحُ» للعراقيِّ.

ث- «علومُ الحديثِ» لابنِ كثيرٍ.

ج- «النُّكَتُ على ابنِ الصَّلاحِ» لابنِ حجرٍ.

ح- «تدريبُ الرَّاوي».

٧- أصولُ الفقهِ:

المستوى الثاني:

أ- «مُذكِّرةُ الشِّنقيطيِّ».

ب- «شرحُ ابنِ عُثَيمينَ لنظمِ الورقاتِ».

المستوى الثالثُ:

أ- «شرحُ مُختصَرِ الرَّوضةِ».

ب- «شرحُ الكوكبِ المنيرِ».

ت- «المُسوَّدةُ».

ث- «المُوافَقاتُ».

ج- «البحرُ المحيطُ».

٨- القواعدُ الفقهيةُ:

المستوى الأولُ:

أ- «شرحُ منظومةِ السّعديِّ في القواعدِ».

ب- «القواعدُ والأصولُ الجامعةُ» للسّعديِّ.

ت- «شرحُ منظومةِ الأهدلِ».

ث- «القواعدُ الكُلِّيَّةُ» للبورنو.

ج- «القواعدُ النُّورانيَّةُ».

المستوى الثالثُ:

أ- «الأشباهُ والنظائرُ» للسيوطيِّ.

ب- «القواعدُ» لابنِ رجبٍ.

ت- «طريقُ الوصولِ» للسّعديِّ.

٩- تخريجُ الفروعِ على الأصولِ:

المستوى الأولُ:

أ- «مِفتاحُ الوصولِ» للتِّلِمْسانيِّ.

المستوى الثاني:

أ- «القواعدُ والفوائدُ الأصوليةُ» لابنِ اللَّحَّامِ.

ب- «تخريجُ الفروعِ على الأصولِ» للزَّنْجانيِّ.

ت- «التَّمهيدُ» للإسنويِّ.

١٠- التاريخُ:

المستوى الأولُ:

أ- «التاريخُ الإسلاميُّ» لمحمود شاكر.

المستوى الثاني:

أ- «البدايةُ والنهايةُ».

ب- «الكامل» لابنِ الأثيرِ.

١١- السيرةُ:

المستوى الأولُ:

أ- «تهذيبُ السيرةِ» لعبد السلامِ هارون.

ب- «الرحيقُ المختومُ».

المستوى الثاني:

أ- «السيرةُ النبويةُ» لابنِ هشامٍ.

ب- «السيرةُ النبويةُ الصحيحةُ».

١٢- النّحوُ:

المستوى الأولُ:

أ- «الآجُرُّوميَّةُ»، معَ شروحِها.

المستوى الثاني:

أ- «قطرُ النَّدى».

المستوى الثالثُ:

«شرحُ ابنِ عَقِيلٍ».

١٣- **الصّرفُ:**

- «شرحُ لاميّةِ الأفعالِ».
- «المِفْتاحُ في الصَّرفِ» للجرجانيِّ.

***

إشكالٌ، وجوابُه:

قد يُقالُ: إنَّ هــذه الطريقةَ تُبعِدُ طلبةَ العلمِ عن طريقةِ الســلفِ في التلقِّي عن العلماءِ.

والجوابُ عن ذلك من عدَّةِ أوجهٍ:

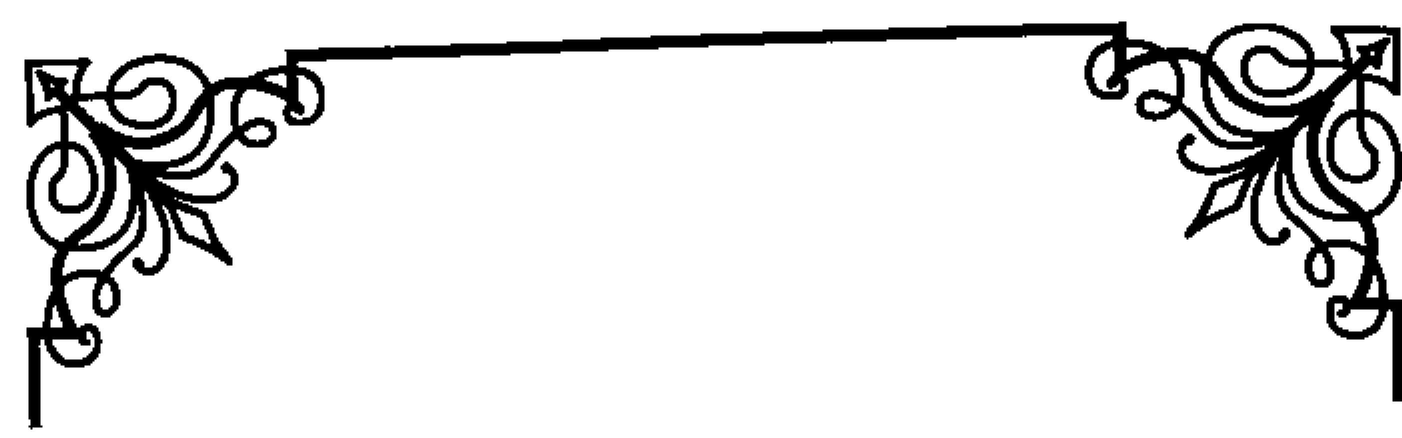
١- أنَّها مُوجَّهةٌ للخِرِّيجينَ من الكُلِّيَّاتِ الشــرعيةِ، وهذه الشريحةُ المُتوقَّعُ منهــا أنَّها أنهَتِ الدراســةَ الجامعيةَ في كثيرٍ من الفنونِ الشــرعيةِ على مُتخصِّصينَ في العلومِ الشــرعيةِ، فصار عندَهم معرفةٌ جيِّدةٌ في أغلبِ هذه الفنونِ، والمطلــوبُ منه الآنَ تثبيتُ ما تعلَّمه بطريقةٍ مُعيَّنةٍ، وتعلُّمُ المزيدِ.

٢- أنَّ هــذا البرنامجَ له طلبةُ علمٍ يُشــرِفون علــى المتعلِّمين، يُوجِّهونهم ويُجِيبون على أسئلتِهم واستفساراتِهم اليوميةِ.

٣- البرنامجُ الأسبوعيُّ معَ أحدِ العلماءِ لكشفِ مغاليقِ العلمِ التي أشكَلَتْ عليهم، وشرحِ المُشكِلِ من المسائلِ.

٤- البرنامجُ لمُدَّةِ سـنةٍ، وبعدَها يتفـرغُ الطالبُ لملازمـةِ دروسِ العلمِ والعلماءِ بعدَ أن أخذ حصيلةً جيِّدةً تُعِينُه على فهمِ دروسِ العلماءِ.

٥- هذا الترتيبُ جانـبٌ تنظيميٌّ وتكامليٌّ معَ الطُّـرقِ الأخرى في طلبِ العلم، ولا يُلغِي الطرقَ الأخرى في الطلبِ.



الخاتمة

وكأنَّ القلـمَ يأبى أن يغـادرَ قبلَ أن يكتـبَ حقيقةَ المعنى الكامـنِ بينَ هذه الورقاتِ حتى يُجلَـى في ذيلِها؛ ليدلَّ الناظرَ على خلاصةٍ أُخِّرت كتابتُها؛ لتكشـفَ مكنونَ الألفاظِ وحرارةَ المعاني وزبدتَها.

تذكَّر يا طالبَ المدارجِ:

* أنَّ العلمَ دِينٌ..

وتحصيلُه منوطٌ باجتهادِكَ وأمانتِكَ، وتعظيمِكَ لجنابِه، ورفعِكَ لجميلِ مقامِه؛ فاصدَعْ بينَ الأنامِ بفضلِه، وتجرَّعِ الصبرَ في تكرارِه، وتكبَّدِ اللَّأواءَ في نشرِه.

* أنَّ الطالبَ المكينَ والعالمَ الأصيلَ مَن يمرُّ في طلبِه بمراحلَ ثلاثٍ، والنقصُ فيها مُفضٍ إلى خللٍ واسعٍ في علمِه:

الأولى: التأصيلُ.

الثانيةُ: استكمالُ التكوينِ.

الثالثةُ: البحثُ العلمي المنهجي بما يخدمُ الطلبَ، ويُنمي الذهنيةَ العِلمية.

ففاقدُها فاقدٌ لأصلِ العلمِ ورُوحِه، وفاقدُ بعضِها مُبتسَرٌ بقدرِ ما نقَص منها.

* أنَّ العلمَ ما أخذ بيدِكَ إلى صلاحِ نفسِكَ وغيرِكَ.

* أنَّ العلم الحقيقي هو ما أخرَجك مِن الشُّبهاتِ، لا ما أدخَلكَ فيها.

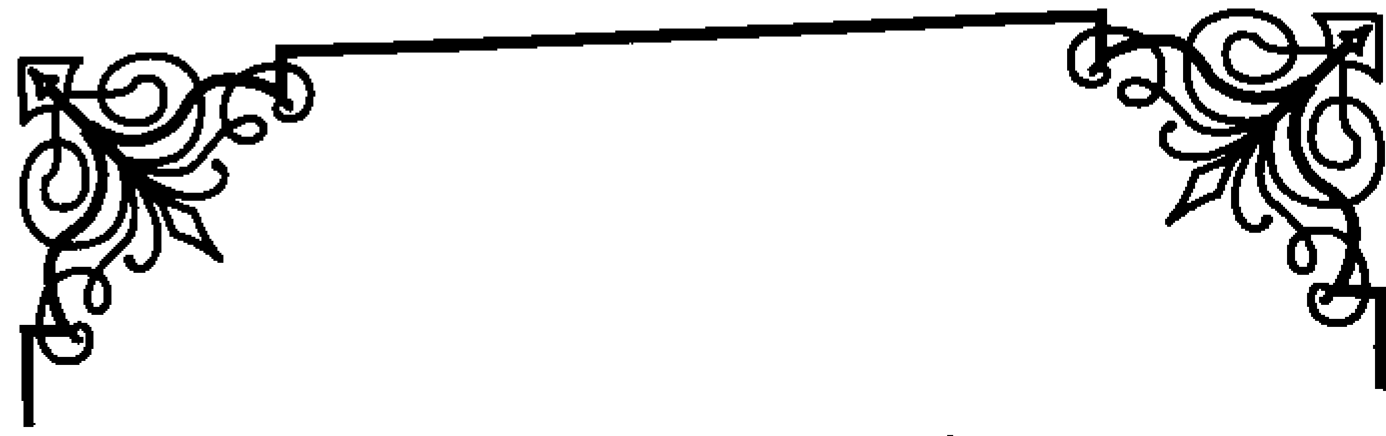
* أنَّ تعلُّمَ السلفِ قائمٌ على منهجٍ وطريقةٍ، تجدُها مُسطَّرةً بأحرفٍ واضحةٍ جليَّةٍ في تراجمِهم وتواريخِهم، مَن فتَّش عنها ونقَّر وجَدها.

* نوِّعِ الشُّيوخَ والكتبَ، نوِّع الشيوخَ والكتبَ، نوِّع الشيوخَ والكتبَ.

ولا يسعني بعد تمام المقصود هنا إلا أن أختم بما قال ابن بدران رحمه الله المدخل، ص١٠٣: (ونصبنا له هذا السُّلم أملًا بأنه إنْ ترك التعصُّبَ الذميمَ، والجهلَ المركَّب، ارتقى قليلًا إلى درجاتِ أوائلِ العِلم، ولاح له لمعانٌ مِن نورِ الهُدى).

هذا، واللهُ أعلمُ، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه وصحبه.

السَّعيد،



ثبت المصادر والمراجع

١- أبجـد العلوم، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسـن بن علي ابن لطف الله الحسـيني البخاري القِنَّوجي، ط. ١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، دار ابن حزم.

٢- اجتماع الجيوش الإسـلامية على غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سـعد، شـمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق عواد عبد الله المعتـق، ط. ١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض.

٣- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط. ٣، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٤- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الآمدي، علَّق عليه الشيخ عبد الرزاق عفيفي، ط. ١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار الصميعي للنشر والتوزيع- الرياض.

٥- الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، لشهاب الدِّين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ١٩٩٥م- ١٤١٦هـ دار البشـائر الإسـلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

٦- إحياء علوم الدين، لأبـي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط. ١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت.

٧- الأخلاق والسير أو رسـالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل، لأبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسـي، تحقيق إيفار رياض، ومراجعة وتعليق عبدالحق التركماني، ط. ١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، دار ابن حزم للطباعة والنشر- بيروت.

٨- الآداب الشـرعية، لعبدالله محمد ابن مفلح المقدسـي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعمر القيام، ط. ٣، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، مؤسـسـة الرسـالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

٩- **أدب الدين والدنيا**، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، شرح وتعليق محمد كريم راجح، ط. ٤، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، دار اقرأ- بيروت.

١٠- **أدب الطلب ومنتهى الأدب**، الشوكاني، تحقيق عبد الله يحيى السريحي، ط. ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، دار ابن حزم، بيروت- لبنان.

١١- **أدب المفتي والمستفتي**، لعثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح، تحقيق: د. موفق عبد الله عبد القادر، ط. ٢، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

١٢- **أزهار الرياض في أخبار عياض**، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة فضالة.

١٣- **الاستقراء ومجالاته في الأحكام الشرعية**، لمحمد أيمن الزهر، إشراف حمزة حمزة (بحث علمي منشور بمجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية)، المجلد ٢٩، العدد الأول- ٢٠١٣م.

١٤- **أعيان العصر وأعوان النصر**، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق الدكتور علي أبو زيد، وآخرون، ط. ١، ١٤١٨- ١٩٩٨م، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا.

١٥- **الإفادات والإنشادات**، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي، تحقيق د. محمد أبو الأجفان، ط. ١، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١٦- **الإفصاح عن معاني الصحاح**، للوزير العالم ابن هبيرة، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن- الرياض.

١٧- **إكمال إكمال المعلم**، لأبي عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي المالكي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨- **الألقاب العِلمية**، مقال بمجلة المقتبس، (نسخة إلكترونية) العدد ٧٧ - بتاريخ: ١-٧-١٩١٢م.

١٩- **أليس الصبح بقريب (التعليم العربي الإسلامي)- دراسة تاريخية وآراء إصلاحية**، لمحمد الطاهر ابن عاشور، ط. ١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، دار سحنون- تونس، دار السلام للنشر والتوزيع- (القاهرة- الإسكندرية).

٢٠- **الإمتاع والمؤانسة**، لأبي حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي، تحقيق محمد حسن إسماعيل، ط. ١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١- **الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف**، لولي الله الدهلوي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط.٣، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، دار النفائس- بيروت.

٢٢- **إيثار الإنصاف في آثار الخلاف**، ليوسف بن قزاوغلي - أو قزغلي - ابن عبد الله، أبو المظفر، شمس الدين، سبط أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق ناصر العلي الناصر الخليفي، ط. ١، ١٤٠٨هـ دار السلام- القاهرة.

٢٣- **إيضاح المحصول من برهان الأصول**، لأبي عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري، تحقيق أ. د. عمار الطالبي، ط. دار الغرب الإسلامي- تونس.

٢٤- **بدائع السلك في طبائع الملك**، لأبي عبد الله ابن الأزرق، تحقيق د. علي النشار، ط. ١، ٢٠٠٧ م، دار السلام للنشر والتوزيع- (القاهرة- الإسكندرية).

٢٥- **بدائع الفوائد**، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق علي العمران، ط. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٢٦- **البرهان في أصول الفقه**، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، تحقيق د. عبد العظيم محمود الديب، ط. ٥، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، دار الوفاء للطباعة والنشر- المنصورة.

٢٧- **البصائر النصيرية في علم المنطق**، لزين الدِّين عمر بن سهلان السَّاوي، مع حاشية وتعليقات محمد عبده، ط. ١٣١٦ هـ- ١٨٩٨م، المطبعة الكبرى الأميرية بولاق- القاهرة.

٢٨- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأباديّ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، ط. ١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

٢٩- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. ١، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٠- **بيان الدليل على بطلان التحليل**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: حمدي السلفي، ط. ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣١- **تاج العروس من جواهر القاموس**، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق د. حسين نصار، ط. ١٣٦٩هـ- ١٩٦٩م، مطبعة حكومة الكويت.

٣٢- **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**، لمحمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، ط. ١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

٣٣- **تاريخ دمشق**، لأبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر، تحقيق محبِّ الدِّين عمر العمروي، ط. دار الفكر للنشر والتوزيع.

٣٤- **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، لمحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، ط. ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

٣٥- **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، ط. ٢، ١٤٣٠ هـ، عالم الكتب، بيروت.

٣٦- **تخريج الفروع على الأصول**، لمحمود بن أحمد الزنجاني، أبي المناقب، تحقيق د. محمد أديب صالح. ط. ٢، ١٣٩٨هـ مؤسسة الرسالة- بيروت.

٣٧- **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، لأبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق د. طارق بن عوض الله بن محمد، ط. ١، ١٣٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار العاصمة- الرياض.

٣٨- **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني الشافعي، تحقيق محمد بن مهدي العجمي، ط. ٣، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٢٩- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. ١، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٠- **بيان الدليل على بطلان التحليل**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: حمدي السلفي، ط. ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣١- **تاج العروس من جواهر القاموس**، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق د. حسين نصار، ط. ١٣٦٩هـ- ١٩٦٩م، مطبعة حكومة الكويت.

٣٢- **التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول**، لمحمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، ط. ١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

٣٣- **تاريخ دمشق**، لأبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر، تحقيق محبِّ الدِّين عمر العمروي، ط. دار الفكر للنشر والتوزيع.

٣٤- **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، لمحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، ط. ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

٣٥- **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، ط. ٢، ١٤٣٠ هـ، عالم الكتب، بيروت.

٣٦- **تخريج الفروع على الأصول**، لمحمود بن أحمد الزنجاني، أبي المناقب، تحقيق د. محمد أديب صالح. ط. ٢، ١٣٩٨هـ، مؤسسة الرسالة- بيروت.

٣٧- **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، لأبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق د. طارق بن عوض الله بن محمد، ط. ١، ١٣٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار العاصمة- الرياض.

٣٨- **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني الشافعي، تحقيق محمد بن مهدي العجمي، ط. ٣، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٥٠- **جامع بيان العلم وفضله**، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، ط.١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، دار ابن الجوزي، السعودية.

٥١- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، للخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان، ط. ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مكتبة المعارف- الرياض.

٥٢- **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي بن حسن وآخرين، ط. ٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، ط. دار العاصمة- السعودية.

٥٣- **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق إبراهيم باجس، ط. ١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

٥٤- **حاشية العطار على شرح المحلي على جمع الجوامع للسبكي**، للشيخ حسن العطار الشافعي، ط. دار الكتب العلمية.

٥٥- **الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه**، لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق مروان قباني، المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، بيروت- لبنان.

٥٦- **خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول**، لشهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، تحقيق: جمال عزون، ط. ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مكتبة أضواء السلف.

٥٧- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبِّي، ط. ١٢٨٤ هـ، المطبعة الوهبية.

٥٨- **درء تعارض العقل والنقل**، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، الحنبلي، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، ط. ٢، ١٤١١هـ- ١٩٩١م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

٥٩- **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**، بتحقيق محمود الجليلي، ط. دار الغرب الإسلامي، لبنان.

٦٠- **دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون**، لعبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، ط. ١، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م، دار الكتب العلمية- لبنان.

٦١- **ديوان ابن خفاجة**، أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة الأندلسي، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ط. دار القلم للطباعة والنشر- بيروت.

٦٢- **ذيل الدُّرر الكامنة**، لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق د. عدنان درويش، ط. ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة.

٦٣- **الذَّيل على طبقات الحنابلة**، الحافظ عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي، تحقيق د. عبدالرحمن العثيمين، ط. ١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م، مكتبة العبيكان- الرياض.

٦٤- **الذَّيل والتكملة لكتابي الموصول والصِّلة**، لمحمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الدكتور محمد بن شريفة، الدكتور بشار عواد معروف، ط. ١، ٢٠١٢م، دار الغرب الإسلامي، تونس.

٦٥- **الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة)**، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد علي عجال، ط. ١، ١٤١٧ هـ مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة المنورة.

٦٦- **رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب**، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق علي معوض، وعادل عبد الموجود، ط. ١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩م، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان.

٦٧- **سير أعلام النبلاء**، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وبشار معروف، وآخرين، ط. ١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة.

٦٨- **شرح صحيح البخاري**، لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطال، تحقيق ياسر إبراهيم، ط. ٢، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، مكتبة الرشد، السعودية.

٦٩- **شرح متن الورقات في أصول الفقه**، للدكتور عبدالكريم بن عبدالله الخضير (شرح مفرغ من المجالس).

٧٠- **صحيح مسلم بشرح النووي**، ط.٢، (١٤١٤هـ- ١٩٩٤م) ط. مؤسسة قرطبة.

٧١- **صيد الخاطر**، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي البغدادي، تحقيق عبد القادر عطا، ط. ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية- لبنان.

٧٢- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، ط. منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.

٧٣- **طبقات الأولياء**، لسراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد، ابن الملقن، الشافعي، تحقيق نور الدين شريبه،ط. ٢، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م مكتبة الخانجي- القاهرة.

٧٤- **طبقات الحنابلة**، لأبي الحسين محمد بن محمد، ابن أبي يعلى، تحقيق محمد حامد الفقي، ط. دار المعرفة- بيروت.

٧٥- **طبقات الشافعية الكبرى**، لتاج الدِّين بن علي السبكي، تحقيق د. محمود الطناحي، ط. ٢، ١٤١٣هـ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

٧٦- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، وزائد النشيري، ط. ١، ١٤٢٩هـ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع- مكة المكرمة.

٧٧- **العلم**، لمحمد بن صالح العثيمين (ضمن مجموع فتاوى ورسائل الشيخ رحمه الله، جمع فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، ط. ١٤١٣ هـ دار الوطن - دار الثريا).

٧٨- **عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجايّة**، لأحمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد، أبو العباس الغِبْرِيني، تحقيق عادل نويهض، ط. ٢، ١٩٧٩م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٧٩- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لأحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبي العباس ابن أبي أصيبعة، تحقيق د. نزار رضا، ط. دار مكتبة الحياة، بيروت.

٨٠- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لأحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبي العباس ابن أبي أصيبعة، تحقيق أوجست مُلر، ط. ١٢٩٩هـ، القاهرة.

٨١- **غريب الحديث**، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق د. محمد عبدالمعيد خان، ط. ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

٨٢- **الفتاوى الكبرى**، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية- لبنان.

٨٣- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لأحمد بن علي ابن حجر، أبي الفضل العسقلاني، تحقيق (عبد العزيز ابن باز- محب الدين الخطيب- محمد فؤاد عبد الباقي)، ط. ١٣٧٩هـ المكتبة السلفية.

٨٤- **الفروق [المسمى بـأنوار البروق في أنواء الفروق]**، لشهاب الدين القرافي: أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي، وبهامشه تهذيب الفروق، والقواعد السنية، ط. ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- السعودية.

٨٥- **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، ط. مطبعة النهضة نهج الجزيرة- تونس.

٨٦- **الفوائد والأخبار والحكايات عن الشافعي وحاتم الأصم ومعروف الكرخي وغيرهم**، للحسن بن الحسين بن حمكان، أبي علي الهمذاني، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري، ط. ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار البشائر الإسلامية. [ضمن سلسلة الأجزاء والكتب الحديثية (١٧)].

٨٧- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، ط. ٢، (١٣٩١ هـ- ١٩٧٢ م)، دار المعرفة، بيروت- لبنان.

٨٨- **القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة**، د. محمد مصطفى الزحيلي، ط. ١، ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦م، دار الفكر - دمشق.

٨٩- **القواعد في الفقه الإسلامي**، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، ط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع [مصورة عن مكتبة الخانجي ط. ١، ١٣٥٢هـ- ١٩٣٣م].

٩٠- **الكامل في ضعفاء الرجال**، لأبي أحمد ابن عدي الجرجاني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وعبد الفتاح أبو سنة، ط. ١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، لبنان.

٩١- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، حاجي خليفة، تحقيق محمد شرف الدين يالتقايا، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

٩٢- **لسان العرب**، لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، ط. ١، دار صادر، بيروت.

٩٣- **مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي**، لأحمد بن محمد الأمين بن أحمد الجكني الشنقيطي، ط. ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

٩٤- **المجموع شرح المهذب للشيرازي**، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، حققه وعلق عليه وأكمله محمد نجيب المطيعي، ط. مكتبة الإرشاد، جدة- السعودية.

٩٥- **مجموع فتاوى ابن تيمية**، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط. ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.

٩٦- **مجموع فتاوى العلامة عبدالعزيز ابن باز**، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

٩٧- **مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين**، تحقيق فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، ط. ١٤١٣هـ دار الوطن- دار الثريا.

٩٨- **المحصول في أصول الفقه**، لأبي بكر ابن العربي، المعافري المالكي، تحقيق حسين علي اليدري، ط. ١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، دار البيارق، الأردن، ولبنان.

٩٩- **مختار الصحاح**، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، ط. ١٩٨٦هـ مكتبة لبنان، بيروت.

١٠٠- **المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية**، علي جمعة محمد عبد الوهاب، ط. ٢، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، دار السلام، القاهرة.

١٠١- **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، لعبد القادر ابن بدران الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط. ٢، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠٢- **مدى فاعلية طريقة الاستقصاء الموجه في تدريس البنية العلمية في مادة العلوم على التحصيل الدراسي لتلميذات الصف الثاني المتوسط بجدة**، إحسان محمد عبد الله غفوري، رسالة ماجستير، ١٤١٣هـ، [مصورة من أصل الرسالة]، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

١٠٣- **المستقصى في أمثال العرب**، لجار الله محمود عمر الزمخشري، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ط. ١٣٨١هـ-١٩٦٢م، دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن - الهند.

١٠٤- **معالم السنن [وهو شرح سنن الإمام أبي داود]**، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، تحقيق محمد راغب الطباخ، ط. ١، ١٣٥١ هـ- ١٩٣٢م، المطبعة العلمية- حلب.

١٠٥- **معجم التعريفات**، لعلي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي. ط. دار الفضيلة- (القاهرة- دبي).

١٠٦- **المعجم الوسيط**، لإبراهيم مصطفى- أحمد الزيات- حامد عبد القادر- محمد النجار، تحقيق مجمع اللغة العربية، ط. دار الدعوة.

١٠٧- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد ابن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط. ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٠٨- **معيار العلم**، لأبي حامد الغزَّالي، ط. ٢، ١٣٤٦ هـ- ١٩٢٧ م، المطبعة العربية- مصر.

١٠٩- **مفاتيح الغيب**، أبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، فخر الدِّين الرازي، ط. ٣، ١٤٢٠هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

١١٠- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق عبدالرحمن بن حسن بن قائد، ط. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

١١١- **مفهوم التَّأصيل العلمي وتطبيقاته**، أبحاث حلقة النقاش العلمية الأولى لمركز التبيان، ط. مركز التبيان للاستشارات.

١١٢- **مفهوم العالمية**، لفريد الأنصاري، ط. ٢، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، دار السلام للطباعة والنشر، (القاهرة، الإسكندرية).

١١٣- **مقدمة ابن خلدون**، لولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط. ١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، دار البلخي، ومكتبة الهداية- دمشق.

١١٤- **المنثور في القواعد**، بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق د. تيسير فائق أحمد محمود، طبعة وزارة الأوقاف الكويتية.

١١٥- **المنخول من تعليقات الأصول**، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، تحقيق محمد حسن هيتو، ط. دار الفكر.

١١٦- **المنطق**، لابن سينا، نسخة إلكترونية.

١١٧- **منظومة أصول الفقه وقواعده**، لمحمد بن صالح العثيمين، ط. ٢، ١٤٣٠هـ دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.

١١٨- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط. ١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١١٩- **المهذب في فقه الإمام الشافعي**، تحقيق د. محمد الزحيلي،، ط. ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م. (دار القلم- الدار الشامية).

١٢٠- **الموازنة بين أبي تمام والبحتري**، لأبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الآمدي البصري، ط. ١، ١٢٨٧هـ مطبعة الجوائب بالأستانة العلية- تركيا.

١٢١- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، لأحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين المقريزي، ط. ١، ١٤١٨هـ دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٢- **الموافقات**، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، ط. ١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، دار ابن عفان- السعودية.

١٢٣- **موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين**، اعتنى بها المحامي علي الرضا الحسيني، ط. ١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، دار النوادر، سوريا.

١٢٤- **مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة**، ط. ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، دار الجيل- بيروت.

١٢٥- **نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء**، لمحمد الروكي، ط. ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإسلامية بالرباط.

١٢٦- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس، ط. ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م، دار صادر، بيروت.

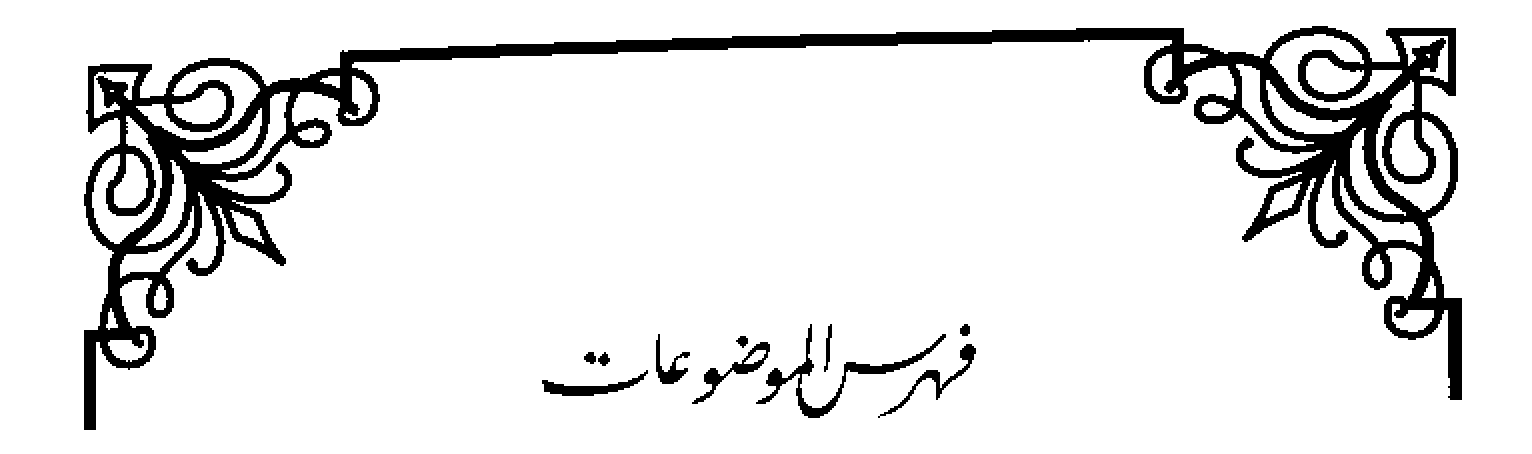
١٢٧- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، ط. المكتبة الإسلامية.

١٢٨- **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، لأحمد بابا التنبكتي، تحقيق د. عبدالحميد عبدالله الهرامة، ط. ٢، ٢٠٠٠م، دار الكاتب، طرابلس- ليبيا.

١٢٩- **هيئة الناسك في أن القبض في الصلاة هو مذهب الإمام مالك**، لمحمد المكي ابن عزوز، تحقيق د. نفل بن مطلق الحارثي، ط. ١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، دار طيبة- الرياض.

١٣٠- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط. ١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، إحياء التراث الإسلامي، بيروت.

١٣١- وفيات الأعيان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، ط. دار صادر، بيروت- لبنان.



فهرس الموضوعات

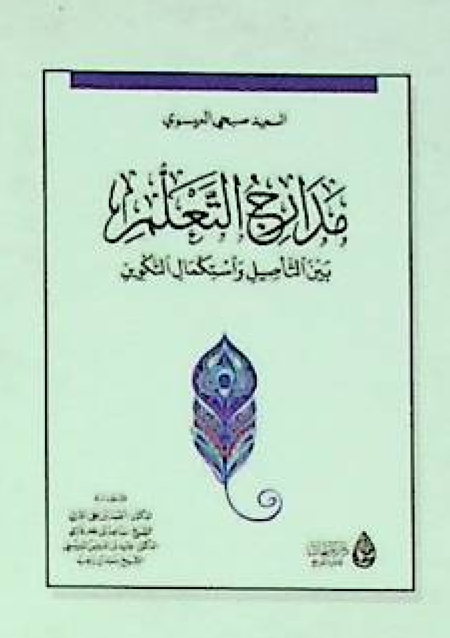
الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع — رقم الصفحة

الموضوع		**رقم الصفحة**





مدارج التعلم

بين التأصيل واستكمال التكوين

هذا الكتاب

كتاب يعالج إشكالية بدايات التعلم على مستوى تقعيد الأوليات والخطة الترتيبية للطالب؛ فقد أودع فيه المؤلف تجربته المسموعة والمشاهدة والمقروءة خلال رحلة طلبه للعلم؛ ليلم شعث الأصول والقواعد التي تسهم في تأصيل الطلب وتكوين طالب العلم؛ حيث أتى على معظمها من خلال مراقبته للعوائق والعقبات التي تواجه طلبة العلم باحثًا لها عن حلول من أجل الوصول إلى ما قرره أهل العلم في بيان التأصيل العلمي في التلقي.

فالكتاب - بحق - يقدم إفادةً تصحيحية، وعلاجًا لبعض إشكاليات الطلب، مثل موضوع: اكتفاء الطالب بالمرحلة التأصيلية دون استكمال التكوين، أو بهما دون نقلة العالمية، (البحث العلمي).

وكذلك موضوع التدرج التحصيلي وما شابه من فكرٍ خاطئ؛ كإلباس العجز ثوب الحكمة والأناة، وكذلك قضية صناعة الذهنية العلمية للطالب وبعض تطبيقاتها على الطالب، ومحاولة معالجة أمر المهارات الذهنية الواجب اكتسابها وسبل تنميتها.



ردمك: ٧-١٥-٨١٨١-٦٠٣-٩٧٨
ISBN 978-603-8181-15-7
9 786038 181157



دار الميمان
DarAlMaiman

هاتف: +996 11 4627336
فاكس: +996 11 4612163
جوال: +996 566405291
موقعنا على الإنترنت: www.daralmaiman.com
البريد الإلكتروني: info@daralmaiman.com
تابعوا جديدنا على  DarAlMaiman

